الأمثال العربية

دراسة تاريخية تحليلية

تأليف

الدكتور عبد المجيد قطامش

أستاذ الدراسات الأدبية المساعد
بجامعة أم القرى

دار الفكر
دمشق - سورية

الأمثال العربية

دراسة تاريخية تحليلية

تأليف
الدكتور عبد المجيد قطامش
أستاذ الدراسات الأدبية المساعد
بجامعة أم القرى

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٧٧٣

الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م

سورية - **دمشق** - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - برقياً : فكر
س . ت ٢٧٥٤ هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

تقديم

الحمد لله الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، الذي اختصّه الله بجوامع الكَلِم ، وروائع الحِكَم ، وعلى آله وصحبه .

وبعد ، فإن المطَّلع على الدراسات الأدبية الحديثة ، على امتداد الوطن العربي ، يرى أن الشعر العربي ـ في مختلف عصوره ـ قد استأثر بمعظم هذه الدراسات .

ولا غَرْو ، فالشعر هو (ديوان العرب) ، وهو سجل دقيق لحياتهم في الجاهلية والإسلام ، بجميع صورها : السياسية والاجتماعية والاقتصادية . . ثم هو ـ بعد ذلك ـ وعاءُ للغة العربية مفرداتٍ وتراكيب ، ومرجع يُفزع إليه في معاني هذه المفردات والتراكيب .

ونظرتُ ـ بعد معايشة طويلة للأمثال العربية ـ فوجدتُ أن حظ هذه الأمثال من الدراسات الحديثة ضئيل جداً ، إذا قيس بنصيب الشعر منها ، على الرغم من أن للأمثال مكانتها السامية لدى كل الشعوب والأمم ، باعتبارها حكمتها ، وخلاصات تجاربها ، وثمرات العقول الكبيرة من أبنائها .

ومن ناحية أخرى وجدت في الأمثال دلالات واضحة على حياة الأمة العربية ، ولا سيما في العصر الجاهلي ، فهي تكشف عن طبيعة هذه الحياة ، وتُجَلِّي كثيرا من مظاهرها التي لم يهتم بها الشعر كثيرا ، وأعني بذلك صور الحياة المعاشية اليومية ، التي يزاولها الغني والفقير ، والرجل والمرأة ، من أعمال وحِرَف ، وما يتصل بهما من أدوات وآلات . .

ووجدت كذلك عناصر البلاغة العربية متوافرة في الأمثال بصورة قد لا توجد في الشعر القديم ، وهما أروع ما خلَّفه العقل العربي القديم من تراث لغوي وثقافي .

وبالجملة وجدتُ أن الأمثال تقف إلى جانب الشعر في الكشف عن حياة العرب في ذلك العهد البعيد ، وتخط معه صفحات من تاريخهم . كما أنها تقاسمه الإبانة عن مظاهر البلاغة العربية التي لا يوجد لها نظير في سائر اللغات .

ومن ثَمَّ رأيتُ أنه من الضروري أن تنهض دراسة لهذه الأمثال ، تتوسَّع في التأريخ لها وتحليلها ، واستنباط حياة العرب وتاريخها وحكمتها وفلسفتها في الحياة منها ، وتُميط اللثام عن أسرار جمالها ، وأسباب بقائها وتغلغلها في الأزمنة المتطاولة ، والأمكنة المتفرقة ، وبذلك تتم لنا صورة متكاملة عن هذه الأمة المجيدة ، التي شاء الله تعالى لها ـ بعد ظهور الإسلام ـ أن تنهض بأعظم الرسالات في تاريخ البشرية ، وشاء الله تعالى للغتها أن تكون أشرف اللغات ، ولحكمتها أن تكون أعظم الحِكَم ، وأخيرا أن تكون لغةَ القرآن الكريم . وهذا وحده يكفيها شرفاً وفخراً .

ولا يسعني أن أنهي هذا التقديم قبل أن أشكر ثلاثة من

أساتذتي ، أفادت منهم هذه الدراسة فوائد جليلة ، وهم : الأستاذ الدكتور شوقي ضيف ، الذي كان له فضل الإشراف عليها ، وتوجيهها هذه الوجهة ، وتسديد خطتها ومنهجها ، والأستاذ عمر الدسوقي ، والأستاذ الدكتور أحمد الحوفي ـ وكان لهما فضل لا ينكر في مناقشتها ونقدها ـ رحمهما الله ، وجزاهما عني خير الجزاء .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه : ﴿ **وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ .

مكة المكرمة في ١٣ من ذي الحجة ١٤٠٦ هـ

دكتور

عبد المجيد قطامش

تمهيد

* المثل : معناه - ضربه - مضربه ومورده .
* الحكمة : معناها - الفرق بينها وبين المثل .
* أقوال العرب وكلماتهم السائرة ، والفرق بينها وبين الأمثال .
* أقسام المثل العربي .

(١)
المثل
تعريفه ـ ضربه ـ مضربه ومورده

يدل الأصل الثلاثي (مثل) على معنى الشَّبَه والنظير ، ويمكن إرجاع كل الأبنية التي أخذت من هذا الأصل إلى هذا المعنى[١] .

أما (المَثَلُ) في الاصطلاح الأدبي ، فهو ذلك الفن من الكلام ، الذي يتميز بخصائص ومقومات ، تجعله جنساً من الأجناس الأدبية قائماً بذاته ، وقسيماً للشعر والخطابة والقصة والمقالة والرسالة والمقامة . . .

وقد عني علماء البلاغة واللغة ، منذ زمن مبكر ، بتعريف (المثل) الأدبي وتحديد خصائصه ومقوماته[٢] .

ويمكننا بعد استقراء هذه التعريفات أن نقول في تعريفه : « المثل قول موجز سائر ، صائب المعنى ، تشبه به حالة حادثة بحالة سالفة » وسوف نفصل القول في هذا التعريف عند الحديث عن خصائص المثل إن شاء الله .

---

(١) انظر : مقاييس اللغة ، واللسان ، وأساس البلاغة (مثل) .

(٢) انظر : مقدمات (جمهرة الأمثال) لأبي هلال العسكري ، و « مجمع الأمثال » للميداني ، و « المستقصى في الأمثال » للزمخشري ، و « المزهر » للسيوطي ١/٤٨٦ ، ومفردات الراغب (مثل) و « المثل السائر » لابن الأثير ١/٦٢ ، و «الفلك الدائر على المثل السائر» لابن أبي الحديد ٤ / ٥٣ ، و « كشاف اصطلاحات الفنون» ١٣٤ .

أما (ضَرْب المثل) فيراد به إطلاقه واستعماله في الحالات المتجددة ، التي تشبه الحالة الأولى .

وقد اختلف العلماء اختلافاً واسعاً في الأصل الحِسِّي الذي أخذ منه لفظ « ضَرْب » المثل ، فقيل : إنه مأخوذ من الضرب في الأرض ، وهو الإيغال فيها ، والإبعاد في أقاصيها ، ومنه سمي المضارب مضارباً[1] . وقيل : إنه مأخوذ من ضرب الخِبَاء ، وهو نصبه وإقامة عمَده ، وإثبات طنبه ، ويكون المعنى على هذا : نصب الأمثال للناس بالشهرة ، لتستدل عليها خواطرهم ، كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم[2] . وقيل : إنه مأخوذ من ضرب الموعد ، أي بيانه وتحديده[3] . وقيل : مأخوذ من ضرب الدراهم وهو صوغها بالمطارق ، وذلك أن ضرب الأمثال يؤثر في النفوس كما تؤثر المطارق في الدراهم[4] . وقيل : بل مأخوذ من الضَّرب والضَّريب ، بمعنى المِثْل والنظير ، لأنه يَجعل الأول مثل الثاني[5] . وقيل : إنه من ضرب الخاتَم ونحوه، وهو صنعه، لأن التطبيق واقع بين المثل وبين مضربه، كما في الخاتَم على الطابع[6] . وقيل : إنه من ضرب اللَّبِن ، أي ، صنعه واعتماده[7] . أو من ضرب الطين على الجدار[8] . وقيل : مأخوذ من الضرب بمعنى التثبيت ، كقوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيهِمُ

---

(1) مقدمة (جمهرة الأمثال) وتلخيص البيان للرضي ١٧٨ .

(2) تلخيص البيان ١٧٨ .

(3) مقدمة « مستقصى الأمثال » .

(4) تاج العروس ، ومفردات الراغب (ضرب) .

(5) اللسان والتاج (ضرب) .

(6) التاج (ضرب) والكشاف ١/ ٨٥ .

(7) الكشاف ١/ ٨٥ .

(8) التاج (ضرب) .

الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ ﴾[1] أي أُثبتت ، وكقول العرب في أمثالهم : « ضَـرْبَ أخماسٍ لأسداس » ويكون معنى « ضرب المثل » على هذا وضعه في موضعه ، وإثباته حيث يصلح له[2] » .

وقد أحسن الراغب الأصفهاني صنعاً حينما عَلَّل اختلاف العلماء في معنى « الضرب » تعليلاً مقبولاً ،ورد أسباب هذا الاختلاف إلى طبيعة الشيء المضروب فقال : « الضرب : إيقاع شيء على شيء ، وبتصوُّر اختلاف الضرب خُولف بين تفاسيره ، كضرب الشيء باليد والعصا والسيف ونحوها ، وضرب الأرض بالمطر ، وضرب الدرهم اعتباراً بضربه بالمِطْرقة ، وقيل له : الطَّبْع اعتباراً بتأثير السَّكة فيه ، وبذلك شبهت السجيَّة فقيل لها : الضريبة والطبيعة . والضرب في الأرض : الذهاب فيها ، وهو ضربها بالأرجل ، وضَرْب الفحل الناقَةَ تشبيهاً بالضرب بالمِطْرقة ، وضرب الخيمة : ضرب أوتادها بالمطرقة ، وتشبيهاً بضرب الخيمة قال اللّه تعالى : ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ**﴾[3] أي التحفتهم الذلة التحاف الخيمة لمن ضربت عليه ، ومنه استعير ﴿**فضَرَبْنا على آذانِهِمْ في الكَهْفِ**﴾[4] ، وضَرْب اللَّبن بعضه ببعض بالخلط ، وطرب المثل من ضرب الدراهم ، وهو ذكر شيء أثره يظهر في غيره ، قال الله تعالى : ﴿**ضَرَبَ اللهُ مثلاً عَبْداً مَمْلُوكاً**﴾[5] » .

وعلى أية حال فإن هذا الخلاف خلاف لفظي ، كما يبدو ، لا

---

(١) سورة البقرة ٦١ .

(٢) فصل المقال للبكري ٩٥ .

(٣) سورة آل عمران ١١٢ .

(٤) سورة الكهف ١٠ .

(٥) مفردات الراغب « ضرب » ، والآية من سورة النحل ٧٥ .

يؤثر في المعنى الذي اخترناه لضرب المثل، وهو التمثّل به، واستعماله في الحالات الحادثة التي تشبه الحالة التي أُطلق فيها أولاً .

ويراد بـ (مورد المثل) الحالة التي قيل فيها ابتداءً ، ويراد بـ (مضربه) الحالات والمواقف المتجددة التي يمكن أن يستعمل فيها المثل ، لما بين الحالتين من التشابه .

ويظهر لي أن هذين الاصطلاحين حديثا العهد في اللغة ، إذ لم أعثر على أيٍّ منهما في المعاجم اللغوية ، ولا في كتب الأمثال المتقدمة ، ففي هذه الكتب نرى العلماء يقولون عن مورد المثل : « أصل هذا المثل كذا » ويقولون عن مضربه : « ويضرب في كذا » .

ولعلي لا أكون بعيداً عن الصواب إذا قلت : إن أول من استعمل هذين الاصطلاحين هو الإمام الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، وذلك في تعريفه للمثل في مقدمة كتابه « مستقصى الأمثال » حيث يقول : « المثل في لغة العرب بمعنى المِثْل كالشَّبَه والشِّبْه ، ونظيرهما البَدَل والبِدْل ، والنَّكَل والنِّكْل ، للشجاع الذي ينكل بأعدائه ، ثم سميت هذه الجملة من القول المقتضبة من وُصُلها ، أو المرسلة بذاتها المتسمة بالقبول ، المشهورة بالتداول مثلاً ، لأن المحاضر بها يَجعل موردها مثلاً ونظيراً لمضربها » . وكذلك استعمله في « كشافه » حيث يقول : « ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل »[1] .

ومن القضايا الشائعة لدى كثير من الناس أنه لا بد لكل مثل من مورد ، ويقصدون بالمورد حادثة معينة يرتبط بها المثل . والذي أراه أن هذه القضية ، على هذه الصورة ، غير صحيحة ، وغير مسلم بها ،

---

(١) ص ١/ ٥٥ .

فهناك من الأمثال الكثير الذي لا يرتبط بأية حادثة ، ومن هذه الأمثالُ التي رويت عن رسول الله ﷺ ، والأمثال التي أخذت عن أبيات الشعر ، وما أكثرها ، والأمثال التي أصلها حِكَم ، ثم سارت وشاعت ، وأمثال (أفعل من) فكل هذه الأنواع لا ترتبط بحوادث معينة ، وإذاً ، فالقول بأن كل مثل لا بد أن يكون مرتبطاً بحادثة قديمة قول باطل ، والصواب أن يقال : إن المقصود بمورد المثل إطلاقه أولاً في موقفٍ ما ، سواء أكان هذا الإطلاق في إطار حادثة بذاتها أم لم يكن . ولو رجعنا إلى تعريفات المثل التي سبقت الإشارة إليها لم نجد واحداً منها اشترط وجود الحادثة ، وكذلك لو رجعنا إلى كتب الأمثال لوجدنا الجمَّ الغفير من الأمثال لم يُذكر معه أصل من تلك الحوادث والأقاصيص .

(٢)

الحكمة

معناها ، العلاقة بينها وبين المثل

لكي ندرك الفرق بين كل من مدلول المثل ومدلول الحكمة ، والعلاقة بينهما ، علينا أن نحرِّر أولاً معنى كلمة الحكمة في اللغة ، وفي الاصطلاح الأدبي ، بعد أن حررنا معنى « المثل » فيهما .

أما الحكمة في اللغة فإنها تطلق على عدة معان ، أشهرها ثلاثة هي :

١ ـ العِلْم : إذ يقول العرب : حَكُم فلان حُكْماً وحِكْمة ، إذا صار حكيماً ، أي عالماً وصاحبَ حكمة ، وعلى هذا المعنى جاء قول النَّمِر بن تَوْلب[1] :

وأبغِضْ بغيضَكَ بغضاً رُوَيْداً إذا أنتَ حاولتَ أن تَحْكُمَا

أي إذا حاولت أن تكون حكيماً ، ذا علم وبَصَرٍ ، كما جاء عليه قول النابغة الذبياني يخاطب النعمان[2] :

واحْكُمْ كحكم فتاةِ الحَيِّ إذْ نَظَرَتْ إلى حمامٍ سِرَاعٍ واردِ الثَّمَدِ

أي كن حكيماً كهذه الفتاة ، وأَصِبْ كما أصابت حين نظرتْ إلى

(١) اللسان (حكم) .

(٢) نفسه (حكم) وشرح القصائد العشر للتبريزي ٤٠٢ .

الحمام، فأحصته ولم تخطىء عددَه[1].

٢ ـ الإتقان : إذ يقولـون : أحكم فلان عمله إحكـاماً ، إذا أتقنـه ، فهو مُحْكَم ، ويصـاغ من المـادة بهـذا المعنى صيغـة أخـرى ، هي قولهم : « حَكِيم » فَعِيل بمعنى مُفْعَل[2] وعليها جـاء قول الأعشى يصف القصيدة[3] :

وغَـريبـةٍ تـأتي الملوكَ حَكِيمَـةٍ قـد قلتُهـا ليقـالَ مَنْ ذا قـالَهَـا؟

٣ ـ المَنْع : فيقال : حَكَمْت السفيهَ ، وَحَكَّمْته ، وأَحْكَمْته ، أي منعته وأخذت على يديه ، ومن هذا المعنى قيل للحاكم : حاكم ، لأنه يمنع الظالم من الظلم ، وعليه جاء قول جرير[4] :

أَبَنِي حنيفـةَ أَحْكِمُـوا سفهـاءَكم إني أخـافُ عليكُمُ أن أَغْـضَبَـا

أي رُدُّوهم وكُفُّـوهم ، وامنعـوهم من التعـرض لي ، ومـن المعنى نفسـه أخـذت كلمـة (الحَكَمَـة) وهي مـا أحـاط بحَنَكي الفرس وعلى أنفه من اللجام والعِذَارَيْن ، وإنما سميت بهذا لأنهـا تمنعه من الجموح والنفار وغيرهما ، قال زهير[5] :

القـائدِ الخَيْـلَ منكـوبـاً دوَابِـرُهـا قد أُحْكِمَتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبقَا

أما « الحكمة » في الاصطلاح الأدبي فإن للعلمـاء في تعريفهـا ، وتحديد ماهيتها ، أقوالاً شتى ، تختلف ألفاظها ، ولكن مدلـولاتها

---

(١) اللسان (حكم) .
(٢) نفسه (حكم) .
(٣) اللسان (حكم) وديوانه ٢٧ .
(٤) اللسان (حكم) وديوانه ٤٧ (بيروت) .
(٥) اللسان (حكم) وديوانه ٤٩ .

يقترب بعضها من بعض اقتراباً شديداً[1] . ويرجع هذا الاختلاف ، فيما أرى ، إلى ورود الكلمة في اللغة لعدة معان .

ونستطيع نحن أن نقول بعد اطلاعنا على كثير من آراء العلماء في تعريف « الحكمة » : إن المراد بها تلك العبارة التجريدية التي تصيب المعنى الصحيح ، وتعبّر عن تجربة من تجارب الحياة ، أو خبرة من خبراتها ، ويكون هدفها عادة الموعظة والنصيحة .

والحكمة بهذا المعنى لا تصدر إلّا عن فئات خاصة من الناس هم أولئك الذين أوتوا قسطاً موفوراً من الذكاء ونفاذ البصيرة ، وفصاحة العبارة وبلاغتها ، كالأنبياء والحكماء والفلاسفة والشعراء وغيرهم .

ومما تقدم من تعريف كل من المثل والحكمة نستطيع أن نلمح عدة فروق بينهما ، نلخصها فيما يلي :

١ ـ أن المثل أساسه التشبيه ، أعني تشبيه مضربه بمورده ، وأما الحكمة فعمادها إصابة المعنى ، ولا يراعى التشبيه فيها إلا حيث تصبح مثلاً . وهذا الفرق يمكن أن نستنبطه من معنى كل من المثل والحكمة ، لغوياً واصطلاحياً .

٢ ـ أن أسلوب المثل دائماً موجز ، عكس أسلوب الحكمة الذي قد يطول نسبياً .

٣ ـ أن الهدف من المثل الاحتجاج ، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ .

---

(١) انظر : اللسان ، ومفردات الراغب (حكم) ، وزهر الأكم في الأمثال والحكم لليوسي ، ورقة ٦ ظ ـ ٨ و ، وتفسير ابن كثير ١/٣٢٢ ، وتفسير القرطبي ٣/٣٣٠ عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة (٢٦٩) ﴿ **يُؤْتِي الحكمة من يَشاءُ ومَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً** ﴾ .

٤ ـ أن المثل يصدر عن جميع الناس ، بمختلف طبقاتهم الفكرية والاجتماعية ، أما الحكمة فلا تصدر إلا عن حكيم أو فيلسوف ، أو أضرابهما .

ولكن ألا توجد علاقةٌ ما بين المثل والحكمة ؟

في الحق أن المثل والحكمة قد يلتقيان ، وذلك حين تحسن الحكمة ، وتكون موجزة العبارة ، فيتهيأ لها بذلك أن تسير بين الناس ، وتتداولها ألسنتهم وأقلامهم ، فتدخل حظيرة الأمثال ، وفي هذه القضية يقول أبو هلال العسكري : « ثم جُعل كل حكمة سائرة مثلاً . وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أن يُتمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلاً »[1] . وإذاً فالحكمة نوعان : نوع يسير ويفشو فيصبح مثلاً ، ونوع لا يتهيأ له ذلك فلا يسمى مثلاً .

وقد حفلت كتب الأمثال بكثير من النوع الأول ، كقولهم : « السر أمانة ، العِدَة عطية ، أعذر مَنْ أنذر ، شاهدُ البُغْض اللحظ ، إذا رأيت الريحَ عاصفاً فتطامَنْ ، إن الكذوب قد يصدق ، مَقتل الرجل بين فَكَّيه ، رُبَّ قولٍ أشدّ من صَوْل ، معاداةُ العاقل خير من مصادقة الأحمق ، المعاذِرُ مَكاذب ، المعذرة طَرَف من البخل ، الصمتُ حُكْم وقليل فاعله ، أنْ تَرِد الماءَ بماء أوفق » .

فهذه العبارات وأمثالها حِكَم في أصلها ، أُريد بها النصح والإرشاد ، ولكنها فشت بين الناس ، ولاكتها ألسنتهم ، وجرت على أقلامهم لما تتضمنه من إصابة المعنى ، وروعة التعبير ، فصارت أمثالاً .

---

(١) مقدمة « جمهرة الأمثال » تحقيقي ، بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

وفيما عدا هذا النوع من الحكم يفترق كل من المثـل والحكمة ، ويـذهب كـل منهمـا في طـريق ، فهنـاك كثيـر من الأمثـال لا يمت إلى الحكم بسبب ، كقـولهم « رَجع بخفَّيْ حُنَين ، الصيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَن ، بُؤْ بشِسْع نعل كُلَيْب ، بَطْنِي فعَطِّري ، بيـدي لا بيد عمـرو، دَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشَم ، دُهْدُرَّيْن سَعْدُ القَيْن » . وهنـاك كثيـر من الحكم ليست من الأمثال في شيء ، وهي لا تحصى عداً ، ومنهـا الحكم الإنشائيـة التي تشتمل على أوامر ونواه ، يُقصد بها صلاح الدنيا والآخرة .

وبهـذا التفصيل الـذي سقنا فيـه بعض الأمثلة ، وبهذا التحـديـد للعلاقة بين المثل والحكمة يتبين لنا بوضوح خطأ من ذهب إلى أن أدب الحكمـة أعمُّ من أدب الأمثـال ، وأن كـل مثـل حكمـة ، وليست كـل حكمة مثلاً[1] .

(١) انظر : (الأمثال في النثر العربي القديم) للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٨ .

(٣)
أقوال العرب وكلماتهم السائرة
والفرق بينها وبين الأمثال

تمتاز اللغة العربية بوفرة الأقوال والتعبيرات الاصطلاحية التي تقال في بعض المناسبات المتكررة ، كالدعاء للإنسان أو عليه ، والتحية في المقامات والأحوال المختلفة ، وتسبيح الله وذكره ، وغير ذلك من المناسبات .

وهذه الأقوال كانت تدور في محادثات العرب ومحاوراتهم وعباداتهم بكثرة كاثرة ، حتى سارت في كلامهم مسير الأمثال .

ومن أمثلتها قولهم في الدعاء لمن يتزوج : « بالرِّفاء والبنين » ، وقولهم للقادم من سفر : قدوماً مباركاً ، وقولهم للقادم من الحج : « حجًّا مبروراً » ، وقولهم : « أقر الله عينيك » و « بَلَغ بك الله أكلأ العمر» و « على بَدْء الخير واليُمْن » ، وقولهم في الدعاء على الإنسان : « لعنك الله ، وأخزاك الله» .

وقولهم في التحية : « أهلاً ومرحباً » و «لَبَّيك ، وَسَعْدَيْك ، وَحَنَانَيْك » « وَحَيَّاك اللَّه ، وَبَيَّاك » .

وقولهم : « عِيل صَبْره ، وَهَلُمَّ جَرًّا » ، و « للَّه دَرُّه »

وقولهم : « سبحان اللَّه وبحمده ، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلَّا باللَّه ، ولَبَّيْك اللهم لبيك »

وواضح أن هذه الأقوال والتعبيرات ليست من قبيل الأمثال ، وإنما هي نوع من الكلام قائم بذاته ، لأن المثل أساسه تشبيه حالة بحالة ، وهذه الأقوال لا تتضمن أي تشبيه .

وبتصفحنا للمعاجم اللغوية وجدنا أنها تفرق بين أقوال العرب وأمثالهم ، فهي تصف تلك الأقوال بقولها : « ومن أقوالهم كذا » أو « والعرب تقول كذا » ، بينما تصرح بصفة المَثَلِيَّة بالنسبة للأمثال .

أما كتب الأمثال فإن بعضها قد ساق كثيراً منها مساق الأمثال ، ولم ينبه إلى الفرق بينهما . وربما كان أقدمُ من خلط بين هذين النوعين من الكلام أبا عبيد القاسم بن سلام الذي ذكر الكثير من أدعية العرب في كتابه ، وكان يصدِّرها أحياناً بقوله : « ومن دعائهم كذا » أو « ومن أمثالهم في الدعاء كذا»[1] .

ثم تتابعت كتب الأمثال من بعده تحتذي حذوه ، وتذكر أقوال العرب خلال أمثالها ، دون تفرقة بينهما ، وهذا الأمر يقتضينا أن نميز بين هذين الصنفين من الكلام ، وأن نحدّد العلاقة بينهما حتى تكون على بَيِّنَة من كل منهما ، وحتى لا نخلط بينهما كما خَلط مدوِّنو الأمثال .

والرأي عندي أن المثل أساسه التشبيه ، فإن استوفت العبارة السائرة هذا الشرط ، إلى جانب شروط المثل الأخرى التي ذكرناها آنفاً ، كانت مثلاً ، وإن فقدت شرط التشبيه لم تكن مثلاً ، وإنما تكون عبارة جارية مجرى المثل ، لاستحسانها وإيجازها وكثرة دورانها على الألسنة ، ونحن إذا قسنا أقوال العرب التي تكثر في أحاديثهم اليومية

---

(١) كتاب الأمثال : ٦٩ .

ومحاوراتهم ، وأدعيتهم ، وتحياتهم ، في المناسبات الدينية وغيرها ، بهذا المقياس وجدناها لا تشتمل على تشبيه البتَّةَ ، ومن ثَمَّ فهي ليست من الأمثال في شيء ، وإن كانت تجري مَجراها .

ولقد تنبه إلى هذا الفرق نور الدين أبو الحسن علي بن محمد الأشموني (نحو ٩٠٠هـ) فقال في باب « تعدي الفعل ولزومه » عند الحديث عن حذف عامل المفعول به : « وما كان مثلاً ، نحو : الكلابَ على البقر ، أي أرسل الكلاب ، أو جَرَى مَجرى المثل ، نحو (انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ)[1] . ثم وَضَّح محمد بن علي الصبان (١٢٠٦هـ) الفرق بينهما بقوله : « الفرق بينه وبين المثل ، كما أفاده الدَّنَوْشَري ، أن المثل مستعمل في غير ما وضع له للمشابهة بين ما وضع له وغيره على طريق الاستعارة التمثيلية ، وما أُجْرِيَ مجراه مستعملٌ فيما وضع له ، لكن أشبه المثل في كثرة الاستعمال وحسن الاختصار ، فأُعطِيَ حكمه في عدم التغير»[2] .

وكما امتازت اللغة العربية بتلك الأقوال والعبارات التي سارت مَسير الأمثال امتازت كذلك بنوع من الكلام بديع ، سار هذا السير ، وشاع ذلك الشيوع ، وأعني به المكنَّى والمبنَّى والمثنَّى من الأسماء .

فالمكنَّى مثل قولهم : (أبو الحارث) ، و (أبو جَعْدَة) للذئب ، و (أبو الحُصَيْن) للثعلب ، و (أبو زَنَّة) للقرد ، و (أبو زيد) للكِبَر ، و (أبو عَمْرة) للجوع ، و (أمُّ القُرَى) لمكة المكرمة ، و (أم الندامة) للعجلة ، و (أم الرأس) للهامة ، و (أم حَنِين) للخمر ، و (أم فَرْوة) للنعجة .

---

(١) شرح الأشموني لألفية ابن مالك ٢/ ٦٢ (المطبعة الشرقية) .

(٢) حاشية الصبان على شرح الأشموني ٢/ ٦٢ .

والمُبَنَّى مثل قولهم : (ابنُ الأيام) للرجل المجرِّب ، و (ابن المُلِمَّة) للرجل الذي يقوم بها ، و (ابن أقوال) للرجل المقتدِر على الكلام ، و (ابن يَمٍّ) للخليج من خلجان البحر ، و (ابن عِرْس) و (ابن آوى) لهذين السَّبُعَيْن المعروفين ، و (بنت الفكر) للرأي ، و (بنت الشَّفة) للكلمة ، و (بنت المنيَّة) للحُمَّى .

والمُثَنَّى مثل قولهم : (الجديدان) لليل والنهار ، و (القمران) للشمس والقمر ،و (المَشْرِقَان) للمشرق والمغرب ، و (الأسودان) للتمر والماء .

هذه الأنواع الثلاثة من الأسماء كثيرة جداً في الفصحى ، حتى لقد أُلِّفَتْ فيها كتب قائمة بذاتها ، فممن ألف فيها أبو العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحول المتوفى (بعد ٢٥٠هـ)[١] ، وابن السكّيت المتوفى (٢٢٤هـ)[٢] ، وابن الأثير المحدِّث ، المبارك بن محمد المتوفى (٦٠٦هـ)[٣]، وأبو الطيب اللغوي المتوفى (٣٥١هـ)[٤] والمحبِّي المتوفى (١١١١هـ)[٥] .

وممن كتب فيها فصولاً وأبواباً ابن السكّيت[٦] ، وابن سيده اللغوي المتوفى (٤٥٨هـ)[٧] ، وحمزة الأصفهاني المتوفى

---

(١) المزهر ١/٥٠٦ .
(٢) المرجع السابق ١/٥٠٦ .
(٣) كتابه « المرصع » طبع في ديمار سنة ١٨٩٦ م بعناية سييولد الألماني .
(٤) كتابه « المثنى » طبع في دمشق ، بتحقيق عز الدين التنوخي سنة ١٩٦٠ م .
(٥) كتابه « جني الجنتين » طبع في دمشق عام ١٣٤٨ هـ .
(٦) إصلاح المنطق ٢٩٤ .
(٧) المخصص ١٣/١٦٩ ـ ٢٢٣ .

(نحو ٣٥١هـ)[١]، وجلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١هـ)[٢].

وقد جرت هذه الكلمات في كلام العرب مجرى الأمثال، وشاعت في لغتهم شيوعها، وهذه الصفة وحدها هي التي تجمعها بالأمثال، وفيما عداها لا تمت إليها بأية صلة، لأنها ليست جملاً، ولا تتضمن تشبيهاً، وهما من أركان المثل.

ولا نجد لهذه الكلمات في كتب الأمثال ذكراً، اللهُمَّ إلا في كتاب «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري، الذي تسامح فساق بعض المكنّى والمبنيّ في الباب الأول تحت عنوان «ابن الأيام وما يجري في بابه»[٣].

وواضح أن هناك فرقاً بيِّناً بين الأمثال وبين أقوال العرب وكلماتهم السائرة، ومن ثَمَّ فلا ينبغي أن يلتبس علينا الأمر فنخلط بين الأمثال وبين غيرها من أنواع الكلام، ونقع فيما وقع فيه بعض الباحثين المعاصرين إذْ عَدَّ أقوال العرب وكلماتهم السائرة أمثالاً، حيث قال، وهو يتحدث عن إيجاز المثل العربي: «فإذا تأملنا الأمثال العربية بصفة عامة وجدنا ظاهرة لا نظير لها في الأمثال السامية الأخرى، هذا الإيجاز البالغ الذي يصل أحياناً إلى أن يكون المثل لفظاً واحداً، أو صفة وموصوفاً، أو مضافاً ومضافاً إليه، أو جاراً ومجروراً»[٤].

ثم مَثَّل لذلك بالألفاظ الآتية:

---

(١) الدرة الفاخرة (تحقيقي) الباب الثلاثون ٢/٤٧١ ـ ٥٥٢.

(٢) المزهر ١/٥٠٦ ـ ٥٢٤.

(٣) ١/٢٥ ـ ٤٨.

(٤) الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى للدكتور عبد المجيد عابدين ١٠٥ ـ ١٠٧.

أ ـ لفظ (إيهَا) بمعنى (نَعَمْ) .

ب ـ بعض المضاف ، كغراب نوح ، وذئب يوسف ، وعصا موسى ، وخاتم سليمان ، وبُرْد مُحَارِب ، وعطر مَنْشَم ، ومواعيد عُرقوب ، وجزاء سِنِمَّار .

جـ ـ ألفاظ المكنَّى والمبنَّى والمثنَّى ، مثل : (أبو الحارِث) كنية الأسد ، و (أبو حُبَاحب) كنية النار التي لا يُنتفع بها ، و (أم الهِنْبر) كنية الأتَان ، و (أم فَرْوة) كنية النعجة ، و (ابن جَلاَ) لأول النهار ، و (طامر بن طامر) للبُرغوث ، و (ابن الأيام) للرجل المجرِّب ، و (بنت الشَّفة) للكلمة ، و (بنت الجَبَل) للصَّدَى .

و (الجديدان) لليل والنهار ، و (الأسودان) للتمر والماء ، و (القمران) للشمس والقمر .

ونحن ، كما أسلفنا القول ، لا نعد هذه الألفاظ أمثالاً ، لأنها تفقد أهم خصائص المثل ومقوماته ، فهي ليست جملاً مفيدة ، وهي لا تشتمل على تشبيه ، وهي ليست موجزة ، لأن الإيجاز إنما توصف به الجمل لا المفردات ، ونزيد على ما قلنا هناك إن حمزة الأصفهاني فَصَلَ كلمات المكنّى والمبنَّى والمثنَّى عن الأمثال في كتابه « الدرة الفاخرة » وميَّزها عنها ، حيث قال : « الباب الثلاثون في نوادر من الكلام ، جارية مجرى الأمثال ، جعلتها تماماً لأبواب الكتاب ، وقسمتها على ثلاثة فصول ، الفصل الأول في المكنَّى ، والفصل الثاني في المبنَّى ، والفصل الثالث في المثنَّى ، وعدد ما في هذا الباب خمسمائة كلمة وكَسْر »[1] .

---

(١) انظر : الدرة الفاخرة ٢/٤٧١ .

أما المضاف الذي عَدَّه الباحث من قبيل الأمثال ، وَمَثَّل له بغراب نوح ، وذئب يوسف ، ومواعيد عرقوب ، فليس أمثالاً ، وإنما هو مما يُضرب به المثل ، وَشَتَّان ما بين الأمرين ، فغراب نوح يضرب به المثل في الرسول الذي لا يعود ، أو يبطىء عن ذي الحاجة من غير إنجاح ، قال الجاحظ : « يقال في المثل ، فلان لا يرجع حتى يرجع غراب نوح »[1] ، وذئب يوسف يضرب مثلاً لمن يُرمى بذنب جناه غيره وهو بريء الساحة منه[2] ، ومواعيد عرقوب يضرب بها المثل في الكذب والخلف[3] .

فهذه المضافات ، إذاً ، ما هي إلا أشخاص أو أشياء ضَربت العرب بها أمثالها، كما ضربتها بقُسِّ بن ساعدة، وحاتم طيىء، وَكُلَيب وائل ، وَقَوْس حاجب ، وبُرْد محارِب ، وعصا الأعرج ، وغيرها .

---

(١) ثمار القلوب للثعالبي ٤٠ .

(٢) نفسه ٤٦ .

(٣) نفسه ١٣١ .

(٤)

أنواع المثل العربي

يمكن أن نقسم المثل العربي ثلاثة أقسام هي :

١ ـ **المثل الموجز** ، وهو الذي اخترنا في تعريفه آنفاً : « أنه القول السائر الموجز الذي يشتمل على معنى صائب ، وتشبه فيه حالة مضربه بحالة مورده »[١] .

وهذا النوع من الأمثال هو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق لفظ « المثل » وهو أيضاً الذي تتبَّعه مدونو الأمثال العربية ، وعنوا به فجمعوه وشرحوه ، وبينوا موارده ومضاربه .

ويدخل فيه الحِكَمُ الموجزة التي شاعت بين الناس ، وفشت في الاستعمال اللغوي ، حتى أصبحت أمثالاً يتداولها الناس في أحاديثهم وكتاباتهم ، كقولهم : (السر أمانة ، العِدَة عطية ، العَوْد أحمد ، النساء حبائل الشيطان ، الحرب غَشُوم) .

كما يدخل فيه الأمثال الشعرية ، أعني أبيات الحكمة ، أو أنصافها ، أو أجزاءها التي شاعت في الكلام حتى سارت ، وتمثل بها الناس في مختلف العصور والبيئات ، كقول مَعْن بن أوس[٢] :

---

(١) انظر : ص ١١ .

(٢) اللسان (سدد) .

أُعَلِّمه الـرِّمـايَـةَ كـلَّ يـومٍ فلمـا اشْتَـدَّ سـاعِـدُهُ رَمَـانِي

وقول الصِّمة بن عبد الله القُشَيري[1] :

تَمَتَّـعْ من شَمِيم عَـرَارِ نَـجْـدٍ فَمَـا بَعْـدَ الـعَشِيَّـةِ مِنْ عَـرَارِ

وقول لَبِيد[2] :

ألا كـلُّ شيءٍ ما خـلا اللَّهَ باطـلُ وكـلُّ نعيـمٍ لا محـالـةَ زائـلُ

وقول يزيد بن خَذَّاق[3] :

هَـوِّنْ عَلَيـكَ وَلاَ تُـولَـعْ بِـإشفـاقِ فـإنمـا مـالُنـا للوارثِ البـاقِي

وقول الشاعر[4] :

المستجيـرُ بعَـمْرٍو حينَ كُـرْبَتِـهِ كـالمستجيرِ من الـرَّمْضَـاءِ بَـالنَّـارِ

وقول النابغة الذُّبياني[5] :

ولستَ بِـمُسْتَبْقٍ أخـاً لا تَلُمُّـهُ على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ !

وقول الشاعر[6] :

يا بَارِيَ القَوْسِ بَرْياً ليس يُحْكِمُهُ لَا تَظْلِم القوسَ أَعْطِ القَوسَ بَارِيها

ويدخل في هذا النوع أيضـاً الأمثال التي على وزن « أفعـل من » والتي تـدل على المبالغـة في التشبيه ، كقـولهم : « أجـود من حـاتم ،

---

(١) اللسان (عرر) .

(٢) ديوانه ٢٥٦ .

(٣) وهـو من كلمـة يـرثي بهـا نفسـه ، الشعـر والشعـراء ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، والسمط ٧١٣ ، ٧١٤ وجمهرة الأمثال ٢ / ٣٥٩ .

(٤) الأغاني ٢٠ /١٣٢ ، واللسان (دعص) وفصل المقال ٣٠٠ ، وجمهرة الأمثال ٢ / ١٦٠ .

(٥) ديوانه ١٤ ، والأغاني ١١ /٥ (دار الكتب) وجمهرة الأمثال ١ /١٨٨ .

(٦) جمهرة الأمثال ١ /٧٧ ، والفاخر ٣٠٤.

أبخل من مادر ، أبلغ من سَحْبان ، أعيا من باقل ، أصدق من قطاة ، أكذب من مُسَيْلمة ، أجمع من ذَرَّة ، أسمع من فَرَس ، أطيش من فراشة» .

٢ ـ المثل القياسي : وهو ذلك السرد الوصفي أو القصصي الذي يستهدف توضيح فكرة ما ، أو البرهنة عليها عن طريق التشبيه أو التمثيل الذي يقوم على المقارنة والقياس ، وهو يتناول أحد أمرين : إما أن يصوِّر نموذجاً من السلوك الإنساني بقصد التأديب ، أو التمثيل والتوضيح ، وإما أن يجسِّد مبدأ يتعلق بملكوت الله تعالى ومخلوقاته ، وهو، على كل حال، كلام مُطنب إذا قورن بسابقه، وهو ليس تلخيصاً لقصة ، ولا إشارة إليها ، وليس اقتباساً ، وإنما هو قصة بأكملها ، أو صورة مجازية مبسوطة ، جاء بها الحكيم للإيضاح أو التأديب والتحذير[1] .

وهذا النوع من الأمثال يكاد يكون معدوماً في مدوّنات الأمثال العربية القديمة ، فإننا إذا تصفَّحنا هذه المدوّنات لا نكاد نعثر على مثل واحد منها . ولكننا نجده بكثرة في القرآن الكريم ، وفي كلام الرسول ﷺ ، وسيأتي الحديث عنه مفصَّلاً عندما نتحدث عن أمثال القرآن الكريم ، وأمثال الرسول ﷺ[2] .

ثم نَسَج حكماء الإسلام أمثالاً قياسية على منوال أمثال القرآن والسنة، فقد روي عن علي بن أبي طالب كرّم اللّه وجهه قوله: «مثل الدنيا كمثل الحَيَّة ، لَيِّن مَسُّها ، والسَّم الناقع في جوفها ، يَهوى إليها

---

(١) انظر : الأمثال في النثر العربي القديم للدكتور عبد المجيد عابدين ١٥٨ .
(٢) انظر : الفصل الثاني من الباب الأول .

الغِرُّ الجاهل ، ويَحذرها ذو اللب العاقل»[1] . وقولـه : « مثلُ الإنسـان الحَصِيف مثـلُ الجسم الصلب الكثيف ، يسخن بـطيئـاً ، وتبـرد تلك السخونة بأطول من ذلك الزمان »[2] .

وقـد جمع أبـو عبد الله محمـد بن علي الحكيم الترمـذي (نحـو ٣٢٠هـ) طائفة كبيرة من هذه الأمثـال ، منها « مثـل العالم مثـل النجوم التي يُقتدى بها ، والأعلام التي يُهتدى بهـا ، إذا تغيَّبت عنهم تحيَّروا ، وإذا تركوها ضلّوا »[3] . ومنها « مثل الناس والإمام كمثل الفسطاط ، لا يقـوم إلا بعمود ، ولا يقـوم العمود إلا بـالأوتاد ، فكلمـا نُزع وتـد ازداد العمود وَهناً »[4] .

٣ ـ المثـل الخُرافي ، وهـو تلك الكلمات المـوجزة السـائرة التي أجـراهـا العـرب على ألسنـة الحيـوان ، أو بنـوهـا على قصص خُـرافي نسجـوه حولـه[5] ، وجعلوه فيها يتحـدث ويفعل كمـا يتحـدث الإنسـان ويفعـل ، يقصدون بـذلـك التسليـة والفكـاهـة ، أو الحث على مكـارم

---

(١) نهج البلاغة ٢/٣٣٣ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ١٩٦٣ م) .
والسم الناقع : البالغ الثابت ، والغِر ـ بكسرالغين ـ غير المجرب .

(٢) سجـع الحمـام في حكم الإمـام ٣٧٣ (جمـع علي الجنـدي وآخـرين ـ القـاهـرة ١٩٦٧ م) والحصيف : المتمكن من نفسه ، المستحكم عقله .

(٣) الأمثال من الكتاب والسنة ٤٥ (تحقيق علي محمد البجـاوي ـ القاهـرة ١٩٧٥ م) والأعلام: جمع عَلَم ، وهو ما ينصب في الطريق يُهتدى به .

(٤) نفسه ٤٥ ، والفسطاط : الخيمة أو السرادق ، والوهن : الضعف .

(٥) الخرافة : الحـديث المستملح من الكذب ، ويقـول العرب في أمثـالهم : « حديث خـرافة » و « أمحل من حديث خرافة » ، ويـذكر العلمـاء في تفسير هـذين المثلين أن « خرافـة » كان رجـلاً من بني عذرة أو من جهينـة ، استهوتـه الجن ، فلبث فيهم حيناً ، ثم رجـع إلى قومـه فأخذ يحدثهم بأحـاديث مما رأى ، يعجب منهـا الناس ، فكـذبوه ، وأصبـح حديثـه مضرب المثل في كل كذب ، فكانت العرب إذا سمعت ما لا أصل له قالت : « حديث خـرافة » ثم كثـر في كلامهم حتى قـالوا لـلأباطيـل : خرافـات . (اللسان (خـرف) ، والدرة الفـاخـرة ٢/٣٨٩ ، ومجمع الأمثال ١/١٩٥ ، والمستقصى ١/٣٦١ ، ٢/٦١) .

الأخلاق . وطبيعي أن هذا النوع من الكلمات والحكايات لا أساس له من واقع أو عقل ، ومن ثم كان علماء اللغة يطلقون عليه اسم « أكاذيب العرب » أو « أكاذيب الأعراب » أو « رموز العرب» .

ويبدو لي أن هذا اللون من الأدب كان منشؤه البيئات البدوية ، لأن عقلية البدو وطبيعة حياتهم يسمحان بنشوئه بينهم ، إذ كانوا أقل وعياً وثقافة وحضارة من سكان الحضر ، كما كانوا يعايشون الحيوان ، ويخالطونه مخالطة شديدة جعلتهم ينسجون حوله هذه الخرافات .

ومهما يكن من شيء فإن الأدب العربي ، شعراً ونثراً ، حافل بهذا اللون القصصي ، شأنه في ذلك شأن سائر الآداب العالمية ، التي اتخذت منه وسيلة للفكاهة ، والموعظة ، والحث على مكارم الأخلاق[1] . وهو يعدُّ صورة من صور الأدب الرمزي الذي ينسب الأديب فيه الأحداث والحوار إلى الحيوانات والجمادات .

وبدراستنا للأمثال العربية التي تتصل بالخرافات أمكننا أن نصنفها صنفين :

١ - صنف أجراه العرب على ألسنة الحيوان نفسه ، خلال الأحداث التي حاكوها حوله ، ومنه الأمثال المشهورة التي أجروها على لسان الضب حين اختصم إليه الأرنب والثعلب في تمرة وجدها الأرنب فاختلسها الثعلب ، وهي « في بيته يُؤتى الحَكَم ، حُلْواً جَنَيْتِ ، البادىء أظلم ، حُرٌّ انتصر ، حَدِّثْ حَديثَيْن امرأةً فإن لم تَفْهم فأربعة»[2] .

---

(١) انظر : الحكايات الشعبية للدكتور عبد الحميد يونس ٣٣ - ٣٩ .
(٢) الفاخر ٧٦ ، وجمهرة الأمثال ١/٣٦٧ .

ومنه المثل الذي أجروه على لسان الحية في حكاية « الحية والفأس » وهو قول الحية للرجل : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك »![1] .

وقولهم : « إنما أكلت يوم أكل الثور الأسود »[2] و« شحمتي في قلعي »[3] و« الحذرُ قبلَ إرسال السهم(»[4] و« قد كنتُ قبلكِ مَقْرورة »[5] و« لا أحب تخديشَ وجه الصاحب»[6] .

٢ ـ وصنف بناه العرب على حكايات خرافية ، كقولهم : « كرَحِم الفيلِ من الحمار»[7] فهذا المثل مبني على خرافة « الفيل والحمار » وخلاصتها أنهما اجتمعا ذات يوم في مرعى ، فطرد الفيل الحمار ، فقال له الحمار : لماذا تطردني مع اشتباك الرحم بيني وبينك ؟ فقال الفيل : من أين هذا الرحم ؟ فقال الحمار : من أجل أن في غُرْمولي شَبَهاً من خُرطومك ، فقبل منه الفيل هذه القرابة .

ويزعم العرب أن النعامة ذهبت تطلب قرنَيْن فاصطُلم أذناها ، ويبنون على هذه الخرافة قولهم : « كطالب القَرْن فجُدِعت أذنُه»[8] .

ويزعمون كذلك أن الضبع صادت ثعلباً ، فقال لها : مُنِّي عَليَّ

---

(١) الضبي ٨٤ ، ٨٥ ، ومجمع الأمثال ٢ / ١٤٥ .
(٢) جمهرة الأمثال ١ / ٧٠ ، وهو من أمثال « كليلة ودمنة » .
(٣) مجمع الأمثال ١ / ٣٦٤ ، واللسان (قلع) والقلع : كنف يجعل فيه الراعي زاده وأداته .
(٤) مجمع امثال ١ / ٢٠٦ ، والمستقصى ١ / ٣١٠ .
(٥) مجمع الأمثال ٢ / ١١٠ ، ومقرورة : مصابة بالقر ، وهو البرد .
(٦) مجمع الأمثال ٢ / ٢٤٠ .
(٧) الدرة الفاخرة ٢ / ٥٥٣ ، والحيوان ٧ / ٢٣٥ .
(٨) الدرة الفاخرة ٢ / ٥٥٤ ، والحيوان ٤ / ٣٢٣ .

أمَّ عـامـر ، فقـالت : خَيَّرتـك بين خصلَتَيْن ، إمـا أن آكلك وإمــا أن أقتلك ، فقال الثعلب : أما تذكرين أمَّ عـامر يـوم نكحتُك بهَـوْب دابر ؟ فقالت الضبع : متى ذا ؟ فانفتح فوها فأفلت الثعلب .

وعلى هـذه الخرافـة بنَى العرب قـولهم : «عَـرض عليـه خَصْلَتَي الضبع »[1] وقولهم « أَكْرَهُ من خصلتي الضبع»[2] .

كمـا يزعمـون أن الصـائـد إذا أراد صيـد الضبـع أدخـل يـده في جُحـرها وقـال: أطرقي أمَّ طِـرِّيق، خامـري أمَّ عامـر، فَتَتَقَبَّض الضبع، فيقول : أمُّ عامر ليست في وِجَارها ، فتمد يَديها ورجليها ، فيقول : أمَّ عامر ، أبشـري بكَمَر الـرجال ، أبشـري أمَّ عامـر بشاءٍ هَـزْلى ، وَجَرَادٍ عَظْلَى ، ثم يشد عراقيبَها فلا تتحرك .

وهذه الخرافة تدل على حمق الضبع ، ولذلك بنوا عليها قولهم : «أحمقُ من الضبـع » و «أحمقُ من أُمِّ عـامـر» و « أحمق من أم طِـرِّيق » و « خَامِري أمَّ عامر» و « واللهِ مَا يَخْفَى هذا على الضبع»[3] .

ويبقى بعـد ذلك سؤال ذو بـال ، وهو : أتعـد الحكايـة الخرافيـة برمتها مثلاً ، أم ما سار فيها من كلمات فحسب ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نذكر أن المفضل الضبي قد عَـدَّ حكاية « الحية والفأس » برمَّتها مثـلاً ، حيث قال في نهـايتها : « فكـان حديث الحية والفـأس مثلاً مشهـوراً من أمثال العـرب»[4] وكذلـك فعل الجـاحظ حيث يقول : « وفي المثـل أن شيخاً نصب للعصـافير فخـاً ،

---

(١) مجمع الأمثال ٢ /١٤ .

(٢) الدرة الفاخرة ٢ /٣٦٨ .

(٣) انظر : جمهرة الأمثال ١ /٤١٦ .

(٤) الضبي ٨٥ .

فارْتَبْنَ به وبالفخ ، وضَـرَبه البـرد ، فكلما مشى إلى الفـخ ، وقد انضم على عصفور ، فقَبَض عليه ، وَدَقَّ جنـاحه ، وألقـاه في وعائـه ، دَمَعت عينه مما كان يصكُّ وجهَه من بَرْد الشَّمـال ، قال : فتـوامرت العصـافير بـأمره[1] ،وقلن : لا بـأس عليكن ، فـإنـه شيـخ صـالـح رحيم ، رقيق الدمعة ! قال : فقال عصفور منها : لا تنـظروا إلى دموع عينيـه ، ولكن انظروا إلى عمل يديه»[2] .

أما مدونو الأمثال فإنهم كانوا لا يعدون الحكايات برمَّتها أمثـالاً ، وإنما دَأَبوا على أن يأخذوا منها الكلمات السائرة وحـدها ، فـأخذوا من حكاية « الحية والفأس» قولَ الحية : «كيف أعادوك وهذا أثر فأسـك ! » وهكذا . . .

والذي نراه أنه يمكن اعتبار الحكاية الخرافية كلهـا مثلاً ، فتكـون من الأمثال القياسية، وقد جاء كثير منها في كتاب «كليلة ودمنة». أما إذا اكتفينا منها بالكلمات السائرة وحدها فتكون من الأمثال الموجزة .

---

(١) توامرت : تآمرت وتشاورت ، وإبدال الهمزة في مثله واواً لغة عامية .

(٢) الحيوان ٢٣٨/٥ ، ٢٣٩ .

الباب الأول

دراسة تاريخية للأمثال العربية

الفصل الأول

مصنّفات الأمثال العربيّة

لدينا بعض النصوص القديمة التي تدل على أن العرب في جاهليتهم كانوا يدوِّنون حكمهم وأمثالهم ، كما دونوا أشعارهم ، فقد روي أن عامر بن الظَّرِب العَدْواني ، وهو حكيم جاهلي معمَّر مشهور ، قال لملك من ملوك حمير ، في حديث طويل : « ولي كنزُ علم ، لست أعمل إلَّا به ، تركته في الحي مدفوناً ، وإن قومي أضِنَّاء بي ، فاكتب لي سِجِلاًّ بجباية الطريق ، فيرى قومي طمعاً تطيب أنفسهم به عني ، فأستخرج كنزي وأرجع إليك »[1] .

فهذا النص ، إن صحّ ، يدل على أنهم كانوا يدوِّنون حكمهم وأمثالهم ، ذلك أننا نتصور أن هذا الكنز من العلم لم يكن إلَّا حِكَماً وأمثالاً مدوّنة فيما كانوا يدوّنون عليه آنذاك من أشياء .

ومعروف أن الحكمة إذا سارت أصبحت مثلاً ، وأن لقمان الحكيم تُنسب إليه حكمٌ سائرة كثيرة ، ففي السيرة « أن سُوَيد بن الصامت قال لرسول اللّه ﷺ : لعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال : « وما الذي معك ؟ » قال : مَجَلَّة لقمان ، يريد كتاباً فيه حكمة لقمان »[2] .

---

(١) المعمرون ٦١ ـ ٦٣ ، وجمهرة الأمثال ١ / ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٢) اللسان (جلل) .

وفي بعض المصادر أن سُوَيد بن الصامت قرأ حِكَم لقمان هذه على رسول اللّه ﷺ قبل أن يسلم ، فاستحسنها وقال : « إن هذا الكلام حَسَن ، والذي معي أفضل من هذا ، قرآنٌ أنزله اللّه تعالى علي ، هو هدى ونور »(١) .

وهذا الأثر يثبت بوضوح أن حكمة لقمان كانت مدوَّنة قبل الإسلام ، وأنها كانت معروفة عند العرب في ذلك العهد ، متداولة بينهم .

ويشير بيت من الشعر لبِشْر بن أبي خازم ، أو للطرمَّاح إلى « كتاب » لبني تميم يشتمل على بعض حكمهم وأمثالهم ، وهو قوله في وصف الفرس(٢) :

وَجَدْنَا في كتابِ بَنِي تَمِيمٍ ... أحقُّ الخيلِ بالرَّكْضِ المُعَارُ

فإن عجز البيت مثل عربي معروف(٣) .

وبين أيدينا كذلك بعض النصوص التي تؤكد ، إن صحت ، أن أمثال أكثم بن صَيْفي (ت ٩هـ) كانت تكتب ، إذ تفيد هذه النصوص أن ملوك العرب ورؤساء القبائل كانوا كثيراً ما يستكتبونه وصاياه ، فيكتب إليهم بها ، وهي وصايا طويلة تشتمل على كثير من أمثاله وحكمه ، التي روتها كتب الأمثال(٤) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٦٨ ، والفائق للزمخشري ١/٢٠٦ .
(٢) الدرة الفاخرة ٢/٤٦٤ ، ومجمع الأمثال ١/٢٠٣ ، والمستقصى ١/٦٩ .
(٣) المصادر السابقة .
(٤) المعمرون ١٨ ـ ٢٤ .

(١)
تدوين الأمثال
في العصر الأموي

حوالي منتصف القرن الأول الهجري نشطت حركة التدوين عند العرب ، وحظيت الأمثال من هذه الحركة بثلاثة كتب لثلاثة من علماء الأخبار والأنساب والتاريخ ، هم : صُحَار بن عَيَّاش العَبْدي ، وعُبَيْد بن شَرْية الجُرْهمي ، وَعَلاَقَة بن كُرْشُم الكلابي .

كتاب الأمثال
لصحار بن عياش العبدي

كان صحار خطيباً مفوَّهاً نَسَّابة، وكانت له صحبة وأخبار حسنة ، ورَوى عن رسول اللّه ﷺ حديثين أو ثلاثة ، وعاش حتى اجتمع بمعاوية بن أبي سفيان ، وله معه أحاديث ، وتوفي نحو سنة ٤٠ هـ[١] .

وقد انفرد ابن النديم بذكر كتابه في الأمثال[٢] . ورَوَىٰ أبو عبيد البكري في كتابه « فصل المقال »[٣] عن صحار قصة طويلة في أصل المثل « لا ناقتي في هذا ولا جملي »[٤] وفيما عدا كتاب البكري من

(١) الفهرست ٩٠ .

(٢) نفسه ٩٠ .

(٣) تحقيق الدكتورين : عبد المجيد عابدين ، وإحسان عباس (الخرطوم ١٩٥٨ م) وبيروت (١٩٧١ م) .

(٤) ص ٣٠٨ .

كتب الأمثال الباقية لم أعثر على نص ينسب إلى صحار هذا !

كتاب الأمثال
لعبيد بن شرية الجرهمي

عُبَيد بن شَرْيـة راوية نسّـابة من المعمَّـرين ، ومن حكماء العـرب وخطبائهم في الجـاهلية . عـاش حتى أدرك زمن معاويـة بن أبي سفيان الذي استقدمه من صنعاء إلى دمشق ، وسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم ، فحدّثه ، فأمر معاوية بتدوين أخباره ، فـأملى كتابين ، سمي أحـدهما « كتـاب الملوك وأخبـار المـاضين »[1] وسمي الثـاني « كتـاب الأمثال » وعاش عبيد إلى أيام عبد الملك بن مروان ، وكانت وفاتـه سنة ٦٧هـ[2] .

وكتابه في الأمثـال ذكره كـل من : ابن النديم[3] ، ويـاقوت[4] ، وابن خلكـان[5] ، والميداني[6] . ونقـل عنه أبـو عبيد البكـري في عدة مـواضـع[7] ، ويـذكـر أبـو الحسن البيهقي (ت ٥٦٥هـ) أن الثعلبي (ت ٤٢٧هـ) فسَّر أمثال عبيد الجرهمي[8] .

---

(١) طبع في حيدر آبادر الهند عام ١٣٤٧ هـ مع كتـاب « التيجان في ملوك حميـر » باسم « أخبـار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » .

(٢) ابن النديم ٩٠ ، وياقوت ٧٨/١٢ .

(٣) الفهرست ٩٠ .

(٤) معجم الأدباء ٧٨/١٢ .

(٥) وفيات الأعيان ١٢١/٣ .

(٦) مقدمة « مجمع الأمثال » .

(٧) فصل المقال ٦٤ ، ٧٥ ، ٩٣ ، ١٧٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٥ .

(٨) غرر الأمثال ، ودرر الأقوال ، ورقة ٥٤ أ (مخطوط) .

كتاب الأمثال
لعلاقة بن كرشم الكلابي

كان علاقة علّامة من العلماء العارفين بأيام العرب وأحاديثها ، وأحدَ من أُخذت عنهم المآثر ، وقد عدَّه ابن النديم فيمن رَوى عن عبيد بن شرية[1] ، وعاش علاقة حتى أدرك زمن يزيد بن معاوية الذي أدخله في جملة سُمَّاره ، ولم يعرف تاريخ وفاته[2] .

ويذكر ابن النديم أن له كتاباً في الأمثال ، وأنه قد رآه حيث يقول : « وله كتاب في الأمثال ، نحو خمسين ورقة ، رأيته »[3] ، ونقل أبو عبيد البكري عدة نصوص منسوبة إلى علاقة ، نرجّح أنها من هذا الكتاب[4] .

هذه الكتب الثلاثة هي أوائل كتب الأمثال العربية وبواكيرها ، ومن المؤسف أنها ضاعت فيما ضاع من نفائس كتبنا ، ومن ثم فإن أحكامنا عليها ستظل أحكاماً ظنية ، إذ لا ندري ، حتى الآن ، ماذا كان منهج كل منها ؟ ولا ماذا كان حجمه ؟ اللهم إلَّا ما ذكره ابن النديم ، ونقله عنه ياقوت ، من أن كتاب علاقة كان نحو خمسين ورقة .

وعلى الرغم من ذلك نستطيع أن نلقي عليها بعض الأضواء ، من خلال دراستنا للأمثال التي نقلها عنها أبو عبيد البكري ، والقصص المتصلة بها .

---

(١) الفهرست ٩٠ .

(٢) ياقوت ١٢/ ١٩٠ .

(٣) الفهرست ٩٠ .

(٤) فصل المقال ٣٧ ، ٧٥ ، ٩٩ ، ٢٩٠ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ .

ولقد اتضح لنا أنها جميعاً أمثالٌ جاهلية ، من تلك التي ترتبط بقصص وأحداث تاريخية شهيرة ، كقولهم : (لا ناقتي في هذا ولا جملي ، سَبق السيفُ العَذَل ، عَرَفَتْني نسأها اللّه ، إحدى حَظَيات لقمان . وَابِأبي وجوهُ اليتامى ، عند جُفَيْنة الخبرُ اليقين ، مَنْ يشتري سيفي وهذا أثرُه ، القول ما قالت حذَام ، كلاهما وتمراً ، خلا لكِ الجو فبيضِي واصْفِري ، التجرُّدُ لغير نكاحٍ مُثْلة ، خلعُ الدِّرعِ بيد الزوج ، لا مَخبأ لِعِطْرٍ بعد عَرُوس) .

كما اتضح لنا كذلك أن الكتب الثلاثة تتشابه منهجاً ومشرباً ، إذْ كانت كلُّها معنية ، كما تشير النصوص المنقولة عنها ، بإيراد الأمثال التي تتصل بأخبار الأولين في سلمهم وحربهم ، وإيراد هذه الأخبار بالتفصيل .

ويؤيدنا في هذا أن عبيداً وصحاراً كانا من النسابين والرواة ، وأن علاقة كان من العارفين بأيام العرب وأحاديثهم ، وأحدَ من أخذت عنهم المآثر ، كما قدمنا في تراجمهم .

كما يؤيدنا أن الميداني قال عن كتاب عبيد : « وذكرت في كل مثل من اللغة والإعراب ما يفتح الغَلَق ، ومن القصص والأسباب ما يوضح الغرض ، ويسيغ الشَّرَق ، مما جمعه عبيد بن شرية وعطاء بن مصعب والشرقي بن القطامي وغيرهم »[1] .

---

(١) مقدمة « مجمع الأمثال » .

(٢)

تدوين الأمثال في العصر العباسي الأول

مضى القرن الأول ، وجاء القرن الثاني ، وانتقل الحكم من بني أمية إلى بني العباس ، وتحوَّل النَّشاط العلمي والسياسي من دمشق ، عاصمة الأمويين ، إلى بغداد ، عاصمة العباسيين ، وظهرت المدرستان ، البصرية والكوفية ، وعلى أيدي علماء هاتين المدرستين نشطت الحركة الفكرية ، والحركة العلمية ، ونشط التأليف في كل فرع من فروع المعرفة ، وامتد فشمل الأمثال ، فرأينا المدوّنات تتوالى في هذا الفن من الكلام ، وتتصل حتى أوائل القرن الخامس الهجري ، حيث تنتهي بكتاب « مجمع الأمثال » لأبي الفضل الميداني (ت ٥١٨هـ) ثم بكتاب « مستقصى الأمثال » لأبي القاسم الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) .

وفيما يلي نتناول بالدراسة والتحليل كتب الأمثال التي ظهرت بعد الكتب الثلاثة السابقة حتى أوائل القرن السادس الهجري ، سواء في ذلك ما بقي منها وما فُقِد ، وما هو مطبوع ومخطوط ، متخذين التسلسل التاريخي ، ووفيات العلماء الذين دونوها أساساً لسرد هذه الكتب .

كتاب الأمثال
لأبي عمرو بن العلاء

أبو عِمرو ، شيخ علماء البصرة في النحو والأدب واللغة ، وأحد

القراء السبعة ، ولـد بمكة ، ونشـأ بالبصـرة ، وتوفي بـالكوفـة . وتتلمذ عليه جماعـة من جِلَّة العلماء ، إِذْ أَخـذ عنه النحوَ الخليلُ بن أحمـد ، ويـونس بن حبيب ، وأبو محمـد اليـزيـدي ، وأخـذ عنـه الأدبَ وغيـره طـائفةٌ ، منهم أبـو عبيدة ، والأصمعي وغيـرهما ، وروى سيبـويـه عنـه الحروف[1] . ويترجَّح تاريخ وفاته بين عامي ١٥٤ و ١٥٩هـ .

ومن العجيب ألا تذكر كتب التراجم والطبقات كتابه في الأمثال ، بينمـا يصـرح بـه كـل من حمـزة الأصبهـاني والميـداني ، حيث يقـول حمـزة : « وهذا مثـل قد اختلف الـرواة في حكايـة لفـظه ، فـرواه أبـو عمـرو بن العلاء في كتـاب الأمثـال : دُهْـدُرَّيْنِ سَعْـدُ القَيْن »[2] وحيث يقول الميداني : « مثـل كتاب أبي عبيـدة وأبي عبيد ، والأصمعي وأبي زيد ، وأبي عمرو وأبي فيد »[3] وحيث يقول أيضاً : « هذا مثـل ابتذلتـه العامة ، وقد أورده أبو عمرو في كتابه »[4] .

وتصادفنا في كتب الأمثال المتأخرة آراءٌ كثيرة لأبي عمرو ، تتخلل تفاسير الأمثال ، ونرجـح أنها منقـولة عن كتـابه هـذا ، ومن هذه الكتب كتاب أبي عكرمة الضبي[5] ، وكتاب حمزة الأصبهاني[6] ، وكتـاب أبي هلال العسكري[7] وكتاب الميداني[8] .

---

(١) ياقوت ١٦٠/١١ ، ونزهة الألباء ٣٠ ، ٣١ .
(٢) الدرة الفاخرة ٥٠٦/٢ .
(٣) مقدمة « مجمع الأمثال » .
(٤) نفسه ١٤٠/١ .
(٥) أمثال أبي عكرمة ، ورقة ١٩ ، ٢٩ ، ٣٠ .
(٦) الدرة الفاخرة ٧٧/١ ، ٨٤ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٢٦٤ ، ٥٠٦/٢ .
(٧) جمهرة الأمثال ٤٤٨/١ ، ٤/٢ ، ٢٨٦ .
(٨) مجمع الأمثال ، ونقل عنه في حوالي ٥٨ موضعاً .

وبعد دراستنا لهذه النقول استطعنا أن نستنتج أن الكتاب كان يمثل اتجاهاً جديداً ، ظهر لأول مرة في كتب الأمثال ، يمكن وصفه بالشمول ، أعني أنه كان يتناول الأمثال من جميع نواحيها ، فكان يذكر أصولها ومضاربها ويفسر غريبها ، ويورد الشواهد الشعرية على هذا الغريب .

وإذا قارنّا بين منهجه وبين مناهج الكتب الثلاثة السابقة ، التي رَجَّحنا أن العناية فيها كانت مصروفة إلى ذكر الأقاصيص والأخبار التي تتصل بالأمثال ، أمكن لنا أن نقول : إن الكتاب كان ذا منهج جديد في تناول الأمثال .

كتاب الأمثال
للشرقي بن القطامي

اسمه الوليد بن حُصَين ، وكنيته أبو المثنّى ، وهو من أهل الكوفة . ويصفه ابن النديم بقوله : « أحد النسابين الرواة للأخبار والأنساب والدواوين »(١) . ويضيف الخطيب البغدادي إلى ذلك قوله : « وكان قاصاً صاحب سمر »(٢) وتوفي عام ١٥٨هـ .

وكتابه في الأمثال ذكره حاجي خليفة(٣) ، وأشار إليه الميداني في مقدمة كتابه .

والنصوص التي نقلتها عنه كتب الأمثال تدور كلها حول أصول الأمثال وأسبابها ، من الأخبار والقصص والأنساب التي ترجع إلى

---

(١) الفهرست ٩٠ (فلوجل) .
(٢) تاريخ بغداد ٢٧٨/٩ .
(٣) كشف الظنون (فلوجل) ٣٩٢/٥ .

العصر الجاهلي ، فقد نقل عنه كل من : المفضل بن سلمة[1] ، وحمزة الأصبهاني[2] ، وأبو هلال العسكري[3] ، وأبو عبيد البكري[4] ، والميداني[5] .

وقد لاحظت أن هؤلاء العلماء لم ينقلوا عن الشرقي إلَّا القصص والأخبار التي تتصل ببعض الأمثال الجاهلية ، أما ما عدا هذا ، من اللغة والغريب وبيان مضارب الأمثال ، فلم ينقلوا عنه شيئاً فيه ، ولذلك أرجح أن هذا الكتاب كان ، من حيث المنهج والموضوع ، على شاكلة كتب صحار وعبيد وعلاقة ، وقد تقدم الحديث عنها ، وربما أيَّدنا في هذا ما كان يغلب على الرجل من العلم بالأنساب ، وكثرة الرواية للأخبار والدواوين ، وما وصفه به بعض العلماء من أنه كان قاصاً صاحب سمر .

كتاب الأمثال
للمفضل بن محمد الضبي

170

المفضل الضبي راوية أديب ، من علماء الكوفة الأفذاذ ، كان عالماً بالأخبار والشعر والعربية[6] ، وهو أوثق من رَوى الشعر من الكوفيين[7] ، ويذكر ابن النديم أنه خرج مع إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن ، فظفر به المنصور فعفا عنه ، وألزمه المهدي ، فعمل له الأشعار

---

(١) الفاخر ٣٠ ، ٤٧ ، ٩٧ ، ١١٥ ، ٢٠٢ .
(٢) الدرة الفاخرة ١/١٧٥ ، ٢/٤٢١ ، ٤٣٢ .
(٣) جمهرة الأمثال ١/٤٣٣ ، ٢/٣٣٧ .
(٤) فصل المقال ٢١٥ ، ٢٨٢ .
(٥) مجمع الأمثال ١/٢٦٤ ، ٣٣٩ ، ٢/٣٣٩ ، ٣٥٩ .
(٦) ياقوت ١٩/١٦٤ ، وتاريخ بغداد ١٣/١٢١ .
(٧) مراتب النحويين ٧١ .

المسماة « المفضليات »[1] وكانت وفاته نحو ١٧٠هـ.

ومن حسن حظنا أن كتابه في الأمثال قد أفلت من قبضة الضياع فوصل إلينا ، فكان بذلك أول كتاب نقرؤه في الأمثال العربية[2] .

والكتاب صغير الحجم إذا قيس بما ظهر بعده من كتب الأمثال ، إذ يشتمل على مائة وسبعين مثلاً فقط ، منها ثمانية على وزن (أفعل من) .

وأهم ما لاحظناه عليه أنه مُفْعَمٌ بالوقائع والأحداث الجاهلية التي تدور حول سادة القبائل والعشائر وشيوخها وشعرائها ، والتي يتصل بعضها بأيام العرب في الجاهلية . وقد أحصى المستشرق الألماني « زلهايم » هذه القبائل والعشائر وهؤلاء الشعراء في كتابه القيم عن الأمثال العربية القديمة[3] .

ويبدأ الكتاب بقصة ضَبَّة بن أُدّ بن طابخة وابنيه سَعْد وسُعَيْد ، وما أرسله ضبة خلالها من الأمثال الثلاثة المشهورة (أسَعْدٌ أم سُعَيْد ؟ إن الحديث ذو شُجُون ، سبق السيفُ العَذَلَ)[4] وينتهي بخرافة « الحية والفأس » التي قيل فيها المثل السائر (كيف أعاودكَ وهذا أثرُ فأسِك)[5] .

---

(١) الفهرست ٦٨ (فلوجل) .

(٢) طبع في مطبعة الجوائب بالقسطنطينية عام ١٣٠٠ هـ ، وأعيد طبعه في القاهرة عام ١٣٢٧ هـ .

(٣) طبع بالألمانية عام ١٩٥٤ ، ثم قام بترجمته إلى العربية الدكتور رمضان عبد التواب (بيروت ١٩٧١ م) وانظر فيه : ص ٧٣ وما بعدها (المترجم) .

(٤) ص ٤ ، ٥ .

(٥) ص ٨٤ .

وبين بدايته ونهايته تفصيل وافٍ لبعض أيام العرب في الجاهلية ، والوقائع التي حدثت فيها ، وما قيل فيها من أمثال وأشعار ، كحروب داحس والغبراء ، وحرب البَسُوس .

وبينهما كذلك تفصيل دقيق لقصة الزبَّاء وجَذِيمة الأبرش ، تتخلله الأشعار والأمثال التي بلغت اثني عشر مثلاً . وينطوي الكتاب كذلك على أخبار شتى عن لقمان العادي ، تُساق خلالها الأمثال التي أطلقها أو التي تتصل بهذه الأخبار . وفيه أخبار عن الشعراء : امرىء القيس ، وطرفة ، والمتلمِّس ، والسُّلَيْك بن سُلَكة ، والنَّمِر بن تَوْلب ، والحطيئة .

وإذا قرأتَ الكتاب أحسست ، لأول وهلة ، أنه كتاب أخبار وأشعار وأنساب قبل أن يكون كتاب أمثال ، ووجدت فيه قرابة المائة حادثة ، سُردت سرداً قصصياً ، يجيء خلاله ، أو عقبه ، المثل أو الأمثال ، والبيت من الشعر أو الأبيات .

وقد اعتاد المفضل أن يقول عقب كل مثل عبارة من تلك العبارات المأثورة ، وهي « فأرسلها مثلاً » أو « فذهبت مثلاً » أو « فصارت مثلاً » ، وهذا يشعر بأن الحادثة هي الأصل عنده ، وفي أثناء سردها يجيء ما يتصل بها من أمثال وأشعار .

وهذا المسلك يذكرنا بما جاء في كتب الأخبار والتاريخ والأنساب من وقائع وأحداث ، لم يَنْسَ مؤلفوها أن يذكروا معها ما يتصل بها من أمثال سائرة وأشعار .

ونضرب لذلك مثالاً قوله في « حروب داحس والغبراء » : « وكان من أمر داحس وما قيل فيه من الأشعار والأمثال أن أمه كانت فرساً

لِقِرْواش بن عوف بن عاصم بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، يقال لها : جَلْوَى ، وأنْ أباه ذا العقال كان لِحَوْط بن أبي جابر بن أوس بن حِمْيَري بن رياح بن يربوع بن حنظلة بن مالك ، وإنما سمي داحساً أن بني يربوع احتملوا ذات يوم سائرين في نجعة . . . . »[1] ثم يذكر سبب التسمية ، وينتقل إلى ذكر السبب في هذه الحروب ، ووصف وقائعها التي استمرت أربعين عاماً ، ذاكراً خلال ذلك ما قيل فيها من أشعار وأمثال، إلى أن يقول: «تَمَّ حديث داحس ، والحمد للّه رب العالمين »[2] .

وهذا المنزع في تناول الأمثال العربية يتفق وطبيعةَ المفضل ومواهبه ، إذ كان بارعاً في الرواية ، ماهراً في معرفة أشعار العرب وأخبارهم القديمة ، ولم يكن رجل غريب ولا نحو ولغة[3] ، ومن ثم لم نجده يفسر كلمة غريبة واحدة من كلمات أمثاله التي تبلغ المائة والسبعين .

وكل هذا يجعلنا لا نتردد في أن نضع هذا الكتاب إلى جانب كتب : صُحار وعُبَيْد وَعَلاَقة والشرقي ، ونسلكها في سلك واحد ، فتصبح لدينا خمسة كتب تتشابه في طريقة تناولها للأمثال العربية .

ولم يلبث كتاب المفضل أن صادف قَبولاً كريماً لدى العلماء ، فأقبلوا على قراءته ، واعتمد عليه كثير ممن أتى بعده من مدوني الأمثال ، واقتبسوا منه قصص الأمثال وأخبارها وأوائل من قالها .

ويكفي أن نذكر من المتقدمين الذين اعتمدوا عليه القاسم بن

---

(١) ص ٢٦ ـ ٤٤ .
(٢) ص ٤٤ .
(٣) انظر : مراتب النحويين ٧١ .

سلام ، الذي نقل عنه في سبعة وخمسين موضعاً ، ومن المتأخرين أبا الفضل الميداني ، الذي صرح في مقدمة كتابه بأنه رجع إليه فقال : « ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد ، والمفضل بن سلمة » ثم نقل عنه في مواضع كثيرة من كتابه .

وكما انتشر الكتاب في المشرق انتشر في الأندلس ، إذ يذكر أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ) أن كتاب المفضل كان معروفاً في الأندلس(١) .

كتاب الأمثال
ليونس بن حبيب الضبي

كان يونس إمام نحاة البصرة في عصره ، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات ، وكانت حلقته مَجمع فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب ، وكانت له في العربية مذاهب وأقيسة ينفرد بها(٢) . وعاش ثمانياً وثمانين سنة ، وتوفي عام ١٨٣هـ .

وكتابه في الأمثال مفقود ، ولكن ذكره كل من : ابن النديم(٣) ، وياقوت(٤) ، وحاجي خليفة(٥) ، وحمزة الأصبهاني(٦) ، وأبو عبيد البكري(٧) .

---

(١) فهرست ابن خير ٣٨٤ (الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٦٣م).
(٢) ابن النديم ٤٢ (فلوجل) وياقوت ٢٠/٦٤ ، ومراتب النحويين ٢١ ، وابن خلكان ٦/٢٤٢ .
(٣) الفهرست ٤٢ .
(٤) معجم الأدباء ٢٠/٦٧ .
(٥) كشف الظنون ١/١٥٠ .
(٦) الدرة الفاخرة ١/٣١١ .
(٧) فصل المقال ٢٥٦ .

ونعثر في مدونات الأمثال على كثير من أقوال يونس وآرائه في تفسير الأمثال ، نرجح أنها من كتابه هذا ، فممن نقل عنه من العلماء أبو عكرمة الضبي(١) ، وحمزة الأصبهاني(٢) ، وأبو الفضل الميداني(٣) .

وعلى ضوء دراستنا لهذه النقول تبين لنا أن الكتاب كان يغلب عليه ، في تناوله للأمثال ، الاتجاه اللغوي الذي يتمثل في تفسير الغريب ، وإيراد الشواهد الشعرية عليه ، كما أنه كان لا يُغفل ذكر موارد الأمثال وأصولها ومضاربها ، ومن ثم يبدو أنه كان كتاباً وافياً ، تناول الأمثال من جميع جوانبها .

وقد عقد الدكتور حسين نصار فصلاً لهذا الكتاب في أثناء كتابه الذي ألّفه عن « يونس بن حبيب »(٤) أوشك فيه أن ينفي وجوده ، حيث يقول: «ذكر المؤرخون أن يونس بن حبيب ألّف كتاباً في الأمثال بهذا العنوان . . . . فقد راجعت ما بين أيدينا من كتب الأمثال فلم أعثر على نص صريح مأخوذ منه ، حتى الميداني الذي حاول الاطلاع على المؤلفات السابقة عليه لم يصرح بالرجوع إليه ، ولعل أقرب الأقوال إلى التصريح ما جاء في « فصل المقال » : « أورد يونس هذا المثل » وإن كان هذا القول لا يقطع بأنه أورده في كتاب الأمثال ، فلا زال الاحتمال بأن ذلك كان منه في بعض كتبه الأخرى قائماً ، وبالرغم من ذلك عثرت على عدد من الأمثال والأقوال المنسوبة إلى يونس في « مجمع الأمثال » و « فصل المقال » و « إصلاح المنطق » وغيرها ، وعلى هذه

---

(١) أمثال أبي عكرمة ، ورقة ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٢) الدرة الفاخرة ١/٣١١ ، ٢/٥٠٥ ، ٥٣٦ .

(٣) مجمع الأمثال ١/٥٥ ، ٥٦ ، ٧٧ ، ١٠٢ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ٢١٢ ، ٣٣٥ ، ٤٢١ ، ٢/١٤ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ٢٤٠ .

(٤) سلسلة « أعلام العرب » العدد ٧٥ (مارس ١٩٦٨) ويقع الفصل منه في ص ٥١ ـ ٥٦ .

المقتبسات أعتمد في دراستي هذه ، إذ إنني أرجح أن ما أورده الميداني أخذه من « أمثال » يونس عن طريق أحد تلامذته الذين رجع إلى كتبهم »[1] .

وأول ما نلاحظه على هذا الكلام أن الدكتور « نصار » ضرب بآراء ثلاثة من مدوني التراجم والمصنفات العلمية عُرْض الحائط ، أعني بهم ابن النديم ، وياقوتاً ، وحاجي خليفة ، إذ لا نشك في أنه قد اطلع على هذه الكتب قبل أن يكتب عن يونس ، حيث يقول : « ذكر المؤرخون » ، والأمر الثاني أنه لم يرجع إلَّا إلى ثلاثة فقط من كتب الأمثال ، هي : فصل المقال ، ومجمع الأمثال ، والمستقصى ، كما يفهم من كلامه ، وهي من الكتب المتأخرة . ولو أتيح له أن يرجع إلى كتاب أقدم ، كالدرة الفاخرة ـ لحمزة الأصبهاني ـ لوجد الدليل القاطع على وجود الكتاب ، لأن حمزة يقول فيه : « وهذا المثل وجدته في كتاب يونس النحوي في الأمثال »[2] .

أما أن الميداني لم يصرح به ضمن الكتب التي ذَكر في المقدمة أنه رجع إليها فليس في عدم تصريحه به ما يدل على عدم وجوده ، ذلك أن الميداني ذكر أنه رجع إلى أكثر من خمسين كتاباً ، ثم عَدَّ منها اثني عشر كتاباً فقط ، وأغفل ذكر سائرها ، فَلِمَ لا يكون كتاب يونس من هذا الذي أغفله وهو كثير ؟! ثم من أين أتى الميداني بالنصوص التي نسبها إلى يونس ، وهي نصوص طويلة ، تناولت أصل المثل ، ومضربه ، وتفسير غريبه ، وإيراد الشواهد الشعرية عليه ؟! إن الميداني لا بد أن يكون قد نقل هذه النصوص من كتاب يونس في الأمثال .

---

(١) سلسلة «أعلام العرب» العدد ٧٥ (مارس ١٩٦٨) ويقع الفصل منه في ص ٥١ ـ ٥٢ .
(٢) الدرة الفاخرة ١/٣١١ .

كتاب الأمثال
لأبي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي

المؤرِّج السَّدوسي نحوي أخباري ، من أصحاب الخليل بن أحمد ، عالم بالعربية والحديث والأنساب[1] . كان من العلماء الثقات المؤتَمَنين على العلم[2] ، وكان يحفظ كثيراً من اللغة[3] . وقد وصفه القفطي بقوله : « كان أحد من نَجم من أصحاب الخليل ، والغالب عليه اللغة والشعر »[4] ، وتوفي بالبصرة عام ١٩٥هـ[5] .

وكتابه في الأمثال طبع أخيراً[6] ، وهو كتاب صغير الحجم ، إذ يشتمل على مائة وأربعة من الأمثال والأقوال العربية الشائعة ليس غير .

ويفتقد الكتاب منهجاً من المناهج التي انتهجتها كتب الأمثال، ففيه تمتزج الأمثال بأقوال العرب السائرة ، ولذلك رأيناه يصدرها بعبارات لا تميز بين هذه وتلك ، مثل قوله : « العرب تقول » ، أو « وتقول العرب » ، أو « يقولون » ، أو « قولهم . . » ، أو « ويقال . . . » .

وتارة يبدأ بإيراد المثل ، ويُعَقِّب بتفسير غريبه ، وإيراد الشواهد الشعرية على هذا الغريب ، وتارة يبدأ بذكر كلمة غريبة ، يفسرها ثم

---

(١) ياقوت ١٩/١٩٧ .
(٢) انظر : ابن خلكان ٤/٣٨٩ .
(٣) انظر : معجم الأدباء ١٩/١٩٧ ، ونزهة الألباء ٧٩ ، ومراتب النحويين ٤١ .
(٤) إنباه الرواة ٣/٣٢٩ .
(٥) ياقوت ١٩/١٩٧ ، وإنباه الرواة ٣/٣٣٠ ووفيات الأعيان ٤/٣٨٩ .
(٦) طبع في الرياض (عام ١٩٧٠) بتحقيق الدكتور أحمد محمد الضبيب ، وفي القاهرة (عام ١٩٧١م) بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب .

يورد المثل الذي يشتمل عليها[1] ، وتارة يكتفي بـذكر بعض الغـريب ، الذي لم يرد في مثل ما ، ويفسره[2] ، وتارة يكتفي بذكر بعض الأبيـات التي لا علاقة لها بالأمثال ، ويتركها دون أي تفسير لها[3] . وهكذا نجد الكتاب يفتقد المنهج والطريقة .

وتغلب على الكتاب النزعة اللغوية التي كانت تجر المؤلف أحياناً إلى الاستطراد وذكر كلمات من الغريب ، والمقارنة بينها وبين ما اشتمل عليه المثل أو القول السائر منه ، ففي المثـل « بلغ السيلُ الـزُّبَىٰ » فسر كلمـة « الزُّبْيـة » ثم فـرق بينهـا وبين الكلمـات « القُتْـرة ، النـامـوس ، البُـرْأة »[4] وفي التعبيـر « أَوْشَمَ البَـرْقُ » ، فـرّق بين معنى الكلمتين « أوشـم ، أرق »[5] .

وهذه النزعة اللغوية كانت تُغريه بتفصيل بعض المسائل النحويـة التي تثيرها الأمثال[6] .

ولم يهتم المؤرج في كتـابـه ببيـان مضـارب الأمثـال ، وتحـديـد الحـالات التي تقال فيهـا ، كما أنـه لم يهتم إلَّا نـادراً بـذكـر أصـولهـا وأسبابها ، فإذا تصفحت الكتاب لم تجد من هذه الأصول والأسباب غير سبعة عشر خبـراً[7] ، يغلب عليها الاقتضـاب والاختصار إذا قيست بمـا

---

(١) انظر الكلمات : ١٤ ، ٣٨ ، ٥٠ ، ١٠٢ (القاهرة) .
(٢) انظر : الكلمات ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٥١ .
(٣) انظر : رقم ٢٦ : ٢٨ ، ٦٥ ، ٨٨ .
(٤) انظر : الكلمة ٥ .
(٥) انظر : الكلمة ٣٠ .
(٦) انظر الكلمة ٣٧ .
(٧) انـظر الكلمـات : ٢ ، ٥ ، ١١ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١١٢ ، ١١٦ .

جاء منها في كتب الأمثال الأخرى .

وقد قَصَّر المؤرج تقصيراً بَيِّناً حين ذكر من أسماء الرجال الذين تضرب بهم الأمثال من العرب أربعة فقط، هم : كُلَيب بن ربيعة ، وكعب بن مَامَة ، وحاتم طيىء ، وعَوْف بن محلِّم الشيباني[1] . ونحن نعلم أن من ضربت بهم الأمثال من الرجال والنساء عشرات ، نجد أسماءهم في كتب الأمثال الأخرى ، ولا سيما تلك التي اعتنت بجمع الأمثال التي على وزن (أفعل من) وسنعرض لهؤلاء الرجال والنساء فيما بعد[2] .

هذا فضلاً عن أنه لم يذكر من أخبار هؤلاء الرجال الأربعة شيئاً ، بينما نجد هذه الأخبار مفصّلة في كتب أخرى . وفوق كل هذا نجد في الكتاب عدة أمثال سِيقت مجردة من أي تفسير أو تعليق[3] .

والكتاب حافل بالأشعار ، ففيه منها ما يربو على مائة وأربعين بيتاً ، بعضها يمكن العثور عليه في الدواوين ومجاميع الشعر ، وكتب الأدب ، وبعضها يصعب الاهتداء إلى مصادره ، وهذه الظاهرة تشهد بأن المؤرج كان من البارعين في رواية الشعر وحفظه ، ومن الحاذقين باللغة وغريبها ، وهذان أمران وصفه بهما من ترجم له من العلماء .

وعلى الرغم من كل ما قلناه عن الكتاب وجدنا كثيراً من العلماء يقتبس منه وينقل عنه ، سواء في هذا من دَوَّن كتاباً في الأمثال ومن لم

---

(١) انظر : رقم ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) انظر : الفصل الأول من الباب الثالث .

(٣) انظر الأمثال : ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١٧ ، ١٨ ، ٤٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٦ .

يـدون ، فمن نقـل عنـه من مـدوني الأمثـال : القـاسم بن ســلام[1] ، والمفضل بن سلمة[2] ، وابن الأنبـاري[3] ، وأبو هـلال العسكري[4] ، والميداني[5] .

وممن نقـل عنـه من غيـرهم : عبـد القــادر البغـدادي[6] ، وابن قتيبة[7] ، وابن منظور[8] ، والجرجاني[9] .

وإذا كان علينا أن نصنِّف هذا الكتاب ، ونضعـه بين كتب الأمثال الأخرى ، فإننا نضعه إلى جانب ثلاثة كتب ، مزجت بين الأمثال وأقوال العـرب السـائـرة بشكـل واسـع ، وهي كتـب : أبي عكـرمــة الضبي ، والمفضـل بن سلمة ، وابن الأنبـاري ، وسيأتي الحـديث عن كل منهـا مفصلاً .

وأخيراً فإنه لا يخامرني شك في أن المخطوطة الوحيدة للكتاب ، والتي اعتمـد عليها محقِّقـاه سقط منها الكثيـر من الأمثال والنصـوص ، ولست أقول هذا القول جزافاً بل اعتماداً على الأدلة القاطعة ، ذلـك أن بعض النصـوص والأمثال التي نقلتهـا المصـادر السـابقـة عن المؤرّج لا توجد أصلاً في المطبوع ، وأن بعضها أطول مما ورد به . فقد نقـل أبو

---

(١) انظر : كتاب الأمثال : ٤٥ ، ١٢٠ ، ٢٢٤ ، ٣٣٣ ، ٣٥٣ .

(٢) الفاخر ١٠ ، ١٢ .

(٣) الزاهر ، ورقة ٧٧ أ .

(٤) جمهرة الأمثال ١ /١٧٨ .

(٥) مجمع الأمثال ١ /٥٥ ، ٤٨٥ ، ٥٦١ ، ٢ /١١٦، ٢١٤ ، ٣٤٩ ، ٤٢٧ ، (بيروت) .

(٦) خزانة الأدب ١ /٣٩٥ ، ٤١٤ ، ٢ /٤٩٨ ، ٣ /٢٣١ (بولاق) .

(٧) أدب الكاتب ٧٣٥ (ليدن) .

(٨) اللسان (عير ، أوس ، أسا) .

(٩) الكنايات ٨٠ .

عبيد عنه تفسير الأمثال « شَاكِهْ أبا فلان »[1] و« عَنْزٌ اسْتَتْيَسَت »[2] ، و«أَضِيءْ لي أقدحْ لكَ »[3] ، و« عَيْرٌ عارَهَ وَتِدُه »[4] و« نَزْوُ الفُرارِ استجهل الفرار »[5] و« إنه لَيَحْرِقُ عَليه الأُرَّمَ»[6] .

ونقل الميداني عنه قولهم : « إنه لَيَحرِقُ عليه الأُرَّمَ »[7] ، و« صَرَّ عليه الغزوُ اسْتَه »[8] ، و« وَسِعَ رِقَاعُ قومَه »[9] .

ونقل ابن منظور قولهم : « عَيْرٌ عَاره وَتِدُه »[10] ، و« صَرَّ عليه الغزوُ استَه »[11] .

ونقل ابن قتيبة قولهم : « نَزْوُ الفُرَارِ استجهل الفُرار »[12] .

ونقل الجرجاني قولهم : «قد بَيَّنَ الصبح لذي عينين »[13] .

فكل هذه الأمثال ، بتفاسيرها وأصولها ، لا توجد في المطبوع .

أما الكلمة السائرة « أُسْهُ بخَيْرٍ » فقد اكتفى المطبوع في تفسيرها بقوله : « يقول أَصِبْه بخير »[14] بينما ينقل ابن منظور عن المؤرج ، في هذا التفسير ، كلاماً طويلاً نَصُّه : « وقال المؤرج : ما يُواسِيه : ما يُصِيبه بخير ، من قول العرب : أُسْ فلاناً بخير ، أي أصِبْه . وقيل : ما يُوَاسِيه من مودته ولا قرابته شيئاً ، مأخوذٌ من الأوْس ، وهو العَوْض .

---

(1) كتاب الأمثال : ٤٥ .

(2) نفسه : ١٢٠ .

(3) نفسه : ١٣٧ .

(4) نفسه : ٣٣٣ .

(5) نفسه : ٢٢٤ .

(6) نفسه : ٣٥٣ .

(7) مجمع الأمثال ١/ ٣٦ .

(8) نفسه ١/ ٤٠٥ .

(9) نفسه ٢/ ٣٦٩ .

(10) اللسان (عير) .

(11) نفسه (سته) .

(12) أدب الكاتب ٥٣٧ (ليدن) .

(13) الكنايات ٨٠ .

(14) انظر : الكلمة رقم ٨٤ (طبع القاهرة) .

قال : وكان في الأصل : ما يُـوَاوِسُه ، فقـدموا السين ، وهي لام الفعل ، وأخَّروا الـواو ، وهي عين الفعل ، فصـار : يُوَاسِـوُه ، فصارت الواو ياء لتحركها وانكسار ما قبلها ، وهذا من المقلوب ، قـال : ويجوز أن يكون غير مقلوب ، فيكون (يُفَاعِلُ) من أَسَوْتُ الجُرْحَ »[1] .

وبينما يقول المفضـل بن سلمة نقـلاً عنه أيضـاً : « وقال مؤرج : يُؤَاسِيه : من قولهم : آسِه بخير ، أي أَصِبْه به ، وأنشـد لعبد العـزيز بن زُرارة الكلابي :

فَـإِنِّي أَسْتَئِيسُ اللَّهَ مـنهـم ‌ ‌ ‌ ‌ من الفِرْدَوْسِ مُرْتَفَقاً ظليلاَ

وهذا يكون من العَوْض ، وكذلك قول النابغة الجَعْدي :

ثـلاثـةُ أَهْـلِينَ أفنيـتُهـم ‌ ‌ ‌ ‌ وكـان الإِلَهُ هـو المُسْتَـآسَـا

أي المستوهَب ، ويكون المسؤول العَوْض »[2] .

فـإذا أضفنا إلى كـل ما سبق أن بعض الأمثـال جاء في المـطبـوع مجرداً من كل تفسيـر ، ومن أي تعليق ، على الرغم ممـا تشتمل عليـه من الغـريب ، جاز لنـا أن نقرر مـطمئنين أن المخطوطـة الـوحيـدة التي اعتمد عليها المحققان في تحقيق الكتاب سقط منهـا الكثير من الأمثـال والأقوال السائرة ، والنصوص المتصلة بهما !

كتاب الأمثال

للنطر بن شميل المازني

النَّضْـر بن شُمَيـل نحـوي لغـوي أديب ، أخــذ عن الخليـل بن أحمد ، وأقام بالبادية زمناً طويلاً ، فأخذ عن فصحـاء الأعراب ، كـأبي

(١) اللسان (أوس ، أسا) .

(٢) الفاخر ١٠ ، ١١ .

خَيْرة وأبي الدُّقَيْش وغيرهما[1] . ويصفه أبو الطيب اللغوي بأنه ثقة ثَبْت ، صاحب غريب وشعر ونحو وحديث وفقه ، ومعرفة بأيام الناس[2] . وكانت وفاته سنة ٢٠٤ أو ٢٠٣هـ[3] .

وكتابه في الأمثال مفقود ، ولم يذكره واحد ممن ترجم له ، ولكن حمزة الأصبهاني صرح به في قوله : « وأما قولهم : أضيعُ من دم سَلاَّغ ، فإنه رجل من عبد القيس ، وله حديث ، ويقال في مثل آخر : دم سَلاَّغ جُبَار . . وهذان المثلان حكاهما النضر بن شميل في كتابه في الأمثال »[4] . كما أشار إليه ابن دَرَسْتويه (٣٤٧هـ) في أثناء حديثه عن كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام ، فقال : « وقد سبقه إلى ذلك جميع البصريين والكوفيين ، الأصمعي ، وأبو زيد ، وأبو عبيدة ، والنضر بن شميل ، والمفضل الضبي ، وابن الأعرابي ، إلَّا أنه جمع رواياتهم في كتابه ، وبَوَّبَه أبواباً ، فأحسن تأليفه »[5] .

ويبدو أن الكتاب لم يكن ذا حَظوة عند العلماء ، إذ لم أعثر على نصوص منقولة عنه في كتب الأمثال ، اللهم إلَّا ما نقله حمزة في قوله السابق ، وما أضافه الميداني إلى النضر في ثلاثة مواضع فقط من كتابه[6] .

ولا يمكننا أن نصدر حكماً صحيحاً على كتاب لم يصفه لنا واحد ممن رآه ، ولم يصلنا منه حتى الآن إلَّا عدة نصوص قليلة وقصيرة ،

---

(١) ياقوت ١٩/٢٣٨ ، وابن الأنباري ١١٠ .

(٢) مراتب النحويين ٦٦ ، وانظر : ابن خلكان ٥/٣٣ .

(٣) ابن النديم ٥٢ .

(٤) الدرة الفاخرة ١/٢٧٨ .

(٥) إنباه الرواة ٣/١٤ ، وتاريخ بغداد ١٢/٤٠٤ .

(٦) مجمع الأمثال ١/١٠٧ ، ٣٣٨ ، ٤٠٧ .

يغلب عليها الطابعان اللغوي والنحوي .

كتاب الأمثال
لأبي عبيدة معمر بن المثنى

209

كان أبو عبيدة من أعلم الناس باللغة وأنساب العرب وأخبارهم ، وهو أول من صنف غريب الحديث[١] . ولد بالبصرة ، واستقدمه الرشيد منها إلى بغداد فقرأ عليه شيئاً من كتبه[٢] . وكان العلماء القدامى يشهدون له بالتبحُّر في جميع العلوم ، يقول الجاحظ عنه : « لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة »[٣] ويترجح تاريخ وفاته بين عامي ٢٠٧ ، ٢١٣هـ .

وكتابه في الأمثال ذكره كل من : ابن النديم[٤] ، وياقوت[٥]، والسيوطي[٦] ، وحاجي خليفة[٧] ، وحمزة الأصبهاني[٨] ، وأبو عبيد البكري[٩] ، والميداني[١٠] ، وابن خير[١١] .

ويتردد اسم أبي عبيدة بكثرة في كتب الأمثال واللغة حتى لا نكاد نجد كتاباً منها لم ينقل عنه، ويصعب علينا أن نتتبع ذلك في كل هذه

---

(١) ياقوت ١٩/١٥٥ .
(٢) ابن خلكان ٤/٣٢٣ .
(٣) تاريخ بغداد ١٣/٢٥٢ ، ونزهة الألباء ١٣٧ ، وابن خلكان ٤/٣٢٣ .
(٤) الفهرست ٥٣ .
(٥) معجم الأدباء ١٩/١٦١ .
(٦) بغية الوعاة ٢/٢٩٥ .
(٧) كشف الظنون ١/١٥٠ .
(٨) الدرة الفاخرة ١/١٣٧ ، ٢/٥٠٦ .
(٩) فصل المقال ٩٧ .
(١٠) مقدمة « مجمع الأمثال » و ١/١٩٦ .
(١١) فهرست ابن خير ٣٤١ ، وكان يسمى في الأندلس (كتاب المجلة في الأمثال) .

الكتب ، ولكننا نكتفي هنا بذكر أهمها وهي كتب : القاسم بن سلام[1] ، وأبي عكرمة الضبي[2] ، وحمزة الأصبهاني[3] ، وأبي هلال العسكري[4] ، والميداني[5] ، وابن منظور[6] .

وإذ كان الكتاب مفقوداً لا نستطيع أن نذكر شيئاً عن حجمه وعدد أمثاله ، أما منهجه وطريقته في تناول الأمثال فيمكننا أن نصل فيها إلى رأي بناء على النصوص التي نقلتها عنه المصادر السابقة ، ولعل خير ما يمثل لنا هذا الكتاب ما نقله عنه أبو عبيد، وقد نقل عنه الكثير ، منه قوله في « باب الظلم في الخَلَّتين من الإساءة تُجمعان على الرجل » : قال أبو عبيدة : «من أمثالهم في هذا قولهم : أَحَشفاً وسُوءَ كِيلَة ! ، قال : وهو مثل سائر في العوام ، ومثله قولهم : أغدةً كغدة البعير وموتاً في بيت سَلُولِيَّة ! وهذا المثل لعامر بن الطفيل ، وكان أصابه الطاعون حين خرج من عند النبي عليه السلام ، فلجأ إلى بيت امرأة من سَلُول ، فمات هناك »[7] .

ومنه قوله في « باب الخطأ في سوء التدبير عند إضاعة الشيء لطلب غيره ، ثم لا يدركه » : قال أبو عبيدة : «من أمثالهم المعلومة في هذا قولهم : لا ماءكِ أبقيتِ ، ولا دَرَنَكِ أنقيتِ ، قال : وأصله أن رجلاً كان في سفر ، ومعه امرأته ، وكانت عاركاً ، فحضر طُهْرها ، ومعها ماء يسير ، فاغتسلت به ثم لم يكفها لغسلها وقد أنفدت الماء ، فبقيت هي

---

(١) نقل عنه في ١١١ موضعاً من كتابه .
(٢) أمثاله ، ورقة ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٣ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٣٠ .
(٣) نقل عنه في « الدرة الفاخرة » في ٢٧ موضعاً .
(٤) نقل عنه في « جمهرة الأمثال » في ٢١ موضعاً .
(٥) نقل عنه في « مجمع الأمثال » في ٢٦ موضعاً .
(٦) اللسان (رمى ، لوى ، وجه ، وأي) .
(٧) كتاب الأمثال : ٢٦١ .

وزوجها عطشانَيْن، فعندها قال هذه المقالة . ومن هذا قولهم : نفعٌ قليل وفضحتُ نفسي »[1] .

ومن هذين النصين وغيرهما من النصوص الأخرى التي تتبعتها أمكنني أن أستنتج ما يأتي :

١ ـ أن الكتاب كان يذكر ، قبل كل مثل ، الحالة التي يصلح أن يقال فيها ، بدليل قوله : « ومن أمثالهم في هذا . . . . » .

٢ ـ أنه كان يذكر أصول الأمثال ، والوقائع المتصلة بها ، ولا غرو فأبو عبيدة من أساطين علماء الأخبار .

٣ ـ أنه كان يحدّد أحياناً مضارب الأمثال ، على الرغم من أننا نرجح أنه كان مبوباً على المعاني .

٤ ـ أنه كان يهتم بتفسير الغريب الذي يجيء في ألفاظ الأمثال ، كما كان يتعرض لما يمكن أن تستثيره الأمثال من مسائل النحو .

٥ ـ أنه كان حافلاً بالأشعار التي ساقها أبو عبيدة شواهد على الغريب ، وعلى معاني بعض الأمثال .

وقد ذكر حاجي خليفة[2] ، والسيوطي[3] ، أن عبد اللّه بن أحمد الشاماتي المتوفى (٤٧٥هـ) أفرد هذه الأبيات بالشرح .

٦ ـ أن أبا عبيدة كان ينسب بعض الأمثال إلى بعض القبائل[4] ، ويصف بعضها بالتوليد[5] .

---

(١) المرجع السابق : ٢٩٩ .
(٢) كشف الظنون ١/ ١٥٠ .
(٣) بغية الوعاة ٢/ ٣٢ .
(٤) الدرة الفاخرة ٢/ ٤٣٣ .
(٥) الدرة الفاخرة ١/ ١١٣ .

ويمكننا بعد هذا كله ، أن نقول : إن الكتاب كان من أعمدة كتب الأمثال ، وكان جديراً حقاً بأبي عبيدة !

كتاب الأمثال
لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري

أبو زيد علم من أعلام مدرسة البصرة ، نحوي لغوي ، ومن أئمة الأدب كذلك ، وإنما غلبت عليه اللغة والغريب والنوادر ، فانفرد بذلك[٢] . ويشهد لجلالة قدره أن الأصمعي كان يأتي حلقته ، ويقبّل رأسه ، ويجلس بين يديه ، ويقول له : أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة[٣] . وعُمِّر طويلاً حتى قارب المائة[٤] ، وكانت وفاته بالبصرة ما بين سنة ٢١٤ ، ٢١٦هـ.

وكتابه في الأمثال ذكره كل من : ياقوت[٥]، والسيوطي[٦] ، والميداني[٧] ، وابن منظور[٨] ، وابن خير[٩] .

والكتاب من الكتب المفقودة ، ومن ثَم فإن أحكامنا عليه ستظل قائمة على الحدس والتخمين ، لا على القطع واليقين ، ونبنيها كما اعتدنا على النصوص التي نقلتها عنه كتب الأمثال واللغة ، وهي

---

(١) ياقوت ١١/٢١٣ ، وابن خلكان ٢/١٢١ .
(٢) ابن خلكان ٢/١٢٢ .
(٣) نفسه ٢/١٢٢ .
(٤) معجم الأدباء ١١/٢١٦ .
(٥) بغية الوعاة ١/٥٨٣
(٦) مقدمة « مجمع الأمثال » .
(٧) اللسان (غرر) .
(٨) فهرست ابن خير ٣٧١ .

نصوص طويلة وغزيرة ، ولعل القاسم بن سلام كان أكثر العلماء نقلاً عن هذا الكتاب[١] ، يليه الميداني[٢] ، ثم ابن منظور[٣] .

فمما نقله عنه القاسم بن سلام قوله في « باب التأنِّي في طلب الحاجة وترك الخُرْق فيها » : « قال أبو زيد : من أمثالهم في التلبُّث والتأنّي قولهم : رُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً . يُضرب للرجل يشتد حرصه على حاجته ، ويَخْرَق فيها حتى تذهب كلها . وأصله الرجل يُعمل الحَقْحَقة في سيره حتى تَعطب راحلته في بعض الطريق ، فيصير منها إلى طول المُكْث عن حاجته ، وهذا هو الذي رُوي فيه الحديث « إنَّ المنبَتَّ لا أرضاً قَطَع ، ولا ظَهْراً أَبْقَى » وكذلك قوله : « إذا أراد أحدكم أمراً فعليه بالتؤدة » ، ومن هذا المعنى قول القطامي[٤] :

قد يُدْرِكُ المُتَأَنِّي بعضَ حاجتِهِ   وقد يكون مع المستعجلِ الزَّلَلُ

ومما نقله عنه ابن منظور قوله : « وأبو زيد في كتاب الأمثال قال : ومن أمثالهم في الخبرة والعلم : أنا غَرِيرك من هذا الأمر ، أي اغتَرَّني فسَلْني منه على غِرَّة ، أي أني عالم به ، فمتى سألتني عنه أَخبرتك به من غير استعداد لذلك ، ولا روية فيه »[٥] .

ومن هذين النصين وغيرهما من النصوص أمكنني أن أقول : إن كتاب أبي زيد كان على شاكلة كتاب أبي عبيدة الذي سبق الحديث عنه ، وإنه كان من الكتب التي أوفت الأمثال حقوقها من التفسير ، سواء في ذلك الناحية اللغوية والناحية النحوية ، وسواء فيه ذكرُ أصول

(١) نقل عنه في مائة موضع وأربعة من كتابه .
(٢) نقل عنه في ٣٩ موضعاً من كتابه .
(٣) نقل عنه في المواد (غرر ، جرع ، دهده ، سته ، نده ، زنا ، وحى) .
(٤) كتاب الأمثال : ٢٣٣ .
(٥) اللسان (غرر) .

الأمثال وأسبابها وتحديد مضاربها .

كتاب الأمثال

لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي

الأصمعي صاحب النحو واللغة والغريب والأخبار والمُلَح[1] .

كان أتقن العلماء للغة ، وأعلمهم بالشعر وأحضرهم حفظاً[2] . وقد وازن المبرِّد بينه وبين معاصرَيْه أبي عبيدة وأبي زيد فقال: «كان أبو زيد الأنصاري صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعي في النحو، وكان أبو عبيدة أعلم من أبي زيد والأصمعي بالأنساب والأيام والأخبار ، وكان الأصمعي بحراً في اللغة ، لا يُعرف مثله فيها ، وفي كثرة الرواية ، وكان دون أبي زيد في النحو »[3] ويترجح تاريخ وفاته بين سنة ٢١٠ ، ٢١٧هـ.

أما كتابه في الأمثال فهو من الكتب المفقودة أيضاً ، ولكن ذكره كل من : ابن النديم[4] ، والقفطي[5] ، والسيوطي[6] ، وابن خلكان[7] ، وحمزة الأصبهاني[8] ، وأبي عبيد البكري[9] ، وأبي هلال العسكري[10]، وابن منظور[11]، وابن خير[12] . وكذلك ذكر ياقوت

---

(١) نزهة الألباء ١٥٥ ، وابن خلكان ٢/٣٤٤ ، وتاريخ بغداد ١٠/٤١٠ .

(٢) مراتب النحويين ٤٦ ، وانظر : إنباه الرواة ٢/١٩٨ ، وتاريخ بغداد ١٠/٤١١ .

(٣) إنباه الرواة ٢/٢٠١ ، وتاريخ بغداد ١٠/٤١٤ .

(٤) الفهرست ٥٥ .

(٥) إنباه الرواة ٢/٢٠٣ .

(٦) بغية الوعاة ٢/١١٣ .

(٧) وفيات الأعيان ٢/٣٤٩ .

(٨) مقدمة « الدرة الفاخرة » وص ١/٢١١ .

(٩) فصل المقال ١٦٠ ، ٢١٩ ، واللآلىء ٤٢٦ .

(١٠) جمهرة الأمثال ١/١٣٦ .

(١١) اللسان (بدح ، صمم) .

(١٢) فهرست ابن خير ٢٤٠ ، وانظر : بغية الملتمس للضبي (١٤٩٢) .

والسيوطي أن أبا عبد اللّٰه محمد بن إبراهيم بن حبيب بن سمرة بن جندب الفزاري قد قرأ كتاب الأمثال للأصمعي عليه ، وكان يقول: «من زعم أنه قرأ عليه غيري فقد كذب »[1] .

وتنتشر أقوال الأصمعي وآراؤه في تفسير الأمثال انتشاراً واسعاً في كتب الأمثال واللغة ، ويُؤثر العلماء هذه الأقوال والآراء على ما عداها ، ويكفي استشهاداً على هذا أن نوازن بين ما نقله القاسم بن سلام عن الأصمعي ، وما نقله عن معاصريه أبي عبيدة ، وأبي زيد ، فسنرى أنه نقل عن أبي عبيدة في ١١١ موضعاً ، وعن أبي زيد في ١٠٤ مواضع ، بينما نقل عن الأصمعي في ٣١٥ موضعاً ، وكذلك تبدو هذه الظاهرة في سائر كتب الأمثال واللغة ، ككتب أبي عكرمة الضبي[2] ، وحمزة الأصبهاني[3] ، وأبي هلال العسكري[4] ، والميداني[5] ، وابن منظور[6] .

ويذكر حمزة الأصبهاني أن للأصمعي كتاباً في الأمثال التي على (أفعل من) يقول عنه : « وقد سبق إلى تأليف ذلك جماعة من علماء اللغة ، فللأصمعي كتاب في ذلك ، خفيف الحجم ، مقدار عشر ورقات »[7] . وقد لاحظت أن أحداً لم يذكر هذا الكتاب سوى حمزة ،

---

(١) معجم الأدباء ١٧/١١٨ ، وبغية الوعاة ١/٩ .

(٢) أمثاله ، ورقة ١ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١.

(٣) نقل عنه في « الدرة الفاخرة » في ٢١ موضعاً .

(٤) نقل عنه في « جمهرة الأمثال » في ٦٧ موضعاً .

(٥) نقل عنه في « مجمع الأمثال » في ٨٣ موضعاً .

(٦) اللسان (بجر ، غرر ، بصص ، خطط ، ظلع ، خريق ، حبل ، صم ، نده ، عصا ، قوا ، لوى ، هبا) .

(٧) مقدمة (الدرة الفاخرة) .

ولذلك أرجح أن هذا الكتاب لم يكن إلا باباً من أبواب كتاب الأصمعي الكبير في الأمثال ، دُوِّن في كراسة خاصة ، وكانت الكتب قديماً تدون مجزأة في كراسات ودفاتر .

أما حجم الكتاب فيغلب على ظننا أنه كان كبيراً إلى حد ما ، وأنه كان أوسع من كتابَيْ أبي عبيدة وأبي زيد ، وربما كان مما يؤيد هذا كثرةُ النصوص التي نقلت عنه في كتب الأمثال واللغة . ويذكر المستشرق الألماني « زلهايم » أنه كان ربع كتاب أبي عبيد[1] ، ولا أدري كيف استنتج هذا الرأي !

وأما منهجه وطريقته في تناول الأمثال فليس يسعفنا فيهما إلا النصوص التي روتها عنه الكتب السابقة ، والتي منها ما ذكره أبو عبيد في « باب المثل في معرفة الأخبار وصحتها » « قال الأصمعي : من أمثال العرب في معرفةالأخبار قولهم : عند جُفَيْنة الخبرُ اليقين . وقال الأصمعي : وأصله أن جفينة هذا كان عنده عِلْمُ رجلٍ مقتول ، وفيه يقول الشاعر :

تُسائِلُ عن أبيها كلَّ رَكْبٍ ... وعند جُفَيْنَة الخبرُ اليَقِينُ

قال : فسألوا جفينة فأخبرهم خبر القتيل»[2] .

ومنها ما ذكره في « باب الحاجة تؤدِّي صاحبها إلى تَلَف النفس » وقال الأصمعي: من أمثالهم في هذا قولهم: كطالب القَرْنِ فجُدِعَتْ أذنُه ، أي جاء يطلب زيادة ، فأتلف ما عنده ، قال ومثله : كالباحث عن الشَّفْرة ، أي أنه بحث ليطلب معاشاً فسقط على شفرة ، فعقرته أو قتلته ، يعني الصيدَ الذي يقع في الحِبَالة . قال : ومن هذا قولهم :

---

(١) الأمثال العربية القديمة ١٠٢ (المترجم) .

(٢) كتاب الأمثال : ٢٠١ .

سَقَطَ العَشاءُ به على سِرْحان ، قال ذلك الأصمعي ، قال : وأصله أن رجلاً خرج يلتمس العشاء ، فوقع على ذئب فأكله »[١] .

وعلى ضوء هذين النصين، وغيرهما من النصوص التي قرأناها للأصمعي ، يتبين لنا أن الكتاب كان على شاكلة كتابَيْ أبي عبيدة وأبي زيد ، وقد سبق الحديث عنهما ، من حيث ذكر الأمثال على أساس أبواب المعاني ، والاعتناء ببيان أصولها ومضاربها ، وتفسير غريبها وإيراد الشواهد الشعرية عليه ، وأنه بهذا كان من أهم كتب الأمثال وآصلها ، ومن هذه النصوص أيضاً يظهر لنا أن المستشرق الألماني « زلهايم » كان مجافياً للحق حين رَجَّح « أن الكتاب لم يكن به قصص للأمثال ، فلم يُذكر اسم الأصمعي ، على أي حال ، في أي مكان مقروناً بقصة من هذه القصص ، كما يُذكر المفضل الضبي مثلاً»[٢] .

والأقرب إلى الصواب في هذا الموضوع أن يقال : إن العلماء كانوا يؤثرون أن ينقلوا القصص والأخبار التي تتصل بالأمثال عن العلماء الذين اشتهروا برواية الأخبار ، كأبي عبيدة والشرقي بن القطامي والمفضل الضبي وهشام ابن الكلبي وأضرابهم ، وشتان ما بين الرأيين !

كتاب الأمثال
لأبي الحسن علي بن حازم اللحياني

ينسب اللِّحياني إلى بني لِحْيان ، وقيل : سُمِّي اللِّحياني لعظم لحيته . أخذ عن الكسائي وأبي زيد وأبي عمرو الشيباني والأصمعي وأبي عبيدة ، وأخذ عنه القاسم بن سلام[٣] وعاصر الفرّاء وتصدّر في

---

(١) كتاب الأمثال : ٢٥٠ .

(٢) الأمثال العربية القديمة ١٠٢ (المترجم) .

(٣) الفهرست ٤٨ ، وبغية الوعاة ٢ / ١٨٥ .

أيامه ، وكان إذا دخل على الفراء وهو يملي كتاب « النوادر » أمسك الفرّاء عن الإملاء حتى يخرج ، فإذا خرج قال : هذا أحفظ الناس للنوادر[١] وتوفي عام ٢١٥ هـ .

وكان للحياني كتاب صغير في الأمثال التي على (أفعل من) لم يذكره سوى حمزة الأصبهاني في قوله : « وللحياني أيضاً كتاب يقرب من كتاب الأصمعي »[٢] أي مقدار عشر ورقات .

ويبدو أن الكتاب لم يكن ذا بال ، لأن النصوص التي نسبت إلى اللحياني في كتب الأمثال نادرة جداً ، ولا تكفي لأي حكم عليه .

كتاب الأمثال
لأبي عثمان سعدان بن المبارك الضرير :

من علماء الكوفة ورواتها ، روى عن أبي عبيدة معمر بن المثنى[٣] . ويذكر ابن الأنباري أن سعدان كان سبياً ، ومولى لعائلة مولاه المهدي ، وأنه كان من رواة العلم والأدب[٤] . وتوفي عام ٢٢٠ هـ .

ولسعدان كتاب في الأمثال ، ذكره كل من : ابن النديم[٥] ، وياقوت[٦] ، والقفطي[٧] ، والسيوطي[٨] ، والخطيب البغدادي[٩] ،

---

(١) إنباه الرواة ٢/ ٢٥٥ .
(٢) مقدمة « الدرة الفاخرة » .
(٣) ابن النديم ٧١ ، وياقوت ١١/ ١٨٩ .
(٤) نزهة الألباء ١٤٩ (نهضة مصر) .
(٥) الفهرست ٧١ .
(٦) معجم الأدباء ١١/ ١٩١ .
(٧) إنباه الرواة ٢/ ٥٥ .
(٨) بغية الوعاة ١/ ٥٨١ .
(٩) تاريخ بغداد ٩/ ٢٠٣ .

ولم أعثر حتى الآن على نص من هذا الكتاب !

كتاب الأمثال

لأبي عبيد القاسم بن سلام :

224

ولد أبو عبيد بهراة من إقليم خراسان ، ويقال : إن أباه كان رومياً[1] . ورحل من خراسان إلى البصرة والكوفة ، فأخذ عن علمائهما[2] ، ثم عاد إلى خراسان فأقام بمَرْو ، واشتغل بتأديب آل هَرْثمة[3] ، ثم وُلِّي القضاء بمدينة طرسوس ثماني عشرة سنة ، وقدم بغداد فسمع الناس منه كتبه[4] .

وكان أبو عبيد من العلماء المبرِّزين في كثير من فنون العلم ، تشهد بذلك مؤلفاته القيمة ، وقول المرزباني فيه : « وممن جمع صنوفاً من العلم ، وصنّف الكتب في كل فن من العلوم والأدب ، فأكثر وشُهر أبو عبيد القاسم بن سلام »[5] ، وقول القفطي عن كتبه : « وكتبه مستحسنة مطلوبة في كل بلد »[6] وتوفي عام ٢٢٤ هـ .

وكتابه في الأمثال من أهم كتبها وآصلها ، وقد بقي لنا في عدة مخطوطات ، وقد أعانني الله تعالى على تحقيق هذا الكتاب على ثلاث نسخ وثيقة[7] .

---

(١) انظر ترجمةموسّعة لأبي عبيد في مقدمة كتابه الذي قمت بتحقيقه .

(٢) تاريخ بغداد ٤٠٤/١٢ ، وابن خلكان ٢٢٥/٣ .

(٣) إنباه الرواة ١٣/٣ ، وابن النديم ٧١ .

(٤) ابن خلكان ٢٥٥/٣ .

(٥) إنباه الرواة ١٣/٣ .

(٦) المرجع السابق ١٣/٣ .

(٧) انظر وصف هذه النسخ في مقدمة الكتاب .

هذا ، وقد قام بطبعه ونشره مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى (١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م) ، ومن فضل الله عليَّ أنني نلت بهذا الكتاب الجائزة الأولى في تحقيق التراث من مجمع اللغة العربية بالقاهرة عن السنة المجمعية (٨١ ـ ١٩٨٢ م) .

وقد بدأ أبو عبيد كتابه بمقدمة قال فيها : « هذا كتاب الأمثال ، وهي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ ما حاولت من حاجاتها في المنطق ، بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال ، إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وقد ألفناها في كتابنا هذا على منازلها ، ولخصنا صنوفها ، وذكرنا المواضع التي يُتكلم بها فيها ، وتُضرب عندها ، وأسندناها إلى علمائها ، واستشهدنا بنوادر الشعر عليها ، أو على ما أمكن منها ، وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب ، وحَثَّنا عليه ما روينا من الأحاديث المأثورة عن النبي ، ﷺ ، أنه قد ضربها ، وتمثل بها ، هو ومن بعده من السلف ، وقد ذكرنا بعض ذلك ليكون حجة لمذهبنا » .

ثم أورد ، بعد هذه المقدمة ، طائفة من أمثال النبي ، ﷺ ، ثم ساق الأمثال التي احتواها الكتاب منسوقة في تسعة عشر قسماً كبيراً ، كل منها مقسَّم إلى عدة أبواب فرعية ، ثم أحد عشر باباً صغيراً ، كل باب قائم بذاته ، وبذلك تكون عدة الأقسام والأبواب ثلاثين .

وتبدأ الأقسام الكبرى بما سماه أبو عبيد « هذا جماع أبواب الأمثال في صنوف المنطق » ، وهو مقسم إلى ثمانية وعشرين باباً ، وتنتهي بما سماه « ذكر الأمثال في الجنايات » وينقسم إلى ثمانية أبواب فرعية . أما الأبواب القصار الأحد عشر فأولها « باب ذكر الأمثال في منتهى التشبيه وغايته » وآخرها « باب الأمثال في الطعام » .

وواضح من المقدمة وعناوين الأبواب أن أبا عبيد قد أسس كتابه هذا على المعاني الإنسانية ، وبَوَّبه تبويباً دقيقاً ، وإلى ذلك يشير ابن دَرَستويه (ت ٣٤٧ هـ) قائلاً : « وقد سبقه إلى ذلك جميع البصريين

والكوفيين ، الأصمعي ، وأبو زيد ، وأبو عبيدة ، والنضر بن شميل ، والمفضل الضبي ، وابن الأعرابي ، إلا أنه جمع رواياتهم ، وبَوَّبه أبواباً فأحسن تأليفه »[1] .

وواضح من المقدمة كذلك ، ومن دراسة الكتاب ، أن المؤلف قد اعتنى كل العناية بذكر أصول الأمثال ومواردها ، وتحديد المقامات والأحوال التي تضرب فيها ، وتفسير غريبها ، والاستشهاد بكلام الرسول ﷺ[2] ، وآثار الصحابة والتابعين ، وأقوال الحكماء والشعراء[3] .

ويعتمد أبو عبيد اعتماداً كبيراً على ما سبقه من كتب الأمثال ، ولا سيما كتب : المفضل الضبي وأبي عبيدة وأبي زيد والأصمعي ، كما يعتمد على أقوال جماعة كبيرة من علماء اللغة والنحو والأخبار ، كهشام ابن الكلبي ، والزبير بن بكار ، وأبي عمرو الشيباني ، وعلي بن المبارك الأحمر، وعلي بن حمزة الكسائي ، وأبي زكريا الفرّاء، وأبي محمد عبد الله بن سعيد الأموي ، وأبي محمد سلمة بن عاصم ، والهيثم بن عدي .

وربما كان أبو عبيد أول من عنى من العلماء بذكر الأمثال التي كانت تجري على ألسنة عامة عصره ، والأمثال القديمة التي ابتذلها هؤلاء العوام ، إذ ذكر نحو ٦٣ مثلاً من هذين النوعين ، كان ينبه عليها بعبارات منوعة ، كأن يقول : « والعامة تقول في مثل هذا المثل »[4] ،

---

(١) إنباه الرواة ٣/١٤ ، وتاريخ بغداد ١٢/٤٠٤ .

(٢) استشهد بنحو ٧٦ حديثاً سوى ما ذكره في صدر الكتاب .

(٣) عدة أبيات الشعر بالكتاب ٢٢٠ بيتاً .

(٤) انظر الصفحات : ٤٥ ، ٦٠ ، ١١٢ ، ٢١٩ ، ٢٥٣ ، ٣٢٢ ، ٣٣٧ ، ٣٥٨ .

أو يقول : « ومنه المثل السائر في العامة »[1] ، أو يقول : « وهذا مثل قديم ، ولكن العامة ابتذلته وحَوَّلته »[2] .

وكذلك عنى بالتعليق على بعض الأمثال بما يفيد أنه أكثر انتشاراً وسيرورة بين الناس من غيره[3] ، أو أنه قديم[4] ، أو من أمثال النساء[5] ، أو من أمثال أهل الشام[6] .

هذا ، ولم يحظَ كتاب من كتب الأمثال بما حظي به كتاب أبي عبيد ، فقد شَرَّق في الأقطار وغَرَّب ، وأقبل العلماء عليه قراءة ورواية ، وشرحاً واختصاراً ، وتضميناً ونظماً .

ففي المشرق زاد أبو الفضل المنذري (٣٢٩ هـ) عليه زيادات كثيرة ، يصفها أبو منصور الأزهري بقوله : « ولأبي عبيد كتاب الأمثال ، قرأته على أبي الفضل المنذري ، وذكر أنه عرضه على أبي الهيثم الرازي ، وزاد أبو الفضل في هذا الكتاب من فوائد أضعافَ الأصل فسمعنا الكتاب بزياداته »[7] ، ثم جاء بعد المنذري أبو المظفر محمد ابن آدم الهروي المقدسي (٤١٤ هـ) فشرح الكتاب[8] .

أما في الأندلس فكانت العناية به أشد ، وكانت هذه العناية تتمثل

---

(١) انظر : ٤٦ ، ١١٤ ، ٢٣٢ ، ٢٦١ .
(٢) انظر : ١٩٦ ، ٢٠٦ .
(٣) انظر: ٨٥ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٩٦ ، ٣٢٤ .
(٤) انظر : ٨٨ ، ١٠٨ ، ١٨٥ ، ٢٠٦ ، ٢٥٨ .
(٥) انظر : ٢١١ ، ٢٣٦ .
(٦) انظر : ٣٢٥ .
(٧) مقدمة « تهذيب اللغة » .
(٨) ياقوت ٢٦٧/٦ ، والقفطي ١٢٦/٣ ، والسيوطي ٤/١ (الطبعة الأولى) وحاجي خليفة ١٥٠/١ .

في صور مختلفة ، كالتجريد والتتميم ، والاستخدام والتضمين ، والترتيب والتبويب .

وأول من استخدم الكتاب ، من أهل الأندلس ، أحمد بن عبد ربه (ت٣٢٧ هـ) إذ أدرج أمثاله في كتاب « الجوهرة في الأمثال »[١] وهو أحد أبواب كتابه الشهير « العقد الفريد » ، وذلك بعد أن جرَّدها من الأخبار والآداب التي تتصل بها ، ثم أضاف إليها طائفة من أمثال العامة في الأمصار العربية[٢] .

وجاء بعده أبو عبيد البَكْري الأُوْنَبي (ت ٤٨٧ هـ) فشرح الكتاب، وسمى شرحه «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال »[٣] . وقد أضاف هذا الكتاب إضافات قيمة إلى كتاب القاسم بن سلام ، يمكن استنتاجها من قول البكري في مقدمته : « أما بعد فإني تصفَّحت كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، فرأيته قد أغفل تفسير كثير من تلك الأمثال فجاء بها مهملة ، وأعرض أيضاً عن ذكر كثير من أخبارها ، فأوردها مرسلة ، فذكرت من تلك المعاني ما أشكل ، ووصلت من تلك الأمثال بأخبارها ما فَصَّل ، وبيَّنت ما أهمل ، ونبَّهت على ما ربما أجمل ، إلى أبيات كثيرة غير منسوبة نسبتها ، وأمثال جمة غير مذكورة ذكرتها ، وألفاظ عدة من الغريب فسرتها » .

و « فصل المقال » مقسم إلى عشرين باباً كبيراً ، تتفرع منها أبواب صغار ، وتتحاذى مع أبواب كتاب أبي عبيد ، غير أن البكري قد

---

(١) العقد الفريد ٣/٦٣ ـ ١٤٠ .

(٢) نفسه ٣/٨١ .

(٣) طبع في الخرطوم بتحقيق الدكتورين : عبد المجيد عابدين ، وإحسان عباس (عام ١٩٥٨ م) وأعيد طبعه ببيروت (عام ١٩٧١ م) .

تصرف بعض التصرف في أبواب أبي عبيد الثلاثين ، إما بالحذف ، وإما بالإدماج ، وإما بتغيير بعض العناوين .

وكانت طريقة البكري في الشرح أن ينقل من الكتاب النصّ الذي يريد التعليق عليه ، مصدِّراً له بقوله : « قال أبو عبيد » ، ثم يعقب عليه مصدراً تعقيبه بالحرف (ع) اختصاراً لاسمه .

وتظهر في الكتاب شخصية البكري التي تتميز بالعلم الغزير ، والاعتداد بالنفس[1] ، والاعتماد على الجم الغفير من أقوال علماء اللغة والنحو الأدب والتاريخ .

وبعد البكري شرح الكتاب أبو بكر محمد بن أغلب المَرْسي (ت ٥١١هـ)[2] ، وألف أبو الربيع سليمان بن موسى الكُلاعي (ت ٦٣٤ هـ) كتاباً أسماه « نكتة الأمثال ، ونفثة السحر الحلال »[3] ضمَّنه أمثال أبي عبيد ، خلال فِقَر من إنشائه ، التزم فيها السجع[4] . ورتب أمثالَ الكتاب على حروف المعجم أبو الحكم مالك بن المرحل المالَقي (ت ٦٩٩ هـ)[5] .

كتاب الأمثال

لأبي عبد الله محمد بن زياد ابن الأعرابي :

ابن الأعرابي ربيبُ المفضل الضبي ، رَوَى عنه كتاب الأمثال ، وسمع منه الدواوين وصححها[6] .

---

(١) انظر : فصل المقال ٨ ، ٩ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٨٠ ، وانظر كذلك ما كتبناه في مقدمة « كتاب الأمثال » لأبي عبيد ، ص ٢٠ وما بعدها .

(٢) التكملة ١/٥٤١٢ ، والذيل والتكملة ٦/٥٠ .

(٣) مصورة دار الكتب المصرية (٨١٨٩ز) .

(٤) الذيل والتكملة ٤/٨٦ .

(٥) جذوة الاقتباس ٢٢٣ .

(٦) ياقوت ١٨/١٨٩ ، وابن خلكان ٣/٤٣٣ .

وكـان من نحاة الكـوفـة المشـاهيـر[1] ، راويـةً لأشعـار القبـائـل ناسباً[2] ، ناقش العلماء، واستدرك عليهم، وَخَطَّأ كثيراً من نَقَلة اللغة، وكـان رأساً في الكـلام الغريب[3] . وتـوفي بسُرَّ مَنْ رَأى ، وقـد جـاوز الثمـانين[4] ، وتترجـح الروايـات في تاريـخ وفـاتـه بين عـامي ٢٣٠ ، ٢٣٢ هـ .

وكان لابن الأعرابي كتاب يسمى « تفسير الأمثال » ذكره كل من : ابن النـديم [5] ، ويـاقـوت[6] ، والقفـطي [7] ، وابن خلكـان[8] ، والسيوطي [9] ، وحاجي خليفة[10] .

وتشيع في كتب الأمثال نصوصٌ منسوبـة إلى ابن الأعرابي وهي ، بلا شك ، مستقاة من هذا الكتاب ؛ منها مـا نقله حمزة الأصبهـاني في تفسير المثل « أعطشُ من ثُعَالة » فقال : « وخالفه ابن الأعرابي ، فزعم أن ثُعَـالة رجـل من بني مُجاشـع ، خـرج هـو ونجيح بن عبـد الله بن مجاشع في غَزاة فَفَوَّزا، فَلقِم كـل واحد منهمـا فَيْشَة صـاحبه، وشـرب بـولَه ، فتضـاعف العطش عليهمـا من ملوحة البـول ، فماتـا عـطشـاً ، فضَرَبت العرب بثعالة المثل: وأنشد لجرير:

---

(١) مراتب النحويين ٩٢ .

(٢) ياقوت ١٨/١٨٩ ، والقفطي ٣/١٢٩ ، وابن خلكان ٣/٤٣٣ .

(٣) ابن خلكان ٣/٤٣٣ .

(٤) ابن النديم ٦٩ ، وياقوت ١٨/١٩٠ ، والقفطي ٣/١٠٣ ، وابن خلكان ٣/٤٣٣ .

(٥) الفهرست ٦٩ .

(٦) معجم الأدباء ١٨/١٩٦ .

(٧) إنباه الرواة ٣/١٣٠ .

(٨) وفيات الأعيان ٣/٤٣٤ .

(٩) بغية الوعاة ١/١٠٦ .

(١٠) كشف الظنون ١/١٥٠ .

مـا كان يُنْكَـر في غَزِيٍّ مُجَـاشِعٍ   أكلُ الخَزِيرِ ولا ارْتِضَاعُ الفَيْشَلِ »[1]

ومنها ما نقله أبـو هلال العسكـري في تفسير المثـل « أَخذه أَخْـذَ سَبْعَةٍ » وهو : « وقال ابن الأعرابي : أراد سبعةً من العدد ، وإنما قيل : سبعة ، لأنه أكثر ما يستعملونه ، وفي كلامهم : سبع سماوات ، وسبـع أرضين ، وسبعة أيام »[2] .

ومن هـذين النصين وغيرهمـا من الـنصـوص المـبثـوثـة في كتب الأمثال ، نستطيع أن نستنبط عن الكتاب الحقائق الآتية :

١) أنه كان كبير الحجم ، ضم بين دفتيه الكثير من الأمثال ، سـواء في ذلك ما كان منها على وزن (أفعل من) وما لم يكن .

٢) أنـه تناول كـل جـوانب الأمثـال ، من بيـان الأصـول والمضـارب ، وتفسيـر الغريب وإيـراد الشواهـد عليه ، وقـد يؤكد هـذه الحقيقـة ويُشعر بها اسمُ الكتاب « تفسير الأمثال » .

٣) أنـه كان حـافلاً بـالأشعار والآثـار الأخرى التي تعين على تـوضيـح معاني الأمثال . وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن الكتابَ كان من أمهات كتب الأمثال ، وإنه كان يتناسب مع قدر صاحبه الذي كـان بحراً في علوم اللغة ، ورأساً في الغريب .

كتاب الأمثال
لأبي محمد عبد الله بن هارون التوزي :

ينسب إلى « تَـوَّز» من بـلاد فـارس ، وكـان من أفـذاذ علمـاء اللغة[3] ، وتترجح الروايات في عام وفاته بين عامي ٢٣٠ ، ٢٣٨ هـ .

---

(١) الدرة الفاخرة ١/ ٣٠٩ ، والبيت في ديوانه ٤٤٥ ، والنقائض ٢٢٣ ، واللسان (فشل) .
(٢) جمهرة الأمثال ١/ ١٧١ .
(٣) إنباه الرواة ٢/ ١٢٦ ، ونزهة الألباء ١٧٢ .

وكتابه في الأمثال صَرَّح به كل من: ابن النديم[1]، والقفطي[2]، والسيوطي[3] .

ولكنا لا نكاد نعثر في كتب الأمثال على آراء تنسب إليه ، ومن ثم لا نستطيع أن نقول عن هذا الكتاب قولاً .

(١) الفهرست ٥٧ .
(٢) إنباه الرواة ٢/١٢٦ .
(٣) بغية الوعاة ٢/٦١ .

(٣)

تدوين الأمثال
في العصر العباسي الثاني

كتاب الأمثال
لأبي يوسف يعقوب بن السكيت

كان ابن السكّيت من أفذاذ العلماء، ماهراً بعلم النحو واللغة والقرآن والشعر ، لقي فصحاء الأعراب ، وأخذ عنهم ، وحكى في كتبه ما سمعه منهم[١] . يقول عنه أبو العباس ثعلب : « أجمع أصحابنا على أنه لم يكن بعد ابن الأعرابي أعلم باللغة من ابن السكّيت ، وكان المتوكل قد ألزمه تأديبَ ولده المعتز بالله»[٢] . وتوفي عام ٢٤٤ ، أو٢٤٦هـ.

ولابن السكّيت كتاب في الأمثال ، صرح به كل من : ابن النديم[٣] . وياقوت[٤] ، وابن خلكان[٥] ، وأبو الفرج الأصفهاني[٦] ، وحمزة الأصبهاني[٧] ، وأبو عبيد البكري[٨] ، وابن منظور[٩] .

---

(١) الفهرست ٧٢ ، وياقوت ٢٠/ ٥٠ .

(٢) ابن خلكان ٥/ ٤٤١ ، وتاريخ بغداد ١٤/ ٢٧٣ .

(٣) الفهرست ٧٢ .

(٤) معجم الأدباء ٢٠/ ٥٢ .

(٥) وفيات الأعيان ٥/ ٤٤٢ .

(٦) الأغاني ٢١/ ١٨٩ ، ٢٠٣ (ساسي) .

(٧) الدرة الفاخرة ٢/ ٥٠٧ .

(٨) فصل المقال ٢٦٧ .

(٩) اللسان (تفه) .

ونرجح أن كثيراً من النصوص المبثوثة في كتب الأمثال واللغة ، والتي تنسب إلى ابن السكيت ، منقولة عن هذا الكتاب .

ومن نماذج هذه النصوص ما رواه حمزة الأصبهاني في تفسير المثل « أحمقُ من جَهِيزة » بقوله : « وخالفهم ابن السكيت فرواه «أحمقُ من جَهيزة» غيرَ مصروف، وزعم أن جهيزة اسم امرأة حمقاء من أهل الكوفة . قال : وهي أم شَبِيب الحَرُوري ، ومن حمقها أنها لما حملت شبيباً فأثقلت قالت لأحمائها : إن في بطني شيئاً يَنْقر ، فنُشرت هذه الكلمة عنها فحُمِّقت ، وسار في الكوفة المثل بها ، فقيل : أحمقُ من جَهيزة »[1] .

ومنها ما رواه أبو عبيد البكري عنه في تفسير المثل « كلُّ ذَاتِ صِدَارٍ خالةٌ» بقوله : «قال يعقوب : كانت أم هَمَّام بن مُرَّة امرأةً من بني أسد ، فأصاب فيهم ، فقالت له امرأة منهم ، وهي لُبْنى بنت الجِرْمز : أبخالاتك تفعل هذا ؟ فقال : كلُّ ذاتِ صِدَارٍ خالة ، أي لا تعتدِّي عليَّ بالخؤولة ، فليس ذلك بمانعِي عن الإغارة عليك ، فكل امرأة يجب على الغيور من الكفّ عن محارمها ما يجب للخالة أخت الأم ، ولا يجب الكفُّ عن مالها كما تذهبين إليه . وإنما قالت له : « أبخالاتك تفعل هذا ؟ !» على سبيل ما يقول بنو زُهرة : نحو أخوال رسول الله ﷺ . والصِّدار : ثوب لا كُمَّيْن له ، تَبْتَذل فيه المرأة في بيتها ، وكذلك الشَّوْذَر والمُرَحَّل والمِجْوَل»[2] .

ويتبين لنا من هذين النصين ، ومن غيرهما من النصوص ، أن كتاب ابن السكِّيت كان من الكتب التي أعطت الأمثال حقوقها ، من

---

(١) الدرة الفاخرة ١/١٥٢ .

(٢) فصل المقال ١٤١ .

حيث بيان أصولها ، وتفسير غريبها ، وإيراد الشواهد الشعريـة على هذا الغريب ، كما تبدو في هذه النصوص النزعتان اللغوية والنحوية ، وهما نزعتان كانتا تغلبان على ابن السكِّيت .

كتاب الأمثال

لأبي جعفر محمد ابن حبيب البصري

محمـد ابن حبيب من علمـاء بغـداد بـاللغـة والشعـر والأخبـار والأنساب والقبائل ، لا يعرف له أب ، وإنما ينسب إلى أمه حبيب[1] .

ويصفه القفطي بقوله : « وكـان محمد عـالماً بـالنسب وأخبار العـرب ، مكثـراً من رواية اللغـة ، موثقـاً في روايتـه »[2] وتـوفي بسـامَـرًّا في ذيَ الحجة سنة ٢٤٥هـ في أيام المتوكل[3] .

ولابن حبيب كتـاب في الأمثال التي على (أفعـل من) ذكره كـل من : ابن النديم[4] ، ويـاقوت[5] ، والسيوطي[6] ، وحـاجي خليفة[7] ، وحمـزة الأصبهاني[8] . وقـد أطلقت عليه بعض المصـادر السابقـة اسم « المنمَّق » ولكن بروكلمان رَدَّ هـذه التسمية ذاهبـاً إلى أن « المنمَّق » له في أخبار قريش لا في الأمثال[9] . وهو على حق فيما ذهب إليه[10] .

أما حجم الكتاب وعدد أمثاله فقد وصفهما حمزة في المقدمة عند

---

(١) ابن النديم ١٠٦ ، وياقوت ١٨/١١٢ .

(٢) إنباه الرواة ٣/١١٩ .

(٣) ياقوت ١٨/١١٢ .

(٤) الفهرست ١٠٦ .

(٥) معجم الأدباء ١٨/١١٥ .

(٦) بغية الوعاة ١/٧٤ .

(٧) كشف الظنون ١/١٥٠ .

(٨) مقدمة « الدرة الفاخرة» و٢/٤٣٨ .

(٩) تاريخ الأدب العربي ٢/١٥٤ (المترجم) .

(١٠) طبع في دائرة المعارف العثمانية بالهند بتصحيح خورشيد أحمد فارق (١٩٦٤م) .

حديثه عمن سبقه إلى التأليف في أمثال (أفعل من) حيق قال : « وتعقَّب هؤلاء محمد ابن حبيب البصري ، فألَّف في ذلك كتاباً ، نَقل إليه ما في تلك الأصول ، وزاد عليها زيادة كثيرة ، إلا أن كل ما أودع كتابَه من هذه الأمثال تبلغ عدته ثلاثمائة وتسعين مثلاً»[1] .

وأما منهجه وطريقته في تفسير الأمثال فإنا نبني الكلام عنهما على قطعة باقية من الكتاب ، وعلى ما نقله عنه حمزة في نحو ٢٤ موضعاً من كتابه[2] .

والقطعة التي أشرنا إليها نشرها محمد حميد الله في مجلة المجمع العلمي العراقي [3] ، تحت عنوان « من كتاب الأمثال عن محمد ابن حبيب اللغوي»[4] .

وتشتمل على ثمانية أمثال من هذا الفن بتفاسيرها . وبمقارنة هذه الأمثال بنظائرها في كتاب حمزة الأصبهاني ، الذي صرح في مقدمته بأنه نقل أمثال ابن حبيب ، وجدت ما يأتي :

١ ـ أن ثلاثة منها قد نقل حمزة تفاسيرها عن ابن حبيب ، ونسبها صراحة إليه ، وهي مطابقة كل المطابقة لما في النص المنشور، وهي قولهم : «أبردُ من عَبَقُرّ[5] ، وأجبن من هِجْرِس [6] ، وأجود من حاتم»[7] .

---

(١) ص ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) انظر فهارس الكتاب .
(٣) عام ١٩٥٦ م العدد الرابع ، ص ٤٤ ، ٤٥ .
(٤) عن مخطوطة طوب قبوسراي رقم ١٠٩٦ ورقة ٨١ أ .
(٥) الدرة الفاخرة ١/ ٨٣ .
(٦) نفسه ١/ ١١٣ .
(٧) نفسه ١/ ١٢٦ .

٢ ـ أن أربعة منها مطابقة كل المطابقة لما في كتاب حمزة ، ولكن حمزة لم يصرح فيها باسم ابن حبيب ، وهي قولهم : « أبرد من غَضْرَس »[١] و «أحمق من عِجْل»[٢] ، و « أبَرُّ من فَلْحَس»[٣] ، و « أنكح من ابن أَلْغَز»[٤] .

٣ ـ أن مثلاً واحداً يختلف تفسيره كل الاختلاف عما في كتاب حمزة ، وهو قولهم : « أخسر صفقةً من أبي غُبْشان »[٥] .

لهذا أرجح أن هذه القطعة من كتاب محمد ابن حبيب ، ومن ثم يصح لنا أن نعتمد عليها في وصف منهج الكتاب . وأستطيع بعد هذا أن أقول عن الكتاب :

١) إن أمثاله لم تكن مرتبة على حروف المعجم ، ويبدو هذا بوضوح في النص المنشور .

٢) إنه كان يهتم قبل كل شيء بذكر الحوادث والقصص التي تتصل بالأمثال ، وهذا الاتجاه يتناسب مع ما كان يغلب على المؤلف من العلم بالأخبار والأنساب ، ولعل كتابيه « المحبَّر والمنمَّق» يشهدان بذلك أيضاً .

٣) إنه كان لا يغفل تفسير الغريب الذي يحتاج إلى تفسير ، ولا الاستشهاد عليه بالشواهد الشعرية .

---

(١) الدرة الفاخرة ١/٨٣.
(٢) نفسه ١/١٤٤ .
(٣) نفسه ١/٨١ .
(٤) نفسه ٢/٤٠٢ .
(٥) نفسه ١/١٣٩ .

كتاب الأمثال
لأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي

الزيادي نحوي لغوي راوية[1] ، وكان يُشَبَّه بالأصمعي في معرفته بالشعر ومعانيه[2] ، قال عنه ابن السكّيت : قال أبو الحسن : الزيادي نسيج وَحْده ، الذي ينفرد برأيه ، ولا يكاد يخطىء ، وهو مَدْح من مدائح الرجال[3] ، وتوفي الزيادي عام ٢٤٩هـ .

وقد ذكر كتابه في الأمثال كل من : ابن النديم[4] ، وياقوت[5] ، والقفطي[6] ، والسيوطي[7] ، وابن الأنباري[8] ، وحاجي خليفة[9] . وهو من الكتب المفقودة ، وقلّ أن يذكر اسم الزيادي في كتب الأمثال .

كتاب الأمثال
لأبي عكرمة عامر بن عمران الضبي

أبو عِكْرِمة من أهل سُرَّ مَنْ رَأى ، كان نحوياً لغوياً أخبارياً ، أخذ عن ابن الأعرابي ، وأخذ عنه القاسم بن محمد بن بشار الأنباري ، وكان اعلم الناس بأشعار العرب ، وأرواهم لها[10] . وتوفي عام ٢٥٠هـ .

---

(١) ابن النديم ٥٨ ، وياقوت ١/١٥٨ .
(٢) ياقوت ١/١٦٠ .
(٣) إنباه الرواة ١/١٦٦ .
(٤) الفهرست ٥٨ .
(٥) معجم الأدباء ١/١٦١ .
(٦) إنباه الرواة ١/١٦٧ .
(٧) بغية الوعاة ١/٤١٤ .
(٨) نزهة الألباء ٢٦٩ .
(٩) كشف الظنون ١/١٥٠ .
(١٠) ياقوت ١٢/٣٩ ، وبغية الوعاة ٢/٢٤ .

وكتاب أبي عكرمة ما زال مخطوطاً [1] ، وبين يديَّ إحدى مخطوطاته [2] ، وهي التي اعتمدت عليها في تقويم الكتاب .

والكتاب صغير الحجم ، إذ لا يشتمل إلا على حوالي ١٢٠ مثلاً وقولاً من أقوال العرب السائرة .

أما موضوعه فهو ما ذكره أبو عكرمة في المقدمة بقوله : « هذا كتاب ألَّفناه في معاني كلام العرب السائر ، مما يُحتاج إلى تفسير لكثرة استعماله ، وبَيَّناه بشواهد من الشعر واللغة ، وفسرنا ذلك ، ونسبنا إلى كل عالم قوله » .

ومن هذه المقدمة يتضح لنا بجلاء أن موضوع الكتاب ليس أمثالَ العرب وحدها، ولكنه الأقوال السائرة عنهم، سواء أكانت أمثالاً أم غيرها .

أما منهجه فإنه لا يميز بين أمثال العرب وأقوالهم السائرة ، وإنما يخلط بعضها ببعض ، ولا ينص على أن هذا مثل ، وذلك قول سائر ، شأنه في ذلك شأن كتاب المؤرج السدوسي ، وقد سبق الحديث عنه .

غير أننا نحس فيه إلحاحاً واضحاً على تفسير الكلمات ، سواء في ذلك الناحيتان اللغوية والنحوية ، ويبدو هذا الإلحاح بوضوح في إيراد العديد من أقوال علماء اللغة والنحو والأدب ، وفي إيراد الشواهد الشعرية الوفيرة في تفسير الكلمات والأمثال ، حتى إن الكتاب يشتمل على أشعار تفوق ، في كثرتها ، الأمثال والكلمات السائرة ، ويكفي ان نذكر دليلاً على ذلك أن أبا عكرمة أورد في تفسير الكلمة الأولى من

---

(١) توجد منه أربع نسخ هي : مخطوطة مجموعة مكتبة الأسكوريال (رقم ١٧٠٥) وهو الكتاب الخامس من هذه المجموعة (ورقة ٣٩ ب ـ ٥٧ أ) ، ومخطوطة مجموعة عاطف أفندي (رقم ٢٠٠٣) وهو فيها ٣١ ورقة ، ومخطوطة بايزيد (رقم ٣١٧٨) ، ومخطوطة القاهرة (أول ٤/ ٢٤) ، ونشر أخيراً بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب .

(٢) هي المخطوطة الثانية ، وتوجد بدار الكتب المصرية (مجاميع ش ٢) .

كتابه ، وهي قولهم : « حَيَّاكَ الله وَبَيَّاك » واحداً وعشرين بيتاً من الشعر والرَّجَز .

ولا نكاد نعثر في الكتاب على قصة من تلك القصص التي ترتبط بها الأمثال . أما تحديد مضارب الأمثال فلم يلتفت إليه الكتاب ، غير أنه يُحمد لأبي عكرمة أنه استعان ، في التفسيرات اللغوية والنحوية ، بآراء بعض الفحول من علماء اللغة والنحو والأدب، مثل أبي عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، وأبي عبيدة ، وأبي زيد ، والأصمعي ، وأبي عمرو الشيباني، وابن الأعرابي ، وسلمة بن عاصم ، وابن السكِّيت ، والفرّاء ، والكسائي ، ومحمد بن سلام الجمحي ، وأبي عثمان المازني ، والتوَّزي .

وكان طبيعياً ألَّا يلتفت العلماء إلى هذا الكتاب ، وبين أيديهم في الأمثال كتاب مثل كتاب القاسم بن سلام ، وفي أقوال العرب مثل كتاب المؤرج السدوسي ، ومن ثمَّ لم نجد أحداً من مدوِّني الأمثال قد نقل عنه[١] .

كتاب الأمثال
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

255

الجاحظ أشهر مؤلفي العرب وكتَّابهم . كان من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستغنى عن الوصف[٢] . وكان الجاحظ من قراء الكتب المشهورين حتى قال عنه أبو هَفَّان : «لم أرَ قطُّ ، ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ،

---

(١) في جمهرة الأمثال (٢٦٦/١) نص عن أبي عكرمة الضبي في أصل المثل « تَسْمَع بالمُعَيدِّي خيرٌ من أن تراه » ولم أجده في النسخة التي عندي .

(٢) ياقوت ٧٤/١٦ .

حتى إنه كان يكتري دكاكين الورَّاقين ، ويَبيت فيها للنظر[١] . وكانت وفاته عام ٢٥٥هـ .

وينفرد كل من ياقوت[٢] ، وإسماعيل (باشا) البغدادي[٣] بذكر كتاب له في الأمثال . ويخامرني شك شديد في أن يكون للجاحظ مثل هذا الكتاب ، بل إني أرجح عدمَ وجوده للأسباب التالية :

(١) أن هذا الكتاب لم يرد ذكره في كتب التراجم والطبقات التي ترجمت للجاحظ ، إذا استثنينا كتاب ياقوت ، ولا في كتب المصنَّفات العلمية ، إذا استثنينا كتاب البغدادي ، الذي نعتقد أنه نقل عن ياقوت ، كما أنه لم يرد له ذكر في كتب الأمثال التي دُوِّنت بعد الجاحظ .

(٢) أن كتب الجاحظ ، ولا سيما كتاباً « الحيوان » و « البيان والتبيين » حافلة بالأمثال ، ففي « الحيوان » نحو ٣٢٦مثلاً ، يدور معظمها حول الحيوان[٤] ، وفي « البيان » نحو ١٤٥مثلاً[٥] . ولم يكن الجاحظ يسرد هذه الأمثال سرداً ، ولكنه كان يفسِّرها ، ويذكر أصولها ، ويسوق الشعر الكثير خلال هذه التفاسير[٦] ، وكان يجمع الكثير منها في نسق واحد ، ولا سيما حين يتكلم عن طبائع الحيوان ، ويقارن بينها وبين طبائع الإنسان ، ففي موضع واحد من كتابه «الحيوان» ذكر ثمانية وعشرين مثلاً من باب (أفعل من)

---

(١) ياقوت ١٦/ ٧٥.

(٢) نفسه ١٦/ ١٠٩ .

(٣) هدية العارفين ١/ ٨٠٣ .

(٤) انظر : فهارس « الحيوان » .

(٥) انظر: «فهارس البيان والتبيين» تحقيق أستاذنا العلامة عبد السلام هارون .

(٦) الحيوان ١/ ١٩٧ ، ٣٢٣ ، ٦/ ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

ليقيم عليها بعض الأحكام عن طباع الحيوان[1] . وفي موضع آخر ذكر عشرة أمثال عن الحمار وحده[2] .

(٣) أن حمزة الأصبهاني قد نقل كثيراً من الأمثال وتفاسيرها عن كتابي « الحيوان »[3] و « أطعمة العرب »[4] للجاحظ ، ولو كان له كتاب في الأمثال لنقل حمزة عنه ، لا عن كتاب آخر من كتبه .

لذلك أرى أن الجاحظ لم يكن له كتاب في الأمثال ، وأن العلماء الذين رووا عنه أقوالاً في تفاسير الأمثال إنما نقلوها عن كتبه الكثيرة التي كانت تحفل بالأمثال .

كتاب الأمثال
لأبي عمرو شمر بن حمدويه الهروي

شَمِر بن حَمْدَوَيْهِ نحوي لغوي راوية للأخبار والأشعار[5] . رحل في شبيبته إلى العراق ، فأخذ عن علماء البصرة والكوفة ، ثم عاد إلى خراسان فأخذ عن النضر بن شميل والليث[6] ، وكانت وفاته عام ٢٥٥هـ .

ولم يذكر كتابَه في الأمثال سوى الميداني في قوله : « وكذلك في أمثال شمر»[7] ثم نقل عنه في ثلاثة مواضع أخرى[8] ، وهي نصوص قليلة موجزة ، لا تكفينا للحكم على الكتاب .

---

(١) الحيوان ١/٢٢٠ ، ٢٢١ .
(٢) نفسه ٢/٢٥٥ - ٢٥٨ .
(٣) انظر/ مقدمة « الدرة الفاخرة» .
(٤) نفسه ٢/٣٥٩ - ٣٧٢ .
(٥) ياقوت ١١/٢٧٤ ، ونزهة الألباء ٢٦٠ .
(٦) ياقوت ١١/٢٧٤ ، وإنباه الرواة ٢/٧٧ ، وبغية الوعاة ٢/٤ .
(٧) مجمع الأمثال ١/٦٦٥ (بيروت) .
(٨) نفسه ١/٥٠٥ ، ٢/٣١٣ ، ٣٢٩ .

كتـــاب الأمثـــال

لأبي محمـــد عبـــد الله بن مسلم بن قتيبـــة الدينوري

ابن قُتَيبـة عالم بـاللغة والنحـو وغـريب القـرآن ومعـانيـه والشعـر والفقه[1] . وهو مؤلف بارع ، ومصنِّف ممتاز ، وكتبه مرغـوب فيها[2] . يقـول عنه الخـطيب البغدادي : « وهـو صاحب التصـانيف المشهورة ، والكتب المعروفة ، منها : غريب القرآن ، وغريب الحـديث ، ومشكل القرآن ، ومشكل الحـديث ، وأدب الكاتب ، وعيـون الأخبار ، وكتـاب المعارف ، وغير ذلك »[3] وتتراوح أقوال العلماء في تاريخ وفاته مـا بين عامي ٢٧٠ ، ٢٧٦هـ .

وله كتاب في الأمثال ، انفرد ابن النديم بذكـره ، ويسميه « حِكَم الأمثال »[4] ، وهو من الكتب المفقودة .

ونصادف في مدونـات الأمثال ، بعـد ابن قتيبة ، نصـوصاً شتى ، تتعلق بالأمثال وتفاسيرهـا ، وتنسب إليه ، ولا سيمـا في كتب العسكري والبكـري والميداني ، كمـا نقرأ في كتبـه كثيراً من الأمثـال وقصصهـا . وفي كتابه « أدب الكاتب » باب عنوانه «باب تأويل كلام من كلام الناس مستعمل»[5] أورد فيه بعض الأمثال وأقوال العرب السائرة ، ذاكراً أصـل كل منها ، ومفسراً غريبه ، وموردا أقـوال بعض العلماء فيـه . ومن هذا البـاب قولـه : «ويقولـون : هم في أمـرٍ لا يُنـادَى وليـدُه، نَـرى أن أصله شدةٌ أصابتهم حتى كانت المرأة تنسى وليدها ، وتذهل عنه فلا تنـاديه ،

---

(١) ابن النديم ٧٧ ، وانباه الرواة ٢/١٤٧ .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) تاريخ بغداد ١٠/١٧٠ .

(٤) الفهرست ٧٨ .

(٥) أدب الكاتب ٥١ ـ ٦٩ . (ليدن) .

ثم صار مثلاً في كل شدة. قال أبو عبيدة: هو أمر عظيم لا يُنادَى فيه الصغار، إنما ينادى فيه الجِلَّة. وقال أبو العَمَيْثَل الأعرابي: الصبيان إذا رأوا عجباً تحشَّدوا له، مثل القَرَّاد والحاوي، فلا يُنادَوْن، ولكن يُتركون يفرحون، والمعنى أنهم في أمر عجيب. وقال غير هؤلاء: يقال هذا في موضع الكثرة والسَّعَة، أي متى أهوى الوليد بيده إلى شيء لم يُزجر عنه لكثرة الشيء عندهم، ونحو منه قولهم: هم في خير لا يُطَيَّر غرابُه، يقولون: يقع الغراب على شيء فلا يُنَفَّر لكثرة ما عندهم»(١).

أما ما نقلته كتب الأمثال عنه فمنه قول البكري في تفسير المثل «ليس هذا بعُشِّك فادْرُجي»، وهو: «قال ابن قتيبة: يضرب مثلاً للرجل المطمئن المقيم، وقد أظلَّه أمر عظيم يَحتاج إلى مباشرته والخفوف فيه. وقد أتى به الحجَّاج في خطبته حين دخل العراق فقال: إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قِطَافُها، كأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحَى، ليس أوانَ عُشِّكِ فَادْرُجي، ليس أوانَ يَكثر الخِلَاط. وإنما حَضَّهم يومئذ على اللّحاق بالمهلَّب لقتال الأزراقة. والخِلَاط: السِّفَاد»(٢).

لهذا نرجِّح أن ابن قتيبة كان له كتاب في الأمثال، لأن هذه النصوص الطويلة لا تكون إلا من كتاب خالص للأمثال، كما نستنتج من هذه النصوص وغيرها أن الكتاب كان يتناول أصول الأمثال وأسبابها، وتحديد مضاربها، وتفسير غريبها وإيراد الشواهد وأقوال العلماء في هذا التفسير.

---

(١) أدب الكاتب ٥٨، ٥٩.

(٢) فصل المقال ٣١٩.

كتاب الأمثال

لأبي الهيثم الرازي

أبـو الهَيْثم إمـام لغـوي نحـوي[1] . وهـو أستـاذ أبي الفضـل المنذري[2] . ويختلف العلماء في تاريخ وفاته اختلافاً شـاسعاً ، فـذكر القفطي أنه توفي في عام ٢٠٦هـ[3] ، وذكر ابن الأنباري أن وفاته كانت سنـة ٢٢٦هـ في خلافـة المعتصم بالله[4] ، بينمـا يذكـر السيوطي أنهـا كـانت سنة ٢٧٦هـ[5] . وأنـا أرجح قـول السيوطي لأن أبـا الهيثم كـان أستـاذاً لأبي الفضـل المنـذري كمـا سبق ، وقـد تـوفي المنـذري عـام ٣٢٩هـ ! .

ولأبي الهيثم كتاب في الأمثال ، ذكره الميداني في قوله : « وبِخط أبي الهيثم »[6] وفي قوله : « قال المنذري : قـرأته بخـط أبي الهيثم »[7] وقـد عثرت على نصـوص كثيرة في كتـاب مجمـع الأمثـال[8] وفي كتب اللغــة[9] ، تضــاف إلى أبي الهيثم ، وتتضمن آراءه في تفسيـر بعض الأمثال ، ويغلب عليها الطابعان اللغوي والنحوي ، ولكنها لا تمكنني من وصف الكتاب ، وإصدار حكم عليه .

---

(١) إنباه الرواة ٤/١٨٢ ، وبغية الوعاة ٢/٣٢٩ .

(٢) مقدمة « تهذيب اللغة » للأزهري ، وإنباه الرواة ٤/١٨٢ ، ونزهة الألباء ١٤٧ .

(٣) إنباه الرواة ٤/١٨٢ .

(٤) نزهة الألباء ١٤٧ .

(٥) بغيةالوعاة ٢/٣٢٩ .

(٦) مجمع الأمثال ١/٣٤١ (بيروت) .

(٧) نفسه ٢/١٠ .

(٨) انـظر/ ص ١ / ٨٦ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٧١ ، ٢٢٣ ، ٤٠٦ ، ٤٣٥ ، ٥٠٢ ، ٥١٧، ٥٦٧ ، ٦٥٥ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٢/٢٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٦٢ ، ٨٨ ، ١٤٠ ، ١٥١، ١٦٦ ، ٢٥١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٢ ، ٤٧٨ (بيروت) .

(٩) انظر مثلاً/ اللسان (لوى ، رأى) .

كتاب الأمثال
لأبي جعفر أحمد بن أبي عبد الله البرقي

البَرْقي كوفي الأصل ، هرب بعض أجداده إلى (بَرْقة قُمَّ) فأقاموا بها ، ونُسبوا إليها[1] ، وكان ثقة في نفسه ، غير أنه أكثر الرواية عن الضعفاء ، واعتمد المراسيل . وكان من المصنفين المكثرين[2] . توفي عام ٢٧٤ هـ .

وينفرد ياقوت بذكر كتاب له في الأمثال[3] ، غير أني لم أجد للكتاب ولا لمؤلفه ذكراً في كتب الأمثال .

كتاب الامثال
لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب

ثعلب إمام الكوفيين في النحو واللغة[4]، كان ثقة، حجة، مشهوراً بمعرفة الغريب ورواية الشعر القديم ، وغزارة الحفظ[5] وكانت وفاته سنة ٢٩١ هـ .

وكان لثعلب كتاب في الأمثال ، صرَّح به كل من : ابن النديم[6] ، والقفطي[7] ، وحاجي خليفة[8] .

والنصوص التي نقلتها كتب الأمثال عن ثعلب قليلة موجزة ، إذ نقل

---

(١) برقة قم : مدينة فارسية ، تقع بين أصبهان وساوة . وقم : كلمة فارسية معربة .
(٢) ياقوت ٤/١٣٢ ، ١٣٣ .
(٣) معجم الأدباء ٤/١٣٣ .
(٤) إنباه الرواة ١/١٣٨ ، ونزهة الألباء ٢٩٣ .
(٥) إنباه الرواة ١/١٣٩ .
(٦) الفهرست ٧٤ .
(٧) إنباه الرواة ١/١٥١ .
(٨) كشف الظنون ١/١٥٠ .

عنه أبو هلال العسكري في تسعة مواضع[1] ، وحمزة الأصبهاني في خمسة[2] . ونرجح أنها منقولة عن هذا الكتاب . وتتسم هذه النصوص بالطابع اللغوي ، وإيراد الشواهد الشعرية على غريب الألفاظ ، ويتضمن بعضها أخباراً قصاراً متَّصلة بالأمثال ، رواها ثعلب عن أستاذه ابن الأعرابي[3] .

كتاب الفاخر
لأبي طالب المفضل بن سلمة

المفضل بن سَلَمة عالم لغوي ، كوفي المذهب . لقي ابن الأعرابي وغيره من العلماء ، واستدرك على الخليل في كتاب « العين » وخَطَّأه ، وعمل في ذلك كتاباً[4] . وأخذ عن أبيه سلمة بن عاصم ، وخالف طريقته[5] . وكانت وفاته سنة ٢٩٠ هـ .

وللمفضل كتاب في الأمثال ، تطلق عليه بعض المصادر اسم « الفاخر فيما يلحن فيه العامة »[6] ويطلق عليه بعضها اسم « الفاخر في الأمثال »[7] وقد طُبع مرتين[8] .

أما موضوعه فقد أفصح عنه المفضل بقوله في المقدمة : « هذا كتاب معاني ما يجري على ألسن العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام

---

(١) جمهرة الأمثال ١/ ٢٠ ، ٢٤ ، ١٥٤ ، ١٧٧ ، ١٩٨ ، ٢٩١ ، ٣٧٥ ، ٥٧٢ ، ٢/ ٤٢٥ .

(٢) الدرة الفاخرة ١/ ٨١ ، ٢١٩ ، ٢/ ٤٨٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٦.

(٣) جمهرة الأمثال ١/ ٣٧٥ ، ٥٧٢ .

(٤) ابن النديم ٥٧٣ ، وبغية الوعاة ٢/ ٢٩٧ .

(٥) بغية الوعاة ٢/ ٢٩٦ .

(٦) ابن النديم ٧٣ ، وياقوت ١٩/ ١٦٣ ، والسيوطي ٢/ ٢٩٧ .

(٧) حاجي خليفة ١٢١٥ ، والدرة الفاخرة ١/ ٨٠ ، ٢/ ٣٧٣ .

(٨) نشر بتحقيق المستشرق ستوري (عام ١٩١٥ م) ثم نشر ثانية بالقاهرة بتحقيق عبد العليم الطحاوي (١٩٦٠ م) .

العرب ، وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك ، فبيَّناه من وجوهه على اختلاف العلماء في تفسيره ، ليكون من نظر في هذا الكتاب عالماً بما يجري من لفظه ، ويدور في كلامه » .

وهذه المقدمة تذكِّرنا بكتابين سبق الحديث عنهما ، وهما : كتاب المؤرج السدوسي ، وكتاب أبي عكرمة الضبي ، إذ إن ثلاثتها تتشابه في الموضوع ، وفي التناول والمعالجة ، ويحتوي كل منها على ما كان يشيع على ألسنة الناس في أزمانهم ، من أمثال العرب ومحاوراتهم وأقوالهم وأدعيتهم ، ولا يدرون ما معناها ، وتفسير كل ذلك ، وإيراد أقوال العلماء فيه .

وإذا قارنا بين الكتب الثلاثة وجدنا أن « الفاخر » أكبر حجماً ، إذ يضم ٥٢١ كلمة سائرة ، منها نحو ٢٧٠ مثلاً ، على حين لا يحتوي كتاب المؤرج إلا على مائة كلمة ومثل وأربعة ، ولا يحتوي كتاب أبي عكرمة إلا على نحو ١٢٠ كلمة ومثلاً سائراً .

أما منهج الكتاب فهو على شاكلة كتابَيْ المؤرّج وأبي عكرمة ، من حيث المزج بين أقوال العرب وأمثالهم السائرة ، وعدم الفصل بينهما . وقد استنفد المفضل الجَهْد في التفسير اللغوي لمادة كتابه ، إما بإيراد العديد من أقوال علماء اللغة والنحو والأدب ، وإما بإيراد الشواهد الشعرية الوفيرة على غريب الألفاظ ، ولا غرو فالمفضل من العلماء المبرزين في اللغة والنحو .

ويمتاز الكتاب عن الكتابين الآخرين بالاهتمام الواضح بذكر أصول الأمثال وأسبابها والقصص المرتبطة بها ، وأوائل من قالها ، وكان اعتماده في هذه الناحية على علماء الأخبار ، مثل المفضل الضبي ، والشرقي بن

القطامي ، وأبي عبيدة ، وابن الكلبي ، وأبي اليقظان ، والزبير بن بكار .

أما في اللغة والغريب والنحو فكان اعتماده على أبي عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، ومؤرج السدوسي ، والنضر بن شميل ، وأبي عمرو الشيباني ، وابن الأعرابي ، والأصمعي ، وأبي زيد ، واللّحياني ، والقاسم بن سلام ، والفرّاء ، والكسائي ، وسلمة بن عاصم ، وأبي الحسن الطوسي ، وغيرهم .

وقد نقل عنه كل من : حمزة الأصبهاني[١] ، وأبي هلال العسكري[٢] ، والميداني[٣] ، وابن منظور[٤] .

كتاب الأمثال
لأبي محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري

305

كان الأَنْباري محدثاً أخبارياً ، عارفاً بالأدب والغريب ، ثقة ، صاحب عربية[٥] ، وهو والد أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ، أخذ عن سلمة بن عاصم وأمثاله من أصحاب الفرّاء[٦] . وتوفي سنة ٣٠٥ هـ .

وصرح بكتابه في الأمثال كل من : ابن النديم[٧] ، وياقوت[٨] ، والقفطي[٩] ، والسيوطي[١٠] .

---

(١) الدرة الفاخرة ١/٨٠ ، ١٠٤ ، ٢/٣٧٣ ، ٤٠٤ .
(٢) جهرة الأمثال ١/١٦٣ ، ٢/٢٦٧
(٣) ذكره في المقدمة ، ونقل عنه في ٦٥ موضعاً .
(٤) اللسان (أسا ، فنن) .
(٥) بغية الوعاة ٢/٢٦١ .
(٦) الفهرست ٧٥ .
(٧) نفسه ٧٥ .
(٨) معجم الأدباء ١٦/٣١٧ .
(٩) إنباه الرواة ٣/٢٨ .
(١٠) بغية الوعاة ٢/٢٦١ .

ولم أعثـر في كتب الأمثال ، ولا في كتب اللغـة ، على نصـوص تنسب إلى مؤلفه !

كتاب الأمثال
لأبي عبد الله إبراهيم بن عرفة نفطويه

أخذ نَفْطَوَيْه عن ثعلب والمبرّد[1] ، وكان حسن المجالسة للخلفاء والوزراء، حافظاً للسِّيَر وأيام الناس، وتواريخ الزمان والعلماء[2]. ويصفه الزبيدي بقوله : « كـان نفطويـه أديباً مفتنّـاً في الأدب ، حافـظاً لنقائض جرير والفـرزدق ، وشعر ذي الـرّمة وغيـرهم من الشعراء ، وكـان يروي الحديث ، وكان متفنناً في النحو[3] . وتوفي ببغداد في عام ٣٢٣ هـ .

وكـان لـه كتـاب في الأمثـال ، ذكـره كـل من : ابن النـديم[4] ، وياقوت[5] ، والقفطي[6] ، والسيوطي[7] كمـا كان لـه كتاب آخـر في « أمثال القرآن » ذكره ياقوت[8] ، والسيوطي[9] ، وحدهما . ولم أعثر في كتب الأمثال على نصوص تنسب لنفطويه .

كتاب الزاهر
لأبي بكر محمد بن القاسم المعروف بابن الأنباري

كان ابن الأنباري علاّمة وقته في الأدب واللغة ، وأكثر الناس حفظاً لهمـا ، وكان صـدوقاً ثقـة[10] ، في نهايـة الـذكـاء والفـطنـة ، وجـودة

---

(١) الفهرست ٨١ .
(٢) إنباه الرواة ١/ ١٨١ .
(٣) طبقات النحويين واللغويين ١١٢ ، وانظر الإنباه ١/ ١٨٠ .
(٤) الفهرست ٨٢ .
(٥) معجم الأدباء ١/ ٢٧٢ .
(٦) إنباه الرواة ١/ ١٨٠ .
(٧) بغية الوعاة ١/ ٤٢٩ .
(٨) معجم الأدباء ٢٧٢/١ .
(٩) بغية الوعاة ١/ ٤٢٩ .
(١٠) ابن خلكان ٤٦٣/٣ .

القريحة ، وسرعة الحفظ ، وكان مع ذلك ورعاً من الصالحين ، لا يعرف له حرمة ولا زلة ، وكان يضرب به المثل في حضور البديهة وسرعة الجواب ، وأكثر ما كان يمليه من غير دفتر ولا كتاب[1] . وتوفي عام ٣٢٨ أو ٣٢٧ هـ .

ولابن الأنباري كتاب في الأمثال مشهور ، يسمى « الزاهر في معاني كلمات الناس » وهو من الكتب التي وصلتنا[2] . أما موضوع الكتاب ومحتواه فقد ذكره ابن الأنباري في المقدمة بقوله : « إن من أشرف العلم منزلة ، وأرفعه درجة ، وأعلاه مرتبة ، معرفة ما يستعمله الناس في صلواتهم ودعائهم وتسبيحهم ، وتقربهم إلى ربِّهم ، وهم غير عالمين بمعنى ما يتكلمون به من ذلك . وأنا موضح في كتابي هذا ، إن شا الله ، معاني ذلك كله ، ليكون المصلِّي إذا نظر فيه عالماً بمعنى الكلام الذي يتقرب به إلى خالقه ، ويكون الداعي فَهِماً بالذي يسأله من ربه ، ويكون المسبِّح عارفاً بما يعظِّم به سيده ، ومُتْبع ذلك تبيينَ ما يستعمله العوام في أمثالها ومحاوراتها من كلام العرب ، وهي غير عالمة بتأويله ، باختلاف العلماء في تفسيره ، وشواهده من الشعر ، ولن أُخْلِيَه ما أستحسن إدخاله فيه من النحو والغريب ، واللغة والمصادر والتثنية والجمع ، ليكون مشاكلاً لاسمه » .

وإذا أردنا أن نضع هذا الكتاب بين نظائره من كتب الأمثال فإنّا نضعه مع كتب : المؤرج السدوسي ، وأبي عكرمة الضبي ، والمفضل ابن سلمة، وإن كان يمتاز عنها جميعاً بالضخامة وغزارة المادة، إذ إن « الفاخر » ، وهو أوسع الكتب الثلاثة ، وأوفرها مادة ، كما ذكرنا ،

---

(١) ابن النديم ٧٥ .

(٢) طبع بتحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن (بغداد ١٩٧٩م) .

يشتمل على ٥٢١ مثلاً وقولاً سائراً ، بينما يشتمل « الزاهر » منها على نحو ٨٣٤ . كما أنه يمتاز كذلك بتفسير نوع من الكلمات خلت منها الكتب السابقة ، وهي تلك التي يستعملها المسلمون في صلاتهم ودعائهم وتسبيحهم لربهم .

وقد اهتم ابن الأنباري ، فوق تفسيره الشامل للكلمات والأمثال ، بالتنبيه على أقوال العامة وأمثالهم ، وبالتنبيه على أخطائهم فيما يتلفظون به من الكلمات والأمثال العربية ، أو أخطائهم في تأويل معانيها ، إذ نقرأ في كتابه مثل هذه العبارات « وقول العامة كذا » ، أو « والعامة تقول كذا وصوابه كذا » ، أو « وهذا مما تلحن فيه العوام والصواب كذا »، أو « والعامة تخطىء فيه فتقول كذا ، أو « والعامة تخطىء في تأويله فتقول كذا » .

ونعثر في كتب الأمثال واللغة على نصوص كثيرة في تفسير بعض الأمثال وكلمات العرب السائرة ، وتنسب إلى ابن الأنباري ، ومن هذه النصوص ما نقله أبو هلال العسكري[1] ، وأبو عبيد البكري[2] ، وابن منظور[3] .

كتاب الأمثال
لأبي الفضل محمد بن أبي جعفر المنذري

المنذري نحوي لغوي مصنِّف ، وهو شيخُ أبي منصور الأزهري الذي أملى كتاب « التهذيب » بالرواية عنه[4] ، وتلميذُ أبي الهيثم الرازي

---

(١) جمهرة الأمثال ١/ ٨٥ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٨٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٩ ، ٣٧٤ ، ٤٨٣ .

(٢) فصل المقال ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٣) اللسان (دهن ، سكن ، ظعن ، فتن ، كين ، يمن ، أوه ، بله ، جله ، جوه ، هيه ، أسا ، ألا ، أنى ، حشا ، حظا ، رأى ، زكا) .

(٤) ياقوت ١٨/ ٩٩ .

الذي لازمه سنين ، يعرض عليه الكتب ، ويكتب من أماليه وفوائده[١] ، ويقول عنه القفطي : « كان ثقة فيما يرويه ، ثبتاً فيما يؤخذ عنه »[٢] وكانت وفاته سنة ٣٢٩ هـ .

وللمنذري كتاب في الأمثال، يسمى «زيادات أمثال أبي عبيد» ذكره ياقوت[٣] ، وأشار إليه الأزهري في مقدمة « التهذيب » بقوله : « ولأبي عبيد كتاب الأمثال ، قرأته على أبي الفضل المنذري ، وذكر أنه عرضه على أبي الهيثم الرازي ، وزاد أبو الفضل في هذا الكتاب فوائد أضعاف الأصل ، فسمعنا الكتاب بزياداته »[٤] ، كما صرح به الميداني في قوله : « هذا مثل أورده المنذري »[٥] وقوله : « ووجدت بخط المنذري[٦] » ثم نقل عنه في تسعة مواضع أخرى[٧] .

كتاب الأمثال
لأحمد بن إبراهيم بن سمكة القمي

القُمِّي نحوي لغوي ، وإمام فاضل مذكور في وقته ، وصاحب تصانيف حسان ، انقطع إلى آل العميد لتأديبهم ، ومات في حدود عام ٣٥٠ هـ[٨] .

وكان للقمي كتاب في الأمثال ، يسمى « جامع الأمثال » ذكره كل

---

(١) انباه الرواة ٤/١٨٢ ومقدمة « تهذيب اللغة للأزهري » .
(٢) انباه الرواة ٣/٧١ .
(٣) معجم الأدباء ١٨/١٠٠ .
(٤) ص ٢٠ .
(٥) مجمع الأمثال ١/٨٦ (بيروت) .
(٦) نفسه ١/٣٠٥ .
(٧) نفسه ١/٦٣ ، ٨٧ ، ٥٠١ ، ٦١٦ ، ٣/١٠ ٦٠ ، ٦٢ ، ٣٢٣ ، ٤٥٥ .
(٨) إنباه الرواة ١/٢٩ .

من : القفطي[1] ، والسيوطي[2] ، والثعالبي[3] .

وقد اقتبس السيوطي من هذا الكتاب بعض النصوص الطويلة[4] .

وتدل هذه النصوص على أن الكتاب كان على أبواب المعاني ، ككتاب القاسم بن سلام ، وأنه كان أكبر منه حجماً ، وأوفى شرحاً وتناولاً للأمثال .

كتاب الدرة الفاخرة
لحمزة بن الحسن الأصبهاني

حمزة من أهل أصبهان ، رحل إلى بغداد عدة مرات ، ولقي كثيراً من العلماء وأخذ عنهم . وهو مؤلف أصيل ، حسن التأليف ، يصفه بذلك كل من ابن النديم[5] ، والقفطي[6] ، وكانت وفاته نحو سنة ٣٥١ هـ[7] .

ومن أهم الكتب التي ألَّفها حمزة كتاب « الدرة الفاخرة في الأمثال التي على أفعل »[8] وهو أوسع المدونات العربية في هذا الفن من الأمثال ، وأوثقها وآصلها .

وقد صَدَّر حمزة كتابه بمقدمة قيِّمة ، تحدَّث فيها عن موضوع الكتاب ، وهو الأمثال التي جاءت على وزن (أفعل من) ومكانة هذه الأمثال في الاستعمال اللغوي بجميع صوره ، ثم عقب بذكر العلماء

---

(١) إنباه الرواة ١ /٢٩ .

(٢) المزهر ١ /٤٩٤ ، ٥٠١ ، ٥٠٣ .

(٣) التمثيل والمحاضرة ٢٤ .

(٤) المزهر ١ /٤٩٤ ، ٥٠١ ، ٥٠٣ ، وشرح شواهد المغني ٢٤٧ .

(٥) الفهرست ١٣٩ .

(٦) انباه الرواة ١ /٣٥٥ .

(٧) انظر في ترجمة حمزة ومصادرها ومكانته الأدبية : مقدمة « الدرة الفاخرة » تحقيقي .

(٨) نشرته دار المعارف بالقاهرة في سلسلة « ذخائر العرب » رقم ٤٦ (عام ١٩٧١) .

الذين سبقوه إلى التأليف في هذا الفن من الأمثال ، ووصف مؤلفاتهم ، ثم انتقل بعد هذا إلى ذكر اختلاف النحاة في شروط صياغة فعلى التعجب، واسم التفضيل من الأفعال المختلفة، وهاجم تشدّدهم في هذه الشروط ، لأنها تخالف ما تكلمت به العرب من هذين البابين على الجبلَّة والفطرة ، وذكر أن اللغة العربية أرحبُ صدراً ، وأوسع أُفقاً من تلك القيود التي يضعها النحاة ، وأن علماء اللغة كانوا أكثر تسامحاً منهم، وساق على هذا الرأي عدة أمثلة من أقوال العرب وأمثالهم خالفت شروط النحاة . ثم قرر بعد ذلك أن معظم أمثال العرب مضروبة بالبهائم ، وعلَّل لذلك ، كما قرر أن الفرس كانت تتمثل بالبهائم كالعرب ، وساق على ذلك عدة أمثلة . . وختم المقدمة بتقرير أن من الأمثال ما يتكلم به أهل قبيلة بعينها ، أو أهل بلد بعينه ، وضرب لهذا عدة أمثلة أيضاً .

وبعد هذه المقدمة ساق حمزة الأمثال العربية التي على وزن (أفعل من) في ثمانية وعشرين باباً على نسق الحروف الهجائية ، وعلى عددها .

وفي الباب التاسع والعشرين ذكر كثيراً من الأمثال المولدة المزدوجة التي من هذا الفن ، سواء أكانت نثرية أم شعرية ، وهي أمثال رائعة حقاً .

أما الباب الثلاثون فقد أفرده لذكر الكلمات التي تجري مجرى الأمثال ، وهي أسماء المكنَّى والمبنَّى والمثنَّى ، وجعل لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة فصلاً متميزاً .

ثم ختم الكتاب بذكر بعض خرافات الأعراب وخَرزَاتهم ورُقاهم ذكراً أصل كل خرافة ، وما ورد فيها من الشعر ، وأسماء الخرزات المختلفة ، وما كان يُتلى عليها من الرُّقَى .

وقد رتَّب حمزة أمثاله العربية ترتيباً هجائياً ، وإن كان لم يلتزم الترتيب المعجمي الدقيق لجميع الأمثال ، كما فعل الزمخشري فيما بعد ، إذ كان يكتفى بالنظر إلى الحرف الأول الأصلي من الكلمة الأولى من المثل ، فيجمع الأمثال التي تشترك في هذا الحرف في الباب الخاص بها ، وهكذا . . وقد دأب على أن يسرد أمثال كل باب في صدره على شكل فهرس ، ثم يفسِّر منها بعد ذلك ما يحتاج الى تفسير .

وكثيراً ما نجد في الكتاب تنبيهاً على أن هذا المثل قديم(١) ، أو إسلامي(٢) أو مولّد(٣) ، أو مما يتكلم به أهل كذا(٤) ، أو قبيلة كذا(٥) . وإذ كان حمزة من أصل فارسي ، وعلى دراية بالفارسية وآدابها ، وجدناه يستغل هذه اللغة في تفاسير بعض الأمثال(٦) .

ومن الظواهر التي تدل على أصالة الكتاب أن مؤلفه قد اعتمد على كثير من كتب الأمثال واللغة والنحو والأدب ، وعلى أقوال الجم الغفير من العلماء(٧) .

ويعد الكتاب أوسع المدونات التي جمعت الأمثال التي جاءت على (أفعل من) إذ يضم بين دفتيه منها زهاء ألف وثلاثمائة مثل قديم ، جاهلي وإسلامي ، وزهاء خمسمائة مثل مولّد مزدوج ، وبذلك صح أن يطلق عليه بجدارة « كتاب أفعل » كما جاء في بعض المصادر .

1300
500

---

(١) انظر : المثلين ٥٢ ، ٦٢٤ .
(٢) انظر : المثل ٤٨٩ .
(٣) انظر : الأمثال ٢٣ ، ٢٦ ، ٨٢ ، ٢٠٧ .
(٤) انظر : الأمثال ١١٥ ، ٢٢٣ ، ٣٣٩ ، ٣٩٦ ، ٤٤٢ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦٢٣ ، ٧١١ .
(٥) انظر : الأمثال ٢٢٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٧١٥ .
(٦) انظر : الأمثال ٢٠ ، ٢٢٦ ، ٣٠٩ ، ٤٨٦ .
(٧) انظر : فهارس الكتاب .

ومن ناحية أخرى انفرد الكتاب ، من بين كتب الأمثال، بذكر طائفة كبيرة من الكلمات التي تسير في اللغة مسير الأمثال ، وأعني بها كلمات المكنّى والمبنّى والمثنّى من الأسماء ، إذ عقد حمزة لها باباً مستقلاً ، هو الباب الثلاثون ، وأوردها في ثلاثة فصول ، وفسر كلاً منها تفسيراً واسعاً ، مدعوماً بآراء العلماء وأقوال الشعراء . ويعتدّ حمزة بهذا الباب ، ويقول فيه : « وختمت الكتاب بنوادر من الكلام ، لم يُصنَّف في مثلها كتاب ، ويبلغ عدتها أكثر من خمسمائة كلمة »[1] .

هذا وقد اعتمد على الكتاب اعتماداً كبيراً ثلاثةٌ من مدوِّني الأمثال الذين أتوا بعده ، وهم أبو هلال العسكري ، والميداني ، والزمخشري . أما أبو هلال فقد نقل أمثاله العربية ، وساقها في فصول مستقلة في أعقاب أبواب كتابه بعنوان « الأمثال المضروبة في التناهي والمبالغة » وقد صرح بذلك في المقدمة .

وأما الميداني فقد نقل هذه الأمثال في أعقاب أبواب كتابه أيضاً بعنوان « ما جاء على أفعل من هذا الباب » واعترف بهذا النقل في المقدمة كذلك .

وأما الزمخشري فإن المقارنة بين كتابه « مستقصى الأمثال » وبين كتاب « الدرة الفاخرة» تثبت بوضوح أنه اعتمد عليه اعتماداً كبيراً ، وإن لم يصرح بذلك !

كتاب الأمثال
للإصطخري

ذكر الميداني وحده كتاباً في الأمثال ينسب إلى الإصطخري ،

---

(١) المقدمة ١/٥٦ .

حيث يقول : « وإنما وجدته في أمثال الإصطخري »[1] . وقد تتبعت أسماء من يلقب بهذا اللقب في كتب التراجم[2] ، فلم أجد واحداً منها نَسب إلى أحد هؤلاء الإصطخريين كتاباً في الأمثال ، ومن ثم فلا نستطيع أن نقول عن هذا الكتاب ولا عن صاحبه قولاً !

كتاب الأمثال
لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري

كان أبو أحمد من الأئمة المذكورين بالتصرف في أنواع الفنون ، المشهورين بجودة التأليف وحسن التصنيف[3] . انتهت إليه رياسة التحديث والإملاء للآداب والتدريس بقطر خوزستان ، ورحل الأجلاء إليه للأخذ عنه ، والقراءة عليه[4] ، يقول عنه ابن خلكان : « أحد الأئمة في الآداب والحفظ ، وهو صاحب أخبار ونوادر ، وله رواية متسعة ، وله التصانيف المفيدة »[5] وكانت وفاته عام ٣٨٢ هـ .

وله كتاب في الأمثال يسمى « الحكم والأمثال » ذكره كل من : ياقوت[6] ، والقفطي[7] ، وابن خلكان[8] ، والسيوطي[9] . وهو من

(١) مجمع الأمثال ١/٤٦٥ (بيروت) .

(٢) انظر: الأنساب للسمعاني (حيدر آباد سنة ١٩٦٢) ص ١/٢٨٦ ـ ٢٨٨ ، ومعجم البلدان لياقوت (اصطخر) وتاريخ بغداد ١٠/١٣٤ (الترجمة ٥٢٧٥) ، ووفيات الأعيان ١/١٢٩ .

(٣) ياقوت ٨/٢٣٦ .

(٤) نفسه ٨/٢٣٦ .

(٥) وفيات الأعيان ١/٣٦٤ .

(٦) معجم الأدباء ٨/٢٣٦ .

(٧) إنباه الرواة ١/٣١٢ .

(٨) وفيات الأعيان ١/٣٦٥ .

(٩) بغية الوعاة ١/٥٠٦ .

الكتب المفقودة ، غير أننا نقرأ كثيراً من آراء أبي أحمد وأقواله في تفسير الأمثال في كتاب « جمهرة الأمثال » لابن أخته وتلميذه أبي هلال العسكري ، وسنوضح هذا الأمر في حديثنا عن هذا الكتاب .

كتاب الأمثال
للحسين بن محمد الرافقي المعروف بالخالع

كان الخالع إماماً في النحو والأدب واللغة ، وله شعر . وأخذ عن أبي علي الفارسي وأبي الحسن السيرافي وغيرهما[1] ، وتوفي عام ٣٨٨ هـ .

وله كتاب في الأمثال ، ذكره كل من : ياقوت[2] ، والسيوطي[3] . ولم أعثر على نص في كتب الأمثال ينسب إلى الخالع ، مما يدل على أن كتابه لم يكن ذا قيمة واضحة .

كتاب الأمثال
لأبي الندى محمد بن أحمد الغندجاني

أبو الندى من علماء القرن الرابع الهجري . أخذ عن أبي سعيد السيرافي ، وعن مشايخ زمانه[4] ، ويصفه ياقوت بقوله : « وأنا أرى أن هذا الرجل خرج إلى البادية ، واقتبس علومه من العرب الذين يسكنون الخيم »[5] . وقد سكتت المصادر التي ترجمت له عن تاريخ وفاته .

وكان له كتاب في الأمثال ، صرح به الميداني وحده في قوله :

---

(١) ياقوت ١٠/١٥٥ .

(٢) نفسه ١٠/١٥٥ .

(٣) بغية الوعاة ١/٥٣٨ .

(٤) إنباه الرواة ٤/١٨١ .

(٥) معجم الأدباء ١٧/١٥٩ .

« كـذا رواه أبو النـدى في أمثالـه »[1] وفي قولـه : « قال أبـو النـدى في أمثاله »[2] كما نقل عنه في عشرة مـواضع أخـرى[3] . وفيما عـدا كتاب الميـداني لم أجد إلا نصـاً واحـداً نسبـه أبـو هـلال العسكـري إلى أبي الندى[4] .

كتاب جمهرة الأمثال
لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري

ولد أبو هـلال بعسكر مُكـرم من بلاد فـارس ، وبها نشـأ ، وإليها ينسب ، وتنقَّل في التجارة إلى بلاد متعددة ، فأخذ عن فضـلائها ، ولم تشغله التجـارة عن العلم والأدب والتصنيف فيهما، وتصـانيفه في غـايـة الجودة[5] . أما وفاته فيقول عنها ياقوت : « وأمـا وفاتـه فلم يبلغني فيها شيء ، غير أني وجدت في آخر كتاب « الأوائل » من تصنيفه : « وفرغنا من إمـلاء هذا الكتـاب يوم الأربعـاء لعشر خلت من شعبـان سنة خمس وتسعين وثـلاثمائـة »[6] ، ويقول القفـطي : « وعاش إلى مـا بعـد سنـة أربعمائة »[7] . ومن ثم فلا نستطيع أن نعيِّن تاريخ هذه الوفاة !

وكتابه « جمهرة الأمثال »[8] كتاب مشهور ، أوتي من نباهة الـذكر

(١) مجمع الأمثال ١/١٠٣ (بيروت) .

(٢) نفسه ٢/٩٢ .

(٣) نفسه ١/٢٦٠ ، ٣٧٧ ، ٤٧٩ ، ٥٣٥ ، ٥٩٠ ، ٦١٠ ، ٢/٢٠ ، ٢٣ ، ٩٤ ، ١٥٤ .

(٤) جمهرة الأمثال ٢/١٣٢ .

(٥) إنباه الرواة ٤/١٨٣ .

(٦) معجم الأدباء ١٦/٢٦٤ .

(٧) إنباه الرواة ٤/١٨٣ .

(٨) طبع في بمباي على الحجر سنة ١٣٠٧ هـ ، وطبع في القاهرة على هامش « مجمع الأمثال » (المطبعة الخيرية سنة ١٣١٠ هـ) . ثم طبع أخيراً بالقاهرة أيضاً بتحقيقي وبالاشتراك مع أستاذي المرحوم محمد أبي الفضل إبراهيم في مجلدين كبيرين (المؤسسة العربية الحديثة سنة ١٩٦٤ م) .

نصيباً موفوراً . ويصدِّره أبو هلال بمقدمة قيِّمة ، يشيد فيها بمنزلة الأمثال من الكلام ، وما تخلعه عليه من فخامة وقبول وجمال ، ثم يعقب ذلك بأن العرب أدركت قيمة الأمثال ومنزلتها فأخرجتها في ألفاظ قوية ، ليخفَّ استعمالها ، ويسهل تداولها ، وأن الأمثال ليست كغيرها من فنون الكلام الأخرى ، لأنها تحتاج لفهمها والإبانة عن معانيها إلى العلم بالغريب ، والوقوف على أصولها وأحاديثها ومضاربها . ثم يذكر بعد ذلك أنه نظم أمثاله على نسق حروف المعجم ليدنو مُجْتَناها ، ويسهل مُبْتَغاها ، وأنه نقل أمثال حمزة الأصبهاني العربية إلى كتابه ، ويختم المقدمة بذكر اشتقاق كلمة (المثل) ومعنى قولهم « ضرب المثل » وأن الأمثال لا تتغير ، بل تُحكى على ما جاءت عليه عن العرب .

أما أمثال الكتاب فقد ساقها أبو هلال في تسعة وعشرين باباً ، على نسق حروف المعجم الثمانية والعشرين ، مضافاً إليها باب في الأمثال المبدوءة بالحرف (لا) وهو الباب الثامن والعشرون .

وقد اعتاد أن يصدِّر كل باب بسرد الأمثال التي يحتويها على شكل فهرس ، ثم يذكر الأمثال التي على (أفعل من) من هذا الباب مفهرسة كذلك ، وبعنوان « الأمثال المضروبة في المبالغة والتناهي » ، ثم يأخذ بعد ذلك في تفسير الأمثال التي تحتاج إلى تفسير من هذه الأمثال وتلك .

وحجم الكتاب كبير ، إذ يشتمل على نحو ثلاثة آلاف مثل ، منها ثمانمائة على وزن (أفعل من) فسر منها أبو هلال (١٩٧٢) مثلاً ، وأغفل ما عداها لوضوح معناه .

وتظهر في الكتاب عناية فائقة ببيان أصول الأمثال ومضاربها ،

وأوائل من قالها ، وبالاهتمام بالناحيتين اللغوية والنحوية[1] .

وإذ كان المؤلف من علماء البلاغة والنقد المبرِّزين وجدناه كثيراً ما يعلق على الأمثال والأشعار بآراء نقدية ، تتناول جمال اللفظ أو قبحه ، وجودة المعنى أو رداءته ، وصوابه أو خطأه ، وهذه الناحية مما يمتاز بها الكتاب عما عداه من كتب الأمثال قاطبة . والكتاب حافل بالأشعار التي تسير مسير الأمثال، والتي هي من روائع الحكمة العربية، وحافل كذلك بالأشعار التي سيقت شواهد على غريب الألفاظ . وكما استكثر أبو هلال من الاستشهاد بالشعر استكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف وآثار السلف. ومما يُحمد للكتاب كذلك إيراد الأمثال المتشابهة عند تفسير بعض الأمثال ، سواء في ذلك الأمثال النثرية والشعرية [2] .

ويبدو من الكتاب أن أبا هلال كان يتقن اللغة الفارسية ، وكان واسع الاطلاع على آدابها وأمثالها ، لأنا وجدناه يكثر من إيراد أمثال الفرس ، إما معرَّبة ، وإما بألفاظها الفارسية ، ويقارن بينها وبين نظائرها العربية ، ووجدناه ينبِّه على بعض الكلمات الفارسية التي عُرِّبت[3] ، كما وجدناه يقول : « وقد اتفقت العرب والفرس في جميع أمثالها إلا هذا المثل »[4] .

---

(١) انظر في اهتمامه بالناحية النحوية ١/٥٦، ٦٦، ٧٨، ١١٨، ١٢٨، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٩٦، ٣٨٣، ٤٢٠، ٥٦٤، ٥٦٩.

(٢) انظر : ص ١/١٧٩، ٣١٥، ٣١٦، ٢/٢٣٦، ٢٣٧، ٢٨١، ٢٨٢ .

(٣) انظر : ص ١/٥٥، ٦٥، ١٠٩، ١١٧، ١١٨، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٦، ١٦٣، ١٧٣، ١٨٥، ١٩٧، ٢٦٣، ٢٦٩، ٥٢٥، ٥٤٣، ٢/٤١، ٥٥، ٧٥، ١٠١، ١١٩، ١٤٢، ١٥٠، ١٥٤، ٢٠٢، ٢٥٢، ٢٦٣، ٣٨٩.

(٤) انظر: ص ١/٣٠١ .

ويشير أبو هلال إلى أن هذا المثل قديم[1] ، أو مولّد[2] ، أو محدث[3] ، أو من أمثال العامة ، أو مبتذل في العامة[4] .

وكان أبو هلال صاحب رأي وموقف في تفسير الأمثال ، إذ وجدناه يخطِّىء العلماء الذين يَروي عنهم ، ويردّ رواياتهم بصورة تشعر بالثقة بالنفس والاعتداد بالرأي[5] . ووجدناه يقارن بين الروايات ويفاضل بينها[6] .

ويعتمد أبو هلال في شروحه على آراء علماء اللغة والأخبار ، من أمثال أبي عمرو بن العلاء ، والشرقي بن القطامي ، والمفضل الضبي ، وهشام ابن الكلبي ، والمؤرج السدوسي ، وأبي عبيدة ، وأبي زيد ، والأصمعي ، وابن الأعرابي ، واللِّحياني ، وابن السِّكّيت ، ومحمد ابن حبيب ، وابن قتيبة ، والمبرد ، وثعلب ، والكسائي ، والفراء ، والمفضل بن سلمة ، وابن الأنباري .

وقد استكثر من الرواية عن خاله أبي أحمد العسكري ، إذ ذكره في نحو مائة موضع من الكتاب قائلاً : « أخبرنا أبو أحمد . . . . » .

والكتب التي صرَّح بالنقل عنها ، أو أحال عليها قليلة ، وهي :

---

(١) انظر : ٢/٢٢٤ ، ٢٤٤ .

(٢) انظر : ١/٢٤٤ ، ٥٥٩ ، ٢/٦٥ ، ١٧٣ ، ٢١٧ .

(٣) انظر : ١/٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢/١٠٢ ، ٢٤٥ .

(٤) انظر : ١/١٥١ ، ١٦٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٥٠ ، ٣٧٧ ، ٤٥٠ ، ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٥١٢ ، ٥٥٣ ، ٢/٤٨ ، ٩٨ ، ١٤٩ ، ١٩٠ ، ٢٣١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٩ ، ٣٤١ ، ٤٢٦ .

(٥) انظر : ١/٩٣ ، ٢٨٠ ، ٤١٠ ، ٢/٤٩ ، ٥٦ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٣٧ .

(٦) انظر : ١/٣٦٧ ، ٢/٢٣٤ ، ٢٣٩ .

« الدرة الفاخرة » لحمزة الأصبهاني[1] ، وكتاب الأمثال للأصمعي[2] ، وكتاب الأمثال لأبي عبيدة[3] ، وكتاب « كليلة ودمنة » [4] وبعض كتبه ، مثل : كتاب الصناعتين [5] ، وكتاب الأوائل [6] ، وكتاب شرح الفصيح [7] ، وكتاب شرح ديوان الحماسة [8] .

518

كتاب «مجمع الأمثال»
لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني

الميداني أديب فاضل ، وعالم نحوي لغوي ، اشتهر بأدبه ، وعُرف في البلدان بتصانيفه الحسان . قرأ الأصول وأحكمها ، ثم أخذ في التصنيف فأحسن كل الإَحسان فيما جمعه وصنَّفه ، وأرْبَى على من تقدم بالترتيب والتحقيق ، واستدرك على بعض من زَلَّ قبله من المصنفين ، وأصلح مواضع الغلط ، وله يد باسطة في أنواع الأدب ، وإنما قيل له : الميداني لأنه كان يسكن مَيْدان زياد بن عبد الرحمن بنيسابور ، وكانت وفاته عام ٥١٨هـ[9] .

وكتابه «مجمع الأمثال»[10] كتاب جليل القدر، ذائع الذكر، فهو أشهر كتاب في الأمثال يتداوله الناس الآن ، ويرجعون إليه ، حتى لقد

---

(١) انظر : المقدمة .
(٢) انظر : ١/١٣٦ ، ١٥٩ .
(٣) انظر: ١/١٥٩ .
(٤) انظر : ١/١٨ ، ٧٠، ١٧٠ ، ٢١٦ ، ٢٨٨ .
(٥) انظر : ١/١٤ ، ٣٧٤ .
(٦) انظر : ١/٥٨٩ ، ٢/٢٢٤ ، ٣٤٨ ، ٣٨٨ .
(٧) انظر : ٢/٣٠٤ .
(٨) انظر : ١/٤٠٧ .
(٩) معجم الأدباء ٥/٤٥ ، وإنباه الرواة ١/١٢١ ، ١٢٢ .
(١٠) طبع في مصر وبيروت عدة طبعات غير محقَّقة !

طغت شهرته على ما عداه من كتب الأمثال .

ويضم الكتاب ثلاثين باباً ، أورد الميداني في الأبواب الثمانية والعشرين الأولى منها الأمثال بتفاسيرها ، مرتَّبة حسب أوائلها على حروف المعجم الثمانية والعشرين ، بادئاً في كل باب بالأمثال العربية ، ومعقباً بالأمثال التي على وزن (أفعل من) من هذا الباب ، وخاتماً بالأمثال المولّدة تحت عنوان « المولّدون» .

وفي الباب التاسع والعشرين سرد أسماء أيام العرب في الجاهلية والإسلام ، دون أن يتعرض بالتفصيل لذكر الوقائع والحروب التي تتصل بهذه الأيام ، اعتماداً على الكتب التي فصلت الكلام فيها .

وفي الباب الثلاثين ذكر شذرات كريمة من كلام النبي ﷺ ، وكلام صحابته رضوان الله عليهم ، كأبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وعبد الله بن مسعود وغيرهم .

ولما كانت مادة البابين الأخيرين لا تمتُّ إلى الأمثال المصطلح عليها بصلة ذكر الميداني السبب الذي دعاه إلى إيرادها حيث قال في المقدمة : « وجعلنا البابَ التاسع والعشرين في أسماء أيام العرب دون الوقائع ، فإن فيها كتباً جمَّة البدائع ، وإنما عنيت بأسمائها لكثرة ما يقع فيها من التصحيف . وجعلت الباب الثلاثين في نُبَذ من كلام النبي ﷺ ، وكلام خلفائه الراشدين ، رضي الله عنهم أجمعين ، مما ينخرط في سلك المواعظ والحكم والآداب» .

وقد عني الميداني ، في تفسير الأمثال ، بذكر أصولها وأسبابها والأخبار التي تتصل بها ، والتي كان يرويها عن علماء الأخبار والأنساب ، أمثال أبي عبيدة ، والمفضل الضبي ، والشرقي بن القطامي ، وعطاء بن مصعب ، وغيرهم ، كما عني ببيان مضاربها التي

كان يذكرها باطراد في أعقاب التفاسير كما أنه لم يغفل المسائل النحوية واللغوية التي تستثيرها بعض الأمثال .

وقد لاحظت على الكتاب أنه لم يستكثر من الشواهد الشعرية ، ولم يستطرد بذكر الأخبار الأدبية التي تشيع في كتب الأمثال الأخرى ، ولعل السرُّ في ذلك أن المؤلف آثر أن يجمع أكبر عدد من الأمثال على أن يورد تلك الاشعار والأخبار كما فعل غيره من شرّاح الأمثال .

ويشتمل الكتاب على نحو ستة آلاف وثمانين مثلاً ، منها خمسة آلاف وثمانون مثلاً عربياً ، وأَلْفُ مثل من أمثال المولّدين[1] ، وبذلك يكون أوسع كتب الأمثال قاطبة .

وقد أشاد الميداني بالجهد الذي بذله في تتبع هذا العدد الكبير من الأمثال ، وفي استقصائه من كتب الأمثال وغيرها ، فقال في المقدمة : « فطالعت من كتب الأئمة الأعلام ما امتد في تقصّيه نَفس الأيام ، مثل كتاب أبي عبيدة وأبي عبيد ، والأصمعي وأبي زيد ، وأبي عمرو وأبي فَيْد ، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل بن سلمة ، حتى لقد تصفَّحت أكثر من خمسين كتاباً ، ونخلت ما فيها فصلاً فصلاً ، وباباً باباً . . . ونقلت ما في كتاب حمزة بن الحسن إلى هذا الكتاب، إلّا ما ذكره من خَرَزَات الرُّقَى ، وخُرافات الأعراب والأمثال المزدوجة لاندماجها في تضاعيف الأبواب» .

---

(١) هذا العدد حسب إحصاء قمت به لأمثال الكتاب ، بعد أن قمت بعمل فهرس أبجدي لها . وقد أخطأ المستشرق الألماني زلهايم في إحصاء هذه الأمثال ، إذ جعلها ٥٦٣٨ مثلاً ، ثم أخطأ مرة أخرى إذ أدخل أسماء أيام العرب وكلمات الرسول ﷺ وصحابته ضمن الأمثال ، ولعل ما حداه إلى ذلك أنه أراد أن يحقق العدد الذي ذكره الميداني في المقدمة ، وهو(ستةَ آلاف مثل ونيف) انظر : الأمثال العربية القديمة ٢١٧ (المترجم) .

ويشتمل الكتاب على تعليقات قيمة على بعض الأمثال ، لم أجدها في غيره من كتب الأمثال الباقية ، كقول الميداني عن المثل « دَع العوراء تُخْطِئْك » : « هذا أحكمُ مثلٍ قالته العرب»[1] « وعن المثل «أحرز امرأً أجلُه » : «ويقال : هذا أصدق مثل ضربته العرب»[2] وعن المثل « المرأةُ من المرء ، وكل أدماء من آدم » : « هذا أول مثل جَرى بين العرب»[3] وعن المثل « العجزُ رِيبَة » « هذا أحق مثل ضربته العرب»[4] .

ومن مزايا الكتاب أنك تقرأ فيه أسماء العديد من علماء اللغة والأدب والأخبار والتاريخ والنحو الذين نقل عنهم الميداني ، كما تقرأ أسماء كثير من الكتب التي نقل عنها أيضاً ، سواء أكانت كتب أمثال أم غيرها .

أما كتب الأمثال التي صرح الميداني بالنقل عنها فهي : كتاب الأمثال لأبي عمرو بن العلاء[5] ، وكتاب الأمثال لأبي عبيدة معمر بن المثنى[6] ، وكتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام[7] ، وكتاب « الفاخر » للمفضل بن سلمة[8] ، وكتاب الأمثال لشمر بن حمدويه[9] ، وكتاب الأمثال التي على وزن (أفعل) لحمزة بن الحسن الأصبهاني[10] وكتاب الأمثال لأبي الهيثم الرازي[11] ، وكتاب الأمثال لأبي الفضل

---

(١) مجمع الأمثال ١/٣٧٦ (بيروت) .
(٢) انظر : ١/٢٩٩ .
(٣) انظر : ٢/٣٥٧ .
(٤) انظر : ١/٦٧٠ .
(٥) انظر : ١/١٩٠ .
(٦) انظر : ١/١٩٦ .
(٧) انظر : ١/٨٠ ، ٢٢٠ .
(٨) انظر : ١/٣٧٢ ، ٢/٢٦٢ .
(٩) انظر : ١/٦٦٥ .
(١٠) المقدمة .
(١١) انظر : ١/٣٤١ ، ٢/١٠ .

المنذري [1] ، وكتاب الأمثال لأبي الندى الغندجاني [2] ، وكتاب الأمثال للإصطخري [3] .

وهناك كتب أخرى في الأمثال لم يصرِّح الميداني بأسمائها أثناء الكتاب مكتفياً بذكر أسماء أصحابها ، ولا نشك في أنه قرأها ، ونقل عنها ، يؤيدنا في ذلك أنه ذكرها في المقدمة وهي كتب : المفضل الضبي ، والأصمعي ، وأبي زيد ، ومؤرج السدوسي .

وأما كتب اللغة التي صرَّح بالنقل عنها فهي : تهذيب اللغة للأزهري [4] ، والصحاح للجوهري [5] ، ومقاييس اللغة لأحمد بن فارس [6] ، وتكملة كتاب العين للخارزنجي [7] ، وكتاب الإبل لأبي حاتم السجستاني [8] ، وكتاب المفسَد والمُذَال له [9] ، وكتاب الأمالي للخوارزمي [10] .

ولا بد أن نقف هنا قليلاً عند أحد كتب الأمثال التي ذكر الميداني أنه نقل أمثاله ، وأعني به كتاب « الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة » لحمزة الأصبهاني ، فقد قمت بتحقيق هذا الكتاب ، وتأكدت أن الميداني قد نقل أمثاله العربية بتفاسيرها ، حتى لقد كنت أرجع إلى « مجمع الأمثال » بالإضافة إلى النسخ الخطية الأربع لكتاب حمزة ، وقد لاحظت أن الميداني قد تصرَّف في أمثال حمزة بعض التصرف ،

---

(1) انظر : ١/١٢٥ .
(2) انظر : ١/٨٦ ، ٣٠٥ .
(3) انظر : ١/١٠٣ ، ٢/٩٢ .
(4) انظر : ١/٤٦٥ .
(5) انظر : ٢/٤١٧ .
(6) انظر : ١/٣٤٥ ، ٢/٤١٧ .
(7) انظر : ٢/١٩٧ .
(8) انظر : ١/٣٥٤ .
(9) انظر : ١/٢٦٣ .
(10) انظر : ٢/٢٤٦ .

إما بتفسير أمثال لم يفسرها ، وإما باختصار بعض التفاسير ، أو الزيادة فيها ، وإما بتخطىء حمزة في بعض آرائه . ومن ثم فإني أرى وجوب الرجوع إلى كتاب حمزة عندما يحين الوقت لتحقيق كتاب « مجمع الأمثال » وهو كتاب جدير بالتحقيق ، وعمل الفهارس اللازمة له .

وثَمَّة ميزة أخرى لكتاب « مجمع الأمثال » تلك هي تسجيله لأمثال المولّدين ، التي تصوّر ألواناً من حياة المجتمع العربي وأفكاره وسلوكه ، وفلسفته في الحياة بعد أن اختلط العرب بالأعاجم ، ونشأ عن هذا الاختلاط ألوان وأنماط من الفكر الاجتماعي عبَّرت عنها هذه الأمثال أصدق تعبير ، مثل قولهم : « الدراهم بالدراهم تُكسب ، رأس المال أحد الرِّبْحَيْن ، ركوب الخنافس ولا المشي على الطنافس ، زاد في الطنبور نغمة ، الزريبة الخالية خير من ملئها ذئاباً ، سلطان غشوم خير من فتنة تدوم ، السَّلف تلَف ، اسجد لقرد السوء في زمانه ، شر السمك يكدّر الماء ، طريق الحافي على أصحاب النعال ، عناية القاضي خير من شاهدَيْ عدل ، الغائب حجته معه ، فَرَّ من المطر وقعد تحت الميزاب» .

وبعد ، فكتاب « مجمع الأمثال » كتاب جليل خطير ، استحوذ منذ تأليفه على إعجاب الناس ، وما زال يستحوذ على هذا الإعجاب حتى اليوم ، لاستيعابه للأمثال العربية القديمة ، وتدوينه لطائفة كبيرة من الأمثال المولّدة لم يدونها كتاب غيره ، ولإيجازه وحسن تصنيفه . وقد أشاد به كل من ترجم للميداني من العلماء ، فقال ابن خلكان : « وله فيها التصانيف المفيدة ، منها كتاب مجمع الأمثال المنسوب إليه ، ولم يُعلم مثله في بابه»[1] . ويروي العلماء أن الزمخشري بعدما ألَّف

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ٤٦ .

كتابه « المستقصى في أمثال العرب» وقع له كتاب الميداني ، فأطال نظره فيه ، وأعجبه جداً ، وندم على تأليف كتابه ، لأنه رآه دون «مجمع الأمثال» في حسن التأليف والوضع وبسط العبارة وكثرة الفوائد[1] .

ومن مظاهر تقدير العلماء له أن قام بعضهم باختصاره ، وبعضهم بنظمه ، إذ يذكر صاحب كشف الظنون أن من اختصره من العلماء اثنان ، هما : شهاب الدين محمد بن أحمد القضاعي ، وأبو يعقوب يوسف بن طاهر بن يوسف بن الحسن الخَوِّي أحد تلامذة الميداني ، وسمي مختصره هذا « فرائد الخرائد في الأمثال والحكم » كما يذكر أن بعض فضلاء الدولة العثمانية نظم أمثاله شعراً[2] .

وفي العصر الحديث نظم أمثاله الشيخ إبراهيم الأحدب (ت ١٣٠٨هـ) في كتابه المسمى « فرائد اللآل في مجمع الأمثال »[3] الذي طبع في مجلدين كبيرين ، يليهما فهارس أبجدية في نحو مائة صفحة ، مما جعل فوائده مضاعفة .

كتاب مستقصى الأمثال
لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري

ينسب الزمخشري الى زَمَخْشَر ، قرية قريبة من خُوارَزم ببلاد فارس ، كان رحمه الله ممن يضرب به المثل في علوم الأدب والنحو واللغة ، صنَّف التصانيف الحسان في التفسير وغريب الحديث والنحو واللغة والأدب وغير ذلك ، وطَوَّف بالبلاد ، فدخل خراسان والعراق

---

(١) انظر : كشف الظنون ٢/٣٨٢ ، وإنباه الرواة ١/١٢٣، ١٢٤، ونزهة الألباء ٣٩٠ ، وبغية الوعاة ١/٣٥٧ .

(٢) كشف الظنون ٢/٣٨٢ .

(٣) طبع في بيروت عام ١٣١٢هـ .

ومكة المكرمة ، وكان يلقب « جار الله » لأنه جاور بمكة زماناً طويلاً ، كما كان يلقب فخر خوارزم أيضاً[1] يقول عنه السيوطي : « كان واسع العلم ، كثير الفضل ، غاية في الذكاء وجودة القريحة ، متفنناً في كل علم ، معتزلياً قوياً في مذهبه ، مجاهراً به »[2] وتوفي عام ٥٣٨هـ .

وربما كان كتابه « المستقصى في أمثال العرب»[3] آخر ما وصلنا من أمهات كتب الأمثال العربية القديمة .

وهو مقسَّم إلى ثمانية وعشرين باباً، حسب حروف المعجم، إلَّا أن الزمخشري قد التزم في هذه الأبواب الترتيب المُعجمي الدقيق ، إذ كان ينظر إلى الكلمة الأولى من المثل ، ثم إلى الحرف الأول منها ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم ينتقل إلى الكلمة الثانية ، فينظر إلى أولها فثانيها فثالثها ، وهكذا سائر ألفاظ المثل ، فالكتاب أشبه ما يكون بالمعاجم اللغوية ، وطريقتها في إيراد الألفاظ والمواد . وهذه الطريقة حَتَّمت عليه أن يدخل الأمثال التي على وزن (أفعل من) في ثنايا الأمثال الأخرى ، بعد أن كان قد أفردها كلٌّ من أبي هلال العسكري ، وأبي الفضل الميداني في فصول خاصة في أعقاب أبواب كتابيهما .

وربما كانت هذه الطريقة في إيراد الأمثال ميزة للكتاب ، حتى إنه أمكن الاستغناء بها عن عمل فهارس له . وقد نوه الزمخشري بهذه الطريقة في المقدمة بقوله : « ثم ربطتها في قَرَن ترتيب حروف المعجم ارتباطاً جنحتُ فيه إلى وطاء منهاج أبين من عمود الصبح غير متجانف للتطويل عن الإيجاز ، وذلك أني بَوَّبتها فأوردت ما في أوله الهمزة ، ثم

---

(١) إنباه الرواة ٣/٢٦٥ ، ٢٦٦ ، وفيات الأعيان ٤/٢٥٥ ، بغية الوعاة ٢/٢٧٩ .

(٢) بغية الوعاة ٢/٢٧٩ .

(٣) طبع على نفقة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن عام ١٩٦٢ بإشراف الدكتور محمد عبد المعيد خان رحمه الله .

قفيت على أثره بما في أوله الباء ، وهلم جرّا إلى منتهى أبواب الكتاب ، وفصَّلت كل باب ، فقدمت في باب الهمز إياه مع الألف عليه مع الباء ، وفي باب الباء إياه مع الألف على السائر ، وهلم جرّا إلى منتهى فصول الأبواب ، وقد استمررت على مراعاة هذا النمط في أوساط الكلم وأواخرها ، ومتى تساوت صدور الأمثال ، وجاءت شَرَعاً لا يُدْلي بعضها بفضل التقدم على بعض عدلت بالنظر إلى أعجازها ، فقدمت الأحقَّ فالأحقَّ ، وكل كلمة وجدتها مكرّرة سطرتها كرةً واحدة ، ثم لم أتعرض لها في سائر مواقعها ، إلى أن انتهيت إلى أختها التي تطأ عقبها ، إلا إذا استكره ذلك وغمض» .

ولم يقصر الزمخشري في ذكر أصول الأمثال وأسبابها ، ولا في تعيين مضاربها ، ولا في مناقشة المسائل النحوية واللغوية التي تتصل بالأمثال ، كما أنه كان يستطرد كثيراً بذكر الأشعار التي تتصل بهذه الأمثال ، سواء أكان هذا الاتصال لغوياً أم أخبارياً ، وهي أشعار خلت منها كتب الأمثال الأخرى .

ومن عيوب الكتاب ، التي استوقفتني كثيراً ، خلوُّه من الرواية عن العلماء ، ومن التصريح بالنقل عن كتب الأمثال السابقة ، على الرغم من أن كثيراً من أقواله في تفاسير الأمثال مأخوذ عن علماء مشهورين ، مصرَّح بأسمائهم في كتب الأمثال الأخرى ، على أنه دأب على أن يذكر الأقوال والآراء بصيغة « ويقال » أو « وقيل » أو ما أشبه ذلك من صيغْ التمريض .

أما عدد أمثال الكتاب فهو ٣٤٦١ مثلاً عربياً ، ومن ثم فلا نستطيع أن نقارنه بكتاب « مجمع الأمثال » للميداني الذي كان يعاصره ، والذي ضَمَّ كما أسلفنا ، ٦٠٨٠ مثلاً ما بين عربي ومولّد !

ملخص تاريخي
لكتب الأمثال العربية[1]

كتاب الأمثال لصحار بن عياش (نحو ٤٠هـ).

كتاب الأمثال لعبيد بن شرية (٦٧هـ).

كتاب الأمثال لعلاقة بن كرشم (؟).

كتاب الأمثال لأبي عمرو بن العلاء (ما بين ١٥٤ ، ١٥٩هـ) .

كتاب الأمثال للشرقي بن القطامي (١٥٨هـ).

* كتاب الأمثال للمفضل بن محمد الضبي (نحو ١٧٠هـ).

كتاب الأمثال ليونس بن حبيب (١٨٣هـ).

* كتاب الأمثال لمؤرج السدوسي (١٩٥هـ).

كتاب الأمثال للنضر بن شميل (ما بين ٢٠٣ ، ٢٠٤هـ).

كتاب الأمثال لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ما بين ٢٠٧ ، ٢١٣ هـ) .

كتاب الأمثال لأبي زيد الأنصاري (ما بين ٢١٤ ، ٢١٦هـ) .

كتاب الأمثال للأصمعي (ما بين ٢١٠ ، ٢١٧هـ) .

كتاب الأمثال لعلي بن حازم اللّحياني (٢١٥هـ) .

كتاب الأمثال لسعدان بن المبارك الضرير (٢٢٠هـ).

* كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ).

كتاب تفسير الأمثال لابن الأعرابي (ما بين ٢٣٠ ، ٢٣٢هـ) .

---

(١) ما وضع أمامه نجمة هو كتب موجودة ، مطبوعة أو مخطوطة ؛ أما ما أهمل فهي كتب لم تصل إلينا حتى الآن .

17 كتاب الأمثال للتوزي (ما بين ٢٣٠ ، ٢٣٨ هـ) .

18 كتاب الأمثال لابن السكّيت (ما بين ٢٤٤ ، ٢٤٦هـ) .

19 كتاب الأمثال لمحمد ابن حبيب (٢٤٥هـ) .

20 كتاب الأمثال للزيادي (٢٤٩هـ) .

21 * كتاب الأمثال لأبي عكرمة الضبي (٢٥٠هـ) .

22 كتاب الأمثال للجاحظ (٢٥٥هـ) .

23 كتاب الأمثال لشمر بن حمدويه (٢٥٥هـ) .

24 كتاب الأمثال لابن قتيبة (ما بين ٢٧٠ ، ٢٧٦هـ) .

25 كتاب الأمثال لأبي الهيثم الرازي (نحو ٢٧٦هـ) .

26 كتاب الأمثال للبرقي (٢٧٤هـ) .

27 كتاب الأمثال لثعلب (٢٩١هـ) .

28 * كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة (٢٩١هـ) .

29 كتاب الأمثال للقاسم بن محمد بن بشار الأنباري (٣٠٥هـ) .

30 كتاب الأمثال لنفطوية (٣٢٣هـ) .

31 * كتاب الزاهر لابن الأنباري (ما بين ٣٢٧ ، ٣٢٨هـ) .

32 كتاب الأمثال لأبي الفضل المنذري (٣٢٩هـ) .

33 كتاب جامع الأمثال للقمي (في حدود ٣٥٠هـ) .

34 * كتاب الدرة الفاخرة لحمزة الأصبهاني (نحو ٣٥١هـ) .

35 كتاب الأمثال للاصطخري (؟) .

36 كتاب الحكم والأمثال لأبي أحمد العسكري (٣٨٢هـ) .

37 كتاب الأمثال للخالع (٣٨٨هـ) .

38 كتاب الأمثال لأبي الندى الغندجاني (؟) .

39 * كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (نحو ٣٩٥هـ) .

40 * كتاب مجمع الأمثال للميداني (٥١٨هـ) .

41 * كتاب المستقصى في أمثال العرب للزمخشري(٥٣٨هـ) .

الفصل الثاني

الأطوار التاريخية للأمثال العربية

إذا كان الشعر العربي يُروى ، غالباً ، منسوباً إلى قائله ، وإذا كان ما تُغفل نسبته إلى قائل يمكن رده بسهولة إلى صاحبه ، بالرجوع إلى الدواوين أو المجاميع الشعرية ، أو كتب اللغة والآداب ، وإذا كان ذلك ممكناً أيضاً في خطب العرب ووصاياهم ، فإن الأمثال العربية يصعب فيها ذلك إلى حد كبير .

ذلك أن الأمثال أكثر أنواع الكلام دَوراناً في اللغة ، ولا سيما لغة الحديث اليومي ، وحاجة الناس إليها أشد من حاجتهم إلى ما سواها من فنون القول ، والمتمثل بها لا يَعنيه أن يعرف : مَنْ قائل هذا المثل أو ذاك ؟ وإنما الذي يعنيه هو معنى المثل وأصله ، حتى يستطيع أن يتمثل به ، ويضعه في المقام اللائق من كلامه .

ومن ثم وجدنا كثيراً من أمثال العرب في الجاهلية والإسلام رُوي غُفْلاً عن النسبة إلى قائل بعينه . وهذه الظاهرة جَوَّزت لبعض الباحثين المعاصرين أن يذهب إلى أنه من غير المستطاع التمييز في الأمثال العربية بين الجاهلي والإسلامي والمولّد[1] .

---

(١) انظر : فجر الإسلام لأحمد أمين ٦١ .

ونحن نرى أن هذا المذهب ينطوي على مبالغة شديدة ، إذ يمكن لمن يعايش هذه الأمثال، ويتتبعها في مدوناتها وفي كتب اللغة ، أن يميِّز بين الغالب الكثير منها، ذلك أنه سوف يرى أن هذه المصادر، ولا سيما مدونات الأمثال ، كانت تنص على جاهلية بعض الأمثال ، أو إسلاميته ، أو توليده . ومن ناحية أخرى يرى أنها نسبت بعض الأمثال إلى قائل بعينه ، وهذا القائل قد يكون من أهل الجاهلية ، أو من عصر صدر الإسلام ، أو من عصر بني أمية ، أو من عصر بني العباس .

ولو تصفَّحنا كتاباً ككتاب المفضل الضبي لوجدنا أنه نَسب بضعة أمثال من أمثاله المائة والسبعين إلى أشخاص إسلاميين ، ونَسب سائر الأمثال إلى أناس من أهل الجاهلية[1] . وكذلك الأمر لو تصفَّحنا كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام ، حيث نرى أن أبا عبيد قد نسب كثيراً من أمثاله ، التي تبلغ نحو ألف مثل ، إلى الرسول ﷺ ، أو إلى واحد من الصحابة أو التابعين رضي اللّه عنهم ، أو إلى رجال من العصر الأموي ، كما نَسب بعضها إلى عامة عصره[2] . ومعنى هذا ، فيما أرى ، أننا لو استثنينا هذه الأنواع من الأمثال من الكتاب لبقيت لنا الأمثال الجاهلية وحدها .

وأيّاً ما كان الأمر فإني سأحاول هنا أن أضع بعض المعايير التي يمكن بها تصنيف الأمثال العربية على أساس زمني . وقد اصطلح العلماء ، قديماً وحديثاً ، على أن هذه الأمثال تنقسم زمنياً إلى قسمين اثنين هما : الأمثال القديمة ، والأمثال المولدة أو المحدثة .

---

(١) انظر في كتاب المفضل الضبي : الفصل الأول من هذا الباب .

(٢) انظر في كتاب أبي عبيد : الفصل الأول من هذا الباب .

أولاً
الأمثال القديمة

ونقصد بها تلك التي أُثِرَتْ عن العرب في الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بني أمية ، أعني عصور سلامة اللغة ، وبراءتها من آثار العجمة . وهذه الأمثال هي التي حرص علماء اللغة والنحو والأخبار على جمعها وتفسيرها ، باعتبارها نصوصاً عربية صحيحة ، جرت على ألسنة فصحاء العرب في عصور الاستشهاد اللغوي والنحوي ، ومن ثم يمكن استخدامها في اللغة ، واتخاذها شواهد على النحو والغريب ، كالشعر القديم ، سواء بسواء .

والصعوبة التي تكمن في هذا القسم من الأمثال هي : كيف نميِّز بين ما نشأ منها في العصر الجاهلي ، وبين ما نشأ في صدر الإسلام ، وما نشأ في عصر بني أمية ؟ وقد كفانا العلماء القدامى مؤنة جزء من هذه الصعوبة ، إذ نبَّهوا على جاهلية بعض الأمثال ، وإسلامية بعضها ، وبقي علينا نحن أن نبحث عن معايير لِمَا لم ينبِّهوا عليه ، وهو كثير .

الأمثال الجاهلية

نستطيع أن نضع لهذه الأمثال عدة معايير ، تُمَيِّزها عما عداها من الأمثال القديمة ، مستعينين في ذلك بما ذكره العلماء عنها .

المعيار الأول : النص على قائل المثل ، وهذا المعيار قد

تكفَّلت به كتب الأمثال ، إذ كان أصحابها حريصين على أن ينصوا على أول من قال هذا المثل أو ذاك ، ومن ثم وجدنا في هذه الكتب الجَمَّ الغفير من الأمثال ينسب إلى لقمان العادي ، أو أكثم بن صَيْفي ، أو عامر بن الظَّرِب ، أو هند بنت الخُسّ ، أو أوس بن حارثة ، أو غير هؤلاء من رجال العصر الجاهلي ونسائه .

المعيار الثاني : تعيين الحادثة التي تتصل بالمثل ، وذلك كالأمثال التي قيلت في أيام العرب ، كحروب داحس والغبراء ، وحروب البسوس ، ويوم حليمة ، وكالأمثال التي قيلت في حوادث أخرى مشهورة عندهم ، كحديث جَذِيمة الأبرش والزَّباء ، وحديث ضَبَّة بن أُدٍّ وولديه سَعْد وسُعَيد ، فمثل هذه الأمثال جاهلي النشأة بلا شك ، لأنه قيل في أحداث جاهلية .

المعيار الثالث : اشتمال المثل على عَلَم من أعلام الجاهلية ، وهذا النوع يشيع شيوعاً واسعاً في الأمثال الجاهلية ، كقولهم : « ما لي إلَّا ذنبُ صُخر » ، و « خُذْ من جِذْعٍ ما أعطاك » ، و « شَبَّ عمرو عن الطَّوْق » ، و « وافق شَنٌّ طَبَقَة » ، و « شِنْشِنَةٌ أعرفها من أَخْزم » ، و « نفس عصام سَوَّدَتْ عصاماً » ، و « أوردها سعدٌ وسعدٌ مُشْتَمل » ، و « تَسمع بالمعيديِّ خيرٌ من أن تراه » ، و « حتى تَجتمع مِعْزَى الفِزْر » ، و « يَحمل شَنٌّ ويُفَدَّىٰ لُكَيْز » .

ومن هذا القبيل الأمثالُ التي على وزن (أفعل من) ، والتي يشتمل كل منها على عَلَم من أولئك الذين ضُربت بهم الأمثال في المبالغة وغاية التشبيه ، كقولهم : « أبصرُ من الزَّرقاء » ، و « أجود من حاتم » ، و« أبلغ من قُسٍّ » ، و « أعدى من السُّلَيك » ، و « أعزُّ من كُلَيب » ، و « أعزُّ من الزَّباء » ، و « أوفى من السَّمَوْأل » .

وقد يقول قائل : إن مثل هذه الأمثال قد يكون نشأ في الإسلام ، وردُّنا عليه أن الأقرب إلى الصواب هو أن المعاصرين لهؤلاء الأشخاص هم وحدهم القادرون على وصفهم ، والتمثل بهم ، لأنهم هم الذين شاهدوهم ، أو سمعوا وصف العرب لهم بالصفات والأحداث التي جرت بها تلك الأمثال .

المعيار الرابع : نَصُّ العلماء على جاهلية المثل ، وهذا المعيار تكفَّلت به كتب الأمثال واللغة إلى حد كبير ، إذ كثيراً ما نجد فيها عبارات تُشعر بهذا ، كقولهم : إن أول مثل جرى في العرب قولهم : « المرأةُ من المَرْء ، وكل أدماءَ من آدم » ، كما نجد فيها نسبة بعض الأمثال إلى أشخاص من قبائل جاهلية .

فمن الأمثال التي نُسبت إلى قبيلة عاد قولهم : « أَلْحَنُ من الجرادتَيْن » ، و « صار فلان حديثَ الجرادتين » ، و « هذا حَظُّ جَدٍّ من المَبْناة » ، و « أمنعُ من عِتْر » .

ومن الأمثال التي تنسب إلى أناس من قبيلة طَسْم قولهم : « شَرُّ يَوْمَيْها وأغواه لها » .

ومن الأمثال التي تنسب إلى أناس من قبيلة حِمْير قولهم « مَنْ دخل ظَفَارِ حَمَّر » ، و « أَلاَ مَنْ يشتري سهراً بنوم » ، و « رُبَّ كلمةٍ تقول لصاحبها : دَعْني » ، و « جَوِّع كَلبَكَ يَتْبَعْك » .

وهناك طائفة أخرى من الأمثال نَصَّ العلماء على قِدَمِها، منها قولهم « هَيْهات هيهات الجَنَابُ الأخضر » ، و « البئرُ أبقى من الرِّشَاء » ، و « كلُّ الصيد في جوف الفَرَا » .

المعيار الخامس : إشارة المثل إلى عادة أو معتقد جاهلي ،

كقـولهم : « أضلُّ من مَـوْؤدة » ، و « نارُ الحـرب أسعـرُ » ، و « حـرامـاً يـركبُ من لا حـلالَ لـه » ، و « أفْـرَعَ بـالـظَّبي وفي المِعْـزَىٰ دَثَـر » ، و « كـالثور يُضـرب لما عـافت البقر » ، و « أمحـلُ من تَعْقاد الرَّتَم » ، و « أَبْصِـرْ وَسْمَ قِـدْحِـك » ، و « صَـدقني وسمُ قِـدْحـه » ، و « مَنْ لي بالسَّانح بعد البارح »[1] .

---

(١) فصلت القول في هذه العادات والمعتقدات ، وفسرت هذه الأمثال وغيرهـا مما يتصـل بها في الفصل الثاني من الباب الثالث .

الأمثال الإسلامية

تنقسم هذه الأمثال ثلاثة أقسام هي :

١ ـ أمثال القرآن الكريم .
٢ ـ أمثال الرسول ﷺ .
٣ ـ أمثال الصحابة والتابعين .

(١)
أمثال القرآن الكريم

يزخر القرآن الكريم بالأمثال الموجزة والقياسية ، ونعني بالأمثال الموجزة تلك الآيات الكريمة ، أو أجزاء الآيات ، التي تتضمن بعض القيم الدينية أو الأخلاقية المركّزة ، والتي يتمثل بها الناس ، ولا سيما المسلمين منهم ، في أحاديثهم اليومية ، وفي كتاباتهم وخطبهم وأشعارهم .

كما نعني بالأمثال القياسية ذلك السَّرْد الوصفي أو القصصي ، الذي يُساق لتوضيح معنىً ما عن طريق التشبيه والتمثيل ، فالأمثال في القرآن نوعان : المثل الموجز السائر ، والمثل المفصل أو القياسي .

١ ـ **المثل الموجز السائر في القرآن الكريم** : سبق أن قررنا أن

الحكمة إذا سارت بين الناس لصدقها وإيجازها ، دخلت في حظيرة الأمثال[1] . ومن ثم جاز لنا أن نعدَّ الآيات الكريمة ، أو أجزاء الآيات ، التي تشتمل على بعض مسائل الدين أو مبادىء الأخلاق الكريمة بصورة مركزة أمثالاً ، لأن الناس يتداولونها صباحَ مساءَ في شؤون الحياة والأخلاق ، شفاهاً وكتابة . وطبيعي أن هذه الآيات أو أجزاءها لم تكتسب صفة المَثلية عند أول نزولها ، ولكنها إنما اكتسبتها بعد أن سارت على الألسنة والأقلام في زمن متأخر .

وهذا النوع من الأمثال كثير كثرة مفرطة في القرآن الكريم، وقد ساق منها جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، نقلاً عن « كتاب الآداب » لجعفر بن شمس الخلافة (٦٢٢هـ) ، ثلاثين مثلاً[2] ، بينما استطاع بعض الدارسين المعاصرين أن يجمع منها نحو سبعمائة مثل[3] ، على أنه من الممكن أن يحصي الإنسان أكثر من هذا العدد .

ونذكر من هذه الأمثال قوله تعالى : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرةً بإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة ٢٤٩] ﴿الرجالُ قَوَّامُونَ على النِّسَاءِ ﴾ [النساء ٣٤] ﴿ لَا يَسْتَوِي الخبيثُ والطيبُ ولو أَعجَبك كثرةُ الخَبِيث ﴾ [المائدة ١٠٠] ﴿ لا تسأَلُوا عن أشياءَ إِنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكُم ﴾ [المائدة ١٠١] ﴿ وبالوالدَيْن إحسانا ﴾ [الأنعام ١٥١] ﴿ وَلَا تَزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ﴾ [الأنعام ١٦٤] ﴿ حتى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاط ﴾ [الأعراف ٤٠] ﴿ وإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ﴾ [الأنفال ١٩] ﴿ وَلَا تَنازَعوا فتفشلوا وتذهبَ رِيحُكم ﴾ [الأنفال ٤٦] ﴿ ما

---

(١) انظر : ص ١٩ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٤/٤٣ ـ ٤٥ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) .

(٣) « أمثال القرآن الكريم ، وأثرها في الأدب العربي إلى القرن الثالث الهجري » لنور الحق تنوير (رسالة ماجستير محفوظة بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة. ص ١١٢ ـ ١٥٥) .

عليٰ المحسنين مِنْ سبيل ﴾ [التوبة ٩١] ، ﴿ **إن الظنَّ لاَ يُغْنِي من الحق شيئاً** ﴾ [يونس ٣٦] ﴿ **أليس الصبحُ بقريب** ﴾ [هود ٨١] ﴿ **إن كيدَكُنَّ عظيم** ﴾ [يوسف ٢٨] ﴿ **الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ** ﴾ [يوسف ٥١] ﴿ **لئن شكرتُم لأزيدَنَّكم ولئن كفرتُم إنَّ عذابي لشديد** ﴾ [إبراهيم ٧] ﴿ **واصبِرْ وَما صبرُك إلَّا باللَّه** ﴾ [النحل ١٢٧] ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدك مغلولةً إلى عُنُقك ولا تَبْسُطها كلَّ البَسْط** ﴾ [الإسراء ٢٩] ﴿ **وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلبٍ يَنقلبون** ﴾ [الشعراء ٢٢٧] ﴿ **فتلكَ بيوتُهم خاويةً بما ظلموا** ﴾ [النمل ٥٢] ﴿ **وَلاَ تَنْسَ نصيبَك من الدنيا** ﴾ [القصص ٧٧] ﴿ **ولا يُنَبِّئك مثلُ خبير** ﴾ [فاطر ١٤] ﴿ **ولا يَحِيقُ المكرُ السيِّىءُ إلَّا بأهله** ﴾ [فاطر ٤٣] ﴿ **لِمِثْل هذا فَلْيَعمل العاملون** ﴾ [الصافات ٦١] ﴿ **هل يَسْتَوِي الذين يَعْلمون والذين لا يعلمون** ﴾ [الزمر ٩] ﴿ **فَمَنْ عَفَا وأصلح فأجرُه على اللَّه** ﴾ [الشورى ٤٠] ﴿ **فَمَنْ نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسه** ﴾ [الفتح ١٠] ﴿ **ليس لها من دون اللَّه كاشفةٌ** ﴾ [النجم ٥٨] .

بلاغة المثل الموجز في القرآن الكريم :

الحديث عن بلاغة هذا المثل هو الحديث عن بلاغة القرآن الكريم وإعجازه بصفة عامة ، وقد تعاطى العلماء قديماً وحديثاً الكلام في رَوْعة بيان القرآن الكريم وإعجازه ، وكتبوا في ذلك مئات الصفحات ، بل آلافها ، ولذلك سنقتصر هنا على ناحية واحدة من نواحي بلاغة المثل القرآني الموجز ، وهي الإيجاز ، وإذا كان الإيجاز ركناً من أركان الأسلوب المثلي بصفة عامة فإن المثل القرآني قد أوتي من هذا الإيجاز حَظًّا فاق به كل كلام سواه ، سواء أكان مثلًا أم غيره .

وقد تعرَّض أبو هلال العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) للإيجاز في بعض هذه الأمثال في أثناء حديثه عن إيجاز القِصَر ، أعني جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، فقال عن قوله تعالى : ﴿ **لكلِّ نبأ**

مُسْتَقَر ﴾ [الأنعام٦٧] : « ثلاث كلمات اشتملت على عواقب الدنيا والآخرة »[1] وعن قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأمرُ ﴾ [الأعراف ٥٤] : « كلمتان استوعبتا جميع الأشياء على غاية الاستقصاء . وروي أن ابن عمر رحمه اللَّه قرأها فقال: «من بقي له شيء فليطلبه»[2] وعن قوله تعالى : ﴿ خُذِ العفوَ وأمر بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف ١٩٩] : « جَمع جميع مكارم الأخلاق بأسرها ، لأن في العفو صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين ، وفي الأمر بالعرف تقوى اللَّه ، وصلة الرحم ، وصَوْن اللسان عن الكذب ، وغض الطَّرْف عن الحرمات ، والتبرُّؤ من كل قبيح ، لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو يلابس شيئاً من المنكر . وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه بما يُوتِغ الدِّين ، ويُسقط القدرة »[3] .

وروى الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في تفسير هذه الآية الكريمة قولَ جعفر الصادق : « أمر اللَّه نبيّه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها »[4] .

هذا ، وقد تصدى العلماء لبيان الفرق الكبير بين بلاغة المثل القرآني الموجز والمثل العربي القديم ، ليُثبتوا أنه لَشتان ما بين الثريّا والثَّرى ، وَمَثَّلوا لذلك بقوله تعالى : ﴿ ولكم في القِصَاص حياة ﴾ [البقرة ١٧٩] وقولِ العرب في أمثالهم: «القتلُ أَنْفَى للقتل» فقال

---

(١) كتاب الصناعتين ١٨٣ (تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم) .

(٢) نفسه ١٨٢ .

(٣) نفسه ١٨٣ ، والوتغ بالتحريك : الهلاك والإثم وفساد الدين .

(٤) الكشاف ٢/١٤٩ .

الزمخشري في تفسير الآية الكريمة : « كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتلٌ وتفويت للحياة ، وقد جُعل مكاناً وظرفاً للحياة ، ومن إصابة مَحَزِّ البلاغة ، بتعريف القصاص ، وتنكير الحياة ، لأن المعنى : ولكم في هذا الجنس من الحُكْم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وكم قَتل مُهَلْهِل بأخيه كُلَيب ، حتى كاد يُفني بكر بن وائل ، وكان يُقتل بالمقتول غيرُ قاتله ، فتثور الفتنة ، ويقع التناحر ، فلما جاء الإسلام بشَرْع القصاص كانت فيه حياة أيُّ حياة ، أو نوع من الحياة ، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل ، لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا هَمَّ بالقتل فعلم أنه يُقتص منه فارتدع سَلِم صاحبُه من القتل ، وسلم هو من القَوَد ، فكان القصاص سببَ حياة نفسَيْن »[1] .

وقال أبو هلال العسكري : « ويتبين فضلُ هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه ، وهو قولهم : « القتل أنفى للقتل » فصار لفظ القرآن فوق هذا القول ، لزيادته عليه في الفائدة ، وهو إبانةُ العدل لذكر القصاص ، وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر الحياة ، واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم اللّه به ، ولإيجازه في العبارة ، فإن الذي هو نظير قولهم « القتل أنفى للقتل » إنما هو ﴿ **القصاص حياة** ﴾ وهذا أقل حروفاً من ذاك ، ولبُعْده من الكُلْفة بالتكرير ، وهو قولهم : « القتل أنفى للقتل » ولفظ القرآن بريء من ذلك ، وبحسن التأليف وشدة التلاؤم المدرَك بالحس ، لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة »[2] .

---

(١) الكشاف ١/ ١٦٨ .

(٢) كتاب الصناعتين ١٨١ ، وانظر كذلك : المثل السائر لابن الأثير ٣٢٠ ، ٣٢١، وبديع القرآن لابن أبي الأصبع ١٩٢ ـ ١٩٧ ، وفيه تفصيل واف للفروق بين الآية الكريمة والمثل العربي .

ويمكن أن نلخص الفرق بين الآية الكريمة والمثل العربي ، كما نص عليه كل من الزمخشري والعسكري وغيرهما ، في النقاط التالية :

١) أن الآية الكريمة أوجز من المثل ، لأن ﴿ **القصاص حياة** ﴾ لفظتان اثنتان ، على حين أن « القتل أنفى للقتل » ثلاثة ألفاظ .

٢) أن الآية الكريمة بريئة من التكرير المتكلف الذي في المثل .

٣) أنه ليس كل قتل نافياً للقتل ، ولا مانعاً منه ، بل قد يكون سبباً في القتل ، كالأخذ بالثأر ، أما القتل على سبيل القصاص ، والذي يتولاه الحاكم ، فهو الجدير بأن يحسم القتل ، ويَهب الناس حياة آمنة مطمئنة .

٤) أن القصاص عقوبة مشروعة لمن يَستحقّ الجزاء على جناية اقترفها ، فهو بذلك نوع من العدالة ، أما القتل ، في المثل العربي ، فقد يكون عدواناً كما يكون قصاصاً .

٥) أن كلمة ﴿ **القصاص** ﴾ أعمّ وأشمل من كلمة « القتل » لأنها تشمل القصاص بالقتل ، والقصاص على الجروح ، والقصاص الذي يراد به التعزير أو التأديب .

٦) أن تقديم الجار والمجرور في الآية الكريمة يفيد التخصيص ، وهذا ما لم يتهيأ للمثل العربي .

٧) أن الآية الكريمة ترغِّب في القصاص ، وتحث عليه ، إذ جعلت نتيجته الحياة التي نحبها جميعاً ، ونحرص على دوامها .

٨) أن تنكير كلمة « الحياة » في الآية الكريمة يفيد أنها نوع من الحياة كريم عظيم .

٩) أن الآية الكريمة تمتاز عن المثل بحسن التأليف وشدة التلاؤم ، لأن الانتقال من الفاء إلى اللام في قوله تعالى ﴿ في القصاص ﴾ أسهل على أعضاء النطق من الانتقال من اللام إلى الهمزة في المثل العربي « القتل أنفى » .

٢ ـ **المثل القياسي في القرآن الكريم** : سبق أن قلنا : إن المراد بالمثل القياسي في القرآن الكريم هو ذلك السرد الوصفي أو القصصي ، الذي يُقصد به توضيح معنىً ما عن طريق التشبيه والتمثيل ، وهو ما يسميه علماء البلاغة « التشبيه المركّب » أو « التمثيل » .

ومن أمثلة السرد الوصفي قوله تعالى : **﴿ اللَّهُ نورُ السمواتِ والأرض ، مَثَلُ نورِهِ كمِشْكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّيٌّ ، يُوقد من شجرة مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نورٌ على نور ، يَهدي اللَّه لنوره من يشاء ، ويضرب اللَّه الأمثالَ للناس ، واللَّه بكل شيء عليم ﴾** [النور ٣٥] .

ومن أمثلة السرد القصصي قوله تعالى : **﴿ واضرب لهم مثلاً أصحابَ القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذَّبوهما فعزَّزنا بثالث ، فقالوا إنا إليكم مرسلون * . . . . . ﴾** [يس ١٣ ـ ٢٨] .

وهذا الضرب من الكلام من أبلغ صور التشبيه المركب ، وأدقّ ما يَرمي إليه البليغ من وسائل التعبير التي تُبرز المعاني الخفيةَ المضمرة سافرةَ الوجه ، واضحةَ الملامح .

وتمتاز أمثال القرآن الكريم فوق هذا بأنها تبعث في النفوس فَرْحة ورغبة ، أو تستثير فيها هَيْبة ورهبة ، أو تُرشدها إلى قِبْلة الخير ، أو

تكشف لها عن حقيقة تجهل كُنْهها ، وهي في ذلك تُهدي إليها أنواراً بها تَنظر إلى عجائب الكون ، فتقرأ في سِفْر الوجود آيات بينات ، وتدرك فلسفة العالم ذاتَ الأغوار العميقة ، فكل مثل من أمثال القرآن الكريم يشرح للناس حقيقة من حقائق الاجتماع ، أو ضرباً من عجائب الطبيعة ، أو حجة دامغة لإثبات أمر انْصَرف عن إدراكه كثير من الناس .

وقد لخص بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) الغرض من ضرب الأمثال القياسية في القرآن الكريم بقوله : « ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة : التذكير والوعظ ، والحثّ والزجر ، والاعتبار والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره في صورة المحسوس ، بحيث تكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس ، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر أو إبطال أمر »[1] .

ويذكر اللّه سبحانه وتعالى في عدة آيات كريمة ، ممتَنًّا على عباده ، أنه قد ضرب لهم الأمثال ، وَصَرَّفها لهم ، لعلهم يتذكرون أو يتفكرون أو يعقلون ، فقال : ﴿ **وَيَضْرِب اللّه الأمثالَ للناس لعلهم يتذكرون** ﴾[2] ، و ﴿ **تلك الأمثالُ نَضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾[3] ، و ﴿ **تلك الأمثالُ نضربها للناس وما يَعقلها إلَّا العالِمُون** ﴾[4] ، و ﴿ **ولقد صَرَّفنا للناس في هذا القرآن من كُلِّ مَثل**

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ونقله عنه السيوطي في الإتقان ٢/٣٨ ، ٣٩ .
(٢) سورة إبراهيم ٢٥ .
(٣) سورة الحشر ٢١ .
(٤) سورة العنكبوت ٤٣ .

فأبى أكثرُ الناس إلاَّ كُفُوراً ﴾[1] ، و﴿ **لقد صَرَّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثرَ شيءٍ جَدَلاً ﴾**[2] .

ويأمر النبيُّ ﷺ الناس بأن يعتبروا بأمثال القرآن الكريم ، ويتعظوا بها ، فقد أخرج البَيْهقي عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إن القرآن نَزَل على خمسة أوجه : حلالٍ وحرام ، ومحكمٍ ومتشابه ، وأمثالٍ ، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتَّبعوا المُحْكَم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال »[3] .

وَيَعُدُّها الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) مِمَّا يجب على المجتهد أن يعرفه من علوم القرآن الكريم حيث قال في رسالته : « ومن جِمَاع علم كتاب اللَّه العلمُ بأن جميع كتاب اللَّه إنما نَزل بلسان العرب . . . وما افترض على الناس من طاعته ، والانتهاء إلى أمره ، ثم معرفة ما ضُرب فيه من الأمثال الدوالِّ على طاعته ، المبيِّنة لاجتناب معصيته ، وترك الغفلة عن الحظ ، والازدياد من نوافل الفضل »[4] .

وحَسْبُ هذه الأمثال القرآنية فخامةً وجلالةَ قدر أنه جاء مثلها في الكتب السماوية المقدسة ، إذ يقول عزّ وجلّ : ﴿ **محمدٌ رسولُ اللَّه والذين معه أشداءُ على الكفّار رحماءُ بينهم تراهمُ رُكَّعاً سُجَّداً يَبتغون فضلاً من اللَّه ورضواناً سِيمَاهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مَثَلُهم في التوراة ومثلُهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطْئَهُ فآزره**

---

(١) سورة الإسراء ٨٩ وتصريف الأمثال والآيات : ترددها وتكرارها وتبيانها ، مأخوذ من تصريف الرياح ، وهو صرفها من جهة إلى جهة ، وجعلها جنوباً وشمالاً وصباً ودبوراً .

(٢) سورة الكهف ٥٤ .

(٣) البرهان ١/٤٨٦ ، والاتقان ٤/٣٨ .

(٤) رسالة الشافعي ١٨ (الطبعة الأولى) وانظر : البرهان ١/٤٨٦ ، والإتقان ٤/٣٨ .

فاستغلظ فاستوى على سُوقه يعجب الزرَّاع لِيَغِيظ بهم الكفار ﴾(١) .

وقد اختلف العلماء والدارسون قديماً وحديثاً حول عدد الأمثال القياسية في القرآن الكريم ، اختلافاً يتراوح ما بين اثنين وعشرين وثلاثة وخمسين مثلاً(٢) .

وقد يرجع السبب في هذا الاختلاف إلى واحد من أمرين هما :

١ ـ أن بعض العلماء قد عَدَّ كل آية ورد فيها لفظ « مثل » من الأمثال القياسية ، ونحن نعرف أن هذا اللفظ قد يستعمل في التشبيه المفرد البسيط ، كقوله تعالى : **﴿ وحُورٌ عِينٌ * كأمثال اللؤلؤ المَكْنون ﴾** [الواقعة ٢٢ ، ٢٣] ، كما يأتي لمعانٍ أخرى غير التشبيه ، كالصفة أو الحال أو القصة ، كقوله تعالى : **﴿ أم حسبتُم أن تدخلوا الجنةَ ولَمَّا يأتكم مثلُ الذين خَلَوْا من قبلكم ﴾** [البقرة ٢١٤] .

٢ ـ أن هناك آيات تعد من الأمثال القياسية ، وإن لم يرد فيها ذكر لفظ « مثل » صراحة ، كقوله تعالى : **﴿ له دعوةُ الحقِّ والذين يَدعون من دونه لا يَستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كَفَّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاءُ الكافرين إلا في ضلال ﴾** [الرعد ١٤] .

طبيعة المثل القياسي في القرآن الكريم :

إذا درسنا الأمثال القياسية في القرآن الكريم وجدنا أنها تعتمد

---

(١) سورة الفتح ٢٩ .

(٢) انظر : إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ١/١٥٠ ، وما يليها ، والأمثال في النثر العربي القديم لعبد المجيد عابدين ١٥٩ ، ومجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد السابع ١٩٦٠) ص ٣ ـ ٢٨ ، وأمثال القرآن وأثرها في الأدب العربي إلى القرن الثالث الهجري لنور الحق تنوير ١٦٢ ـ ١٧١ .

على طبائع النفوس البشرية الثابتة ، وعلى النواميس الكونية ، والظواهر الطبيعية التي تحيط بالناس في مختلف العصور والبيئات ، فقد استمدت صورها من الحياة الإنسانية ، ومن الحياة الحيوانية ، ومن النبات ، ومن ظواهر الكون ، ومظاهر الطبيعة ، ومن المصنوعات أيضاً .

ولا شك أن هذا مسلكٌ من أبلغ مسالك التعبير اللغوي ، وأرفعها شأناً ، وأبعدها بياناً وتأثيراً ، إذ لا يتم المراد من التشبيه والتمثيل إلا إذا كان المشبه به ملموساً لدى السامع ، ومجرَّباً عنده ومسلماً به .

فمن الحياة الإنسانية أُخِذَ قوله تعالى : ﴿ ضَرب الله مثلاً عَبْداً مَمْلوكاً لا يَقْدر على شيء ومن رَزقناه مِنَّا رزقاً حسناً فهو يُنفق منه سِرّاً وجَهْراً ﴾(١) وقوله : ﴿ وضرب الله مثلاً رَجُلَيْن أحدُهما أبكمُ لا يقدر على شيء ، وهو كَلٌّ على مولاه أينما يُوَجِّهَه لا يأتِ بخير هل يستوي هو ومَنْ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾(٢) وقوله : ﴿ وضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقُهَا رَغَداً من كل مكان فكفرت بأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾(٣) ، وقوله : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاءُ مُتَشَاكسون ورجلاً سَلَماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمدُ لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾(٤) . وقوله : ﴿ ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً أيُحِبُّ أحدُكم أن يأكل لحمَ أخيه مَيْتاً ، فكرهتموه ﴾(٥) وقوله : ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى

(١) سورة النحل ٧٥ .
(٢) سورة النحل ٧٦ .
(٣) سورة النحل ١١٢ .
(٤) سورة الزمر ٢٩ .
(٥) سورة الحجرات ١٢ .

محصَّنَة أو من وراء جُدُر بـأسهُم بينهم شديـد تَحسبهم جميعاً وقلوبُهم شَتَّى ذلـك بأنهم قـوم لا يعقلون * كمثل الـذين من قبلهم قريبـاً ذاقـوا وبالَ أمرهم ولهم عـذاب أليم * كمثل الشيـطان إذ قال لـلإنسان اكفُـرْ فلمـا كفر قـال إني بريء منـك إني أخـاف الله رب العـالمين * فكـان عاقبتَهُما أنهما في النار خالدَيْن فيها وذلك جـزاء الظالمين ﴾[1] وقـوله: ﴿ أفمن يَمْشِي مُكِبّاً على وجهه أَهْـدَى أم من يمشي سَوِيّـاً على صراط مستقيم ﴾[2] .

ومن حياة الحيوان أخذ قوله تعالى : ﴿ ومثلُ الذين كفـروا كمثل الـذي يَنْعِقُ بمـا لا يسمـع إلا دعـاءً ونـداء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهـم لا يعقلون ﴾[3] وقـولـه : ﴿ واتـلُ عليهِم نبأ الـذي آتيناه آيـاتنـا فـانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لَرَفعناه بها ولكنه أَخْلَد إلى الأرض واتَّبـع هواه فمثلُه كمثـل الكلب إن تَحْمل عليـه يَلْهَثْ ، أو تَتْرُكْهُ يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنـا فاقْصُص القصَصَ لعلهم يتفكرون ﴾[4] وقوله : ﴿ يأيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا لـه إن الذين تَـدعون من دون الله لن يَخلقـوا ذبابـاً ولو اجتمعـوا لـه ، وإن يَسْلبهم الـذبابُ شيئـاً لا يَسْتَنْقِذُوه منـه ضَعُفَ الطالبُ والمـطلوب﴾[5] وقولـه: ﴿ مثلُ الذين اتخـذوا من دون الله أولياء كمثـل العنكبوت اتخـذت بيتاً وإنَّ أوهنَ البيوت لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون ﴾[6] وقوله : ﴿ مثل الـذين حُمِّلوا التـوراةَ ثم لم يَحْمِـلوهـا كمثـل الحمـار يَحمـل أسفاراً ﴾[7] .

---

(١) سورة الحشر : ١٤ ـ ١٧ .
(٢) سورة الملك : ٢٢ .
(٣) سورة البقرة : ١٧١ .
(٤) سورة الأعراف : ١٧٥ . ١٧٦ .
(٥) سورة الحج : ٧٣ .
(٦) سورة العنكبوت : ٤١ .
(٧) سورة الجمعة : ٥ .

ومن النبات أخذ قوله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حَبَّة أنبتت سبعَ سنابلَ في كل سُنْبلة مائةُ حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ [1] وقوله : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاةِ الله وتَثْبِيتاً من أنفسهم كمثل جنة بِرَبْوة أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفَيْن فإن لم يُصِبْها وابلٌ فطَلٌّ ، والله بما تعملون بصير * أيَودُّ أحدُكم أن تكون له جنةٌ من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكِبَرُ وله ذريةٌ ضعفاء ، فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت كذلك يبيِّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾[2] وقوله : ﴿ إنما مثلُ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرضِ مِمَّا يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَنَتْ وظن أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حَصِيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] وقوله : ﴿ ألم تَرَ كيف ضرب الله مثلا كلمةً طيبة كشجرة طيبة أصلُها ثابت وفَرْعُها في السماء * تُؤتِي أُكُلَها كلَّ حِين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * وَمَثَل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قَرار ﴾[4] وقوله : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلَيْن جعلنا لأحدهما جنتَيْن من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً * كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تَظْلم منه شيئاً وفَجَّرنا خلالهما نَهَراً . . . . ﴾[5] وقوله : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تَذْرُوه الرياح ، وكان الله على كل شيء

---

(1) سورة البقرة : ٢٦١ .

(2) سورة البقرة : ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(3) سورة يونس : ٢٤ .

(4) سورة إبراهيم : ٢٤ - ٢٦ .

(5) سورة الكهف : ٣٢ - ٤٤ .

مقتدرا ﴾[1] وقوله : ﴿ محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشدَّاءُ على الكفار رُحَماء بينهم تراهُم رُكَّعا سُجَّدا يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيمَاهم في وجوهم من أثر السجود ذلك مثلهُم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شَطْئَه فآزَرَه فاستغلظ فاستوى على سُوقه ، يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾[2] وقوله : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجب الكفارَ نباتُه ثم يَهِيجُ فتراه مصفرّاً ثم يكون حطاماً ﴾[3] .

ومن الظواهر الكونية والمظاهر الطبيعية أخذ قوله تعالى : ﴿ أو كَصَيِّبٍ من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حَذَر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرقُ يخطف أبصارَهم كلما أضاء لهم مَشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾[4] وقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمَنِّ والأذى كالذي يُنفق مالَه رِئاءَ الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صَفْوانٍ عليه تراب فأصابه وابلٌ فتركه صَلْدا لا يقدرون على شيء مِمَّا كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾[5] وقوله : ﴿ أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةٌ بقدَرها فاحتمل السيلُ زبداً رابياً ومِمَّا يوقدون عليه في النار ابتغاءَ حِلْيةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثله كذلك يَضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبدُ فيذهب جُفَاء وأما ما ينفع الناس فَيَمْكُث في الأرض كذلك

---

(١) سورة الكهف : ٤٥ .
(٢) سورة الفتح : ٢٩ .
(٣) سورة الحديد : ٢٠ .
(٤) سورة البقرة : ١٩ ، ٢٠ .
(٥) سورة البقرة : ٢٦٤ .

يضرب الله الأمثال ﴾(1) وقوله : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالُهم كرماد اشتدَّت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾(2) وقوله : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقِيعَةٍ يَحسبه الظمآنُ ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفَّاه حسابَه والله سريع الحساب * أوكظلماتٍ في بحر لُجِّيٍّ يَغشاه مَوْجٌ من فوقه موج من فوقه سحاب ظلماتٌ بعضُها فوق بعض إذا أخرج يدَه لم يكد يراها ومن لم يجعل له نوراً فما له من نور ﴾(3) وقوله : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأيتَه خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾(4) .

ومن المصنوعات أخذ قوله تعالى : ﴿ الله نورُ السماوات والأرض مثلُ نورِه كمِشْكَاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرِّيٌّ يُوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شَرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتُها يضيء ولو لم تمسسه نار نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾(5) .

بلاغة المثل القياسي في القرآن الكريم :

الأمثال القياسية في القرآن الكريم صور رفيعة من صور التمثيل الذي يكون وجه الشبه فيه منتزعاً من عدة أشياء ، والتمثيل بدوره صورة من التشبيه ، تقع منه في الذروة والذؤابة ، وليس من المستطاع هنا أن

---

(1) سورة الرعد : ١٧ .
(2) سورة إبراهيم : ١٨ .
(3) سورة النور : ٣٩ ، ٤٠ .
(4) سورة الحشر : ٢١ .
(5) سورة النور : ٣٥ .

نتتبع بلاغة التمثيل في كل مثل من أمثال القرآن الحكيم ، ولكننا نكتفي بعرض نماذج منها .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **مثلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يَحْملوها كمثل الحمار يَحمل أسفاراً** ﴾[1] يقول عبد القاهر الجرجاني عن هذه الآية الكريمة في معرض حديثه عن التمثيل : « وربما انتُزع (الشبه العقلي) من عدة أمور يُجمع بعضها إلى بعض ، ثم يُستخرج من مجموعها الشَّبَه ، فيكون سبيله سبيل الشيئين يُجمع أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الإفراد ، لا سبيل الشيئين يُجمع بينهما ، وتُحفظ صورتهما ، ومثال ذلك قوله عز وجل : ﴿ **مثل الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لمَ يَحملوها كمثل الحمار يَحمل أسفاراً** ﴾ الشبه منتزع من أحوال الحمار ، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ، ومستودَع ثمر العقول ، ثم لا يُحِسُّ بما فيها ، ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلوم في شيء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل سوى أنه يَثْقُل عليه ، ويَكُدُّ جنبَيْه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ، ونتيجة لأشياء أُلِّفت وقُرن بعضها إلى بعض . بيانُ ذلك أنه احتيج إلى أن يُراعَى من الحمار فعلٌ مخصوص ، وهو الحَمْل ، وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً ، وهو الأسفار التي فيها أمارات تدل على العلوم ، وأن يثلَّث ذلك بجهل الحمار ما فيها ، حتى يحصل الشَّبَه المقصود »[2] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض مِمَّا يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض**

---

(١) سورة الجمعة : ٥ .

(٢) أسرار البلاغة : ٨٠ ، ٨١ .

زُخْرفها وازَّينَت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حَصِيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس ﴾[1] فقد شَبَّه الله سبحانه وتعالى ، في هذه الآية الكريمة ، حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التَفَّ وتكاثف ، وزَيَّن الأرض بخضرته ورُوائه . والمشبَّه به فيها ناموسٌ من نواميس الكون ، إذ المطر ينزل من السماء على الأرض ، فيُحييها بالنبات الذي يتشابك ، ويخالط بعضه بعضاً ، فتصبح به الأرض بهيجة جميلة ، كالعروس التي أخذت ثيابها الفاخرة من كل لون فاكتستها ، ثم تزيَّنت بغيرها من ألوان الزينة ، حتى إذا ظن أهل هذه الأرض أنهم قادرون عليها ، متمكنون من منفعتها ، محصلون لثمرتها وغَلاَّتها ضرب الله هذا النبات ببعض العاهات والآفات ، فَجَعَله كالزرع المحصود ، واستأصله استئصالاً حتى كأنه لم يكن من قبل[2] .

وقد عَدَّ عبد القاهر الجرجاني التمثيل الذي في الآية مَثَلاً حقيقياً جديراً بأن يسمى تمثيلاً إذ قال : « وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً لبُعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر ، حتى إن التشبيه كلما كان أوغَلَ في كونه عقلياً محضاً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر ، ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل : ﴿ **إنما مثلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلناهُ من السَّماء . . .** ﴾ كيف كثرت الجمل فيه ، حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فُصِّلت ، وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة

---

(١) سورة يونس : ٢٤ .

(٢) الكشاف ٢ /٢٦٧ بتصرف يسير .

واحدة ، فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجُمَل معنا حاصلةً تشير إليهـا واحدةً واحـدةٌ » ، « ثم إن الشبه منتـزَع من مجموعهـا من غير أن يمكن فصـل بعضها عن بعض ، وافـراد شَطْر من شـطر ، حتى إنك لو حـذفت منها جملة واحـدة من أي موضـع كان أَخَـلَّ ذلك بـالمغزى من التشبيه »[1] .

ومن ذلـك قولـه تعالى : ﴿ **أنـزلَ من السماء مـاءً فسـالت أوديـةٌ بقَدَرها فاحتمل السَّيْلُ زَبَداً رابياً ومِمَّا يوقدون عليه في النار ابتغاءَ حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثلُه كذلك يضرب الله الحقَّ والباطلَ فأمـا الزبـد فيذهب جُفَـاءً وأمـا مـا ينفـع النــاس فيمكثُ في الأرض كـذلـك يضـرب الله الأمثال** ﴾[2] ويفسره الـزمخشري بقـوله : « هـذا مثل ضـربه الله للحق وأهله والباطل وحـزبه . . . فمَثَّـل الحق وأهلَه بـالمـاء الـذي يُنـزلـه من السماء ، فتسيل به أوديةُ الناس ، فيحيَوْن به ، وينفعهم أنواعَ المنافع ، وبالفِلِزِّ الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه ، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، ولو لم يكن إلا الحديدُ الذي فيه البأسُ الشديـدُ لكفى به ، وأن ذلك ماكث في الأرض ، باقٍ بقاءً ظاهراً ، يَثْبت الماءُ في مَناقعـه ، وتبقى آثـارُه في العيون والبِئَـار ، والحبوب والـثمـار التي تنبت به مِمَّـا يُدَّخر ويُكْنـز ، وكذلـك الجواهـر تبقى أزمنة متطاولة . وشَبَّـه البـاطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الـذي يُرمى به ، وبزَبَد الفِلِزّ الذي يطفو فوقه إذا أذيب »[3] .

وعلى هذا المنوال ، من التشبيهات المركبة الرائعـة ، والتمثيلات

---

(١) أسرار البلاغة ٨٧ .

(٢) سورة الرعد : الآية ١٧ .

(٣) الكشاف ٢/٤٠٧ .

التي تحتل قمة البيان العربي ، نُسجت جميع الأمثال المفصلة في القرآن الكريم .

* * *

هذه هي أمثال القرآن الكريم بقسميها : الموجزة والمفصلة ، ولكن بعض العلماء المتأخرين أضاف إلى هذين القسمين قسماً آخر ، سموه ، « المثل الكامن » ويقصدون به ذلك المثل الذي لم يصرح القرآن بأنه مثل ، ولم يَجْرِ في اللغة جريان المثل الموجز ، وإنما عدوه مثلاً لاشتماله على معنى قريب الشبه بمثل عربي سائر ، فهو مثل بمعناه لا بألفاظه ومن ثم سمي « مثلاً كامناً » .

ومثلوا له بقول القرب : « خيرُ الأمور أوساطُها »[1] وقالوا : إنه يكمن في أربعة مواضع من كتاب الله تعالى ، هي قوله : ﴿ **لا فارضٌ ولا بِكْرٌ عوانٌ بين ذلك** ﴾[2] وقوله : ﴿ **ولا تَجْعَلْ يدَك مغلولةً إلى عُنقك ولا تَبْسُطها كلَّ البَسْط** ﴾[3] وقوله : ﴿ **ولا تَجْهَرْ بصلاتِك ولا تُخَافِتْ بها وابْتَغِ بين ذلك سبيلاً** ﴾[4] وقوله : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَواماً** ﴾[5] .

كما مثلوا له بقول العرب في مثل آخر : « مَنْ جهل شيئاً عَادَاه » وقالوا : إنه موجود في موضعين من الكتاب العزيز ، هما قوله

---

(١) مجمع الأمثال ١/٢٤٣ ، والمستقصى ٢/٧٧ .
(٢) سورة البقرة : ٦٨ .
(٣) سورة الإسراء : ٢٩ .
(٤) سورة الإسراء : ١١٠ .
(٥) سورة الفرقان : ٦٧ .

تعالى : ﴿ بَل كَذَّبوا بما لم يُحِيطوا بعلمه ولَمَّا يأتهم تأويله ﴾[1] وقوله : ﴿ وإذْ لم يَهْتَدُوا به فسيقولون هذا إفكٌ قديم ﴾[2] .

وكذلك مثلوا له بقول العرب : « لا تلدُ الحَيَّةُ إلا الحَيَّةَ »[3] وقالوا : إنه موجود في قوله عز وجل : ﴿ ولا يَلِدُوا إلا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾[4] وقولهم : « كما تَدِينُ تُدَان »[5] وقالوا : إنه موجود في قوله تعالى : ﴿ من يَعمل سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾[6] .

وقد أورد السيوطي من هذا النوع ثلاثة عشر مثلاً ، نقلاً عن الماوردي[7] ، وإن كان النص الذي أورده الماوردي يشتمل على أمثال كثيرة غيرها[8] .

وإذا ناقشنا هذا الرأي ، وتدبرنا هذه العبارات القرآنية الكريمة وجدنا أن بعضها أمثال موجزة سائرة ، بألفاظها ومعانيها ، وأن بعضها الآخر لا يمكن أن نعده أمثالاً ، لأن مجرد اشتماله على معان قريبة الشبه بمعاني بعض الأمثال لا يكفي لإطلاق لفظ « المثل » عليه لأن العبارة الموروثة والمتداولة ركن من أركان المثل ، وشرط من شروطه[9] .

---

(١) سورة يونس : ٣٩ .

(٢) سورة الأحقاف : ١١ .

(٣) التمثيل والمحاضرة : ٣٧٧ .

(٤) سورة نوح : ٢٧ .

(٥) مجمع الأمثال ٢/ ١٥٥ .

(٦) سورة النساء : ١٣٣ .

(٧) الإتقان ٤/ ٤١ ـ ٤٣ .

(٨) انظر : أمثال القرآن وأثرها في الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري لنور الحق تنوير ١٥٧ ـ ١٦٠ .

(٩) انظر : الأمثال في النثر العربي القديم للدكتور عبد المجيد عابدين ١٣٦ .

جمع أمثال القرآن ودراستها

اهتم العلماء والباحثون بجمع أمثال القرآن ودراستها ، وبيان وجوه البلاغة فيها ، ومقارنتها بالأمثال العربية، ونجد في كتب التفسير والبلاغة الجم الغفير من آراء العلماء في هذه الأمثال .

وقد أفرد بعض العلماء لها كتباً برمَّتها ، وخَصَّص بعضهم لها فصولاً في كتبهم ، وتناولها بعض الباحثين المعاصرين بالدراسة .

فمن الكتب التي أفردتها بالتأليف :

١ ـ أمثال القرآن ، للجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري (ت ٢٩٨هـ)[١] .

٢ ـ أمثال القرآن لِنَفْطَوَيْه ، إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي (ت ٣٢٣هـ)[٢] .

٣ ـ أمثال القرآن ، لمحمد بن أحمد بن الجنيد الإسكافي (ت ٣٨١هـ)[٣] .

٤ ـ أمثال القرآن ، لمحمد بن حسين السلمي النيسابوري (ت ٤٠٦)[٤] .

٥ ـ أمثال القرآن ، لعلي بن محمد الماوردي (ت ٤٥٠)[٥] .

---

(١) الفهرست ١٨٦ .

(٢) نفسه ١٣٩ ، ومعجم الأدباء ١/٢٧٢ .

(٣) الفهرست ٥٨ .

(٤) كشف الظنون ١/١٦٨ (استانبول) .

(٥) كشف الظنون ١/١٦٨ ، والاتقان ٤/٣٨ .

٦ ـ أمثال القرآن ، لشمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بـابن قيم الجوزية (ت ٧٥٤هـ)[١] .

٧ ـ الأمثال الكامنة في القرآن ، للحسن بن الفضل[٢] .

٨ ـ الأمثـال الكامنـة في القرآن ، للحسن بن عبـد الرحمن بن إسحـاق القضاعي[٣] .

٩ ـ قراضة الإبـريز في الأمثـال المستخرجـة من الكتاب العـزيز ، لبـدر الدين حسن ابن الفرات[٤] .

ومن الكتب التي خَصَّصت لها فصولاً :

١ ـ الأمثال من الكتاب والسنـة ، لأبي عبد الله محمـد بن علي الحكيم الترمذي (ت نحو ٣٢٠هـ)[٥] .

٢ ـ رؤوس القوارير ، لأبي الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٣هـ)[٦] .

٣ ـ كتاب الآداب ، لجعفر بن شمس الخلافة (ت ٦٢٢هـ)[٧] .

٤ ـ كـتـاب درر الأمثـال ، لـزكـي الـديـن بـن أبـي الإصـبـع (ت ٦٥٤هـ)[٨] .

---

(١) كشف الظنون ١٦٨/١ (وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٣١ مجامع حليم وتقع في ٤٠ ص) .

(٢) فهرست ابن خير ٧٥ (بيروت ١٩٦٣) والبرهان ٤٨٦/١ .

(٣) فهرست ابن خير ٧٥ .

(٤) كشف الظنون ١٣٢٣/٢ .

(٥) تحقيق علي محمد البجاوي (نهضة مصر ١٩٧٥م) .

(٦) طبع بالقاهرة عام ١٩١٤م .

(٧) طبع بالقاهرة عام ١٩٣١م .

(٨) انظر : بديع القرآن لابن أبي الإصبع ٥٨٧ ، ٥٨٨ (تحقيق حفني محمد شرف ـ القاهرة ١٩٥٧م) .

٥ ـ إعلام الموقعين ، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥٤هـ)[١] .

٦ ـ البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ)[٢] .

٧ ـ المستطرف من كل فن مستظرف ، لشهاب الدين بن أحمد الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ)[٣] .

٨ ـ الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)[٤] .

٩ ـ أشهر الأمثال ، للشيخ طاهر الجزائري (ت ١٣٣٨هـ)[٥] .

ومن الأبحاث الحديثة فيها :

١ ـ رسالة في أمثال القرآن ، لأحمد بن عبد الله الكوزكناني النجفي (ت ١٣٢٧هـ)[٦] .

٢ ـ أمثال القرآن ، لعلي أصغر حكمت[٧] .

٣ ـ جواهر الأدب ، لأحمد الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)[٨] .

٤ ـ المثل في القرآن الكريم ، لمنير القاضي[٩] .

٥ ـ الأمثال في النثر العربي القديم ، للدكتور عبد المجيد عابدين[١٠] .

---

(١) طبع بالقاهرة عام ١٩٥٥ ، جـ ١/١٣٨ وما بعدها .

(٢) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة عام ١٩٥٧) جـ ١/٤٨٦ وما بعدها .

(٣) طبع بالقاهرة عام ١٩٥٣م .

(٤) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (مكتبة المشهد الحسيني بالقاهرة عام ١٩٦٧م) . جـ ٤/٣٨ وما بعدها .

(٥) طبع بالقاهرة عام ١٩١٩م .

(٦) طبع في طهران طبعة حجر عام ١٣٢٤هـ .

(٧) بالفارسية ، وطبع في طهران عام ١٩٥٥م .

(٨) طبع بالقاهرة عام ١٩٦٠ ، جـ ١/٢٢٨ ـ ٣١٩ .

(٩) مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد السابع ـ عام ١٩٦٠ ، ص ٣ ـ ٢٨) .

(١٠) طبع بالقاهرة عام ١٩٥٦ (مكتبة مصر) ص ١٣٥ ـ ١٤٣ ، ١٥٨ ـ ١٦٥ .

٦ ـ أمثال القرآن وأثرها في الأدب العربي إلى القرن الثالث الهجري ، لنور الحق تنوير [١] .

أثر القرآن الكريم في استحداث أمثال عربية

إذا كان القرآن الكريم قد اشتمل على عدد كبير من الأمثال الموجزة والمفصَّلة فإنه كان ذا أثر بعيد في استحداث أمثال عربية ، شاعت بغزارة في أحاديث المسلمين وكتاباتهم وأشعارهم بعد ظهور الإسلام .

ونَعني بهذه الأمثال تلك التي استوحاها العرب من معاني بعض الآيات القرآنية ، أو من قصص الأنبياء وغيرهم التي وردت بالقرآن .

وقد لاحظنا أن هذا النوع من الأمثال نادر جداً في كتب الأمثال ، التي دُونت قبل نهاية القرن الرابع الهجري ، وغزير في الكتب التي دونت بعد ذلك ، إذ لا يوجد منها في كتابَيْ « الدرة الفاخرة » لحمزة الأصبهاني (ت نحو ٣٥١هـ) ، و«جمهرة الأمثال » لأبي هلال العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) ، إلا أحد عشر مثلاً ، بينما نستطيع أن نجمع منها حوالي مائتي مثل من كتب : « التمثيل والمحاضرة » ، و « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » للثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ، و « مجمع الأمثال » للميداني (ت ٥١٨هـ) ، و « مستقصى الأمثال » للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، و « ما يعول عليه في المضاف والمضاف إليه » للمحبي (ت ١١١١هـ) .

أما الأمثال التي ساقها حمزة الأصبهاني وأبو هلال العسكري فهي قولهم :

---

(١) رسالة ماجستير من كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة عام ١٩٦٢ (محفوظة بمكتبة الكلية) .

« أَتَبُّ من أبي لَهَبٍ »(1) ، و « أَخْسَرُ من حَمَّالَةِ الحَطَبَ »(2) ، و « أخرقُ من ناكثةٍ غَزْلَها »(3) ، و « أقربُ من حَبْلِ الوَريد »(4) ، و « أَدْنَى من حَبْلِ الوَرِيد »(5) ، و « أشربُ من الهِيم »(6) ، و « أضيقُ من سَمِّ الخِيَاط »(7)، و « أفرغُ من فؤاد أم موسى »(8) ، و « أَوْهَى من

---

(1) الدرة الفاخرة ١/٩٧ ، وجمهرة الأمثال ١/٢٨٥ .
وأتب : من التباب ، وهو الخسران ، وهومأخوذمن قوله تعالى في سورة المسد : **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾** .
(2) الدرة الفاخرة ١/١٧٣ .
وحمالة الحطب هي أم جميل ، أخت أبي سفيان بن حرب ، وامرأة أبي لهب ، والمثل مأخوذ من قوله تعالى في سورة المسد أيضاً : **﴿وامرأته حمّالة الحطب * في جِيدِها حبلٌ من مَسَدٍ﴾** .
(3) الدرة الفاخرة ١/١٧٣ .
ويروى « من ناقضة غزلها» وهي أم ربطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، ويقال : إنها كانت تأمر جواريها فيغزلن لها من الغداة إلى العشية ، ثم تأمرهن فينقضنه . والمثل مأخوذ من قوله تعالى : **﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾** (سورة النحل ٩٢) . .
(4) الدرة الفاخرة ٢/٣٥١ .
والوريدان : عرقان يكتنفان صفحتي العنق ، وهومأخوذ من قوله تعالى : **﴿ونحن أقربُ إليه من حَبْلِ الوريد﴾** (سورة ق ١٦) .
(5) الدرة الفاخرة ١/٢٠٠ ، وهو رواية أخرى للمثل السابق .
(6) الدرة الفاخرة ١/٢٦١ .
والهيم : الإبل العطاش ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : **﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ ﴾** (سورة الواقعة ٥٥) .
(7) جمهرة الأمثال ٢/٣ .
والخياط : الإبرة ، وسمه : خرته وثقبه ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : **﴿حَتَّى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاط﴾** (سورة الأعراف: ٤٠) .
(8) الدرة الفاخرة ١/٣٢٧ ويضرب فؤاد أم موسى عليه السلام مثلاً للقلب الفارغ من الهموم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : **﴿ وأصبح فؤادُ أمِّ موسى فارغاً ﴾** (سورة القصص ١٠) .

بيت العنكبـوت»[1] ، و « أَوْهَنُ من بيت العـنكبـوت »[2] و « تَـقِيسُ الملائكةَ إلى الحَدَّادِين »[3] .

وقـد اخترت من كتـاب «ثمـار القلوب » للثعـالبي بعض الأمثـال الأخرى المستوحاة من القرآن الكريم ، وهي :

« سَفِينَةُ نُوح »[4] و « نارُ إبراهيم »[5] ، و « وَعْد إسماعيـل »[6] ، و « ذئـبُ يـوسـف »[7] ، و « قـمـيصُ يـوسـف »[8] ، و « سِـنُـو

---

(١) الدرة الفاخرة ٢ / ٤١٥ .

وهـو مأخـوذ من قولـه تعالى : ﴿وإنَّ أوهنَ البيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لـو كانـوا يعلمـون﴾ (سورة العنكبوت ٤١) .

(٢) الدرة الفاخرة ٢ / ٤١٥ وهو رواية أخرى للمثل السابق .

(٣) جمهرة الأمثال ١ /٢٦٨ ، وسبق تفسير المثل .

(٤) ثمار القلوب ٣٩ .

وتضرب سفينة نوح عليه السلام للشيء الذي ينجي ، وقد تضرب مثلاً للشيء الجامع ، لأن نـوحاً عليـه السلام حمـل فيها من كـل زوجين اثنين ، وهو مستـوحى من قولـه تعـالى : ﴿وقال اركبُوا فيها بسم الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ (سورة هود ٤١) .

(٥) ثمار القلوب ٤٣ ، ٥٧٢ .

ويضرب بنار إبراهيم عليه السلام المثل في البرد والسلامة ، وهو مأخوذ من قوله تعـالى : ﴿ قلنا يا نارُ كُوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم﴾ (سورة الأنبياء ٦٩) .

(٦) ثمار القلوب ٤٥ .

ويضـرب بوعـد إسماعيـل عليه السـلام المثل في الصـدق ، لأن الله سبحانـه أثنى عليـه بصدق الوعد فقال عـز وجل : ﴿ واذكـر في الكتاب إسمـاعيل إنـه كان صـادق الوعـدِ وكان رسولاً نبيّاً ﴾ (سورة مريم ٥٤) .

(٧) ثمار القلوب ٤٦ ، ٣٨٦ .

ويضرب بذئب يوسف عليه السلام المثل لمن يُـرْمى بذنب جناه غيره وهـو بريء السـاحة منه، وهو مستوحى من قوله تعالى : ﴿ قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبقُ وتركنا يوسفَ عند متاعنا فأكله الذئب﴾ (سورة يوسف ١٧) .

(٨) ثمار القلوب ٤٦ .

ويضرب بقميص يوسف عليه السلام المثل في لطف الموقع ، كما قال المتنبي :

كـأن كـل سـؤال في مـسـامـعـه ... قـمـيص يـوسـف في أجـفـان يـعـقـوب

والمثل مستوحى من قوله تعالى : ﴿ اذْهَبُوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يَأْتِ بصيراً ﴾(يوسف ٩٣) .

يـوسف »(١) ، و « صَـوَاحِبُ يـوسف » (٢) ، و « جِنُّ سـليمـان »(٣) ، و « عصـا مـوسى »(٤)، و « صبـر أيـوب »(٥) ، و « طِبُّ عيسى »(٦) ،

---

(١) ثمار القلوب ٤٩ .

ويضرب بسني يوسف المثل في الشدة والقحط ، وكانت سبعاً متواترة ، والمثل مستوحى من قوله تعالى : ﴿ **ثم يأتي من بعد ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يأكلن ما قدمتم لهنَّ إلا قليلاً مما تُحْصِنُون** ﴾ (سورة يوسف ٤٨) .

(٢) ثمار القلوب ٣٠٤ .

وتضرب صواحبُ يوسف مثلاً في النساء عند شكايتهن وذم أخلاقهن ، وقد تمثَّل به النبي ، ﷺ ، حينما قال لبعض نسائه وهو يعاتبهن : «إنكن صواحباتُ يوسف» كما تمثل به أبو تمام في قوله :

فَـهُـنَّ عـوادي يـوسـف وصـواحِـبُـهْ فعَـزْمَـاً فَقِـدْمـاً أدرك السؤلَ طـالِـبُـهْ

وهو مستوحى من قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز والنسوة اللاتي ذكرن معها في سورة يوسف .

(٣) ثمار القلوب ٥٧ .

ويضرب المثل بجن سليمان عليه السلام في البراعة ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى سخَّر لسليمان الجن والشياطين ، وجعلهم يصدرون عن رأيه ، ويتصرفون عن أمره ، ولذلك أضيفوا إليه ، فقيل : جن سليمان وشياطين سليمان ، وقد تمثل البحتري بجن سليمان في قوله يصف بركة المتوكل :

كـأن جـنَّ سـليـمـان الـذيـن وَلُـوا إبـداعَـهَـا فَـأَدَقُّـوا في مـعـانـيـهـا

والمثل مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **والشياطينَ كلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ** ﴾ (سورة ص ٣٧) .

(٤) ثمار القلوب ٥٠ .

ويضرب بعصا موسى عليه السلام المثل في الحق يدمغ الباطل ، وقد تمثل بها أبو نواس في قوله :

فـإن يَـكُ بـاقي إفـكِ فـرعـونَ فيكمُ فـإن عـصـا مـوسى بـكـفِّ خَـصِـيـبِ

والمثل مستوحى من قوله تعالى : ﴿ **فَأَلْقَىٰ موسى عصاه فإذا هي تَلْقَفُ ما يَأفكون** ﴾ (سورة الشعراء ٤٥) .

(٥) ثمار القلوب ٥٥ .

وقصة سيدنا أيوب عليه السلام في الصبر مشهورة متعالمة ، والمثل بها سائر ، وهو مستوحى من قوله تعالى : ﴿**إنا وجدناه صابراً نعم العبدُ إنه أوّابٌ**﴾ (سورة ص ٤٤) .

(٦) ثمار القلوب ٦٠ .

ويضرب بطب عيسى عليه السلام المثل ، لأنه كان يُبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، ومن أمثال العرب « فلان يتطبب على عيسى بن مريم» .

=

و « حمارُ عُزَيْر »[1] ، و « نَخلة مريم »[2] ، و « كلبُ أصحاب الكهف »[3] ، و « نومُ أصحاب الكهف »[4] ، وكنوزُ قارون »[5] .

= وقد تمثل المتنبي بطب عيسى عليه السلام في قوله :

فآجرك الإلّهُ على عليلٍ بعثتَ إلى المسيح به طبيبا

والمثل مستوحى من قوله تعالى : ﴿ **وَأُبْرِىءُ الأكْمَه والأبْرَصَ وأُحْيي الموتَى بإذن الله** ﴾ (سورة آل عمران ٤٩) .

(١) ثمار القلوب ، ٥٩، ٣٦٥ .

ويضرب بحمار عزير المثل في المنكوب الذي ينتعش من نكبته ، لأن الله سبحانه وتعالى أحياه بعد مائة عام من موته ، والمثل مستوحى من قوله تعالى : ﴿**وانْظُرْ إلى حِمَارِكَ ولنجعلَكَ آيةً للناس وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها ثم نَكْسُوها لحماً** ﴾ (سورة البقرة ٢٥٩) .

(٢) ثمار القلوب ٣٠٦ .

ويضرب بنخلة مريم عليها السلام المثل في البركة ، فيقال : « أعظمُ بركةً من نخلة مريم» وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿**وهُزِّي إليك بجِذْع النخلةِ تُساقِطْ عليك رُطَباً جَنِياً** ﴾ (سورة مريم ٢٥) .

(٣) ثمار القلوب ٣٩٢ .

ويضرب بكلب أصحاب الكهف المثل لمن يلازم ولا يفارق ، وقد ضربه دعبل مثلاً في هجاء المعتصم لما كان ثامنَ بني العباس من الخلفاء فقال :

ملوكُ بني العباس في الكتب سبعةٌ ولم تأتنا في ثامنٍ لهمُ كُتْبُ
كذلك أهلُ الكهف في الكهف سبعةٌ كرامٌ إذا عُدُّوا وثامنُهُم كلبُ

والمثال مستوحى من قوله تعالى : ﴿**وكلبُهُم باسطٌ ذراعَيْهِ بالوَصِيدِ**﴾ (سورة الكهف ١٨) .

(٤) ثمار القلوب ٨٣ .

ويضرب بنوم أصحاب الكهف المثل في النوم الكثير ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول فيهم : ﴿**فضربنا على آذانهم في الكهف سِنينَ عَدَداً** ﴾ (سورة الكهف ١١) .

(٥) ثمار القلوب ٨٢ .

ويضرب بكنوز قارون المثل فيما يستعظم قدره من نفائس الأموال ، وهو مستوحى من قوله تعالى : ﴿**وآتيناهُ من الكنوز ما إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أولِي القوة**﴾ (سورة القصص ٧٦) .

(٢)
أمثال الرسول صلى الله عليه وسلم

تهيأت لرسول الله ﷺ كل أسباب الفصاحة والبلاغة ، فقد نشأ وتقلَّب في أفصح القبائل ، وأخلصها منطقاً ، وأعذبها بياناً ، فكان مولده في بني هاشم ، وأخواله من بني زُهْرة ، ورَضاعه في بني سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش ، ومتزوَّجه في بني أسد ، ومهاجرته إلى بني عمرو ، وهم الأوْس والخزرج من الأنصار . لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة ، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة ، ولذا قال ﷺ : « أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر»[١] .

ولا غرو فقد علمه الله تعالى بنفسه ، وصنعه على عينه ، حيث يقول له : ﴿**وأنزل الله عليك الكتابَ والحكمةَ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً**﴾[٢] ويروى أن أبا بكر رضي الله عنه قال له مرة : لقد طفتُ في العرب ، وسمعتُ فصحاءَهم ، فما سمعتُ أفصح منك، فمن أدَّبك؟ ـ أي علَّمك ـ قال: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي» .

---

(١) من كتاب « تاريخ آداب العرب» للرافعي ٢/٣٠٠ ، ٣٠١ .
(٢) سورة النساء : ١١٣ .

وقد تناول العلماء والكتَّاب ، قديماً وحديثاً ، وصف البلاغة النبوية ، فقال الجاحظ عن كلامه ﷺ : « وهو الكلام الذي قَلَّ عدد حروفه ، وكثرت معانيه ، وجَلَّ عن الصنعة ، ونُزِّه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمد : ﴿وما أنا من المتكلِّفين﴾ فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهَجَر الغريب الوَحْشِيَّ ، ورَغِبَ عن الهجين السُّوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُسِّر بالتوفيق ،وهذا الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغَشَّاه بالقَبول ، وجَمَع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تَسقط له كلمة ، ولا زَلَّت به قدم ، ولا بارت له حُجَّة، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يَبُذُّ الخُطَب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفَلَج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطىء ولا يعجل ، ولا يُسهب ولا يَحْصَر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعاً، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أَبْيَن في فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم »[1] .

وقال الزمخشري عن بيانه ﷺ : « ثم إنْ هذا البيان العربي كأن الله عزت قدرته مَخضة، وألقى زُبْدَته على لسان محمد صلى الله عليه

---

(١) البيان والتبيين : ٢/ ١٦ .

وعلى آله أفضلَ صلاة وأوفرَ سلام ، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفككَ الرَّحْل ، وما من مِصْقع يناهزه إلا رجع فارغ السَّجْل ، وما قُرن بمنطقة منطق إلا كان كالبِرْذَوْن مع الحصان المطهَّم ، ولا وقع من كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الوَضَح في نُقْبة الأدهم»[١] .

وأما مصطفى صادق الرافعي فقد أشبع القول في « البلاغة النبوية » في كتابه « تاريخ آداب العرب»[٢] ونقتطف مما قاله فيها قوله : « مُحكمة الفصول حتى ليس فيها عُروة مفصولة ، محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفصولة ، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نَبْض قلم يتكلم ، وإنما هي في سموها وإجادتها مَظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم»[٣] .

وتنقسم أمثال الرسول ﷺ قسمين: أمثال موجزة، وأمثال مفصلة . أما الأمثال الموجزة فهي تلك الكلمات الجامعة التي قالها ﷺ في أمر من أمور الدين أو الدنيا ، فسارت عنه ، وفَشَت بين المسلمين فأصبحت أمثالاً . وهذه الكلمات أو الأحاديث كثيرة وغزيرة ، فقد رُوي أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « حفظت عن النبي ﷺ ألف مثل »[٤] .

وقد فاق الرسول ﷺ ، في هذا النوع من الأمثال ، كل العرب ، وأتى منه بما تنقطع دونه أنفاسهم ، وتكبو فصاحتهم وبيانهم ، ومنه ألفاظ اقتضبها ﷺ ، ولم تُسمع من العرب قبله ، كقوله : « مات حتفَ

---

(١) مقدمة (الفائق) للزمخشري .

(٢) طبع بالقاهرة (الطبعة الثالثة) عام ١٩٥٣ والفصل في الجزء الثاني منه .

(٣) تاريخ آداب العرب ٢/٢٩٤ .

(٤) أمثال الحديث للرامهرمزي ، ورقة ٣أ ، وحياة الحيوان للدميري ١/٩ .

أنفـه» فإنـه يُروى عن علي ابن أبي طـالب رضي الله عنه أنـه قال: «مـا سمعت كلمـة غريبـة عن العـرب ، إلا وسمعتُهـا من رسـول الله ﷺ ، وسمعته يقول : « مات حتفَ أنفه » وما سمعتها عن عربي قط»[1] وقوله في صفة الحرب يوم حُنَين : « الآن حَمِيَ الوَطِيسُ» .

يقـول الرافعي في بـلاغـة هـذا المثـل : « والـوطيس هـو التَّنُّـور ومجتمع النار والوقود، فمهما كانت صفة الحرب فـإن هذه الكلمـة بكل ما يقال في صفتها ، وكأنما هي نار مشبوبة من البـلاغة ، تـأكل الكـلام أكلًا ، وكأنما هي تمثِّل لك دماءً نارية ، أو ناراً دَمَوِية»[2] .

وقوله في حـديث الفتنة : « هُـدْنَةٌ عَلى دَخَن » وفي تفسيـره يقول الرافعي أيضاً: «والهدنة: الصلح والموادعة، والدَّخَنة: تغير الطعام إذا أصابه الـدخان في حـال طبخه فـأفسد طعمـه، وهـذه العبـارة لا يَعْـدِلُهـا كـلام في معناها ، فإن فيها لوناً من التصوير البيـاني ، لو أُذِيبَت لـه اللغة كلهـا ما وَفَتْ بـه، وذلـك أن الصلح إنمـا يكـون مـوادعـة وليناً وانصـرافـاً عن الحرب ، وكَفّاً عن الأذى ، وهذه كلها من عـواطف القلوب الرحيمـة ، فـإذا بُنِي الصلح على فسـاد ، وكـان لعلة من العلل ، غَلَب ذلـك على القلوب فأفسدها ، حتى لا يُسْتَرْوح غيرُه من أفعالها ، كما يَغلب الدَّخَن على الطعام ، فلا يجد آكله إلا رائحةَ هذا الـدخان ، والـطعام من بعـد ذلـك مَشُوبٌ مُفْسَـد ، فهـذا في تصـويـر معنى الفسـاد الـذي تنـطوي عليهاالقلوبُ الواغرة ، وثَمَّ لَوْنٌ آخـر في صفة هـذا المعنى ، وهو اللون المظلم الذي تنصبغ به النية (السوداء) ، وقد أظهرته في تصوير الكلام لفظة (الـدَّخَـن) ثم معنى ثالث : وهو النكتـة التي من أجلها اختيـرت

---

(١) تاريخ آداب العرب ٢/٣٣٢ ، ٣٣٣ .
(٢) نفسه ٢/٣٤٨ .

هذه اللفظة بعينها ، وكانت سِرَّ البيان في العبارة كلها ، وبها فَضَلت كلَّ عبارة تكون في هذا المعنى ، وذلك أن الصلح لا يكون إلا أن تُطفأ الحرب ، فهذه حرب قد طَفِئت نارُها بما سوف يكون فيها ناراً أخرى ، كما يُلقى الحطب الرطب على النار تخبو به قليلاً ، ثم يُسْتَوقد فَيَسْتَعِر فإذا هي نارٌ تَلَظَّى ، وما كان فوقه الدخان فإن النار ولا جَرَم من تحته ، وهذا كله تصوير لدقائق المعنى كما ترى ، حتى ليس في[1] الهدنة ، التي تلك صفتها ، معنى من المعاني يمكن أن يُتصور في العقل إلا وجدتَ اللون البياني يصوره في تلك اللفظة ، لفظة (الدَّخَن) »[1] .

ومن هذه الأمثال قوله ﷺ : « إن من البيان لسحراً » ، « إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطع ، ولا ظهراً أبقى» ، « إيَّاكُم وخضراءَ الدِّمَن » ، « إنَّ مِمَّا يُنبت الربيعُ ما يقتل حَبَطاً أو يُلِمُّ » ، « حُبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصم» ، « الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا تجدُ فيها راحلة» ، « قَيَّدَ الإيمانُ الفَتْكَ » ، « لا يُلدغ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين » ، « لا يَنْتَطِحُ فيها عَنْزان» ، « رِفْقاً بالقوارير» ، « عَلِّقْ سوطَكَ حيث يراه أهلك» ، « سَبَقَك بها عُكَّاشة » ، « حولَهما نُدَنْدِن» ، « الحياءُ لا يأتي إلا بخير » ، « إذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شئت » ، « لا يَقْضِيَنَّ حَكَم بين اثنين وهو غضبان » ، « اتقوا اللّه في الضعيفين» ، «لَا يورِدَنَّ مُجْرِبٌ على مُصِحٍّ » ، «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابْتَغَى ثالثاً » . « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم» ، « الكلمةُ الطيبة صدقة» ، «المستشار مُؤْتَمن» ، « التائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له » ، « ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض ، ولكن الغنى غنى النفس» ، « اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى» ، « الناس كلُّهم سواء كأسنان المشط» ،

---

(١) تاريخ آداب العرب ٢/٣٤٨ ، ٣٤٩ .

« نعمتان مَغْبُونٌ فيهما كثيرٌ من الناس : الصحةُ والفراغ» .

وأما الأمثال المفصَّلة في كلامه ﷺ فهي تلك التي جاءت على نسق الأمثال في القرآن الكريم ، والتي ساقها الله تعالى للوعد أو الوعيد ، وللتحليل أو التحريم ، وللرجاء أو الخوف ، وجعلها موعظة وتذكيراً للناس . وقد جاءت هذه الأمثال في صور رائعة من صور التمثيل والتشبيه المركب ، تنبىء عن عظمة البلاغة النبوية[١] .

ومن هذه الأمثال المثل الذي ضربه الرسول ﷺ للإسلام والقرآن فقال : «ضَرَب اللّه مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جَنْبَتَي الصراطِ سُورٌ فيه أبواب مُفَتَّحَة، وعلى تلك الأبواب ستورٌ مُرْخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول : أيها الناس ، ادخلوا الصراط ولا تَعُوجوا ، ومن فوق الصراط داعٍ ينادي ، فمن أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تَلِجْه ، فالصراطُ الإسلام ، والسورُ حدود الله ، والأبوابُ المفتَّحة محارمُ الله ، والداعي القرآنُ ، والداعي من فوق واعظُ الله» .

وقوله : « إنما مَثَلي وَمَثَل الأنبياء قبلي مثلُ رجل بنى بيتاً ، فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنَة ، فجعل الناسُ يُطيفون به ويقولون : ما رأينا أحسنَ من هذا لولا موضع هذه اللبنة ، أَلَا فكنتُ أنا تلك اللبنة» .

وقوله فيما رواه عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال : خرج النبي ﷺ ذات يوم فنادى ثلاث مرات : « أيها الناس ، إنما مَثَلِي وَمَثَلُكُم مثل قوم خافوا عدواً أن يأتيهم فبعثوا رجلاً يَتَرَبَّأُ لهم، فبينما هو كذلك إذ أبصر العدوَّ ، فأقبل لينذر قومه ، فخشي أن يدركه العدوُّ قبل أن ينذر قومه ،

---

(١) انظر : أمثال الحديث : للرامهرمزي ، ورقة ٢ ب .

فأهوى بثوبه أَنْ أيُّها الناس أُتِيتُم ، ثلاث مرات» . .

وقوله : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً ، فكانت منها نَقِيَّةٌ قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشْب الكثير ، وكانت منها أجادبُ ، أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وَسَقَوْا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعانٌ ، لا تُمسك ماء ، ولا تُنبت كَلَأً ، فذلك مَثَلُ من فَقُه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به ، فَعَلِمَ وَعَلَّم ، ومثل من لم يَرْفع بذلك رأساً ، ولم يَقبل هدى الله الذي أرسلت به» .

وقوله : « مثلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّة ، طعمها طيب ، وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التَّمرة ، طعمها طيب ، ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن مثل الرَّيْحانة ، ريحها طيب ، وطعمها مُرٌّ ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن مثل الحَنْظلة ، خبيثٌ طعمها ، خبيثٌ ريحها» .

وقوله : « مثل المؤمن كالخامة من الزرع ، تُفَيِّئها الريحُ مرةً هنا ، ومرة هنا ، ومثل الكافر كالأَرْزة ، لا تزال حتى يكون انجعافُها مرة واحدة» .

وقوله: «مثل المنافق كمثل الشاة الحائرة بين الغَنَمَيْن، تَكُرُّ إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ، لا تدري أيهما تَتْبَع » .

وقوله : « إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً ، فهو يَذُبُّ عنها أن يقع فيها الجراد والفراش ، وإني آخذُ بحُجَزكم أن تقعوا في النار» .

وقوله فيما يرويه علقمة عن عبد الله قال : دخلت على رسول الله

ﷺ وهو على حصير قد أثَّر الشريط في جَنْبه ، فقلت : لو نمتَ يا رسول اللَّه على ما هو أَلْيَنُ من هذا . فقال : « ما لي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب مَرَّ بأرضٍ فَلاةٍ ، فرأى شجرة فاستظل تحتها ثم راح وتركها» .

عناية العلماء بجمع أمثال الرسول ﷺ وتفسيرها

لاقت أمثال الرسول ﷺ ما تستحق من عناية كريمة ، إذ أقبل عليها العلماء بالتفسير والشرح ، وبيان مضاربها ووجوه البلاغة فيها ، وتفوقها على أمثال العرب والعجم جميعاً ، ونرى في كتب السنَّة وشروحها ، وفي كتب البلاغة والأمثال والأدب نُبَذاً متفرقة من أقوال العلماء والبلغاء فيها .

ثم أخذت هذه العناية تشتدّ وتتزايد على أيدي جماعة من العلماء والأدباء ، أفردوا لها كتباً بذواتها ، أو خَصَّصوا فصولاً من كتبهم لها .

فَمِمَّن أفرد لها كتاباً برُمَّته أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي (ت في حدود ٣٦٠هـ) واسم هذا الكتاب « أمثال الحديث »[(١)] وقد ساق فيه المؤلف طائفة كبيرة من الأمثال المفصَّلة وحدها ، مسندة إلى رواتها ، ثم فسَّرها تفسيراً مُشْبَعاً ، تناول فيه شرحَ غريبها ، مستدلاً عليه بالأشعار والنصوص الأخرى ، ويقول الرامهرمزي في المقدمة : « هذا ذكر الأمثال المروية عن النبي ﷺ ، وهي على خلاف ما رويناه من كلامه المُشاكل للأمثال المذكورة عن متقدمي العرب ، فإن تلك تقع مواقع الإفهام باللفظ الموجَز المجمل ، وهذه

(١) منه مصورة بمعهد المخطوطات ـ جامعة الدول العربية ـ عن نسخة مكتبة (فيض الله) برقم ٦٨٦ حديث ، ولدي نسخة منها .

بيان وشرح وتمثيل ، يوافق أمثال التنزيل التي وعد الله عز وجل بها وأوعد ، وأحلَّ وحَرَّم ، ورَجَّى وخَوَّف ، وقَرَّع بها المشركين ، وجعلها موعظة وتذكيراً ، ودل على قدرته مشاهدة وعِيَاناً ، وعاجلاً وآجلاً ، ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» .

ويُشعر قولُ الرامهرمزي : « وهو على خلاف ما رويناه من كلامه المُشاكل للأمثال المذكورة عن متقدمي العرب » ، أنه ألَّف كتاباً آخر في أمثال الرسول ﷺ الموجزة ، ولكني لم أعثر على هذا الكتاب !

ويذكر بروكلمان أن عبد الله بن محمد بن جعفر (ت ٣٦٩هـ) هو ابو الشيخ ألَّف كتاباً في أمثال الرسول ﷺ[١] .

ثم جاء بعدهما أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (٣٨٢هـ) فألَّف كتاباً كبيراً في أمثال النبي ﷺ[٢] ، يشتمل على ألف مثل منها .

وقد نَوَّه الميداني في مقدمة « مجمع الأمثال » بهذا الكتاب فقال : « وأما الكلام النبوي من هذا الفن فقد صنَّف العسكري فيه كتاباً برأسه ، ولم يَأْلُ جهداً في تمهيد قواعده وأساسه » كما ذكره زكي الدين ابن أبي الأصبع بين مراجعه التي رجع إليها في تأليف كتابه ، « بديع القرآن » وسمَّاه « الأمثال والحكم من كلام سيد الأمم»[٣] .

وألَّف الشريف الرضي ، أبو الحسين محمد بن أبي أحمد (ت ٤٠٦هـ) كتاب « المجازات النبوية »[٤] ، وهو كما قال عنه في

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٣٤٧/١ . Suppl. I, 347

(٢) حياة الحيوان للدميري ٩/١ .

(٣) بديع القرآن ٦ (تحقيق حفني محمد شرف ـ القاهرة ١٩٥٧م) .

(٤) طبع بمطبعة الآداب ببغداد عام ١٣٢٨هـ ، ثم أعيد طبعه بالقاهرة .

المقدمة : «كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، أو كان فيها كثير من الاستعارات البديعة ، ولمع البيان الغريبة ، وأسرار اللغة اللطيفة » وموضوعه ، كما يومىء إليه اسمه، الأحاديث الشريفة التي تشتمل على صور رائعة من صور البيان، ولا سيما الاستعارات، ومن هذه الأحاديث كثير من الأمثال الموجزة.

وألّف أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي المصري (ت ٤٥٤هـ) في هذا الفن كتاباً سمّاه «شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب»[١] جمع فيه ألفاً ومائتي كلمة من أمثال رسول اللّه ﷺ وحكمه ، وقال في مقدمته : « وقد جمعت في كتابي هذا مما سمعته من حديث رسول الله ﷺ ، وفيه ألف كلمة من الحكمة ، في الوصايا والآداب والمواعظ والأمثال، قد سلمت من التكلف مبانيها، وبعدت عن التعسف معانيها ، وبانت بالتأييد عن فصاحة الفصحاء ، وتميزت بهدى النبوة عن بلاغة البلغاء ، وجعلتها مَسْرودة يتلو بعضها بعضاً محذوفةَ الأسانيد ، مبوَّبة أبواباً ، على حسب تقارب الألفاظ ، ليقرب تناولها ، ويسهل حفظها، ثم زدت فيه مائتي كلمة، فصار ألف كلمة ومائتي كلمة ، وختمت الكتاب بأدعية مروية عنه ﷺ » .

والكتاب مقسَّم خمسة عشر باباً حسب أوائل الأحاديث ، سُردت فيها الأحاديث سرداً مجرداً من الأسانيد والشروح ، ومن ثم هَبَّ كثير من العلماء لشرحه أو اختصاره ، أو تخريج أحاديثه[٢] ، كما رتبه ترتيباً أبجدياً دقيقاً زين العابدين عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ)

(١) طبع في القاهرة عام ١٩٧٠م بشرح أبو الوفا المراغي باسم «اللباب في شرح الشهاب» .
(٢) انظر/ مقدمة «اللباب» .

في كتاب سماه « إسعاف الطلاب بترتيب الشهاب»[١] .

أما الكتب التي ذكرت بعض أمثال الرسول ﷺ ، وتحدثت عنها في فصول خاصة ، فمنها كتاب « البيان والتبيين »[٢] للجاحظ : (ت ٢٥٥هـ) وكتاب : « الأمثال من الكتاب والسنة »[٣] لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي (ت نحو ٣٢٠هـ) وكتاب « المجتنى »[٤] لابن دريد ، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ) ، وهو يشتمل على أقوال الرسول ﷺ وخلفائه إلى الحسن بن علي ، وأقوال الحكماء والفلاسفة . وكتاب « الأمثال السائرة التي رُويت عن النبي ﷺ وَعن غيره»[٥] لأبي عروبة الحسين بن محمد بن مودود الحرّاني . وكتاب « التمثيل والمحاضرة »[٦] للثعالبي ، أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩هـ) .

وقد أحسن الثعالبي في تقسيم أمثال النبي ﷺ عدة أقسام هي : « ألفاظ له عليه الصلاة والسلام لم يسبقه العرب إليها ، وما أجراه في عُرْض كلامه غير قاصد به ضربَ مثل أو إرسال فقرة فتمثّل الناس به، وتشبيهاته وتمثيلاته ، وحسن استعاراته ، وحسن الطباق في كلامه ، وحسن التجنيس في كلامه ، وأقواله في ذكر الأموال ، وسائر أمثاله وحكمه في فنون مختلفة » .

---

(١) نشر ذيلاً لكتاب «اللباب» .
(٢) ج ٢ ص ١٥ ـ ٣٩ .
(٣) حققه على محمد البجاوي ـ القاهرة ١٩٧٥ .
(٤) كشف الظنون ١٤٦/٥ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٨٤/٢ (المترجم) .
(٥) فهرسة ابن خير ١٧٦ ، والذريعة ٣٤٧/٢ .
(٦) طبع بالقاهرة ، عام ١٩٦١م بتحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ص ٢٢ ـ ٢٨ .

وكتاب «درر الأمثال» لابن أبي الأصبع المصري (٦٥٤هـ)[1] وأمثال الرسول فيه مرتبة على الحروف ، ومجموعة من كتب السنة الستة : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، والموطأ ، وسنن الترمذي ، وسنن النسائي ، وسنن أبي داود .

ثم عقد مصطفى صادق الرافعي (١٩٣٧م) للبلاغة النبوية فصلاً ضافياً في كتابه «تاريخ آداب العرب»[2] تناولها فيه تناول الأديب المتمكِّن ، ممثِّلاً بطائفة من أمثاله ﷺ .

(١) ذكره في «بديع القرآن» له ، بتحقيق حفني محمد شرف ، ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) الفصل الثاني من الجزء الثاني .

(٣)
أمثال الصحابة والتابعين

أثر عن أصحاب رسول اللّه ﷺ وتابعيهم كثير من الحكم ، سار الموجز منها وشاع بين المسلمين ، وتمثلوا به في أمور الدين والدنيا ، فدخل حظيرة الأمثال ، ودوَّنه العلماء فيما دوَّنوا من أمثال العرب القديمة .

وهذه الأمثال قليلة جداً إذا قيست بالأمثال الجاهلية ، ويمكننا أن نفسر ذلك باكتفائهم بكتاب اللّه تعالى ، وأحاديث الرسول ﷺ ، وفيهما من الأمثال والحكم والمواعظ ما به صلاح الدنيا والآخرة معاً ، وما كان يُغنيهم عن أن يُنْشِئوا أمثالاً جديدة إلَّا في بعض الأحوال والمناسبات النادرة .

فمن الأمثال التي تنسب إلى أبي بكر الصدّيق قوله : « لا طَامَّةَ إلَّا وفوقها طَامَّةٌ »[1] ، و « صنائعُ المعروفِ تَقِي مصارعَ السوء »[2] ، و « ليست مع العزاء مصيبة »[3] .

ومن الأمثال التي تنسب إلى عمر بن الخطاب قوله : « شَوَىٰ

(١) جمهرة الأمثال ٢/٤١٣ ، واللسان (طمم) ويُروى «ما من طامة إلا وفوقها طامة» .

(٢) التمثيل والمحاضرة : ٢٨ .

(٣) المصدر السابق : ٢٨ .

أخـوكَ حتى إذا أنضـج رَمَّــد »[1] ، و « اليمينُ حِنْثٌ أو مَنْـدَمــة »[2] ، و « النسـاء لحمٌ على وَضَم »[3] ، و « لا يكن حُبُّك كَلَفاً ، ولا بغضك تَلَفاً »[4] ، و « وَلِّ حَارَّها من تَوَلَّىٰ قَارَّها »[5] .

ومن الأمثـال التي تنسب إلى علي بن أبي طـالب قــولـه : «رأىُ الشيخ خيرٌ من مَشْهَد الغلام »[6] ، و « لا أكون مثلَ الضبع تسمع اللَّدْمَ حتى تَخــرج فتُصَــاد »[7] ، و « من فــاز بفــلان فقــد فــاز بــالسهـم الأَخْيَب »[8] ، و « أحببْ حبيبَك هونـاً ما عسى أن يكـون بغيضَك يـوماً ما »[9] ، و « الناس من خوف الذلِّ في ذل »[10].

ومن الأمثـال التي تنسب إلى ابن عباس قـوله : « إذا جـاء القَـدَر عَشِيَ البَصَــر »[11]، و « اسْمَـحْ يُسْمَــحْ لَــك »[12]، و « الهَــوَىٰ إلَــه معبود »[13].

---

(1) أمثال أبي عبيد ٦٦ ، ومجمع الأمثال ١ / ٣٦٠ ، والمستقصى ٢ / ١٣٦ .
(2) أمثال أبي عبيد ٨٩ ومجمع الأمثال ٢ / ٤٢١ ، والمستقصى ١ / ٣٥٧ .
(3) أمثال أبي عبيد ١٠٩ ، وجمهرة الأمثال ٢ / ٣٠١ ، واللسان (وضم) .
(4) أمثال أبي عبيد ١٧٨ ، ومجمع الأمثال ٢ / ٢١٨ .
(5) أمثـال أبي عبيـد ٢٢٧ ، ٢٨٤ ، وجمهـرة الأمثـال ٢ / ٣٣٤ ، ومجمـع الأمثـال ٢ / ٣٦٩ ، والمستقصى ٢ / ٣٨١ ، واللسان (قرر) .
(6) أمثال أبي عبيد ١٠٨ ، ومجمع الأمثال ١ / ٢٩٢ ، والمستقصى ٢ / ٩١ .
(7) أمثال أبي عبيد ١٢٦ ، وجمهرة الأمثال ٢ / ٤٠٤ ، ومجمع الأمثال ٢ / ٢٤٢ .
(8) أمثال أبي عبيد ١٨٢ ، ومجمع الأمثال ٢ / ٣٠٨ ، والمستقصى ٢ / ٣٥٨ .
(9) جمهرة الأمثال ١ / ١٨٣ ، ومجمع الأمثال ١ / ٢٠٩ ، واللسان (هون) .
(10) التمثيل والمحاضرة ٣٠ .
(11) أمثال أبي عبيد ٣٢٦ ، وجمهرة الأمثال ١ / ١١٨ .
(12) أمـثـال أبي عـبـيـد ٢٨٤ ، وجمـهـرة الأمـثـال ١ / ١٥٩ ، ومجـمـع الأمـثـال ١ / ٣٣٨ والمستقصى ١ / ١٧٢ ، واللسان (سمح) .
(13) التمثيل والمحاضرة ٣٠ .

وينسب إلى عبد الله بن مسعود قوله : « هو إِمَّعَةٌ »[1] ، و« أَجْرِ الأمورَ على أذْلالِها »[2] ، و« أحقُّ شيءٍ بِسَجْنٍ لسانٌ »[3] ، و« النساءُ حبائلُ الشيطان »[4] .

وينسب إلى معاوية قوله في النساء : « يَغْلِبْنَ الكرامَ ، ويغلبهنَّ اللئام »[5] ، وقوله : « لا جَدَّ إلَّا ما أقْعَص عنك ما تَكْره »[6] ، و« حَرِّك لها حُوارَها تَحِنّ »[7] ، و« أَفْلَتَ وانْحَصَّ الذَّنب »[8] .

وينسب إلى عمرو بن العاص قوله : « إذا حككتُ قَرْحة أدميتُها »[9] ، و« استراح من لا عقلَ له »[10]، و« مات فلان بِبِطْنَتِه لم يَتَغَضْغَضْ منها شيء »[11].

وينسب إلى أبي الدرداء قوله : « معاتبةُ الأخ خيرٌ من فَقْده »[12]،

---

(١) أمثال أبي عبيد ١٢٨ ، ومجمع الأمثال ٢/٣٩٤ ، والمستقصى ٢/٣٩٦ .
(٢) أمثال أبي عبيد ٢٢٧ ، وجمهرة الأمثال ١/٨٩ ، ومجمع الأمثال ١/١٧٤ ، واللسان (ذلل) .
(٣) أمثال أبي عبيد ٣٩ ، وجمهرة الأمثال ١/٢٢ .
(٤) جمهرة الأمثال ٢/٣٠٢ ، ومجمع الأمثال ٢/٣٤٠ ، واللسان (حبل) .
(٥) أمثال أبي عبيد ١٥٩ ، ومجمع الأمثال ٢/٤٢٦ .
(٦) أمثال أبي عبيد ١٩٢ ، وجمهرة الأمثال ٢/٣٨٥ ، ومجمع الأمثال ٢/٢١٥ .
(٧) جمهرة الأمثال ١/٩٩ ، ومجمع الامثال ١/١٩١ ، والمستقصى ٢/٦٢ .
(٨) جمهرة الأمثال ١/١١٥ ، ومجمع الأمثال ٢/٧٠ ، والمستقصى ١/٢٧٤ ، واللسان (حصص) .
(٩) جمهرة الأمثال ١/١٤٤ ، ومجمع الأمثال ١/ ٢٨ ، والمستقصى ١/١٢٤ ، واللسان (حكك) .
(١٠) جمهرة الأمثال ١/١٤٧ .
(١١) أمثال أبي عبيد ٣١٤ ، ومجمع الأمثال ٢/٢٦٧ ، والمستقصى ٢/٣٣٨ ، واللسان (غضض) .
(١٢) أمثال أبي عبيد ١٨٢ .

و « وجدتُ الناس اخْبُرْ تَقْلُه »[1] .

وينسب إلى زياد بن أبيه قوله : « قد أُلْنَا وإيلَ علينا »[2] ، و « النَّبْعُ يَقرع بعضُه بعضاً »[3] .

وهناك أمثال أخرى تُنسب إلى كل من : عُبَيْد اللّه بن زياد[4] ، ومُصْعَب بن الزبير[5] ، والأحنف بن قيس[6] ، وعبد الملك بن مروان[7] ، ومطرِّف بن الشِّخِّير[8] ، وسعيد بن جُبَير[9] ، وإبراهيم النَّخَعي[10] ، وعمر بن عبد العزيز[11] ، وعِكْرمة مولى ابن عباس[12] ، والحسن البصري[13] ، وخالد بن صفوان[14] ، وابن جُرَيج[15] .

وإذا كانت هذه الأمثال تنسب إلى رجال بأعينهم من الصحابة والتابعين ، رضوان اللّه عليهم ، فإن لدينا نوعاً آخر من الأمثال نشأ في صدر الإسلام ، أو في عصر بني أمية ، ولم ينسب إلى قائل بعينه ، غير أنه يشتمل على أسماء أعلام كانت تعيش في هذين العصرين ، أو يشير إلى أحداث وقعت فيهما .

---

(١) أمثال أبي عبيد ٢٧٦ ، وجمهرة الأمثال ١/١٠٥ ، ومجمع الأمثال ٢/٣٦٣ ، والمستقصى ١/٩٣ ، واللسان (قلى) .
(٢) أمثال أبي عبيد ١٠٦ ، ومجمع الأمثال ٢/١٠٤ ، والمستقصى ٢/١٨٩ .
(٣) جمهرة الأمثال ٢/٣٠٠ ، ومجمع الأمثال ٢/٣٣٧ ، والمستقصى ١/٣٦٢ .
(٤) جمهرة الأمثال ١/٢٧ .
(٥) مجمع الأمثال ٢/٢٩٠ .
(٦) جمهرة الأمثال ١/٥٠٩، ٥١٠ .
(٧) أمثال أبي عبيد ١٠٢ .
(٨) نفسه ٦٤، ٧٤، ٢٢٠.
(٩) نفسه ١٩٢ .
(١٠) نفسه ٦٤ .
(١١) نفسه ١٨٥ .
(١٢) نفسه ٢٦٩ .
(١٣) نفسه ١٥٠ ، ٣٢٣.
(١٤) نفسه ٨٥ .
(١٥) نفسه ١٠٥ .

ومن هذا النوع في صدر الإسلام قولهم : « أَبْطَأُ من فَنْد »[1] ، و « أَتْيَهُ من فَقِيد ثقيف »[2] ، و « أتبُّ من أبي لَهَب »[3] ، و « أخسرُ من حَمَّالة الحَطَب »[4] ، و « أخنثُ من طُوَيْس »[5] ، و « أدنفُ من المتمنِّي »[6] ، و « أصبُّ من المُتَمَنِّية »[7] ، و « أزنى من سَجاح »[8] ، و « أطمع من أشعب »[9] ، و « أغدر من قيس بن عاصم »[10] ، و « أَوْحَىٰ من عقوبة الفُجاءة »[11] ، و « لا في العِير ولا في النَّفِير »[12] ، و « تقيس الملائكةَ إلى الحَدَّادِين »[13] .

ومن أمثال العصر الأموي قولهم : « أَبْأَى مِمَّنْ جاء برأس خَاقَان »[14] ، و « أبلغ من سَحْبان »[15] ، و « أَتْيَهُ من أحمق ثقيف »[16] ، و « أحلم من الأحنف »[17] ، و « أَخنث من دَلَال »[18] ،

---

(١) الدرة الفاخرة ١/٩٢ ، والقاموس المحيط (فند) .

(٢) الدرة الفاخرة ١/٩٩ .

(٣) مجمع الأمثال ١/١٥٠ .

(٤) الدرة الفاخرة ١/١٧٣ .

(٥) نفسه ١/١٨٥ .

(٦) نفسه ١/٢٠٢ ، ٢٧٥ .

(٧) نفسه ١/٢٧٤ .

(٨) نفسه ١/٢١٤ ، ٣٢٥ .

(٩) نفسه ١/٢٩٠ ، واللسان (شعب) .

(١٠) الدرة الفاخرة ١/٣٢٤ .

(١١) نفسه ٢/٤٢٥ .

(١٢) الفاخر ١٧٧ ، وجمهرة الأمثال ٢/٣٩٩ ، واللسان (نفر) .

(١٣) الفاخر ١١٢ ، وجمهرة الأمثال ١/٢٦٨ ، ومجمع الأمثال ١/١٣٦ ، واللسان (حدد) .

(١٤) الفاخر ٩٨ ، والدرة الفاخرة ١/٨٠ .

(١٥) الدرة الفاخرة ١/٩٠ ، واللسان (سحب)

(١٦) نفسه ١/١٠٠ .

(١٧) الفاخر ٢٩٨ ، والدرة الفاخرة ١/١٦٤ .

(١٨) الدرة الفاخرة ١/١٨٦ ، واللسان (خنث) .

و « أزكنُ من إياس » [1] ، و « أفتكُ من الجَحَّاف »[2] ، و « أكـذبُ من المهلَّب بن أبي صُفْــرة »[3] و « ألحنُ من قَيْنَتَيْ يَـزِيــد »[4] ، و « حتى يرجَعَ نَشِيطُ مِنْ مَرْوَ »[5] ، و « حتى يُؤوبَ المُثَلَّم »[6] .

(١) الدرة الفاخرة ١/٢١٥ ، واللسان (زكن) .

(٢) نفسه ١/٣٣٦ .

(٣) نفسه ٢/٣٦٥ ، وجمهرة الأمثال ٢/١٧٤ .

(٤) نفسه ٢/٣٧٩ .

(٥) جمهرة الأمثال ١/٢٦١ ، ومجمع الأمثال ١/٢١٦ .

(٦) مجمع الأمثال ١/٢١٥ .

ثانياً
الأمثال المولَّدة أو المحدثة

ويُراد بها الأمثال التي نشأت بعد عصور الاحتجاج والاستشهاد اللغوي . يقول ابن منظور في تعريف المولَّد : « وإنما سُمِّي المولَّد من الكلام مولداً ، إذا استحدثوه ولم يكن من كلامهم فيما مضى . . . والمولَّد : المحدَث من كل شيء ، ومنه المولَّدون من الشعراء، وإنما سُمُّوا بذلك لحدوثهم »[1] ويقول الزمخشري : « ومن المجاز وَلَّدوا حديثاً أو كلاماً ، استحدثوه ، وكلام مولَّد ليس من أصل لغتهم ، وشاعر مولَّد »[2] . ويقول السيوطي : « وهو ما أحدثه المولَّدون الذين لا يُحْتَج بألفاظهم »[3] . ويفهم من هذه النصوص أن كلمة « المولَّد » ترادف كلمة « المحدَث » ، وأن المراد بكل منهما الكلامُ الذي تحدَّثت به العرب بعد عصور الاحتجاج ، ولم يكن من كلامهم فيما مضى. وقد اختلف العلماء اختلافاً شاسعاً في الحَدَّين الزمانيِّ والمكانيِّ اللذين يفصلان بين الكلام الفصيح الذي يُحتج به والكلام المولد الذي لا يُحتج به ، سواء أكان شعراً أم نثراً[4] .

---

(١) اللسان (ولد) .

(٢) أساس البلاغة (ولد) .

(٣) المزهر ١/٣٠٤ .

(٤) انظر في هذا الموضوع : مقدمة «خزانة الأدب» للبغدادي ، ومقدمة « المعجم الوسيط » نشرة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وأيًّا ما كان الأمر فإن لغتنا العربية تشتمل على الكثير من الأمثال المولَّدة ، وأعني بها تلك التي نشأت في العصر العباسي بالذات . وأسارع فأقول : إن « توليدها » ليس معناه أنها ملحونة ، لأنها جميعاً تجري على سَنَن الفصحى ، ولكن معناه أنها ليست من كلام العرب الذين يُحتج بكلامهم كما أسلفنا .

هذه الأمثال المولَّدة توجد متناثرة أحياناً في كتب الأمثال المتأخرة ، وتوجد مجموعة في أبواب وفصول من هذه الكتب أحياناً أخرى . وقد لا أكون بعيداً عن الصواب إذا قلت : إن أول من اهتم بالتمييز بين الأمثال العربية والمولَّدة حمزة بن الحسن الأصبهاني (نحو ٣٥١هـ) إذ نراه أولاً قد نبَّه على حداثة بعض الأمثال وتوليدها[1] . ونراه ثانياً قد عقد باباً كاملاً من كتابه لذكر الأمثال المولَّدة المزدوجة التي على وزن (أفعل من) وهو « الباب التاسع والعشرون »[2] ساق فيه أربعمائة وأربعين مثلاً .

وجاء بعده أبو هلال العسكري (نحو ٣٩٥هـ) فأورد في كتابه عدداً يسيراً من الأمثال المولَّدة ، نبَّه عليها في أثناء تفسيرها[3] . ويبدو أن أبا هلال كان ذا نزعة عربية محضة في تأليفه ، لأنه لما نقل أمثال حمزة في كتابه اكتفى بنقل العربي منها دون المولَّد ، وأشار إلى ذلك في المقدمة بما يفيد امتهانَه لتلك الأمثال .

أما الميداني (ت ٥١٨هـ) فقد أولى الأمثال المولَّدة عنايةً فائقة ، إذ ذَكر منها في كتابه زُهَاءَ ألف مثل ، موزعة على أبواب

---

(١) انظر : ما كتبناه عن (الدرة الفاخرة) في « الفصل الأول » .

(٢) الدرة الفاخرة ٢/٤٤٣ ـ ٤٥٦ .

(٣) انظر : ما كتبناه عن « جمهرة الأمثال » في « الفصل الأول» .

الكتاب ، ومسوقة في أعقابها بعنوان « المولَّدون » .

ومن الأمثال المولَّدة المزدوجة التي ذكرها حمزة قولهم : « أضوأُ من الفَجْر ، وأحرُّ من الجَمْر . أقسى من الصَّخْر وأَعْدَىٰ من الدهر . أنفسُ من الدُّرّ وأمرُّ من الصبر . أَسْيَرُ من الشِّعْر وأخفى من السِّر[1] . أحسنُ من تَمام النِّعمة وأوحشُ من حلول النقمة . أحسنُ من الياقوت الأحمر وألذُّ من معانقة الرِّيم الأَحْوَر . أقبح من نِقْمة في نِعْمة ، وأحسن من فَرْحة إثر غُمَّة . أقصرُ من الليل على الراقد وأهونُ من السُّقْم على العائد »[2] .

ومن الأمثال التي ذكرها الميداني قولهم : « شَرُّ السمكِ يُكَدِّر الماء . شَغَلني الشَّعِير عن الشِّعْر ، والبُرُّ عن البِرِّ . شهاداتُ الفِعَال أعدلُ من شهادات الرجال »[3] . « ليس حَيٌّ على الزمان بباقٍ . ليس الشاميُّ للعراقي برفيق . لكل عمل ثواب، لكل كلام جواب ، الليل جُنَّة الهارب . لا يصبر على الخَلِّ إلاَّ دُودُه ، لا تطمع في كل ما تَسْمَع »[4] .

وإذا نحن فحصنا هذه الأمثال وجدنا أنها تختلف عن الأمثال القديمة في أمرين رئيسين :

أولهما : سهولةُ العبارة ، وبراءتُها من غريب الألفاظ ووَحْشِيِّها ، وهذه الظاهرة من خصائص الأدب العباسي ، بصفة عامة ، شعراً

---

(١) الدرة الفاخرة ٢/٤٤٣ .
(٢) نفسه ٢/٤٤٤ .
(٣) مجمع الأمثال ١/٣٩١ .
(٤) نفسه ٢/٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ونثراً ، وهذا أمر مفروغ منه ، وصفه الدارسون للأدب العربي وصفاً تفصيلياً .

ثانيهما : ظهور الصنعة اللفظية فيها بشكل واضح ، حيث نرى فيها ألواناً من السجع والازدواج والمقابلة ، لا نراها في الأمثال القديمة ، وهذه أيضاً سمة من سمات الأدب العباسي .

* * *

وقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين مذهباً غريباً في الأمثال المولَّدة ، معتمداً في ذلك على رأيٍ لبعض المستشرقين ، فذهب إلى أن معظم الأمثال التي على وزن (أفعل من) مصنوع موضوع ، صاغه العلماء في وقت متأخر ، ليكون سجلاً لأنواع من الثقافات والمعارف[1] ، ثم ساقَ على مذهبه عدة أدلة نوجزها فيما يلي :

(١) أن صيغة (أفعل من) مما تنفرد به العربية دون أخواتها السامية ، إذ ليس لها نظير في العبرية والآرامية والحبشية والعربية الجنوبية القديمة ، وأن المثل (أفعل من) ليس له أصالة في الآداب السامية .

(٢) أن هذه الأمثال لم تظهر بكثرة إلَّا في المدوّنات المتأخرة ، أما المدوّنات القديمة فلم تذكر منها إلَّا عدداً يسيراً ، وأن أصحاب الاتجاه العربي في الرواية والتأليف قد أوردوا عدداً قليلاً جداً من هذه الأمثال ، وأما الكثرة الغالبة منها فقد جاءت في مدوّنات أصحاب الاتجاه الإسلامي المستحدَث .

---

(١) انظر : الأمثال في النثر العربي القديم للدكتور عبد المجيد عابدين ٨٩ ـ ٩٧ .

واستشهد على هذا المذهب بأن المفضل الضبي أورد منها في كتابه ثمانية أمثال فقط ، وأن المفضل بن سلمة أورد منها سبعة عشر مثلاً ، وأن المبرد أورد منها أربعة فقط في كتابه « الكامل » ، وهؤلاء العلماء الثلاثة ـ في رأيه ـ هم الذين يمثلون النزعة العربية القديمة بين مدوني الأمثال .

وعلى الشِّق الآخر من القضية استشهد الباحث بمصنفات الجاحظ ، ومحمد بن حبيب ، وحمزة الأصبهاني ، إذ أورد الجاحظ من أمثال (أفعل) في كتابه « الحيوان » مائة وخمسين مثلاً ، وأفرد ابن حبيب لها كتاباً تبلغ أمثاله ثلاثمائة وتسعين مثلاً ، وبلغ بها حمزة ألفاً ومائتي مثل .

(٣) أن الأمثال التي أوردها أصحاب النزعة العربية أنفسهم ، كابن سَلَمة والمبرِّد منها ما يشير صراحة إلى مصدر إسلامي ، ومنها أمثال في الحيوان ، صُنع معظمها في الإسلام كذلك ، صنعها العلماء على سبيل تركيز المعارف ، وتسهيل التعليم على طلابهم ، ومنها أمثال مبنية على قصص وأمثال أقدم منها ، وهي كذلك إسلامية في الغالب ، وذلك كما حدث بالنسبة لقصة أبي غُبْشان ، وشخصية لقمان العادِيّ اللتين قيل في كل منهما عدة أمثال على (أفعل من) كلها مُفْتَعلة ومصنوعة في الإسلام .

(٤) أن الرواة والمعلِّمين قد وجدوا في هذا المثل تعبيراً سهلاً ميسوراً ، فصاغوا فيه ما كان يَعِنُّ لهم من علم ومعرفة ، وأن علماء اللغة والطبائع في العراق كانوا قد أباحوا لأنفسهم أن يقيِّدوا علومَهم في صورة أمثال على وزن (أفعل من) تركيزاً لها ، وجمعاً لشواردها ، ولَمًّا لشتاتها ، وتسهيلاً لطلاب العلوم واللغة .

(٥) أن العلماء كانوا يحملون بعض هذه الأمثال المصطَنعة إلى عرب البادية ، ويسألونهم عنها فيقفون منها موقف الإنكار .

(٦) أننا كثيراً ما نجد ، في تفسير بعض هذه الأمثال ، قولهم : هذا المثل مأخوذٌ من قول ابن الطَّثْرية ، أو من قول مسلم بن الوليد ، أو من قول الأخطل ، أو من قول غيرهم من الشعراء الإسلاميين .

(٧) أننا كثيراً ما نعثر على أمثال منها يبدو أنها مَبْنية على أمثال أقدم ، أو حوادث لهذه الأمثال ، من ذلك قولهم « أخيبُ منْ حُنَيْن » فإنه مأخوذ من قولهم : « رَجع بخُفَّيْ حُنَيْن » أو من القصة نفسها ، وقولهم : « أَخْلَفُ من عُرْقُوب » مأخوذ من قولهم : « مواعيدَ عُرْقُوب » أو من القصة نفسها .

(٨) أن كثيراً من أمثال (أفعل من) ما هو إلا عبارات قد صنعها الناس لتكون أمثالاً ، ولكنها لم تظفر بالأُلْفة الشَّعْبية ، ولهذا ظل كثير منها حبيسَ الكتب والمصنفات ، غيرَ مستعمل في العصور المبكِّرة ، غير أن حفظها في المدوَّنات القديمة، واشتهارها بين دارسي العربية ومعلميها ربما أتاح لبعضها في عصور متأخرة أن يظفر بالألفة الشعبية ، والأجدرُ بهذه أن تدخل في باب المثل المحدَث أو المولَّد .

وقبل أن نرد على هذا المذهب بالتفصيل نثبت هنا الحقائق الآتية :

١ - أن « لسان العرب » وهو خلاصة سبعة معاجم لغوية قديمة ، قد استشهد بنحو مائتي مثل من هذه الأمثال ، بل كان يورد في المادة الواحدة عدداً منها .

ففي مـادة (حبـر) استشهـد بثـلاثـــة أمثـال هي : « أَذْرَقُ من حُبَارَىٰ ، وأَسْلَحُ من حُبَارىٰ ، وأَمْوَقُ من حُبَارَىٰ » .

وفي مـــادة (حـول) استشهـــد بـأربعـــة هي « أحــولُ من أبي بَـرَاقِش ، وأحـول من أبي قَلَمُـون ، وأحـولُ من بَـــوْل الجَمَـل ، وأحول من ذئب » .

وفي مادة (نِعم) استشهـد بـأربعـة أيضـاً ، هي : « أجبنُ من نَعامة ، وأَعْدَىٰ من نعامة ، وأَمْوَقُ من نعامة ، وأَشْرَدُ من نعامة » .

وفي مـادة (غـرب) استشهـد بسبعـة أمثـال هي : « أبصـرُ من غُــراب ، وأحــذرُ من غــراب ، وأزهى من غــراب ، وأَفْسَقُ من غراب ، وأشأم من غراب ، وأشد سواداً من غراب ، وأصفى عَيْنـاً من غراب » .

ومن المعروف أن الاستشهاد اللغوي لا يكون إلَّا بكلام عربي قديم ، لا بكلام مولَّد .

٢ ـ أن العلمـاء الذين اهتمـوا بـذكـر الأمثـال المـولـدة ، وهـم حمـزة الأصبهاني ، وأبو هلال العسكري ، وأبو الفضل الميـداني ، نصُّوا على القديم والمولَّـد من الأمثال ، وفَصَـل بعضهم بينهمـا ، فحمزة قـد ساق الأمثـال العربيـة في الثمـانيـة والعشـرين بـابـاً الأولى من كتابه ، وأفرد الباب التاسع والعشرين للأمثال المولَّدة ، هذا فضـلاً عن أنه قد نَبَّه على بعض الأمثال التي جاءت خلال الأمثال العربية بأنها مولَّدة أو محدَثة ، ويضاف إلى هذا أيضاً قولُه في نهاية الباب التاسع والعشرين :

« تمّت أبـواب الأمثال بـألف وثمانمـائة مثـل وكَسْـر ، قـديمـة

ومولَّدة » ، على أنه كثيراً ما قال عقب تفسير بعض الأمثال : « فضربت العرب به المثل فقالوا » ، ولا شك أن المراد من العرب هم أولئك الذين يُحتج بكلامهم .

وأما أبو هلال فإنه صرح في مقدمة كتابه بأنه قد نَقل إليه أمثال حمزة العربية ، وترك الأمثال المولَّدة ، فقال : « وميَّزت ما أورد حمزة الأصبهاني من الأمثال المضروبة في التناهي والمبالغة ، وهي الأمثال على (أفعل من كذا) فأوردت منها ما كان عربياً صحيحاً ، وَنَفَيْتُ المولَّد السقيم » ويقصد بالأمثال العربية جميعَ الأمثال التي أوردها حمزة في الأبواب الثمانية والعشرين ، والتي تبلغ عدتها زهاء ألف وثلاثمائة مثل ، ويقصد بالمولّد أمثال « الباب التاسع والعشرين » . وإذن فأبو هلال يعد كل الأمثال التي جمعها حمزة في الأبواب الأولى من كتابه عربية صحيحة .

وأما أبو الفضل الميداني فقد نقل هو الآخر أمثال حمزة بحذافيرها في أعقاب الأمثال العربية التي ليست على وزن (أفعل من) ، بينما فَصَل أمثال المولَّدين في فصول قائمة بذواتها ، وبهذا يكون قد عَدَّها من قبيل الأمثال العربية .

٣ ـ أن ثلاثة من علماء اللغة القدامى قد أفردوا هذه الأمثال بالتأليف ، وهم الأصمعي (ت ٢١٣هـ) واللِّحياني (ت ٢١٥هـ) ومحمد ابن حبيب (ت ٢٤٥هـ) ، كما خَصَّص لها أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) باباً من أبواب كتابه ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى[1] .

---

(١) انظر : ص ٧٣ .

وقد أهتم هؤلاء العلماء ببيان أصولها ، وتفسير غريبها ، وإيراد الشواهد الشعرية على هذا الغريب ، ومعنى هذا كله أنها أمثال عربية غير مولدة .

وبقي علينا الآن أن نرد على أدلة الباحث، لكي نؤكد عراقة هذه الأمثال في العربية ، فنقول وبالله التوفيق :

أولاً : إن انفراد اللغة العربية بصيغة (أفعل من) دون أخواتها السامية ليس معناه عدم أصالة هذه الصيغة فيها ، وكيف يكون ذلك وقد ورد منها في القرآن الكريم الكثير ، كما ورد منها ما لا يحصى في أحاديث الرسول ﷺ ، وفي الشعر العربي ، والأمثال العربية القديمة ؟

وكيف يكون ذلك وفي كتب النحو باب خاص بهذه الصيغة ، ومدلولها ، وشروط صياغتها من الأفعال المختلفة ؟

كيف كان يمكن للعربي أن يقول إذا أراد أن يفضل شيئاً على آخر ؟

إن هذه الصيغة حقاً مما تمتاز به العربية على غيرها من اللغات ، وهي من آيات الإيجاز الذي تمتاز به ، لأنها تدل على شيئين في وقت واحد ، وهما وصف الشيء بصفة ما ، وتفضيله فيها على غيره .

وقد نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة مبحثاً قيِّماً عن هذه الصيغة ومنزلتها في الاستعمال اللغوي ، ووجوب تحريرها من قيود النحاة ، حتى تستجيب لمطالب الحياة المعاصرة ، بعنوان « تحرير أفعل التفضيل من ربقة قياس نحوي فاسد »[1] ، للأستاذ محمد الفاضل بن

---

(١) انظر : البحوث والمحاضرات التي ألقيت في مؤتمر الدورة الثلاثين لعام ٦٣/٦٤ ص ٥٧ - ٧٨ .

عاشور عضو المجمع . وفي هذا المبحث أثبت الباحث أن هذه الصيغة تعد من دقائق التصاريف الاشتقاقية في هذه اللغة ، ومن دلائل إيجازها وعبقريتها ، لأنها تؤدي معنيين في وقت واحد ، كما تؤدي أحياناً كثيرة معنى التشبيه والمبالغة فيه ، كما في الأمثال التي تأتي عليها .

ثانياً : إن ندرة هذه الأمثال في المدونات القديمة التي ذكرها الباحث ليست دليلاً على ندرتها في اللغة ذاتها ، فإنه لمن الواضح الجلي أن تدوين النصوص شيء ، ووجودها في اللغة وعراقتها فيها شيء آخر ! ثم إننا نتساءل هنا : لماذا اختار الباحث من الكتب التي ذهب إلى أنها تمثل النزعة العربية كتاب المفضل الضبي ، وكتاب المفضل بن سلمة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وترك كتب الأصمعي ، واللِّحياني ، والقاسم بن سلام ، وابن منظور ، وقد رَوَت المئاتِ من هذه الأمثال على أنها قديمة أصيلة ؟! ثم إن كتاب المفضل الضبي ، كما مَرَّ بنا ، كتاب أخبار وأنساب قبل أن يكون كتاب أمثال ، وكان كتاباً صغير الحجم ، لم يذكر من الأمثال إلَّا زهاء مائة وسبعين مثلاً ، منها ثمانية على وزن (أفعل من) .. وأما كتاب « الفاخر » ، للمفضل بن سلمة ، فإنه ليس خالصاً للأمثال ، وإنما موضوعه ما يجري على ألسنة العوام من أقوال وأمثال لا يعرفون لها معنى . وأما كتاب « الكامل » للمبرد فموضوعه اللغة والأدب والنحو والتصريف ، ولا علاقة له بالأمثال إلَّا كالعلاقة التي لأيٍّ من كتب اللغة والأدب بها . ولا أدري كيف مثل به الباحث !

ثالثاً : إن إشارة بعض أمثال (أفعل من) إلى مصادر إسلامية ، وهذا نادر فيها ، لا تفيد أنها مولَّدة ، إذ إن عصر التوليد يبدأ بعد فترة طويلة من ظهور الإسلام ، ويحدده العلماء ببداية القرن الثالث الهجري

بـالنسبة لسكـان الأمصـار ، وبـداية القـرن الخـامس بـالنسبـة لسكـان البادية[1] .

وبتتبعنـا للأمثـال التي اشتملت على إشارات إسـلامية وجـدنا أن الأشخـاص أو الأحداث التي اشتملت عليهـا لم تتجـاوز صـدر الـدولـة العباسية ، وبعبارة أدق ، لم تتجاوز نهاية القرن الثاني الهجري .

رابعاً : وقد ذهب الباحث إلى أن بعض أمثال (أفعل من) مُفْتَعل حادث في الإسلام ، وإن كان يشير إلى حوادث أو شخصيات جاهلية ، وَمَثَّل لهذا بالأمثال التي قيلت في حـادثة أبي غُبْشَـان وهي : « أندمُ من أبي غُبْشـان » ، و « أحمق من أبي غُبْشان » ، و « أخسـر صفقةً من أبي غُبْشـان » كما مثـل له بـالأمثال التي قيلت في لقمـان العـادي ، وهي : « آكـلُ من لقمـان » ، و « أرمى من لقمـان » ، و « أشـد من لقمـان » ، و « أبصر من لقمان » ، و « أعمر من لُبَد » ، و « أكبـر من لُبَد » ، وادَّعى أن اختـلاف التعبير في هـذه الأمثال عن حـادثـة أبي غُبْشـان وشخصيـة لقمان دليل على أنها من صنع العلماء في الإسلام .

ونحن نقول : إن هذه الأمثـال قديمـة قِدَمَ الحـادثة أو الشخصيـة التي قيلت فيها ، وإنه ليس هناك فاصل زمني بينهما ، يسمح بأن تكون الحادثة أو الشخصية جاهلية ، وهذه الأمثال إسلامية ، فإن الأقـرب إلى العقل والواقع أن يَضرب الناس الأمثالَ فيما يشاهـدون ، لا فيما يُـرْوَىٰ لهم .

أما اختلاف التعبير في هذه الأمثال فليس فيه دليلٌ ما على افتعالها واختلاقها ، لأن كل مثل منهـا يعبِّر عن معنى من المعـاني التي تحتملها

---

(١) انظر : مقدمة «المعجم الوسيط» نشرة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

الحادثة أو الشخصية ، وليس هذا بِدْعاً في أمثال (أفعل من) فلدينا الكثير منها الذي يصف شيئاً واحداً بعدة صفات ، وذلك كالأمثال التي ضُربت بالذئب ، وهي قولهم : « أغدر من ذئب ، أختل من ذئب ، أخبث من ذئب ، أَخَبُّ من ذئب ، أَخْوَنُ من ذئب ، أَحْوَلُ من ذئب ، أَعْتَىٰ من ذئب ، أعدى من ذئب ، أظلم من ذئب» ، فهل نقول : إن هذه الأمثال مفتعلة مختلقة لأنها مختلفة العبارة ؟.

خامساً : إن القول بأن علماء اللغة والطبائع بالعراق قد اصطنعوا هذه الأمثال في وقت متأخر ، تركيزاً للمعارف ، وتسهيلاً على طلَّاب العلوم واللغة ، قولٌ يخالف ما قَرَّره العلماء ، من أن العرب قد ضَربت معظم أمثالهم بالبهائم ، لشدة مخالطتهم لها ، وملاحظاتهم لدقائق حياتها ، وضروب سلوكها وطباعها وغرائزها ، فهم أقدر على وصفها وضرب الأمثال بها من علماء اللغة الذين لم يعيشوا معها . ويؤيدنا في هذا أن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) لما ألَّف كتابه الكبير (الحيوان) ، ووصف فيه بدقة عجيبة أنواع الحيوان وطبائعها ، كانت أهم مصادره في هذه المعارف أشعار العرب وأمثالهم ، وفي ذلك يقول : « وقَلَّ معنىً سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة ، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين ، إلَّا ونحن قد وجدناه ، أو قريباً منه ، في أشعار العرب والأعراب »[1] . ثم يعلل لهذه المعرفة والدراية بقوله : « ورُبَّما ، بل كثيراً ما يُبْتَلُون بالناب والمخلب ، واللَّذْع واللَّسْع ، والعَضّ والأكل ، فخرجت بهم الحال إلى تعرُّف حال الجاني والجارح والقاتل ، وحال المجنيِّ عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلبُ والهربُ ، وكيف الداء والدواء ، لطول الحاجة ، ولطول وقوع البصر ، مع ما يتوارثونه

(١) الحيوان ٣/٢٦٨ .

من المعرفة بالداء والدواء »[1] .

إذاً ، فالعرب الذين كانوا يعيشون في البوادي ويخالطون كل صنوف الحيوان ، هم مصدر هذه الأمثال ، وليس العلماء الذين كانوا يعيشون في الأمصار العربية بعيداً عنها .

سادساً : إن ما ذكره الباحث من أن العلماء كانت تحمل بعض هذه الأمثال إلى عرب البادية ، ويسألونهم عنها فيقفون منها موقف الإنكار ، واستدلاله على ذلك بالمثلين « أحمقُ من الرُّبَع » و « أحمق من الرَّخمَة » ، نقول : إنه ليس فيما ذكره واستدل به دليل على أن هذا الفن من الأمثال مولَّد ، ولكي يتبين لنا الموقف جلياً نسوق هنا ما ذكره العلماء في تفسير هذين المثلين .

قال حمزة الأصبهاني : « وأما قولهم : « أحمق من الرُّبَع فمثلٌ سار عن أكثر العرب ، إلَّا أن بعض الأعراب دَفع عنه الحمق ، فقال : وما حمقُ الرُّبَع ! واللَّه إنه ليتجنَّب العَدْوَىٰ ، وَيَتَّبع أمَّه في المرعى ، ويراوح بين الأطْباء ، ويعلم أن حنينها دعاء ، فأين حمقه ؟ »[2] وقال : « وأما قولهم : « أحمق من رَخمَة » ، فمثلٌ سار عن أكثر العرب ، إلَّا أن بعض العرب يستكيسها، ويذكرون من كَيْسها ما أنا ذاكره ، سأل المفضل الضبي محمدَ بن سهل راوية الكميت عن الذي يَدَّعيه بعض العرب من كَيْس الرَّخمَة ، وليس في الطير أَمْوَقُ منها فقال : لأن في أخلاقها عشر خصال من الكَيْس وهي . . . . »[3] ثم عَدَّ له هذه الخصال العشر .

---

(١) الحيوان ٦/ ٢٩ .

(٢) الدرة الفاخرة ١ : ١٥٠ .

(٣) نفسه ١/ ١٥٣ ، ١٥٤ .

فكيف نستدل من هذين النصين على أن العلماء كانوا يحملون الأمثال إلى عرب البادية ويسألونهم عنها فينكرونها ؟ إن قُصَارَىٰ ما يدل عليه تفسير هذين المثلين أن أكثر العرب كانوا يُحَمِّقون هذين الحيوانين ، بينما يَدفع عنها الحمق جماعة منهم ، فهي وجهات من الرأي والنظر ، لا تدل بحال على حداثة هذه الأمثال ، هذا فضلاً عن أن هذا الاختلاف في النظر لم يَحدث إلَّا بالنسبة لهذين المثلين فقط من بين زهاء ألف وثلاثمائة مثل من هذا الفن، وهو أمر لا يصح أن نبني عليه حكماً عامّاً .

سابعاً : وقد ذكر الباحث أيضاً أن بعض أمثال (أفعل من) مبني على أمثال أقدم ، أو حوادث لهذه الأمثال ، وَمَثَّل لذلك بالمثل « أَخْيَبُ من حُنَيْن » ذاهباً إلى أنه مأخوذ من المثل الآخر « رَجع بخُفَّيْ حنين » أو من قصة حنين نفسها ، كما مَثَّل بقولهم :«أخلفُ من عُرْقوب » مدّعياً أنه مأخوذ من قولهم : « مواعيدَ عرقوب » أو من قصة عرقوب نفسها .

أما نحن فتصوُّرنا لهذا الأمر يخالف ما تصوره الباحث ، فنحن نرى أن القصة هي مصدر كل الأمثال التي قيلت فيها ، سواء أكانت هذه الأمثال على وزن (أفعل من) أم لم تكن ، فقصة حُنَيْن مثلاً كانت المصدر لكل الأمثال التي قيلت فيها وهي : « جاء بخفَّيْ حنين ، ورجَعَ بخفي حنين ، وأخيبُ من حنين ، وأصحب لليأس من خُفَّيْ حنين » ، وكذلك يقال في قصة خُلْف عرقوب ، وغيرها من القصص التي سارت فيها أمثال شتى ، بعضها على وزن (أفعل من) وكل هذه الأمثال قديمةٌ قِدَمَ القصة نفسها ، ولا يصح أن نقول : إن أمثال (أفعل من) التي وردت في هذه القصص متأخرة عن الأمثال الأخرى ، ومبنية عليها ، وأنها مولَّدة دونها .

ثامناً : وقد ختم الباحث الفصل الذي عقده للأمثال المولَّدة ، وذهب فيه إلى أن معظم أمثال (أفعل من) مولَّد بقوله : « إن كثيراً من أمثال (أفعل) ما هي إلَّا عبارات صنعها الناس لتكون أمثالاً ، وإنها مُنْتَحلة على المثل العربي القديم انتحالاً ، وليست منه في قليل ولا كثير ، وإن هذه العبارات أو الأمثال لم تظفر بالأُلْفة الشعبية ، فظلت حبيسةَ الكتب والمصنفات ، غيرَ مستعملة في العصور المبكرة ، وإنه قد أتيح لبعضها في عصور متأخرة أن يظفر بألفة شعبية ، ومع ذلك فالأجدر بها أن تدخل في باب المثل المولَّد أو المحَدَث .

وفيلما أسلفت من الردود ، وفيما اصطلح عليه جميع علماء اللغة ومدوني الأمثال العربية القديمة ما يؤكد :

(١) أن أمثال (أفعل من) نوع من الأمثال العربية ، وليست عبارات صنعها الناس لتكون أمثالاً .

(٢) وأنها قديمة ، وليست منتحلة على المثل القديم .

(٣) وأنها كانت تظفر بالألفة الشعبية كالأمثال الأخرى ، سواء بسواء .

(٤) وأن العرب كانت تستعملها في منطقها منذ أقدم عصورها ، كما كانت تستعمل الأمثال الأخرى .

* * *

أمثال العامة

اهتم بعض العلماء الذين دَوَّنوا أمثال العرب القديمة بذكر طائفة من أمثال العامة في عصورهم للتنظير بينها وبين أمثال العرب . وتقتضينا دراسة هذه الأمثال أن نحرِّر أولاً المعنى المراد من كلمة (العامة) عند هؤلاء العلماء .

وتكتفي المعاجم اللغوية في تفسير الكلمة بقولها : « العامة خلاف الخاصة » ولا شك أن هذا مدلول واسع ، لا يحدد هذه الطبقة من الناس تحديداً تستريح إليه النفس .

وربما كان الجاحظ خيرَ من حَدَّد مدلول هذه الكلمة في قوله : « وإذا سمعتموني أذكر العوام فإنْي لست أعني الفلاحين والحَشْوة ، والصُنَّاع والباعة ، ولست أعني أيضاً الأكراد في الجبال ، وسكان الجزائر في البحار . . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلافنا ، فالطبقةُ التي عقولُها وأخلاقُها فوق تلك الأمم ، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منها ، على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أخرى »[1] .

ومن هذا النص يمكننا أن نقرر أن الناس ، حيثما كانوا ، وفي أي عصر كانوا ، ينقسمون قسمين : خاصة وعامة . أما الخاصة فهم

---

(١) البيان ١ /١٣٧ .

العلماء والشعراء والكتّاب والخطباء ومن في مستواهم ، وأما العامة فهم من عدا هذه الطوائف ، وهم طبقات تتفاضل فيما بينها ، كما أن الخاصة كذلك .

هؤلاء العامة قد شُغِل بهم علماء العربية منذ بداية القرن الثاني الهجري ، فبعضهم ألَّف لهم كتباً تستهدف تعريفهم بمعاني ما يستعملونه من أقوال العرب وأمثالهم في محاوراتهم وأحاديثهم اليومية ، ولا يدرون له معنى ، ومن أبرز هؤلاء العلماء أبو عكرمة الضبي (ت ٢٥٠هـ) ، والمفضل بن سلمة (ت ٢٩١هـ) ، وابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) وقد صرح كل من ثلاثتهم بهذا الهدف في مقدمة كتابه ، وقد مَرَّ الحديث عن هذه الكتب[١] وبعضهم ألف كتباً فيما يلحن فيه هؤلاء العوام ، وهم كثير[٢] .

وربما كان أبو عبيد القاسم بن سلام أولَ من اهتم بذكر بعض أمثال العامة من أهل المشرق ، إذ أورد في كتابه منها زهاء ستين مثلاً ، ثم تلاه أبو عكرمة الضبي ، وابن الأنباري ، وحمزة الأصبهاني ، وأبو هلال العسكري ، فذكر كل منهم بعض هذه الأمثال في كتابه ، وقد حددنا مواطن هذه الأمثال عند حديثنا عن كل من كتب هؤلاء العلماء .

وكان من عادة هؤلاء المصنفين أن يذكروا أمثال العامة خلال تفاسيرهم للأمثال العربية للتنظير بينهما ، وبعبارات مثل قولهم :

---

(١) انظر : الفصل الأول من هذا الباب .

(٢) انظر في كتب « لحن العامة » لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة للدكتور عبد العزيز مطر (الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦م) ولحن العامة والتطور اللغوي للدكتور رمضان عبد التواب (دار المعارف ١٩٦٧م) .

« والعامة تقول كذا » أو « وَمَثَل العامة في هذا كذا » أو « ومن أمثال العوام في هذا كذا » .

ثم ذكر أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) طائفة من أمثال عامة زمانه في كتابه « التمثيل والمحاضرة »[١] . وإذاً تكون لدينا أمثال لهذه الطبقة في القرنين الثالث والرابع .

وقبل أن نحكم على طبيعة هذه الأمثال علينا أن ننقل منها هنا بعض ما روته الكتب السابقة ، من ذلك قولهم : « دُونَ ذا ويَنْفُق الحمارُ ، مَنْ عُرف بالصدق جاز كذبُه ومن عُرف بالكذب لم يَجُزْ صدقُه ، الكذبُ داء والصدقُ دواء ، إن الجواد قد يَعْثُر ، بَرَح الخَفاء ، لو كان بجسدي بَرَصٌ ما كتمتُه ، تَرْكُ الذنب أيسرُ من طلب التوبة »[٢] « كلبٌ طَوَّافٌ خير من أسدٍ رابض »[٣] « اقْلِبْه حتى يَسْتَوِي ، آسٍ أم حَلْفَاءُ ، أَمرٌ عُمِلَ بليل ، إذا لم يكن ما تريد فأَرِدْ ما يكون ، جازاه مُجازاة التمساح ، مَنْ يَمْدَحُ العروسَ إلَّا أهلُها ، الحديثُ يَجُرُّ بعضه بعضاً »[٤] ، « يصيبُ وما يَدْرِي ويُخْطِيء وما يَدْري »[٥] .

ويبدو واضحاً ، من النماذج السابقة ، أن أمثال العامة في القرنين الثالث والرابع كانت تجري على سَنَن العربية الفصحى ، خاليةً من اللحن في أية صورة من صوره .

ويرى الدكتور عبد العزيز الأهواني ، رحمه اللّه ، أن هذه الأمثال

---

(١) ص ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) أمثال أبي عبيد ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ .
(٣) الدرة الفاخرة ٢/٤٦٤ .
(٤) جمهرة الأمثال ١/١٥١ ، ١٥٥ ، ١٦٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٥٠ ، ٣٧٧ .
(٥) أمثال أبي عكرمة ، ورقة ٧ .

كانت بلغة ملحونة ، ثم مَسَّها العلماء الذين رووها في كتبهم بالتغيير حتى تستقيمَ على طريقة الفصحى ، فيقول : « والمفروض أن تكون أمثال المولَّدين ، أو أمثال العامة هؤلاء ، في لغة ملحونة ، لا يُلتزم فيها ما يلتزم في العربية من نحو وإعراب ، وإن كانت ألفاظها عربية ، ولكننا خلافاً لذلك نجد هذه الأمثال قد دُوِّنت في كتب المصنِّفين جاريةً على قواعد النحو ، مُتَّبعةً قواعدَ الصرف العربي ، ملتزِمة للإعراب ، ونحن إزاء هذه المشكلة لا نستطيع إلَّا أن نفترض أحد أمرين ، إما أن يكون هؤلاء المصنفون قد رووا المثل العامي بالمعنى ، وصاغوه في لغة معربة ، مع المحافظة بطبيعة الحال على لفظه وترتيبه في الجملة بقدر المستطاع ، وإما أنهم قصدوا بالعامة والمولّدين طائفةً من المثقفين ، ترتفع كثيراً عن مستوى العامة بالمعنى الحقيقي الذي نفهمه اليوم »[1] .

ثم ينقل بعض أمثال العامة من كتاب « جمهرة الأمثال » لأبي هلال العسكري ويعلق عليها بقوله : « ولسنا نشك في أن أبا هلال قد أخذ نفسه فيما أورد من أمثال عامية أثناء شرحه للأمثال العربية بإقامة هذه الأمثال عند تدوينها على الصيغة العربية في الرسم »[2] ثم يؤكد هذا الرأي بقوله : « وإذاً ، فما ورد من أمثال منسوبة إلى العامة في كتب الأمثال المعروفة لدينا قد مسّته أقلام المصنفين بالتغيير الطفيف حتى يستقيم مع النحو العربي ، ففقد بذلك كثيراً من قيمته العامية ، أو أخذ عن جماعة المثقفين في عصر مدوِّن المثل ، ففقد بذلك صفته العامية الصحيحة »[3] .

---

(١) أمثال العامة في الأندلس ٢٣٩ (بحث في كتاب «إلى طه حسين») .

(٢) نفسه ٢٤٠ .

(٣) نفسه ٢٤١ .

أما نحن فنرى في هذه المسألة رأياً واحداً ، هو أن هذه الأمثال رويت كما كان ينطق بها العامة ، عربيةً مستقيمةً على النحو العربي ، وأن العلماء الذين رووها لم يتعرضوا لها بأية صورة من صور التغيير ، ويؤيدنا في هذا تلك العبارات التي اعتاد هؤلاء العلماء أن يصدِّروا بها تلك الأمثال ، مثل قولهم : « والعامة تقول في معنى هذا المثل » ، وقولهم « ومنه المثل السائر في العامة » ، وقولهم : « وهذا كالمثل الذي تتكلم به العامة » وقولهم « ومن أمثال العوام في هذا قولهم » . .

ولعل الذي حدا بالدكتور الأهواني إلى هذا الرأي هو ما يتبادر إلى الذهن عند إطلاق لفظ « العامة » من أنهم الدهماء والسقّاط والهمج ، وذلك ما يشعر به قوله : « والمفرض أن تكون أمثال المولَّدين أو أمثال العامة هؤلاء في لغة ملحونة ، لا يُلتزم فيها ما يُلتزم في العربية من نحو وإعراب ، وإن كانت ألفاظها عربية » ، ولكنا قد قررنا فيما مضى أن العامة طبقات ، تتفاوت فيما بينها تفاوتاً كبيراً من الناحيتين الفكرية واللغوية ، حسب البيئات والعصور المختلفة . ونزيد هنا أن عامة القرنين الثالث والرابع ـ وهم الذين ذكرتُ نماذج من أمثالهم في الكتب السابقة ـ كانت طبقةٌ منهم ، وهي التي أنشأت هذه الأمثال ، تتكلم العربية معربةً خالية من كل شائبة من شوائب اللحن ، وإن كان بعض الطبقات السفلى قد تسرب اللحن إلى كلامها في الكلمة المفردة وحدها .

وقد فَرَّق الجاحظ في النص الذي نقلناه عنه آنفاً في معنى « العامة » بين نوعين منهم ، وكذلك فعل الأصمعي في قوله : « الكَلْبَتَان مأخوذ من الكَلَب ، وهي القيادة ، والتاء والنون زائدتان ، وهذه هي اللفظة القديمة عن العرب ، وَغَيَّرتها العامة الأولى فقالت :

القَلْطَبان ، وجاءت عامةٌ سفلى فقالت : « القَرْطَبان»[1] .

وإذا كان العلماء السابقون قد ذكروا في كتبهم المشار إليها طائفةً يسيرة من أمثال عامة عصورهم ، وهي تلك التي كانوا يسمعونها منهم ، فإننا نتصور أن هذه الأمثال كانت كثيرة وغزيرة ، وأنه كان لكل بلد من البلدان الإسلامية أمثالٌ خاصة بها ، تُلَبِّي حاجات المجتمعات المختلفة لهذه البلدان ، أعني أنه كان لكل من بغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام ومصر والأندلس أمثالٌ خاصة بها .

وقد أشار القاسم بن سلام إلى هذه الناحية الإقليمية في الأمثال ، حيث يقول في تفسير المثل «عَيْرٌ بعَيْرٍ وزيادةُ عَشَرة » : « وهذا مثل لأهل الشام ، ليس يكاد يَتكلم به غيرُهم »[2] ، وجاء بعده حمزة الأصبهاني فأكَّد هذا الأمر في قوله : « ومن هذه الأمثال ما يَلْهج به أهلُ قبيلة بعينها ، أو سكان بلدة خاصة دون سائرهم ، فأهلُ مكة قد لَهَجوا بقولهم : أكْسَىٰ من الكعبة ، وأعْرَىٰ من الحَجَر ، وآمنُ من غِزْلان مكة ، وآلفُ من حمام مكة . ولأهل المدينة أمثالٌ بعينها ، لا يعرفها غيرهم ، كقولهم : أوَلَمُ من الأشعث ، وأبطأ من فِنْدٍ ، وأخنثُ من هِيتٍ ، وأتْجَرُ من عَقْرب . وأهل اليمن يقولون : أوْفَرُ فداءً من الأشعث . وأهل عمان يقولون : « أظلم من الجُلَنْدَى » . وأهل الكوفة يقولون : أهونُ من قُعَيْسٍ على عَمَّته . وأهل البصرة يقولون : أحلم من الأحنف ، وأسْوَدُ من الأحنف ، وأبْيَنُ من الأحنف ، كما قالوا في « الحَسَن » حين جعلوه مُسْتَثْنَىٰ كل غاية : هو أزهد الناس إلَّا الحسن ، وأبْيَنُ الناس إلَّا الحسن ، وأفْقَهُ الناس إلَّا الحسن ، وحتى بلغ من

---

(١) تقويم اللسان لابن الجوزي ٨٥ : ١٧٥ (تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر) .
(٢) أمثال أبي عبيد ٣٢٥ .

إفراطهم في أمر (الحسن) أن قال قائلهم : الحَسَنُ خيرٌ لأهل البصرة من المَدِّ والجَزْر »[1] .

ثم يُدَلِّل على اختصاص كل مصر من الأمصار بأمثال تنفرد بها عما سواها بحكاية حكاها الأصمعي عن أهل الأمصار العربية تتضمن أسجاعاً لهم ، مختلفة الألفاظ ، مرجعها إلى معنى واحد .

ولا نعدم في كتب الأمثال الأخرى ما يشير إلى هذه الناحية ، فقد ذكر أبو هلال العسكري أن أهل البصرة يقولون : « حَتَّىٰ يَرْجِعَ نَشِيطُ من مَرْو »[2] وأن أهل الكوفة يقولون : « حتى يرجع مَصْقَلَةُ من طَبَرِسْتَان »[3] وذكر الثعالبي كذلك طائفة من أمثال أهل بغداد[4] .

أما في الأندلس فقد أورد ابن هشام اللخمي (ت ٥٧٧ هـ) طائفة كبيرة من أمثال عامة هذا القطر في كتابه « لحن العامة »[5] .

وهكذا نشأت في كل بلد من البلدان العربية أمثال جديدة ، نطق بها عامة هذه البلدان ، وكانت عربية غير ملحونة أولاً ، ثم دَبَّ إليها اللحن بمرور الأيام وضعف سلطان العرّبية ، وفساد السلائق والألسنة ، حتى أصبحت على الصورة التي نراها اليوم في تلك البلاد ، والتي يطلق عليها اسم « الأمثال العامية » .

---

(١) مقدمة «الدرة الفاخرة» .

(٢) جمهرة الأمثال ١/٣٦١ .

(٣) نفسه ١/٣٦٢ .

(٤) التمثيل والمحاضرة ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) انظر في هذا الكتاب وفي سائر أمثال عامة الأندلس : أمثال العامة في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني ٢٤٣ وما بعدها (إلى طه حسين) وألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة للدكتور الأهواني أيضاً ، ومجلة معهدالمخطوطات العربية ـ المجلد الثالث عام ١٩٥٧ .

ومما تقدم عرفنا أن أمثال الأمة العربية تتنوَّع إلى ثلاثة أنواع : أمثال قديمة ، وأمثال مولدة ، وأمثال عامة .

أما الأمثال القديمة فهي واضحة المعالم ، لا يختلف فيها اثنان ، إذ هي تلك التي نشأت في عصور الاحتجاج اللغوي ، وجرت على ألسنة العرب الخُلَّص قبل أن يختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى .

وأما الأمثال المولَّدة وأمثال العامة ، فهناك فرق دقيق بينهما ، يغيب على بعض الدارسين للأمثال ، فيخلط بين النوعين ، ويعدّهما نوعاً واحداً[1] . وهذا الفرق هو أن الأمثال المولَّدة أو المحدثة أعمّ من أمثال العامة ، إذ تشمل كل ما قيل بعد عصور الاحتجاج من أمثال ، سواء أكان قائلوها من الخاصة أم من العامة ، ونتيجة لهذه التفرقة تكون الأمثال التي أنشأها الشعراء والكتّاب والبلغاء ، في العصور المتأخرة ، من قبيل الأمثال المولدة ، ولا يصح أن نطلق عليها صفة «العامية» بحال ، إذ إن الذين أنشؤوها من خاصة الناس لا من عامتهم .

Arap mesalleri

B) Müvelled (Ortaçağ arasında sonra)

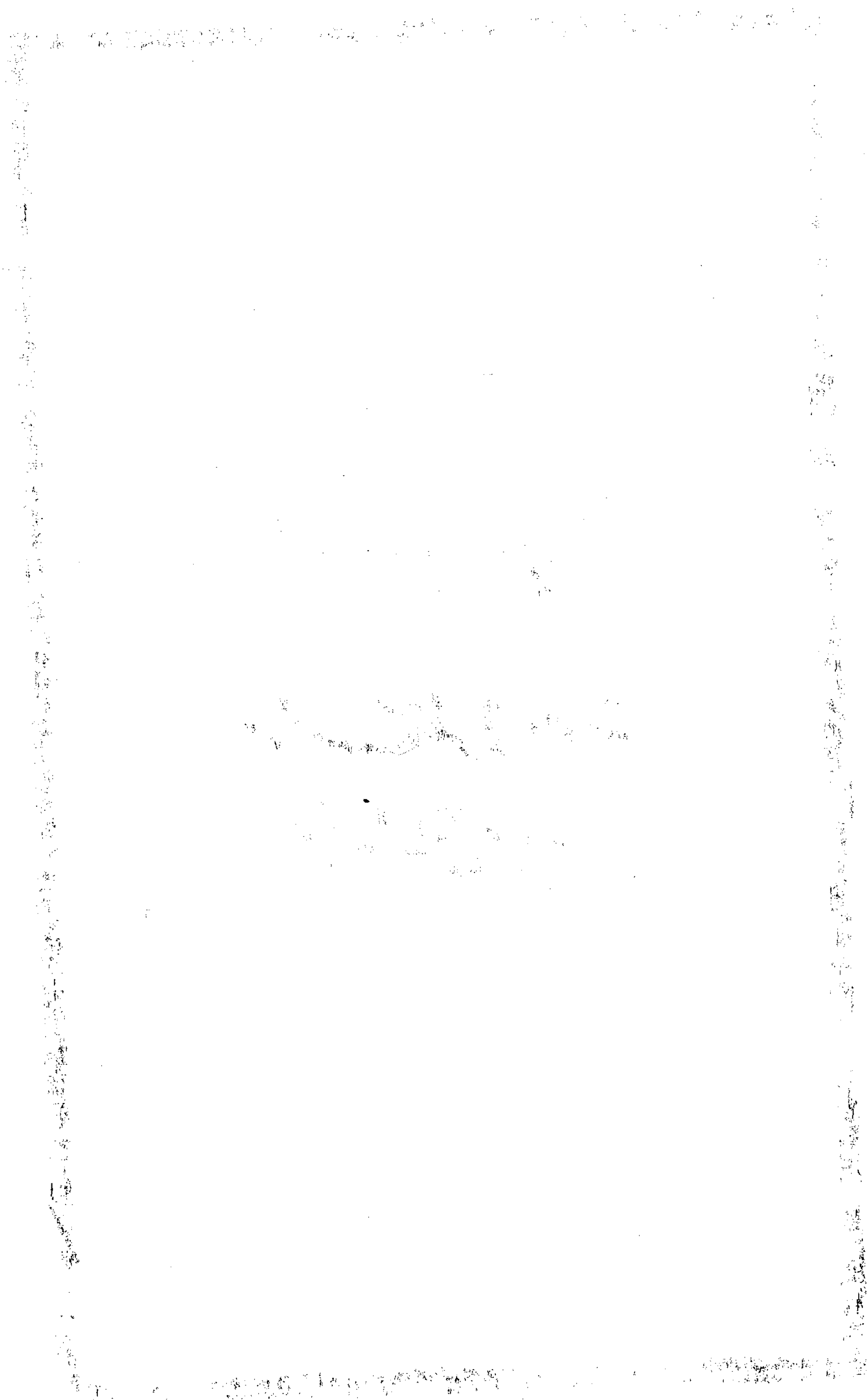
Al kadim

Kitabi (halk)

(١) انظر : أمثال العامة في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني ٢٣٩ .

الباب الثاني

دراسة لغوية وأدبية للأمثال العربية



الفصل الأول

الدراسة اللغوية

(١)
الأمثال لا تغير

من القواعد التي اتفق عليها العلماء « أن الأمثال لا تُغَيَّر » يَعْنون بذلك أنها تلزم حالة واحدة ، هي التي جرت عليها أولاً ، مهما اختلفت الأحوال التي تُضْرب فيها بعد ذلك .

ولتوضيح هذه القاعدة نقول : إن المثل « أَطْرِقْ كَرا إن النَّعام في القُرَى »[1] خوطب به أول الأمر مفرد مذكر ، هو الكروان ، فإذا تمثَّلنا به بعد ذلك مخاطبين المثنى أو الجمع أو المؤنث وجب أن نبقيه على حالته الأولى ، غيرَ مُحْدِثين أي تغيير في ألفاظه .

والسر في ذلك أن المثل استعارة تمثيلية ، تستعار فيها الألفاظ الموضوعة للمشبَّه به للمشبه ، بذواتها وأعيانها ، فإذا نحن غَيَّرنا هذه الألفاظ حسب المضارب المختلفة خرج الأسلوب من حظيرة الاستعارة .

---

(١) جمهرة الأمثال ١ / ١٩٤ ، واللسان (طرق ، كرا) .

وقد أكد الزمخشري هذه الحقيقة في قوله : « فإذا قال للمفرِّط في طلب الحاجة عند إمكانها ، ثم طلبها بعد فواتها : « الصيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَن »[1] فقد جعل قصة دَخْتَنُوس مثل قصته ، ونزلهما منزلة واحدة ، وتصورهما بصورة فردة ، ولهذا تَرك تاء « ضيَّعتِ » على كسرتها . وهكذا جميع الأمثال لا يجوز تغييرها ، ويجب أداؤها على طَبِّها كما هي »[2] .

ثم فَصَّل التهانوي هذا المعنى بأوضح مما قال الزمخشري إذ يقول : « ثم إنه لا تغير ألفاظ الأمثال تذكيراً وتأنيثاً ، وإفراداً وتثنية وجمعاً ، بل إنما ينظر إلى مورد المثل ، مثلاً إذا طَلب الرجل شيئاً ضَيَّعه قبل ذلك نقول له : « الصيفَ ضيعتِ اللبن » بكسر تاء الخطاب ، لأن المثل قد ورد في امرأة ، وذلك لأن الاستعارة يجب أن تكون لفظَ المشبه به المستعمل في المشبه ، فلو تطرَّق تَغَيُّر إلى الأمثال لما كان لفظَ المشبه به بعينه ، فلا تكون استعارة ، فلا يكون مثلاً ، وتحقيق ذلك أن المستعار يجب أن يكون اللفظَ الذي هو حق المشبه به ، أُخذ منه عاريَّة للمشبه ، فلو وقع فيه تغيير لما كان هو اللفظ الذي يخص المشبه به ، فلا يكون أُخذ منه عارية »[3] .

على أن الزمخشري قد أضاف سبباً آخر إلى السر في المحافظة على ألفاظ المثل ، وحمايته من التغيير ، وهو نفاسة المثل وغرابته ، وذلك حيث يقول : « ولم يضربوا مثلاً ، ولا رأوه أهلاً للتسيير ، ولا جديراً بالتداول والقبول إلَّا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه ، ومن ثَمَّ

(١) الضبي ٧ ، والفاخر ١١١ ، وجمهرة الأمثال ١/٥٧٥ ، واللسان (ضيع ، صيف) .
(٢) مقدمة (المستقصى) في الأمثال .
(٣) كشاف اصطلاحات الفنون ١٣٤٠ .

حُوفظ عليه ، وحُمِيَ من التغيير »[1] .

وهنـاك نصوص كثيـرة أخرى تضـافرت على هـذه القاعـدة ، فقد رَوى ابن منظور عن ابن جني (ت ٣٩٢هـ) قوله : « وقال ابن جني في تـأدية الأمثـال على ما وُضعت عليه : «يؤدَّىٰ ذلك في كـل موضـع على صـورتـه التي أُنشىء في مبـدئـه عليهـا »[2] . ورَوى عن ابن سيـده (ت ٤٥٨هـ) قوله : « ويقال للرجل إذا لم يكن عنده غناء : « لا حُليٍّ ولا سِيرِي » قال ابن سيـده : «كأن هـذا إنّمـا قيـل أول وهلة لمؤنث ، فخوطب بعلامة التأنيث ، ثم قيل ذلك للذكر والاثنين والجماعـة مَحْكِيّاً بلفظ المؤنث »[3] .

كما رُوي عن أبي عمرو بن العلاء قوله : « والأمثال تؤدَّىٰ على ما فَـرَط به أولُ أحـوال وقوعهـا كقـولهم : أَطِـرِّي إنـكِ نـاعلة[4] والصيفَ ضيعتِ اللبَن ، وأطـرِقْ كَرا ، وأصبحْ نَوْمَـانُ ، يؤدَّىٰ كل ذلـك في كل موضع على صورته التي أُنشِىءَ في مبدئه عليها[5] .

وقال أبو العـلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) : « وكـذلك تجـري أمثال العـرب ، يَكْنون فيهـا بالاسم عن جميـع الأسماء ، مثال ذلـك أن يقـول القائل :

فـلا تَشْلَلْ يَـدٌ فَتَكَـتْ بِعمـرٍو   فـإنـكَ لن تَـذِلَّ ولن تُـضَامَـا

يجوز أنْ يرى الرجل رجلاً قد فتك بمن اسمه حَسَّان أو عُطارد أو

---

(١) الكشاف ١/ ٥٠ .

(٢) اللسان (نشأ) .

(٣) نفسه (حلل) .

(٤) جمهرة الأمثال ١/ ٥٠ ، ومجمع الأمثال ١/ ٤٣٠ ، واللسان (طرد) .

(٥) اللسان (زول) .

غير ذلك ، فيتمثل بهذا البيت ، فيكون « عمرو » فيه واقعاً على جميع من يُتمثل له به ، وكذلك قول الراجز :

* أولادَهَا سعدٌ وسعدٌ مُشْتَمِلْ *

صار ذلك مثلاً لكل من عمل عملاً لم يحكمه ، فيجوز أن يقال لمن اسمه خالد أو بكر أو ما شاء الله من الأسماء . ويضعون في هذا الباب المؤنث موضع المذكر ، والمذكر موضع المؤنث ، فيقولون للرجل : أطِرِّي فإنكِ ناعلة ، والصيفَ ضيعتِ اللبنَ ، ومحسنةٌ فَهِيلِي ، وابْدَئيهِنَّ بعفَالِ سُبيتٍ ، وإذا أرادوا أن يخبروا بأن المرأة كانت تفعل الخير ، ثم هَلكت فانقطع ما كانت تفعله جاز أن يقولوا : ذهب الخيرُ مع عَمْرو بن حُمَمَة ، وجائز أن يقولوا لمن يحذرونه من قرب النساء : لَا تَبِتْ من بَكْرِيٍّ قريباً ، والبكريُّ أخوك فلا تَأْمَنْهُ ، ومثل هذا كثير»[1] .

أما أبو هلال العسكري فقد رَوى أن بعض العلماء يعد هذه الظاهرة من قبيل الحكاية ، حيث قال : « ويقولون : الأمثالُ تُحكى ، يَعنون بذلك أنها تَضْرب على ما جاء عن العرب ، ولا تغيَّر صيغتها ، فتقول للرجل : الصيفَ ضيعتِ اللبنَ ، فتكسر التاء لأنها حكاية»[2] .

ولا يقف أمر الأمثال عند هذا الحد ، أعني وجوبَ المحافظة على صيغتها ، مهما اختلفت أحوال من تُضرب له ، ومهما كان نوعه وعدده ، بل يرى العلماء أن من حقها كذلك ألَّا يُستبدل لفظ منها بآخر في معناه ، وفي ذلك يقول أبو هلال العسكري في تفسير المثل « جاء

---

(١) رسالة الغفران ٤٠٨ ، ٤٠٩ (تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن) .

(٢) مقدمة جمهرة الأمثال » وانظر فيه : ص ١/ ٥٧٥ ، واللسان (ضيع) .

يَفْرِي وَيَقُدُّ» : «وأوردتُ هـذا وما شـاكله في باب الجيم ، لأنـه جاء عن العلماء كذلك ، وإن جاز أن يقـال : أَتى يفري ويقـد ، لأن لفظ المثل عنهم كذلك»(١) ويقول في تفسير المثـل «يَعلم من أين يُؤكل الكَتِفُ» : « ويجـوز أن يـورد في بـاب التـاء وبـاب الألف (أعلم ، وتعلم) ولكن هكذا قرأناه في كتب الأمثال»(٢) .

كما يرون أن من حقها أن تؤدَّىٰ على ما جاءت عليه عن العرب ، ولو كانت مخالفة للقياس والأصل ، أو كانت ملحونة ، يقول الفـراء في تفسير المثل « تفـرَّقوا أيـدِي سَبَا أو أيـادِي سَبَا » :« وقد اجتمعت العرب على أيـدي سبا ، بغيـر همزة ، وأصله الهمـزة ، ولكنه جـرى في هـذا المثل على السكون فترك همزه »(٣) .

ويقول المرزوقي : « إن شرط المثل أَلاَّ يُغَير عما وقع في الأصل عليـه ، ألا ترى أن قـولهـم : « أعطِ القوسَ بـاريها » تسكن يـاؤه ، وإن كان التحريك الأصلَ ، لوقوع المثل في الأصل على ذلك »(٤) .

ويقـول ابن منظور : « والقَبْلة : خَـرَزة من خَـرَز نسـاء الأعـراب اللاتي يُؤَخِّذن بها الرجالَ ، يقلن في كلامهن : يا قَبْلة أَقْبليه ، ويا كَرار كُرِّيه ، وهكذا جاء الكلام وإن كان ملحوناً ، لأن العرب تُجري الأمثـالَ على ما جاءت به »(٥) وقد نقل السيوطي مثـل هذا القـول عن ابن دريد في الجمهرة وابن خـالويه ، وزاد فيه : « ولا تَستعمـل فيهـا الإعراب»(٦) .

---

(١) جمهرة الأمثال ١ /٣١١ .

(٢) نفسه ٢ /٤٢٢ .

(٣) المنقوص والممدود ٣٠ ، وانظر : اللسان (سبأ) .

(٤) المزهر ١ / ٤٨٨ .

(٥) اللسان (قبل) .

(٦) المزهر ١ /٤٨٧ .

وبلغ من محافظة العرب على صيغة المثل وألفاظه ، وعدم التعرض لهما بأي نوع من أنواع التغيير أن عاملوا ما يَجري من كلامهم مَجراه معاملته ، فألزموه طريقةً واحدة مهما اختلفت الأحوال التي يقال فيها ، من ذلك قولهم : « ما جاءت حاجَتك » وفيه يقول سيبويه (ت ١٨٠ هـ) : « ومثل قولهم : مَنْ كان أخاكَ قولُ العرب : ما جاءت حاجتَك ، كأنه قال : ما صارت حاجتَك ، ولكنه أدخل التأنيث على « ما » حيث كان الحاجةَ ، كما قال بعض العرب : مَنْ كانت أمَّك ، حيث أوقع « من » على مؤنث ، وإنما صُيِّر « جاء » بمنزلة « كان » ، في هذا الحرف وحدَه ، لأنه بمنزلة المَثَل ، كما جعلوا « عسى » بمنزلة « كان » في قولهم : « عسى الغُوَيْرُ أَبْؤُساً » ولا يقال : عَسَيْتَ أخانا . وكما جعلوا « لَدُنْ » مع « غُدْوةَ » منونة ، في قولهم : لَدُنْ غدوةً ، ومن كلامهم أن يجعلوا الشيء في موضع على غير حاله في سائر الكلام . . . ومن يقول من العرب : « ما جاءت حاجتُك » كثير ، كما يقول : من كانت أُمُّك ، ولم يقولوا : « ما جاء حاجتَك ، كما قالوا من كانت أمَّك ، لأنه بمنزلة المثل ، فألزموه التاء »(١) .

ومن هذه العبارات قولهم في المدح : « حَبَّذَا فلان » فإن كلمة « حبذا » تلزم حالة واحدة مهما كان نوع الممدوح وعدده ، لأنها بمنزلة المثل في كثرة الاستعمال ، وقد فَصَّل المبرد هذا في قوله : وأما « حَبَّذَا » فإنها كانت في الأصل « حَبَّذَا الشيء » لأن « ذا » اسم مُبْهَم يقع على كل شيء ، فإنما هو « حَبَّ هذا » مثل قولك : كَرُم هذا ، ثم جُعلت « حَبَّ » و « ذا » اسماً واحداً ، فصار مبتدأ ، ولزم طريقة واحدة ، على ما وصفت في « نِعْمَ » فنقول : حبذا عبدُ الله ، وحبذا

---

(١) الكتاب ١ / ٥٠ (نشرة هارون) .

أمـةُ الله ، ولا يجـوز « حَبَّذِهِ » لأنهمـا جُعـلا اسمـاً واحـداً في معنى المـدح ، فانتقـلا عما كـانا عليـه قبل التسميـة ، كمـا يكـون ذلـك في الأمثال ، نحو « أَطِـرِّي فإنـكِ ناعلة » ونحـو « الصيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَن » ، لأن أصل المثل إنما كان لامرأة ، فإنما يضرب لكل واحد على ما جَرى في الأصل ، فإذا قلتَه للرجل فإنما معناه : أنتَ عندي بمنـزلة التي قيـل لها هذا »[1] .

ومنها قولهم : « كَذَباك » أي عليك بهما ، فإن هذه الكلمـة باقيـة على هذه الصيغـة ولا تتصـرف بحال مهمـا تَقَلَّبت في الكلام . يقـول الزمخشري : « هذه كلمة جرت مجرى الأمثال في كلامهم ، فلذلك لم تُصَرَّف ، ولزمت حالةً واحدة في كونهـا فعلاً مـاضياً معلقـاً بالمخـاطب وحده »[2] .

من كل ما تقدم نستطيـع أن نقول : إن من حق المثـل أن تُحمى صيغتـه وألفاظـه من التغيير ، وأن يبقى على مـا جاء عليـه أولاً ، مهمـا اختلفت المضارب والأحوال ، لأن المساس به يُخل بمدلوله ، ويُخرجه من بـاب الاستعارة ، ومن نـاحيـة أخـرى تَفقـد الأمثـال ، إذا تعرَّضت للتغيير ، كثيراً من قيمتها الأدبية واللغوية والتاريخية .

---

(١) المقتضب ٢/١٤٥ .

(٢) اللسان (كذب) .

(٢)

خروج الأمثال عن القياس

الأمثال كالشعر ، يتحملان الضرورات ، ويُتَسامح فيهما ما لا يُتَسامح في غيرهما من أنواع الكلام . أما الشعر فلأنه محكوم بوزن معين ، وقافية معينة ، قد يضطران الشاعر إلى الخروج عن قياس اللغة والنحو ، وأما الأمثال فلأن العرب كانوا حريصين على أن يُوَفِّروا لها ضروباً من الحِلَى اللفظية ، كالسجع والازدواج وغيرهما ، حتى تكون أوقع في النفس ، وأخف على السمع ، فكان هذا يضطرهم أحياناً إلى الخروج عن القياس ، والتضحية بما جرت به عادةُ اللغة .

ومن ناحية أخرى كان بعض الأمثال يصدر عن فِئَاتٍ من الأمة ، لا تُحكم أمر اللغة ، ولا تتقن قواعدها ، كالعامة والنساء ، فيقع اللحن في تلك الأمثال ، ثم تسير بين الناس بلَحْنِها دون التعرض لها بالإصلاح ، لأن الأمثال لا تغيَّر عما جاءت عليه عن العرب ، حتى ولو كانت ملحونة ، كما تقدم .

وقد جاءتنا نصوص عن علماء اللغة تؤكد أن الأمثال تتحمل الضرورات كالشعر ، من ذلك قول ابن جني : « الأمثال تَجري مَجرى المنظوم في تحمله للضرورة »[1] وقول المرزوقي : « فلذلك تُضرب

---

(١) المحتسب ١/ ٣٩ .

وإن جُهلت أسبابها التي خرجت عليها ، واستُجِيز من الحذف ومضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يُستجاز في سائر الكلام »[1] ومنه قول السيوطي ، نقلاً عن ابن دريد وابن خالويه : « هكذا جاء الكلام وإن كان ملحوناً ، لأن العرب تُجري الأمثال على ما جاءت ، ولا تَستعمل فيها الإعراب »[2] .

وقال الزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) في شرح أدب الكاتب : « قال سيبويه : لا يجوز إظهار الفعل في نحو : أما أنت منطلقاً انطلقتُ ، وأجازه المبرد ، والقول ما قال سيبويه ، لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل ، والأمثال قد تخرج عن القياس فتُحكى كما سُمعت ، ولا يطرد فيها القياس فتخرج عن طريقة الأمثال »[3] .

وبتتبعنا للأمثال العربية وجدنا بعضها قد خرج عن القياس اللغوي ، إما من ناحية بِنْية الكلمة واشتقاقها ، وإما من ناحية التراكيب والإعراب .

فمن النوع الأول قولهم : « هو هَالِكٌ في الهَوَالِك » إذ إن وزن (فاعل) إذا كان صفة لمذكر عاقل لا يُجمع على « فواعل » لأن العرب لا يجمعون على وزن (فواعل) إلا ما كان صفة لمؤنث عاقل ، فيقولون : ضاربةٌ وضَوَارِبُ ، وهالكةٌ وهوالكُ ، ولا يقولون : ضاربٌ وضواربُ ، ولا قاتلٌ وقَوَاتِلُ ، ولا هالكٌ وهوالكُ ، لئلا يَلتبس المذكر بالمؤنث . وإذاً فهذا المثل قد شذَّ عن القياس ، وخرج عليه .

---

(١) المزهر ١/٤٨٧ ، نقلاً عن شرح الفصيح .
(٢) المزهر ١/٤٨٧ .
(٣) نفسه ١/٤٨٨ .

وقد أجمع علماء اللغة والنحو على شذوذ هذا المثل ، يقول المبرد : «وقال الفرزدق ، يعني يزيد بن المهلَّب :

وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتَهم خُضْعَ الرقابِ نواكسَ الأبصارِ

وفي هذا البيت شيء يستطرفه النحويون ، وهو أنهم لا يجمعون ما كان من (فاعل) نعتاً على (فواعل) لئلا يلتبس بالمؤنث ، لا يقولون : ضاربٌ وضواربُ ، وقاتلٌ وقواتلُ ، لأنهم يقولون في جمع ضاربةٍ : ضواربُ ، وقاتلةٌ وقواتلُ ، لم يأتِ ذلك إلا في حرفين ، أحدهما في جمع فارسٍ وفوارس ، لأن هذا مما لا يستعمل في النساء ، فأمنوا الالتباس ، ويقولون في المثل : « هو هالكٌ في الهَوَالِك » فأجروه على أصله لكثرة الاستعمال ، لأنه مثل ، فلما احتاج الفرزدق لضرورة الشعر أجراه على أصله فقال : « نواكسَ الأبصار » ولا يكون مثل هذا أبداً إلا في ضرورة »[١] ويقول في موضع آخر : « وقد قالوا هالكٌ في الهَوَالك ، لأنه مثل مستعمل ، والأمثال تجري على لفظ واحد ، فلذلك وقع هذا على أصله »[٢] .

ويقول ابن منظور (ت ٧١١ هـ) في هذا المثل وشذوذه : « وأما هوالك فإنما جاء في المثل : هالك في الهوالك ، فجرى على الأصل ، لأنه قد يجيء في الأمثال ما لا يجيء في غيرها »[٣] .

ومن هذا النوع أيضاً قولهم : « أَجْنَاؤُها أَبْنَاؤُهَا » ففيه شذوذ وخروج عن قياس اللغة من حيث إن « أَجْنَاء » جمع « جَانٍ » و « أَبْنَاء » جمع « بَانٍ » كما يدل عليه أصل المثل ، وصيغة (فاعل) قياسُها ألاَّ

---

(١) الكامل ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، وقد نقله المرزباني في الموشح ١٦٧ .

(٢) المقتضب ٢/٢١٩ .

(٣) اللسان (فرس ، هلك) .

تجمع على (أفعال) .

وقد اضطربت أقوال العلماء في هذا المثل ، فنقل القاسم بن سلام عن أبي عبيدة قوله : « والأجناءُ هم الجُنَاة ، والأبناءُ هم البُنَاة ، والواحد منهم جَانٍ وبَانٍ ، وهذا جمع عزيز في الكلام ، أن يجمع (فاعل) على (أفعال) ونظائره شاهد وأشهاد ، وصاحب وأصحاب ، ومعنى المثل أن الذين جَنَوْا على هذه الدار هم الذين عَمَروها بالبُنْيان »[١] .

وقد تَبع ابنُ سيده أبا عبيدة في هذا الرأي حيث قال : « وأُراهم لم يكسِّروا بانياً على أبناء ، ولا جانياً على أجناء إلاَّ في هذا المثل »[٢] .

أما الجوهري (ت ٣٩٣ هـ) فإنه يرى أن رواية المثل ليست هكذا ، إذ يقول « وأنا أظن أن أصل المثل : جُنَاتُها بُنَاتُها ، لأن (فاعلاً) لا يجمع على أفعال ، وأما الأشهاد والأصحاب فإنما هما جمع شَهْد وصَحْب ، إلا أن يكون هذا من النوادر ، لأنه يجيء في الأمثال ما لا يجيء في غيرها »[٢] .

وعَلّق ابن بَرّي (ت : ٥٨٢ هـ) على رأي الجوهري بقوله : « ليس المثل كما ظنه الجوهري من قوله : جُنَاتُها بُنَاتُها ، بل المثل كما نَقل ، لا خلاف بين أحد من أهل اللغة فيه ، قال : وقوله : إن أشهاداً وأصحاباً جمع شَهْد وصَحْب سَهْوٌ منه ، لأن (فَعْلاً) لا يجمع على (أفعال) إلا شاذاً . قال : ومذهب البصريين أن أشهاداً وأصحاباً وأطياراً جمع شَاهِدٍ وصَاحِبٍ وطَائِرٍ »[٢] .

---

(١) أمثال أبي عبيد ٣٠٢ .

(٢) اللسان (جنى) .

ومن هذا النوع أيضاً ، أعني الأمثال التي خرجت بعض ألفاظها عن القياس ، قولهم : « حَنَّتْ ولا تَهَنَّتْ وأنَّى لكِ مَقْروعُ ! » فإن الفعل « تَهَنَّت » أصله « تَهَنَّأَتْ » بالهمز ، ولكن قائل المثل قلب الهمزة حرف لين ، وهو الألف ، لمراعاة الازدواج مع الكلمة الأولى « حَنَّتْ » ، وفي ذلك يقول ابن منظور : « وأما ما حكاه أبو عبيد من قول المتمثِّل من العرب : « حَنَّتْ ولا تَهَنَّتْ وأنَّى لكِ مَقْروع » ، فأصله الهمز ، ولكن المثل يجري مَجرى الشعر ، فلما احتاج إلى المتابعة أزوجها « حَنَّتْ »[1] . ويقول الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، تعليقاً على هذا المثل بعد أن نقل فيه رواية أخرى : « وكل ذلك لمراعاة الازدواج والتشاكل وتحسين اللفظ ، والكلمة السائرة يَكثر فيها مثل هذا »[2] .

ومثل آخر هو قولهم : « أَسَاءَ سمعاً فأساء جَابَةً »[3] فإنه على الرغم من أن بعض العلماء يذهب إلى أن لفظ « جَابَة » اسم مصدر من الإجابة ، كالطاقة والإِطَاقة[4] ، نرى ابن منظور يذهب إلى أن هذه اللفظة قد خرجت عن القياس اللغوي ، وذلك حيث يقول : « هكذا يُتكلم به ، لأن الأمثال تُحكى على موضوعاتها »[5] .

ومن هذه الأمثال أيضاً قولهم : « اسْقِ رَقَاشِ إنَّها سَقَّايَة »[6] لأن القياس أن يقال « سَقَّاءَة » بابدال الياء همزة ، كقولنا : بَنَّاء وبَنَّاءة »[7] .

---

(١) اللسان (هنأ) .

(٢) المستقصى ٦٧/٢ .

(٣) الضبي ٨٠ ، والفاخر ٧٢ ، وجمهرة الأمثال ٢٥/١ ، واللسان (جوب) .

(٤) جمهرة الأمثال ٢٥/١ ، والمستقصى ١٥٣/١ .

(٥) اللسان (جوب) .

(٦) جمهرة الأمثال ٥٦/١ ، واللسان (رقش) .

(٧) شرح الأشموني ١٨٧/٤ .

وقولهم « اسْتَنْوَقَ الجملُ »[1] إذ قياسه « اسْتَنَاق » مثل : استقام واستنام[2] . وقد عَدَّ ابن جني هذا المثل من المطرد في الاستعمال ، الشاذ في القياس[3] . أما ثَعْلب فيرى أن المثل لا شذوذ فيه ، لأن الأفعال المزيدة التي على وزن (افتعل) أو (استفعل) إنما تَعتل باعتلال أفعالها الثلاثية البسيطة التي لا زيادة فيها ، فالفعل (استقام) اعتلَّ لاعتلال الفعلِ (قام) و (استقال) اعتل لاعتلال (قال) وإلا فقد كان حقهما ألَّا يعتَلَّا ، لأن فاء الفعل ساكنة فيهما ، ولما كان الفعل (استنوق) لا ثلاثيَّ له صَحَّت واوه لسكون ما قبلها »[4] .

ومنها قولهم : « تَسْمَع بالمُعَيْدِيِّ خيرٌ من أن تَراه »[5] إذ إن لفظ « المعيدي » مصغَّر عن « مَعَدِّيٍّ » المنسوب إلى « مَعَدٍّ »بتشديد الدال ، وكان قياسه أن يبقى في التصغير مشددَ الدال ، ولكنه أتى في هذا المثل وحده غيرَ مشدَّد ، لأن الأمثال يُتسامح فيها ما لا يُتسامح في غيرها لكثرتها في الكلام[6] .

وقد شَذَّت طائفة أخرى من الأمثال التي على وزن (أفعل من) عن الشروط التي وضعها النحويون لاشتقاق « اسم التفضيل » وهي قولهم : « أزْهَى من غراب » ، و « أَشْغَلُ من ذات النِّحْيين »[7] ، و « أشغلُ من صاحب ضأن ثمانين » و « أشهرُ من فارس الأبلق »[8] ،

---

(١) جمهرة الأمثال ١/٥٤ ، والمستقصى ١/١٥٨ .

(٢) شرح الأشموني ٤/٢١٢ .

(٣) الخصائص ٢/٩٨ .

(٤) اللسان (نوق) .

(٥) الضبي ٩ ، والفاخر ٦٥ ، وجمرة الأمثال ١/٢٦٦ ، واللسان (معد) .

(٦) كتاب سيبويه ٢/٢٢٩ .

(٧) الدرة الفاخرة ١/٢٦٠ ، ٢/٤٠٤ ، واللسان (نحا) .

(٨) الدرة الفاخرة ١/٢٥٤ والمستقصى ١/١٩٩ .

و « العَوْدُ أَحْمَدُ » إذ إن النحاة يشترطون لصياغة اسم التفضيل أن يكـون الفعل الذي يصـاغ منه مبنياً للمعلوم ، ولكن هذه الأمثـال خالفت هـذا الشـرط ، وجـاءت أسمـاء التفضيـل فيهـا مصـوغـة من الفعـل المبني للمجهول ، ولذلك يَحكم عليها النحاة بالندرة أو الشذوذ .

وكـذلـك قـولهم : من هـذا البـاب : ألصُّ من شِـظَاظٍ »[1] ، و « ألصُّ من بُـرْجانَ »[2] ، و « ألصُّ من فَـأرة » ، و « ألصُّ من عَقْعَق » فـالنحاة يشتـرطون كـذلك في صيـاغة اسم التفضيـل أن يكون لـه فعل يُصاغ منه ، وهـذه الأمثال قـد صيغ اسم التفضيـل فيها من اسم عين ، وهوقولهم : هو لِصٌّ ، أي سارق ، فخالفت بذلك قياس النحاة .

وكـذلـك قـولهم من هـذا البـاب أيضـاً : « أَبْيَضُ من الثَّلْج » ، و « أسـودُ من السَّبَـج »[3] ، وأحمـرُ من العَنْـدَم »[4] ، و « أخضـرُ من السِّلْق »[5] لأن النحاة يشترطونَ كذلك ألا يكون الفعل الذي يصـاغ منه اسم التفضيل دَالًّا على خِلْقة ثابتة ، كالألوان والعيـوب الظاهـرة ، وفي هذه الأمثال صِيغ اسم التفضيل من أفعال تدل على الألـوان كما تـرى ، فهي بذلك مخالفة لقياسهم وشروطهم .

على أنْ من العلمـاء من دافـع عن ورود مثـل هـذه الأمثـال في اللغة ، ذاهباً إلى أن مـا تَكَلَّمت به العـرب على الجِبلَّة والسليقة أقـوى من أن يَخضـع لقياس النحـويين . ومن هؤلاء حمـزة الأصبهـاني الـذي حكى في مقـدمة كتـابه « الـدرة الفاخـرة » اختـلاف النحـاة في شـروط

---

(١) الدرة الفاخرة ١/٢٣١ ، ٢/٣٦٩ ، واللسان (شظظ) .

(٢) الدرة الفاخرة ١/٢٣١ ، ٢/٣٦٩ ، واللسان (برج) .

(٣) السبج : خرز أسود ، دخيل معرب ، وأصله سَبَه .

(٤) العندم : شجر أحمر ، أو صبغ تختضب به الجواري .

(٥) السلق : نبت يطبخ ويؤكل ، له ورق طويل رخص ، وأصله ذاهب في الأرض .

صياغة اسم التفضيل وفعل التعجب ، وتشدُّدَهم في هذه الشروط ، ثم تسامحَ اللغويين فيما جاء من كلام العرب مخالفاً لهذه الشروط ، وعَلَّق على هذا وذاك بقوله : « وإنما قدمتُ ما حكيتُه من قياس النحويين ومجاز اللغويين لئلا يَطعن طاعن بقياس النحو على مَثَلٍ شَذَّ عن قياسهم ، ولتَقْوى مُنَّةُ المُتَّسِعِين في مجاز اللغة ، والمُسامِحين للعرب فيما تكلموا به على الجِبِلَّة »[1] .

وأما النوع الثاني ، أعني خروج الأمثال عن القياس من ناحية التراكيب والإعراب ، فمنه قولهم : « أعطِ القوسَ بَارِيها » بتسكينِ الياء ، مع أن القياس فتحها ، وقولهم : « عسى الغُوَيْرُ أَبْؤساً » مع أن القياس النحوي أن يكون خبر « عسى » ، وسائرِ أفعال الرجاء والمقاربة والشروع ، جملة فعلية ، فعلها مضارع ، ولكنه قد شذ عن هذه القاعدة في المثل فجاء مفرداً .

وعلى الرغم من أن علماء النحو قد التمسوا بعض العلل لهذا المثل ، فوجَّهه سيبويه على أن « عسى » هنا قد حُمِلت على « كان » فعملت عَملها[2] . ووجَّهه آخرون على أن « عسى » معناها هنا الإشفاق ، وخبرها جملة فعلية مضارعية مسبوقة بأن على الأصل ، وأن أصل المثل هو : عسى الغويرُ أن يُحْدِثَ أبؤساً ، أو أن يكون أبؤساً[3] نقول : على الرغم من هذه المحاولات فإن بعض العلماء قد نسب المثل إلى الندرة أو الشذوذ[4] .

---

(١) المنة : القوة .

(٢) الكتاب ١/ ٢٤ (بولاق) وانظر : اللسان (عسا) وجمهرة الأمثال ٢/ ٥١ وفصل المقال ٣٣٦ .

(٣) اللسان (بأس) وجمهرة الأمثال ٢/ ٥١ .

(٤) اللسان (عسا) .

(٣)

تعدد الروايات في الأمثال العربية

تعرَّضت الأمثال العربية لضروبٍ من التغيير ، نَجم عنه أن رُوي كثير منها بروايات مختلفة . وإذا كان هذا التغيير قد اعْتَرى أيضاً سائرَ النصوص العربية القديمة فإن نصيب الأمثال منه كان النصيبَ الأوفى ، ذلك أنها أكثر أنواع الكلام تداولاً بين الناس واستخداماً في اللغة .

وقد اتخذ هذا التغيير صوراً شتى ، فكان منه ما أصابَ بِنْية الكلمة وصيغتها ، وكان منه استبدالُ كلمة بأخرى ، وكان منه التقديم والتأخير ، والذكر والحذف في ألفاظ الأمثال .

وأيّاً ما كان الأمر فإنه يمكن أن نرد هذه الظاهرة اللغوية إلى واحد من الأسباب الآتية :

١ ـ **أمية العرب** : فقد كان العرب في الجاهلية تغلب عليهم الأمية ، لندرة الكتابة فيهم ، ولهذا كان جُلُّ اعتمادهم في حفظ آثارهم وآدابهم الشعرية والنثرية على الذاكرة والسمع ، وهاتان الوسيلتان ، مهما بلغتا من الوعي والدقة ، لا تصلان إلى مستوى الكتابة والتدوين ، فالذاكرة لا تقوى على أن تَختزن كل ما تُستودع من معانٍ وألفاظ ، والسمع لا يستطيع أن يحتفظ بكل مسموع ، ولا أن يُؤتمن عليه ، ومن هنا تسرَّب النسيان والخطأ معاً إلى كثير مما كانوا يحفظون ويسمعون ،

ولا سيما حينما كان الزمن يتقادم ، والعهد يتباعد .

٢ ـ كثرة التداول : وذلك أن الأمثال أكثر أنواع القول تداولاً كما أسلفنا ، وهي في رحلاتها الطويلة والمستمرة عَبْر الزمان والمكان ، وفي سرعة تنقلها من لسان إلى لسان ، تتعرض ألفاظها لكثير من ألوان التحريف والتبديل ، إذ إن من الناس من يَضبط ، ومن لا يضبط ، ومنهم من يتشدَّد في الرواية ومن يتساهل ، وكل هؤلاء يلوكون الأمثال في غدوهم ورواحهم ، ويستخدمونها في كلامهم . ومن ثَمَّ اختلفت الألفاظ ، وتعددت الروايات ، ثم جاء مدونو اللغة وجامعو الأمثال ، وكانوا أُمَناء على العربية ، فجمعوا كل هذه الروايات ، ونقلوا إلينا كل هذه الألفاظ .

٣ ـ اختلاف اللهجات : وهذا العامل من أهم عوامل التغيير في ألفاظ الفصحى بصفة عامة ، إعراباً وبنية ، وهذا أمر متفق عليه ، ومفروغ منه في الدراسات اللغوية ، وقد ظهر أثره في الأمثال العربية ، فأصاب بعض ألفاظها بالتغيير نتيجةً لتفاوت القبائل العربية ، باديةً ومتحضرةً ، في طريقة النطق بالأصوات والحروف .

وكنا نود لو أن علماء اللغة ومدوِّني الأمثال نسبوا إلى كل قبيلة أمثالها ، ولكن يبدو أن هذا الأمر كان لا يَعنيهم كما يَعنينا الآن ، ومن ثَمَّ رأيناهم يكتفون غالباً بقولهم: «ويروى كذا» أو «ويقال فيه كذا»، أو نحو ذلك .

ولكن على الرغم من صعوبة هذا الأمر وغموضه يمكننا أن نرد اختلاف الألفاظ في الأمثال الآتية الى عامل اختلاف اللهجات :

فقولهم : « حُبِّبَ الى عبدٍ سُوءٍ مَحْقِده »[1] روي فيه (مَحْكِده) بالكاف بدل القاف، وقد نص الميداني على أن « المحقد» لغة كلاب، وأن « المحكد » لغة عَقِيل .

وقولهم: «شَرٌّ ما أجاءك الى مُخَّةِ عُرْقوب»[2]روي فيه «أَشَاءَك» وذهب ابن منظور إلى أن « أشاءك » لغة تميم .

وقولهم : « دَغْراً لا صَفًّا »[3] روي « دَغْرَى ولا صَفًّى » و « دَغْرٌ لا صَفٌّ » ، ونص الميداني على أن « دَغْرَى » لغة الأزد ، « ودَغْراً » لغة غيرهم .

هذه الأمثال الثلاثة هي التي نسبها العلماء إلى بعض القبائل ، وذلك ما انتهيتُ إليه بعد قراءتي لكتب الأمثال واللغة ، ولكن تبقى بعد ذلك أمثال أخرى يمكن أن نرد الاختلاف في ألفاظها إلى عامل اختلاف اللهجات أيضاً ، ومنها قولهم : « عَقْراً حَلْقاً »[4] ويروى « عَقْرَى حَلْقَى » . وقولهم : « وقَعُوا في حَيْصَ بَيْصَ[5] ويروى « حِيصَ بِيصَ ،

---

(١) جمهرة الأمثال ١/٣٧٥ ، ومجمع الأمثال ١/٢٠٠ ، واللسان (حكد) والمحكد : الأصل ، ومعناه أن الشاذ يحب أصله وقومه حتى عبد السوء يحب أصله . ويضرب لمن يحرص على ما يهينه ويسيئه .

(٢) جمهرة الأمثال ١/٥٤٩ ، واللسان (جيأ ، عرقب ، مخخ) والعرقوب : العصب الموثر فوق عقب الإنسان ، وعرقوب الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها . والعرقوب لا مخ له . ويضرب مثلاً لكل مضطر إلى ما لا خير فيه . وقيل : يضرب عند سؤالك اللئيم ، أعطاك أو منعك .

(٣) مجمع الأمثال ١/٢٧١ ، واللسان (دغر) والدغر: الاقتحام من غير تثبت، ومعناه: اقتحموا عليهم ولا تصافوهم . ويضرب في انتهاز الفرصة .

(٤)جمهرة الأمثال ٢/٥٨ ، ومجمع الأمثال ٢/٣٨ ، واللسان (عقر ، حلق) ويقال في الدعاء على الإنسان بالهلكة ، أي أصابه عقر في يديه ، ووجع في حلقه .

(٥) جمهرة الأمثال ٢/٣٣٤ ، واللسان (بيص ، حيص) والحيص : الروغان والتخلف ، =

وحِيصٍ بِيصٍ ، وَحَيْصٍ بَيْصٍ ، وَحَاصٍ بَاصٍ » .

وقولهم : « جاء بالشُّقَّارَى والبُقَّارَى »[1] يروى « بالشُّقَر والبَقَر » و « بالصُّقَارى والبُقَارَى » ، وقولهم : « الأخذُ سُرَّيْطٌ والقضاءُ ضُرَّيْطٌ »[2] روي « سُرَّيْطَى وَضُرَّيْطَى ، وسِرِّيطَى وضِرِّيطَى ، وسُرَيْطاءَ وضُرَيْطَاء » ، وقولهم : « ذِكْرٌ ولا حِسَاسَ »[3] روي « ولا حِساسَ ، ولا حِسَاسٍ ، ولا حَسِيسَ » ، وقولهم : « الذئبُ يَأْدُو للغزال »[4] يروى « يَدْأَى ، وَيدْأَلُ » ، وقولهم : « بين حاذفٍ وقاذفٍ »[5] يروى « حاذٍ وقاذٍ » ، وقولهم : « خُذْ ما طَفَّ لك »[6] يروى « أَطَفَّ ، واسْتَطَفَّ » ، وقولهم : تَحْقِره وَيَنْتَأُ »[7] يروى « ويَنْتُو » .

= والبوص السبق والفرار . ومعناه : وقعوا في أمر يتخلف عنه ، ويفر منه . وقيل : في ضيق وشدة . وقيل : في اختلاط من أمر لا مخرج لهم منه .

(١) مجمع الأمثال ١/١٧٥ ، واللسان (بقر ، شقر) ومعناه : جاء بالكذب الصريح ، وقيل : جاء بالداهية .

(٢) جمهرة الأمثال ١/١٧٠ ، واللسان (سرط ، ضرط) ومعناه أنه إذا أخذ الدين استرطه وابتلعه بسرعة ، فإذا استقضاه غريمه أضرط به . وقد علق ابن منظور على هذه الروايات بقوله : « وهي كلها لغات صحيحة قد تكلمت العرب بها » .

(٣) جمهرة الأمثال ١/٤٦٧ ، ومجمع الأمثال ١/٢٨١ ، واللسان (صوت) ويضرب مثلاً للذي يعد ولا ينجز . وفي اللسان (ومثله إذا كنت تسمع الشيء ثم لا ترى له تحقيقاً يقال : ذكر ولا حساس » .

(٤) جمهرة الأمثال ١/٤٦٤ ، ومجمع الأمثال ١/٢٧٧ ، واللسان (دأل ، أدى ، دأى) ومعناه : يخدعه ليأكله . ويضرب للرجل يخدع صاحبه .

(٥) جمهرة الأمثال ١/٢١٢ ، واللسان (قذف) والحاذف : الرامي بالحصى أو العصا . والقاذف : الرامي بالحجارة . وأصله في الأرنب ، وذلك أن كل شيء يطمع فيه حتى الغراب . و « حاذ وقاذ » على الترخيم ، ويضرب للرجل لا ينصرف من مكروه إلا إلى مثله .

(٦) جمهرة الأمثال ١/٤٢١ ، واللسان (طفف) ومعناه : خذ ما دنا منك وقرب . وقيل : ما ارتفع لك وأمكن .

(٧) جمهرة الأمثال ١/٢٥٨ ، واللسان (نتأ ، نتا) وينتأ : يرتفع . ويضرب مثلاً للذي ليس له شاهد منظر ، وله باطن مخبر . وقيل : للذي تستصغره ويعظم .

٤ ـ **التصحيف والتحريف** : وهما من أَدْواء الكتابة العربية قديماً وحديثاً ، وينشئان عن الخطأ في النقل من الصحف ، أو الخطأ في السماع ، بسبب تشابه بعض الحروف في الصورة والرسم أو النطق . وقد ابتُلِيت النصوص العربية القديمة بهذين الداءين ، فتشوَّهت وخَفِيَ كثير من معانيها ، كما وقع في حبائلها بعضُ الأجلاء من علماء اللغة ، فصدرت عنهم روايات غريبة لبعض الأشعار والأمثال[١] .

أما الأمثال التي تعرضت ألفاظها للتصحيف والتحريف فقد نبه العلماء على بعضها ، وتركوا كثيراً منها ، مما نعتقد أنه من هذا القبيل ، فمما نبه عليه العلماء قولهم : « مُثْقَلٌ استعان بذَقَنِه »[٢] فقد صُحِّف الى « بدَفَّيْه » .

وقولهم : « دَقَّكَ بِالمِنْحَازِ حَبَّ القِلْقِل »[٣] وصحف إلى « الفُلْفُل » بالفاء المضمومة ، وقولهم : « أبردُ من عَبَقُر »[٤] وصحف إلى « عَبْقَرٍ ، وعَبِّ قُرٍّ » ، وقولهم : « أبردُ من حَبَقُر »[٥] وصحف الى « حَبْقَرٍ ، وحَبِّ قُرٍّ » ، وقولهم: «أصردُمن عين الحِرْباء»[٦] وصحف إلى

---

(١) انظر : التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصبهاني ، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري .

(٢) جمهرة الأمثال ٢ /٢٣٨ ، والتنبيه على حدوث التصحيف ٨٨، وأصله في البعير يُحمل عليه الحمل الثقيل ، فلا يقدر على النهوض به فيعتمد بذقنه على الأرض . والدفان : الجنبان . ويضرب مثلاً للذليل يستعين بمثله .

(٣) مجمع الأمثال ١ /٢٦٥ ، واللسان (قلل) والقاموس المحيط (نحز ، قلل) والقلقل بكسر القاف وضمها : شجر أو نبت له حب أسود ، وهو أصلب ما يكون من الحبوب . والمنحاز : الهاون . وتنسب المصادر السابقة رواية « الفلفل » بالفاء إلى العامة ، كما تنقل عن بعض العلماء القول بأن « القلقل » بالقاف هي التصحيف ، لأن حبه لا يدق . ويضرب في الإلحاح على الشحيح ، أو في الإذلال والحمل عليه .

(٤) الدرة الفاخرة ١ /٨٤ ، واللسان (حبقر ، عبقر) .

(٥) الدرة الفاخرة ١ /٨٤ ، واللسان (حبقر ، عبقر) .

(٦) الدرة الفاخرة ١ /٢٦٧ ، والصرد : البرد ، وقيل : شدته .

« عَنْزٍ جَرْبَاءَ » ، وقولهم : « يا حابلُ اذكر حَلًّا »[1] وصحف إلى « يا حامل » بالميم .

أما لم ينبه عليه العلماء ، وأرى أنه من قبيل التصحيف أو التحريف فمنه الأمثال الآتية : « أَطِرِّي فإنكِ ناعلة »[2] ويروى « أَظِرِّي » بالظاء المعجمة . « تَلَبَّدِي تَصَيَّدِي »[3] ويروى « تَبَلَّدِي » . « صَرَّحَ الحقُّ عن مَحْضِهِ »[4] ويروى « الحَقِينُ » . « أباد الله خَضْرَاءَهم »[5] ويروى « غَضْراءَهم » . « صَرَّحَتْ بِجِلْذَانَ »[6] ويروى « بجِلْدانَ » وبجِلْدَاء « عبدٌ وخَلىً في يَدَيْه »[7] ويروى « وخُلَيٌّ وخَلىَ ،

---

(١) الضبي ٧٩ ، وجمهرة الأمثال ٢/٤٢٧ ، ومجمع الأمثال ٢/٤١١ ، واللسان (حبل ، حلل) والحابل : من حبل الشيء حبلاً ، إذا شده بالحبل ، والحل : حل العقدة وهو فتحها ونقضها . ويضرب مثلاً للنظر في العواقب .

(٢) سبق تفسيره .

(٣) جمهرة الأمثال ١/٢٥٩ ، ومجمع الأمثال ١/١٢٧ ، والمستقصى ٢/٣١ ، والتلبد : اللصوق بالأرض لختل الصيد . والتبلد : التحير ، والبلادة : خلاف الذكاء . ويضرب للذي يظهر سكوتاً ، فإذا رأى فرصة اغتنمها .

(٤) مجمع الأمثال ١/٣٩٨ .

(٥) جمهرة الأمثال ١/١٧٦ ، والفاخر ٥٣ ، واللسان (خضر ، غضر) ومعناه : أباد الله سوادهم ومعظمهم ، وأنكر الأصمعي هذه الرواية وقال : إنما يقال : أباد الله غضراءهم ، أي خيرهم وغضارتهم .

(٦) مجمع الأمثال ١/٤٠٥ ، والدرة الفاخرة ١/٢٣٢ ، واللسان (جدد ، جلد) والقاموس المحيط (جلذ) ومعجم البلدان (جلذان) وجلذان : حمى قرب الطائف ، لين مستوٍ كالواحة ، والتاء في « صرحت » عبارة عن القصة أو الخطة . ويضرب للأمر إذا بان وانكشف ، لأن جلذان لا خمر فيه يتوارى به .

(٧) جمهرة الأمثال ٢/٥٤ ، ومجمع الأمثال ٢/٥ ، والمستقصى ٢/١٥٧ ، واللسان (خلا) والخلي : الرطب من الحشيش ، واحدته خلاة . و « خلي » تصغير خلي . و « خلي » على أنه فعل مبني للمجهول . وقد رد ابن السكّيت الرواية الأخيرة ، وقال : « ولا تقل : وحلي في يديه » ويضرب للرجل اللئيم يفوض إليه الأمر فيعبث فيه .

وحَلْيٌ » . « من يَسْمَعْ يَخَلْ »[1] ويـروى « من يَشْبَعْ » « إذا أخصب الزمان أتى الهاوِي والغَاوِي »[2] ويروى « والعَاوِي » بالعين المهملة .

٥ ـ الرواية بالمعنى : ونعني بذلك وضع كلمة مكان أخرى بمعناها أو قريبة من معناها ، وهذا أمر مألوف في النصوص قديماً وحديثاً . ويمكن أن نمثّل له بالأمثال الآتية :

« آخرُ الدواء الكَيُّ »[3] فقد روي « آخر الطبِّ » ، « صَكًّا ودِرْهَماك لك »[4] وروي « غَمْزاً » ، و « أذرقُ من حُبَارَى »[5] وروي « أَسْلَحُ » ، و « استُ البائِن أَعْلَمُ »[6] وروي « أعرفُ » ، و « مُخْرَنْبِقٌ

---

(١) اللسان (خيل) ومعناه أن من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع في نفسه عليهم المكروه . ويضرب في الحث على مجانبة الناس .

(٢) مجمع الأمثال ١/٦٦ ، واللسان (هوا) والهاوي : الذئب ، لأن الذئاب تهوي وتأتي إلى الخصب . والغاوي : الجراد ، ومن رواه « العاوي » فسر « الهاوي » بالجراد ، والعاوي » بالذئب . ويضرب في ميل الناس إلى حيث المال .

(٣) جمهرة الأمثال ١/٩٧ ، والمستقصى ١/٣ ، واللسان (كوى) ويروى « آخر الداء » وإنما كان الكي آخر الدواء ، لأنه لا يقدم عليه إلا بعد ألا ينفع كل دواء . ويضرب مثلاً لكل أمر لا ينجع فيه اللين . ولا يصلح إلا بالشدة .

(٤) جمهرة الأمثال ١/٥٧٩ ، ومجمع الأمثال ١/٤٠٧ واللسان (بعد) وأصله أن امرأة استأجرها رجل بدرهمين ، فلما واقعها أعجبها ، فجعلت تقول : « صكاً ودرهماك لك ، لا أفلح من أعجلك » فذهبت مثلاً للرجل يعمل العمل الشديد .

(٥) الدرة الفاخرة ١/٢٣٣ ، واللسان (حبر ، ذرق) وأذرق : من الذرق ، وهو السلاح . والحبارى : طائر ، وذلك أن ذرقه مثل الدبق ، فإذا قرب منه البازي سلح فدبق جناحه ، فيسقط البازي حينئذ .

(٦) الضبي ٥٠ ، وجمهرة الأمثال ١/١٣٨ ، ومجمع الأمثال ١/٣٣٢ ، واللسان (بين) وللناقة حالبان ، أحدهما يمسك العلبة من الجانب الأيمن ، ويسمى « البائن » والآخر يحلب من الجانب الأيسر ، ويسمى « المستعلى والمعلى » وللمثل قصة فصلتها كتب الأمثال ويضرب للرجل يأتي الأمر على بصيرة .

لِيَنْبَاع »[1] وروي « مُطْرِق ، ولِيَنْبَاق » ، و « على أهلها تَجْنِي بَراقِشُ »[2] وروي « دَلَّت » ، و « أَرْتَعِنْ أَجَلَى أَنَّى شِئْتَ »[3] ويروى «ارْعَها » ، و «سَرْعَانَ ذا إهالَةً »[4] ويروى «وَشْكَان » .

و « الطَّعْنُ يَظْأَر »[5] ويروى « يُظْئِره » ، و « أجبنُ من المَنْزُوف ضَرْطاً »[6] ويروى « خَضْفاً » ، و « هذا الأَمرُ لا يَلتاط بَصَفَري »[7] ويروى « لَا يَلِيطُ ، لَا يَلِيقُ ، لَا يَلْزَقُ » ، و « هو عُيَيْرُ وَحْدِه »[8] ويروى

---

(١) جمهرة الأمثال ٢٨١/٢ ، ومجمع الأمثال ٣٠٩/٢ ، واللسان (بوع ، بوق ، خريق) والمخرنبق : المطرق الساكت . وانباع : وثب وسطا بعد سكون . وانباق عليهم الدهر : هجم عليهم بالبائقة ، وهي الداهية .

(٢) الضبي ٦٩ ، والفاخر ٣٦٣ ، وجمهرة الأمثال ٥٢/٢ ، واللسان (برقش) وبراقش اسم كلبة نبحت على جيش عدو لأهلها . فلما سمع نباحها علم أن أهلها هناك ، فعطف عليهم فاستباحهم . وقيل : براقش : اسم امرأة ، ولها حديث آخر . ويضرب المثل للرجل الذي يعود إصلاحه بفساد .

(٣) جمهرة الأمثال ١٤٣/١ ، ومجمع الأمثال ٣٠١/١ ، ومعجم البلدان (أجلى) وأجلى: مرعى لهم معروف . وارتعن : أمر من قولهم : أرتع الإبل ، إذا رعاها ، ويضرب للرجل يحمد في أحواله كلها ، وكذلك للرجل أنى جئته وجدت عنده ما تريد .

(٤) جمهرة الأمثال ٥١٩/١ ، ومجمع الأمثال ٣٣٦/١ ، وسرعان: اسم فعل ماض بمعنى «سرع» ووشكان : مثله لفظاً ومعنى. والإهالة: الودك. ويضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته.

(٥) جمهرة الأمثال ١٤/٢ ، ومجمع الأمثال ٤٣٢/١ ، واللسان (ظأر) وأظأرت الناقة : عطفتها على ولد غيرها ، ومنه سميت الداية (ظئراً) ويضرب المثل للبخيل يعطي على الرهبة .

(٦) الفاخر ١١١ ، والدرة الفاخرة ١٠٨/١ ، واللسان (نزف) ونزف دمه نزفاً فهو منزوف ونزيف : خرج دمه كله . والضرط والضراط معروف . وخضف يخضف خضفاً : ضرط . والمنزوف ضرطاً : رجل من العرب له حديث معروف .

(٧) جمهرة الأمثال ٣٩١/٢ ، ومجمع الأمثال ٢٢٦/٢ ، والمستقصى ٢٧٦/٢ ، واللسان (صفر ، ليط ، ليق) ويقال : لاط حبه بقلبي والتاط ، أي لزق به وعلق ، وكذلك لاق والتاق . والصفر : الروع ولب القلب . ويضرب في قلة الموافقة .

(٨) جمهرة الأمثال ٣٠٤/٢ ، واللسان (وحد ، جحش) وعيير : تصغير عير ، وهو الحمار الوحشي . وجحيش تصغير جحش ، وهو ولد الحمار الوحشي أو الأهلي . ويضرب لكل عيي مستبد برأيه . وقيل : للذي لا يشاور أحداً ولا يخالطه ، وفيه مع ذلك مهانة وضعف .

« جُحَيْش » ، و « يا حابلُ اذكر حَلاًّ »[1] ويروى « يا عاقد » .

٦ ـ التقارب في مخارج بعض الحروف : ويَنتج عن هذا العامل إبدال بعض الحروف من بعض ، فتنشأ كلمات جديدة ، وروايات جديدة ، ويمكن أن نمثل له بالأمثال الآتية :

« لم يُحْرَمْ من فُصِدَ لَهُ »[2] فقد روي « فُزْدَ لَه » ، و « أشدُّ سواداً من حَنَك الغراب »[3] وروي « حَلَك الغراب » باللام ، و « إذا ارْجَحَنَّ شاصياً فارفع يَداً »[4] وروي «ارْجَعَنَّ » بالعين ، و « جاءَ يَضْرِبُ أَصْدَرَيْهِ »[5] وروي : « أَسْدَرَيْه » و « أزدريه » ، و « الكلابَ على البقر »[6] وروي « الكِرَابُ على البَقر » ، و « لقيتُ منه عرقَ

(١) سبق تفسير المثل ، وقد رواه الأصمعي « يا عاقد » ، وأما ابن الأعرابي فخالفه وقال : سمعته من أكثر من ألف أعرابي ، فما رواه أحد منهم : « يا عاقد » وانظر : اللسان (حلل) .

(٢) جمهرة الأمثال ١٩٣/٢ ، ومجمع الأمثال ١٩٢/٢ ، واللسان (فزد ، فصد) وفصد له أي فصد له البعير أو الفرس ، وهو أن يملأ المعى دماً من أوداج أحدهما ، ثم يشوي ويطعم الضيوف في الأزمة والجدب . ويضرب للرجل يصل إلى طرف من حاجته ، وهو يطلب نهايتها. وقيل: للحث على القناعة باليسير . وفي اللسان (فصد) أن الصاد في « فصد » سكنت تخفيفاً ، فلما سكنت وضعفت ضارعوا بها الدال التي بعدها بأن قلبوها إلى أشبه الحروف بالدال من مخرج الصاد ، وهو الزاي ، لأنها مجهورة كما أن الدال مجهورة ، فقالوا : فزد .

(٣) اللسان (حنك ، حلك) وحنك الغراب : منقاره . والحلك : شدة السواد . ونص بعض العلماء على أن النون في « حنك » مبدلة من اللام في « حلك » .

(٤) جمهرة الأمثال ٦٤/١ ، واللسان (رجحن ، رجعن) وارجحن الشيء : مال وسقط . وارجعن مثله . والشاصي : الرافع رجله ، أي إذا غلبته فاضطجع ووقع ورفع رجليه فكف يدك عنه . ويضرب في العفو عند المقدرة .

(٥) مجمع الأمثال ١٦٣/١ ، واللسان (زدر ، سدر ، صدر) والأصدران : عرقان يضربان تحت الصدغين ، ولا مفرد لهما ، والأسدران : المنكبان ، أو عرقان تحت الصدغين . ويضرب للرجل إذا جاء فارغاً لم يقض حاجته .

(٦) مجمع الأمثال ١٤٢/٢ ، واللسان (كرب) ومعناه : أرسل الكلاب على بقر الوحش . ويضرب عند تحريش بعض القوم على بعض من غير مبالاة ، وأما رواية « الكرابُ على =

القِرْبة »[1] . ورُوي « علقَ القربة » .

٧ ـ الاختلاف في أصل المثل : ومن ذلك قولهم : « عندَ جُهَيْنَة الخبرُ اليقينُ »[2] فقد روي « وعند جُفَينة » وعلى الرواية الأولى يذكر بعض العلماء في أصله أن حُصَين بن عمرو بن معاوية الكلابي خرج ومعه رجل من جُهَينة يقال له الأخنس ، فنزلا منزلاً ، فقام الجُهَني إلى الكلابي ، وكانا فاتكَيْن فقتله ، وأخذ ماله ، وكانت أخته صَخْرُ تبكيه في المواسم ، فقال الأخنس :

كصخرةَ إذْ تُسائِلُ في مَراح وفي جَرْمٍ وعلمُهما ظنونُ
تسائل عن حُصَيْن كلَّ رَكْبٍ وعند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليقينُ

وأما عن الرواية الثانية فيذكر بعضهم في أصل المثل أن جُفَيْنة كان يهودياً من أهل تَيْماء ، خَمَّاراً ، وكان لبني سَهْم جارٌ يهودي خمار أيضاً ، يقال له غُصَين ، فأتى جفينةَ رجلٌ من غَطَفَان ، فشرب عنده ، ثم تنازعا فقتله جفينة ، وخفى أمره ، وكانت له أخت تسأل عنه ،

= البقر » فمعناها أن الأرض لا تكرب إلا على البقر ، لأنها هي التي تكربها ، أي تقلبها للحرث وتثيرها للزرع ، ويضرب في تخلية المرء وصناعته .

(١) جمهرة الأمثال ٢/١٩٨ ، ومجمع الأمثال ٢/١٥٠ ، واللسان (عرق) ويروى كذلك « جشمت إليك عرق التربة » و« كلفت إليك عرق القربة » . وقد اختلف العلماء في تفسير المثل اختلافاً شديداً .

وفسره أبو هلال العسكري بقوله : « والوجه عندي أن القربة تنشق أو تكاد ، فتدهن فتوضع في الشمس ، فإذا تشربت الدهن ، ثم نديت به فقد صلحت ، فجعلوا وضعها في الشمس إلى أن تندىٰ بالدهن ثانية مثلاً للجهد يلقاه الإنسان من الأمر » .

وأما من روى المثل « علق القربة » باللام فقد نقل ابن منظور فيه عن ابن الأعرابي رأيين مختلفين ، أحدهما أن المراد بعلق القربة ما شدت به ثم علقت ، والآخر أن عرق القربة وعلقها واحد ، وهو معلاق تحمل به القربة ، وأبدلوا الراء من اللام كما قالوا : لعمري ورعملي . أما الميداني فيرى أن الأصل الراء واللام بدل منه .

(٢) الفاخر ١٢٦ ، وجمهرة الأمثال ٢/٤٤ ، ومجمع الأمثال ٢/٣ ، واللسان (جفن) .

فمرت يوماً على غُصَين وعنده أخوها ، وهو أخو القتيل ، فسألته عن أخيها على عادتها ، فقال غُصَيْن :

تُسَائِلُ عن أخيها كلَّ رَكْبٍ ... وعند جُفَيْنَة الخبرُ اليقينُ

ومنه قولهم : « أحمقُ من راعي ضأنٍ ثَمَانِينَ »[1] فقد روي « أحمقُ من طالب ضأن ثمانين » و « أحمق من صاحب ضأن ثمانين » و « أشقى من راعي ضأن ثمانين » و « أشغل من مُرْضع بَهْمٍ ثمانين » . فأما على الرواية الأولى فأصله أن الضأن تنفر من كل شيء ، فيحتاج راعيها كل وقت إلى جمعها . وأما على الروايتين الثانية والثالثة فأصله أن أعرابياً بَشَّر كسرى ببُشْرى سُرَّ بها ، فقال : اسألني ما شئت ، فقال : أسألك ضأناً ثمانين . وأما على الرواية الرابعة فأصله أن الإبل تتعشَّى ، وَتَرْبِضُ حَجْرة تَجْتَر ، وأن الضأن يحتاج راعيها إلى حفظها ومنعها من الانتشار ، ومن السباع الطالبة لها ، لأنها لا تبرك كبروك الإبل ، فيستريح صاحبها . وأما على الرواية الخامسة فأصله أن الرجل إذا استعنته وكان مشغولاً قال لك : أنا في رَضاع بَهْمٍ ثمانين .

---

(١) الدرة الفاخرة ١/١٤٨ ، ٢٦٠ ، واللسان (ثمن) .

(٤)
الاستشهاد بالأمثال على مفردات اللغة وتراكيبها

أولاً : الاستشهاد على المفردات :

تنتشر الأمثال في المعاجم اللغوية القديمة والحديثة انتشاراً واسعاً ، بحيث إذا تصفحنا معجماً من هذه المعاجم وجدنا الأمثال تتخلل مواده المختلفة ، وتُساق جنباً إلى جنب مع النصوص اللغوية الأخرى ، كالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر القديم . ذلك أن الأمثال مصدر من مصادر اللغة الغنية بالمفردات والغريب ، ومن ثم كان على أصحاب هذه المعاجم ألا يغفلوها وهم يستشهدون على ألفاظ اللغة وغريبها . وأكثر من هذا أنهم كانوا يقرؤون كتب الأمثال قبل أن يدونوا معاجمهم .

فالأزهري (ت ٣٧٠هـ) صرّح ، في مقدمة معجمه الكبير ، بأنه قد قرأ كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام فقال : « ولأبي عبيد كتاب الأمثال ، قرأته على أبي الفضل المنذري ، وذكر أنه عرضه على أبي الهيثم الرازي ، وزاد أبو الفضل في هذا الكتاب من فوائد أضعاف الأصل ، فسمعنا الكتاب بزياداته »[١] .

---

(١) مقدمة « تهذيب اللغة » ص ٢٠ .

كما أشاد الأزهري بكتاب « النوادر » لأبي زيد الأنصاري الذي يحتوي كثيراً من الأمثال حيث قال « ولأبي زيد من الكتب المؤلفة كتاب النوادر الكبير ، وهو كتاب جامع للغرائب الكثيرة ، والألفاظ النادرة ، والأمثال السائرة ، والفوائد الجمة »[1] .

ويصرح ابن منظور في كتابه بأسماء بعض كتب الأمثال القديمة التي نقل عنها ، ككتاب الأصمعي ، وكتاب أبي زيد ، وكتاب القاسم بن سلام ، وكتاب حمزة الأصبهاني ، وكتاب المفضل بن سلمة ، وكتاب ابن الأنباري . وقد حددنا مواضع كل ذلك عند حديثنا عن هذه الكتب في الفصل الأول من الباب الأول .

وقد اقتضاني تحقيقي لكتابين من كتب الأمثال هما : « جمهرة الأمثال » لأبي هلال العسكري ، و « الدرة الفاخرة » لحمزة الأصبهاني ، أن أرجع ، فيما كنت أرجع إليه ، إلى المعاجم اللغوية ، باحثاً فيها عن الأمثال ورواياتها ، وآراء العلماء في تفاسيرها ، حتى إنني قمت بعمل فهرس لأمثال « لسان العرب » ، وتبينت من معايشتي لهذه المعاجم أن الأمثال تقوم بوظيفة كبرى في تفسير مفردات اللغة ، ولا سيما الغريب والنادر منها ، كما تقوم بوظيفة أخرى في تحليل التراكيب وإعرابها ، كما تبينت أمراً آخر أهمَّ مما سبق ، وهو أن هذه المعاجم انفردت بذكر أمثال لم تذكرها مدونات الأمثال الباقية لنا ، ورَوت روايات في تفسير بعض الأمثال لم توردها هذه المدونات ، ولذلك أرى أنه لا بد من الرجوع إلى المعاجم اللغوية عند دراسة الأمثال .

ولكي نذلل على فُشُوِّ الأمثال في المعاجم وكثرتها فيها نذكر أن

(١) مقدمة «تهذيب اللغة» ص ١٢ .

ابن منظور ساق في مادة (نعم) أربعة عشر مثلاً هي « أجبنُ من نَعامة ، أعدى من نعامة ، أشرد من نعامة ، أصمُّ من نعامة ، أَمْوَقُ من نعامة ، أضحَوْا نعاماً ، أنتَ كضاحبة النعامة ، إنه لخفيف النعامة ، جاء كالنعامة ، خَفَّتْ نعامتهم ، شالت نعامتهم ، ركب جناحَيْ نعامة ، ما أنتَ إلَّا نعامة ، من يجمع بين الأَرْوَىٰ والنَّعام » .

وساق في مادة (نقع) أربعة أمثال هي « حَتَّام تَكرع ولا تَنْقَع ، الرشفُ أَنْقَعُ ، إنه لشرَّاب بأَنْقُع ، الناس نقائعُ الموت » .

وساق في مادة (نزا) أربعة أمثال أيضاً ، هي « نَزْوُ الفُرَارِ اسْتَجْهَلَ الفُرَارَ ، قد حِيل بين العَيْر والنَّزوَان ، إذا نزا بك الشرُّ فاقعد ، أنزى من ظبي » .

وأن ابن فارس (ت : ٣٩٥هـ) ذكر في مادة (نوق) من كتابه « مقاييس اللغة » مثلين هما « اسْتَنْوَقَ الجملُ ، خرقاءُ ذاتُ نِيقَة » .

وأتى الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في مادة (عشا) من كتابه «أساس البلاغة » بثلاثة أمثال هي « هو يَخْبط خبطَ عشواء ، العاشيةُ تَهيج الآبية ، عَشِّ رُوَيْداً وَضَحِّ رويداً » .

وأتى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) في مادة (سعد) من كتابه « تاج العروس » بمثلين هما « أسعدٌ أم سُعَيْد ، مَرْعىً ولا كالسَّعْدان » .

ولم يكن أصحاب المعاجم يسردون الأمثال سرداً ، بل كانوا يذكرون أصولها ، وأوائل من قالها ؛ كما يهتمون بتفسير غريبها ، وتعيين مضاربها ، ومن ثم جاز لنا أن نعد هذه المعاجم من المصادر الأصيلة للأمثال العربية .

ثانياً : الاستشهاد على التراكيب :

وكما استشهد علماء اللغة على المفردات والغريب بالأمثال استشهد بها النحاة على التراكيب والإعراب ، وإن كانوا لم يَستكثروا منها استكاثرهم من الشعر القديم ، ففي كتاب سيبويه منها نحو اثنين وعشرين مثلاً ، وفي كتاب « الخصائص » لابن جني نحو ثلاثة عشر مثلاً ، وفي كتاب « المغني » لابن هشام نحو اثنين وعشرين مثلاً ، بينما استشهد ابن يعيش في « شرح المفصل » بنحو تسعين مثلاً . وفيما يلي نورد بعض هذه الأمثال حسب الترتيب المألوف لأبواب النحو :

المبتدأ والخبر :

استشهد النحاة في هذا الباب بالمثل « تَسْمَعُ بالمُعَيْديِّ خيرٌ من أن تراه » على أن المبتدأ قد يجيء مصدراً مؤولاً من « أن » المصدرية والفعل ، وأن « أنْ » هذه كما تكون مذكورة في الكلام تكون مقدَّرة ، كما في هذا المثل ، لأن أصل الكلام « أن تسمَعَ » والذي حَسَّن حذفَها هنا وتقديرَها ثبوتُها في « أن تراه »[1] . ويرى بعضهم أن المصدر في هذا المثل متصيَّد من الفعل « تسمعُ » لا مؤول منه ومن الحرف المصدري ، وهو مثل المصدر المتصيَّد في قوله تعالى : ﴿ سواءٌ عليهم أأنذرتَهم أم لم تُنْذِرْهُم ﴾[2] .

وهناك رأي ثالث لهم رواه الصبان ، وهو أن « الفعل إذا أريد به مجرد الحدث صَحَّ أن يسند إليه ، ويضاف إليه ، ويكون اسماً حكماً ،

---

(١) المغني لابن هشام ٣٠٦ (طبعة دار الفكر) والتصريح على التوضيح لخالد الأزهري ١/١٥٥ .

(٢) التصريح ١/١٥٥ .

كما في ﴿ سواءٌ عليهم أأنذرتَهم ﴾ و﴿ هذا يومُ يَنفع الصادِقِين صدقُهُم ﴾ فيكون المراد بالاسم ما يعمّ الحقيقي والحكمي »[١] .

واستشهد سيبويه وابن جني وابن يعيش على جواز الابتداء بالنكرة إذا أفادت بالمثَلين «أَمْتٌ في حَجَرٍ لا فِيكَ» و«شَرٌّ أهرَّ ذا نابٍ» . أما الأول فلأنه يراد به الدعاء لا الخبر ، وكأن المتكلم به يقول للمخاطب : ليكن الأَمْتُ في الحجارة لا فيك [٢] . وأما الثاني فلأن الكلام فيه عائد إلى النفي ، وكأنه يقول : « ما أهرَّ ذا نابٍ إلَّا شر »[٣] . ويرى بعض النحاة المتأخرين أن النكرة في المثل الثاني خُصصت بوصف مقدر ، ومن ثم جاز الابتداء بها ، وأن تقدير الكلام « شَرٌّ عظيمٌ أَهرَّ ذا ناب »[٤] .

واستشهدوا بالمثل « اليومَ خمرٌ وغداً أمرٌ » على أنه لا يجوز الإخبار بأسماء الزمان عن الأعيان والجثث إلَّا إذا أفاد ، وتتأتى الإفادة في هذا المثل بتقدير مضاف يكون اسم معنى ، فيكون أصل الكلام « اليومَ شربُ خمر »[٥] .

كان وأخواتها :

استشهد سيبويه بالمثل « إلَّا حَظِيَّة فَلاَ أَلِيَّة » ، على جواز حذف « كان » وخبرها أو حذفها واسمها ، أما الأول فعلى رواية « حَظِيَّةٌ وأليَّةٌ » بالرفع ، ويكون تقدير الكلام عليها : إن لا تكن له في الناس حظيةٌ

---

(١) حاشية الصبان على الأشموني ١/ ١٣٩ .

(٢) الأمت : الانخفاض والارتفاع والاختلاف ، ومعناه : أبقاك الله بعد فناء الحجارة ، وهي مما يوصف بالخلود والبقاء .

(٣) الكتاب ١/ ١٦٦ ، والخصائص ١/٣١٨ ، ٣١٩ ، وابن يعيش ١/ ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) المغني ٥٢٠ ، وحاشية الصبان ١/ ١٥١ ، وابن يعيش ١/ ٨٦ ، ٧/ ١٤٦ .

(٥) حاشية الصبان ١/ ١٥٠ .

فإني غيرُ ألية ، فحذفت « كان » وخبرها ، وبقي اسمها ، وهو « حظية » .

وأما الثاني ، أعني حذف « كان » واسمها مع بقاء خبرها وحده فعلى رواية « حظيةً وأليةً » بالنصب ، وذلك إذا عنت المرأة نفسها ، ويكون تقدير الكلام حينئذ : إن لا أكن عنده حظيةً فلا أكون أليةً ، فحذفت « كان » واسمها المضمر فيها ، وبقي خبرها ، وهو « حظية ، وألية »[1] .

واستشهد النحاة المتأخرون بالمثل : « قَدْ قِيلَ ذلك إنْ صِدْقاً وإنْ كَذِباً » على جواز حذف « كان » واسمها مع بقاء خبرها ، وذلك بعد (إنْ ، ولو) الشرطيتين غالباً ، لأن تقدير الكلام في هذا المثل : إن كان ما قيل صدقاً ، وإن كان ما قيل كذباً[2] .

كاد وأخواتها :

استشهد سيبويه بالمثل « عَسَى الغُوَيْر أبؤساً » على أن العرب تُجري « عسى » مُجرى « كان » وتَحملها عليها[3] . ومن ثم جاء خبرها هنا مفرداً ، مع أن الأصل فيه أن يكون جملة فعلية مضارعية . ويعد ابن جني مجيء الخبر مفرداً في هذا المثل مِمَّا يَقْوَي في القياس، ويضعف في الاستعمال ، وذلك في الباب الذي عقده بعنوان « القول على الاطراد والشذوذ »[4] على أن لغير هذين من النحاة أقوالاً أخرى في

---

(١) الكتاب ١/١٣١ ، وانظر : ابن يعيش ١/٨١ ، ٨٢ .
(٢) حاشية الصبان ١/١٧٥ ، وابن يعيش ٢/٩٦ .
(٣) الكتاب ١/٤٧٨ .
(٤) الخصائص ١/٩٦ .

تخريج المثل ، لخصها الشيخ خالد الأزهري تلخيصاً حسناً[1] .

(لا) النافية للجنس :

ساق سيبويه في هذا الباب المثل « أَفَلاَ قِمَاصَ بالعَيْر ؟ » شاهداً على أن « لا » تعمل فيما بعدها مع سبقها بالاستفهام[2] .

تعدي الفعل ولزومه :

واستشهد سيبويه على وجوب حذف الفعل الناصب للمفعول به إذا كان يدل على أمر أو نهي أو دعاء ، بالأمثال « أمرَ مُبْكِيَاتِك لا أمرَ مُضْحِكَاتك » ، و « الظباءَ على البقر » ، و « كِلَيْهما وَتَمْراً » ، و « اللَّهمَّ ضَبُعاً وذئباً » ، و « فَاهَا لِفيك » لأن تقدير الكلام في هذه الأمثال على الترتيب هو : عليكَ أمرَ مبكياتك ، أو الزم أمرَ مبكياتك[3] ، وَخَلِّ الظباءَ على البقر[4] ، وأعطني كِلَيْهما وتمراً[5] ، واللهم اجمع أو اجعل فيها ضبعاً وذئباً[6] ، وجعل اللّه فا الداهية لفيك[7] .

المفعول المطلق :

واستشهد سيبويه بالمثل « أغُدَّةً كغدةِ البعير وموتاً في بيت سَلُولِيَّة » على وجوب حذف عامل المصدر بعد الاستفهام التوبيخي ، لأن تقدير المثل : أأُغَدُّ غدة كغدة البعير ، وأموت موتاً في بيت

---

(١) التصريح على التوضيح ١/٢٠٣ ، ٢٠٤ . وانظر : ابن يعيش ٣/١٢٢ ، ٧/١٤ ، ١١٦ ، ١١٩ .

(٢) الكتاب ١/٣٥٩ .

(٣) نفسه ١/١٢٩ .

(٤) نفسه ١/١٢٩ .

(٥) نفسه ١/١٤٢ ، وانظر ابن يعيش ٢/٢٧ .

(٦) نفسه ١/١٢٩ ، وانظر : ابن يعيش ١/١٢٦ .

(٧) نفسه ١/١٥٩ ، وانظر : ابن يعيش ١/١٢٢ .

سلولية[1] . وبالمثل « خيرَ ما رُدَّ في أهلٍ ومالٍ » على وجوب حذفه أيضاً إذا كان للدعاء ، لأن معناه يؤول إلى قولهم : قدمت خيرَ مقدم[2] . وبالمثل « مواعيدَ عُرْقُوبٍ أخاه بيَثْرِب » على جواز حذف عامل المصدر إذا كان معلوماً لدى السامع ، وقال في ذلك : « كأنه قال : واعدتَني مواعيدَ عرقوب أخاه ، ولكنه ترك « واعدتني » « استغناءً بما هو فيه من الخُلْف ، واكتفاءً بعِلْم من يُعْنَى بما كان بينهما قبل ذلك »[3] .

الحال :

واستشهد النحاة بالمثل « جاءوا الجَمَّاءَ الغفيرَ » على أن الحال إذا جاءت عن العرب معرفة وجب تأويلها بنكرة ، لأن أصلها التنكير ، وأوّلوا كلمة « الجَمَّاء » بنكرة في معناها ، وهي لفظ « جميعاً »[4] .

وبالمثل « شَتَّىٰ تَؤُوب الحَلَبَةُ » على جواز تقديم الحال على عاملها ، والحال هنا كلمة « شَتَّىٰ » وهي مقدمة على العامل وهو « تؤوب »[5] .

المفعول فيه :

واستشهدوا بالمثلين « لا أكلِّمُهُ القارِظَيْنِ » ، و« لا آتِيه الفرقَدَيْنِ » على أنه قد ينوب اسم العين عن اسم الزمان ، فيعرب مفعولاً فيه ، لأن أصل الكلام في المثل الأول : لا أكلمه مدة غيبة القارظين ، فحذف لفظ « مدة » وأنيب عنه بلفظ « غيبة » ، ثم حذف

---

(١) الكتاب ١/١٧٠ .
(٢) نفسه ١/١٦٥ .
(٣) نفسه ١/١٣٧ ، وانظر : ابن يعيش ١/١١٣ .
(٤) التصريح على التوضيح ١/٣٧٣ ، وانظر : ابن يعيش ٢/٦٣ ، ٦/٨٥ .
(٥) نفسه ١/٣٨١ ، والأشموني ٢/١٢٢ .

وأنيب عنه بلفظ « القارظَيْن »[1] وأصله في المثل الثاني : لا آتيه مدة بقاء الفرقدين ، ثم حدث له ما حدث للمثل السابق ، من الحذف والإنابة[2] .

واستشهد سيبويه بالمثل « هو مِنِّي دَرَجَ السَّيْلِ » على أن ما يشبه بالمكان غير المختص من الأماكن المختصة يعامل معاملته ، وينصب على الظرفية ، لأن تقدير المثل : هو مني مكانَ دَرَجِ السيلِ من السيل[3] .

التمييز :

واستشهدوا على إمكان مجيء تمييز النسبة بعد اسم الفعل بقولهم : « سَرْعَانَ ذا إهالةً » إذ إن « سَرْعان » بتثليث السين والبناء على الفتح اسم فعل ماضٍ بمعنى « سرع » و (ذا) فاعل له ، و « إهالة » تمييز محول عن الفاعل[4] .

الإضافة :

واستشهدوا بالمثل « تَفَرَّقُوا أَيَادِي سَبَا » على إمكان قيام المضاف إليه مقام المضاف في الحال ، إذ تقدير الكلام : تفرقوا مثلَ أيادِي سَبَا ، فحذفت كلمة « مثل » وهي الحال ، وقام المضاف إليها مقامها ، وقالوا : لا بد من هذا التقدير ، لأن الحال لا تكون معرفة بلا بتأويل[5] .

---

(١) التصريح ١/٣٣٨ .
(٢) شرح الأشموني ٢/٩٠ .
(٣) الكتاب ١/٢٠٦ .
(٤) الخصائص ٣/٣٩ ، وحاشية الصبان ٢/١٣٢ ، وابن يعيش ٤/٣٨ .
(٥) المغني ٩٧ ، وشرح الأشموني ٢/١٨٠ ، وابن يعيش ٤/١٢٣ .

اسم التفضيل :

واستشهدوا على إمكان مجيء هذه الصيغة سماعاً من وصف لا فعل له بقولهم : « أَلَصُّ من شِظَاظ » لأنه مأخوذ من قولهم : هو لِصٌّ ، أي سارق[١] . وعلى إمكان مجيئها من الفعل المبني للمجهول سماعاً أيضاً بقولهم : « أَشْغَلُ من ذات النِّحْيَيْن » إذ هو مأخوذ من الفعل « شُغِل » مبنياً للمجهول[٢] .

النداء :

استشهد الكوفيون بالأمثال « أطرقْ كَرَا إن النَّعامَ في القُرَى » ، و « افْتَدِ مخنوقُ » ، و « أصبحْ لَيْلُ » على جواز حذف حرف النداء إذا كان المنادى نكرة مقصودة كما في هذه الأمثال . أما البصريون فلا يجيزون حذف الحرف في هذا الموضع ، ويخرجون ما جاء من ذلك على الضرورة في الشعر ، والشذوذ في النثر[٣] .

الترخيم :

واستشهد ابن جني بالمثل « أطرقْ كَرَا إن النعامَ في القُرى » على جواز ترخيم المنادى ، أي حذف آخره ، ذلك أن أصل « كرا » كَرَوَان فحذف منه الألف والنون فصار « كَرَوَ » ثم قلبت واوه ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها طرفاً فصارت (كرا) وهو ترخيم على (لغة من لا ينتظر)[٤] .

نونا التوكيد :

واستشهد سيبويه على جواز توكيد المضارع بنوني التوكيد الثقيلة

---

(١) التصريح ٢/١٠١ .

(٢) نفسه ٢/١٠١ ، وابن يعيش ٦/٩٤ .

(٣) التصريح ٢/١٦٥ ، وابن يعيش ٢/١٦ .

(٤) الخصائص ٣/١١٨ .

والخفيفة على قلة بعد « ما » الزائدة التي لم تُسبق بإن الشرطية بالأمثال (ومِنْ عِضَةٍ ما يَنْبُتَنَّ شَكِيرُها » و« بعَيْنٍ مَا أَرَيَنَّكَ » و« بألَمٍ ما تُخْتَنَنَّه »[1] .

لــو :

واستشهدوا على جواز أن يلي « لو » الشرطية اسم مرفوع معمول لفعل محذوف وجوباً يفسره ما بعده بالمثل « لو ذاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي » إذ إن كلمة « ذات » فاعل لفعل محذوف على شريطة التفسير ، والتقدير ، لو لطمتني ذات سوار[2] .

اسم الفعــل :

استشهد ابن جني بالمثل « دُهْدُرَّيْنِ سَعْدُ القَيْن » على أن « دُهْدُرَّيْن » اسم فعل بمعنى (بَطَل) ومعناه : هَلَكَ سعدُ القين[3] .

الإبــدال :

واستشهد بالمثل « لم يُحْرَم منْ فُصِدَ لَهُ » على جواز إبدال الزاي من الصاد الساكنة قبل الدال ، حيث يُروى برواية أخرى هي « فُزْدَ له »[4] .

***

واستشهد سيبويه بالمثل « اسْتَنْوَقَ الجملُ » على أن الهمزة

---

(١) الكتاب ٢/١٥٣ ، وابن يعيش ٧/١٠٣ .

(٢) المغني ٢٩٦ ، ٧٠٢ ، والتصريح ٢/١٥٩ ، ٩/٥ ، ٤٢ ، وابن يعيش ١/٨١ ، ٨٢ .

(٣) الخصائص ٣/٣٩ .

(٤) الخصائص ٢/١٤٤ ، وانظر : ابن يعيش ١٠/٥٢ ، ٥٣ .

والسين والتـاء تفيد التحـول من حال إلى حـال[1] ، وبالمثـل « أَسْمَنت وأَكرَمْتَ فارْبِطْ » على أن الهمزة تأتي بمعنى « صاحب كذا »[2] .

* * *

(١) الكتاب ٢ / ٢٤٠ .
(٢) نفسه ٢ / ٢٣٦ .

(٥)
معانـي الأمثـال
بين الوضوح والغموض

تتفاوت الأمثال تفاوتاً كبيراً في وضوح المعنى وخفـائه ، فبعضهـا يصـل إلى درجة من الـوضوح يفهمـه معهـا خـاصـة النـاس وعـامتهم ، وبعضهـا يكون غامضاً خفياً حتى يعجز عن فهمه خاصة العلماء . وبين هذين النوعين تقع أمثال ، تتفـاوت بدورهـا في هذا الأمـر . ويمكن أن نرد خفاء المعنى في الأمثال العربية إلى واحد من أسباب ثلاثة هي :

١ ـ **قلة دوران المثل في الكلام** : وذلك أن تردد المثـل في كلام النـاس وشدة دورانـه على ألسنتهم وأقلامهم يُحـدث ألفة بينـه وبينهم ، ويـدعوهم إلى معـرفة مـرماه ومغـزاه ، على حين لا يَتهيـأ ذلـك للمثـل الخامل الذي لا يدور ، إذ يظل غريباً عنهم ، مبتوتَ الصلة بهم .

ويمكن أن نستدل على ذلك بأن كثيراً من الأمثال العربية القديمـة قد توارى عن لغتنا المعاصرة ، وانزوى في بـطون الكتب ، حتى أصبح لا يخطر لنا على بال ، وما ذلك إلَّا لأننا لا نستخدمه في لغتنا .

وقد فطن القلقشندي إلى هذا الرأي فقال عن الأمثـال : « ثم هي على ضربين : قريب الفهم بـظهور معنـاه ، وكثرة دورانـه بين الناس ، وبعيد الفهم لخفائه وقلة دورانه بين النـاس ، فالقـريب من الفهم الكثير الدوران على الألسنة مثل قولهم « عنـدَ الصباحِ يَحمـد القومُ السُّـرَى »

وقولهم : « أساء سمعاً فأساء جابةً » والبعيد الفهم مثل قولهم : « إن يَبْغِ عليكَ قومُك لا يَبْغِ القمرُ »[1] .

٢ - **غرابة ألفاظه** : فالأمثال القديمة شأنها شأن الشعر القديم ، يشتمل كل منهما على كثير من غريب الألفاظ ، وحُوشِيّ الكلمات التي لا نألفها الآن ، ولا نأنس لها ، ومن ثم تخفى علينا معانيها . وهذا هو أحد الأسباب التي دعت علماء اللغة منذ عهد مبكر إلى جمع الأمثال وتدوينها ، وتفسيرها وشرح غريبها .

٣ - **جهل أصل المثل** : وربما كان هذا العامل أهم عوامل خفاء المعنى ، بل وإشكاله في الأمثال العربية ، وكان السبب كذلك في عجز فطاحل علماء اللغة عن تحديد المراد من بعض الأمثال ، أو اضطرابهم في ذلك اضطراباً شديداً ، ويمكن أن نقسم الأمثال التي أثر فيها هذا العامل ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أمثال ضاعت أصولها ، وبضياعها ضَلَّ العلماء ، لأن ضياع أصل المثل يعود على المثل نفسه بالخفاء والغموض ، بل الإشكال ، ومنها قولهم : « إلَّا دَهٍ فَلَادَهٍ » فقد ذهب العلماء في البحث عن أصله وتفسير معناه مذاهب شتى ، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً شديداً[2] ، حتى أن الأصمعي اكتفى في تفسيره بقوله : « ولا يُدْرَىٰ ما أصله »[3] .

ومنها قولهم : « دُهْدُرَّيْنِ سَعْدُ القَيْن » واختلاف العلماء فيه

---

(١) صبح الأعشى ١/٢٩٧ .

(٢) جمهرة الأمثال ١/٩٤ ، ومجمع الأمثال ١/٤٥ ، واللسان (دهده) .

(٣) جمهرة الأمثال ١/٩٤ ، واللسان (دهده) .

كاختلافهم في المثل السابق[1] ، وكذلك رأيُ الأصمعي الـذي قال في تفسيره : « ومعناه الباطلُ ، ولا أدري ما أصله »[2] .

ولم يكن الأصمعي وحده يجهل أصل هذين المثلين ، بل كذلك كـان الأزهري إذ يقـول : « وقـد حكيتُ في هـذين المثلين مـا سمعتـه وحفـظته لأهـل اللغة ، ولـم أجـد لهما في عـربية ولا عجميـة إلى هـذه الغاية أصلاً صحيحاً »[3] .

ومن الأمثـال المشكلة قولهم : « بعَيْن ما أُرينَّك » فحتى الآن لم يهتد العلماء إلى أصل صحيح لـه ، ومن ثم تخبطوا في تفسيـره ، حتى قال أبو هـلال العسكري فيـه : « معناه اعجـل ، وهو من الكـلام الذي عرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه ، وهـذا يدل على أن لغـة العرب لم ترد علينا بكمالها ، وأن فيها أشياء لم تعرفها العلماء »[4] .

ومنها قولهم : « ما له قُذَعْمَلَةٌ ولا قِرْطَعْبَـةٌ » ، و « ما لـه سَعْنَةٌ ولا مَعْنَةٌ » فإن القاسم بن سلام قد صرَّح بأن العلماء لا يدرون أصل هـذين المثلين ، حيث قال : « فأما القـذعملة والقرطعبة والسعنـة والمعنة فمـا وجدنا أحـداً يدري مـا أصولهـا ، غير أن الأصمعي قـال : معناه أنـه لا شيء له »[5] .

وقد اكتفى أبو هـلال العسكري في تفسيـر المثل « شيئـاً مَا يـريدُ السَّـوْطُ إلى الشقراء » بقـوله : « قـال الأصمعي : معنـاه : إنـك لَتَبْتَغِي

---

(١) جمهرة الأمثال ١/٤٤٨ ، والدرة الفاخرة ٢/٥٠٦ ، والمستقصى ٢/٨٣ .

(٢) المصادر السابقة .

(٣) اللسان (دهدر) .

(٤) جمهرة الأمثال ١/٢٣٦ .

(٥) أمثال أبي عبيد ٣٨٩ .

شيئاً ، و « ما » ههنا زائدة ، ولم يذكر أصله »[1] .

أما الميداني فقد روى عن أبي زيد أصلاً لهذا المثل فقال : « أي يطلب العَدْوَ ، وأصله أن رجلاً ركب فرساً له شقراء ، فجعل كلما ضربها زادته جرياً . يضرب لمن طلب حاجة ، وجعل يدنو من قضائها والفراغ منها ، و « ما » صلة ، قاله أبو زيد »[2] .

وفي فن الأمثال التي على وزن (أفعل من) وردت عدة أمثال مجهولة الأصل فاختلف العلماء في تفاسيرها ، ومنها قولهم : « أحمقُ من راعي ضأن ثمانين » فقد رَوى حمزة الأصبهاني في تفسيره عدة أقوال متضاربة ، رفض بعضَها لأنه غير مفهوم ولا معقول ، وذلك حيث يقول : « قيل ذلك لأن الضأن تتفرق فيحتاج راعيها إلى جمعها ، ولا أعرف ما هذا التفسير ، لأن تفرق الضأن لا يوجب حمقَ راعيها ، ولا يدل عليه . والصحيح « أشقى من راعي ضأن ثمانين » ولا أعرف لم خُصَّت بالثمانين هنا »[3] .

ومنها قولهم : « أخيلُ من تَغْلب في اسْتِه عِهْنَةٌ » ويقول حمزة أيضاً في تفسيره : « وأما قولهم : « أخيلُ من ثعلب في اسْتِه عِهْنَة » فمثلٌ رواه محمد بن حبيب ، ولم يفسره ، ولا أعرف معنى المثل »[4] .

وقولهم : « أَتْبَعُ من تَوْلَبٍ » وفيه يقول أبو هلال العسكري : « والتَّوْلَب : ولد الحمار ، وولد الفرس يتبع أمه ، وكذلك ولد البقرة ،

---

(١) جمهرة الأمثال ١/ ٥٥١ .
(٢) مجمع الأمثال ١/ ٣٦٦ .
(٣) الدرة الفاخرة ١/ ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٤) نفسه ١/ ١٩٣ .

ولا أعرف لم خُصَّ التولب بذلك »[1] .

ومنها قولهم : « أغزلُ من فُرْعُلٍ » وفي تفسيره يقول أبو هلال : « من الغَزْل ، ولا أدري ما غَزْل الفرعل ، وهو ولد الضبع »[2] .

وقولهم : « أشأمُ من وَرْقاء » إذ يقول فيه حمزة الأصبهاني : « فإنهم يَعنون الناقة ربما نَفَرت فذهبت في الأرض . وهذا المثل ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام ولم يقل فيه أكثر من هذا »[3] .

وقولهم : « أسرقُ من تَاجَة » وفيه يقول حمزة أيضاً : « حَكى هذا المثل محمد بن حبيب ، ولم يَنسب الرجل ، ولا ذكر له قصة»[4] .

النوع الثاني : أمثال لها أصول باقية ، ولكن يأتيها الخفاء من ناحية جهل الناس بهذه الأصول . وهذا النوع كثير ، إذ يشمل كل الأمثال التي ترتبط بحوادث وقصص ، فمثل هذه الأمثال لا يمكن فهمها على وجوهها الصحيحة إلَّا بعد الوقوف على أصولها ، ومن ثم كان من الضروري على من يريد أن يقف على معاني الأمثال العربية ويستخدمها في كلامه أن يرجع إلى كتب الأمثال لمعرفة هذه الأصول ، وقد عبر القلقشندي عن ذلك بقوله : « اعلم أن الكاتب يحتاج إلى النظر في الأمثال الواردة عن العرب ، نثراً وشعراً ، والنظر في الكتب المصنفة في ذلك . . . فيستشهد به في موضعه ، ويورده في مكانه ، عارفاً بأصل ذلك ، وما بني عليه ، وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس ، معلومة عندهم ، وهذه الألفاظ الواردة في

---

(١) جمهرةالأمثال ١/٢٨٢ .

(٢) نفسه ٢/٨٦ .

(٣) الدرة الفاخرة ١/٢٥٣ ، وأمثال أبي عبيد ٣٧٥ .

(٤) نفسه ١/٢٣١ .

المثل دالة عليها ، معبرة عن المراد بها ، بأخصر لفظ وأوجزه ، ولولا تلك المقدمات المعلومة ، والأسباب المعروفة لما فُهم من هذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطولات »[1] . ثم مثّل لذلك بقوله : « ومن المعلوم أن قول القائل : « إنْ يَبْغِ عليكَ قومُك لا يَبْغِ القمرُ » إذا أُخذ على حقيقته من غير نظر إلى القرائن المنوطة به ، والأسباب التي قيل من أجلها ، لا يعطي من المعنى ما قد أعطاه المثل ، بل ما كان يفهم من هذا القول معنى يفيد ، لأن البغي هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحداً ، فكان يصير معنى المثل : إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر ، وهو كلام مختل المعنى ليس بمستقيم »[2] .

النوع الثالث : أمثال تشتمل على ألفاظ من الغريب تحتمل أكثر من وجه ، وهذا النوع كثير أيضاً ، ويدخل فيما سماه ابن جني « تَوَجُّه اللفظ الواحد إلى معنيين اثنين »[3] وقال فيه : « وعلى ذلك عامة ما جاء في القرآن وفي حديث النبي ﷺ ومَنْ بعده رضوان اللّه عليهم ، وما وردت به الأشعار وفصيح الكلام ، وهذا باب في نهاية الانتشار »[4] .

ومن هذه الأمثال قولهم : « ما يَعْرِفُ هِرًّا من بِرٍّ » فقد رَوى ابن منظور في تفسيره تسعة أقوال[5] هي : « ما يعرف من يَهُرّه ، أي يكرهه ، ممن يَبَرُّه ، والبِرُّ : اللطف ، والهِرُّ : العقوق ، وهو من الهَرِير . والبِرّ : الإكرام ، والهِرّ : الخصومة . والهر : السِّنَّوْر ، والبر :

---

(1) صبح الأعشى ١/٢٩٥ .

(2) نفسه ١/٢٩٧ .

(3) الخصائص ٣/١٦٤ .

(4) نفسه ٣/١٦٦ .

(5) اللسان (هرر) .

الفأر . ولا يعرف هَاراً من بَاراً لو كُتِبَتْ له . والهر : هِرْهِر ، وهو سوق الغنم ، والبِـر : بِرْبِـر ، وهو دعـاؤها . والهـر : دعـاء الغنم ، والبـر : سَوْقها . وما يعرف الهَرْهَـرة ، وهي صـوت الغنم ، من البَرْبَـرة ، وهـي صوت المعزِي ، والهر : دعاء الغنم إلى العلف ، والبـر : دعاؤهـا إلى الماء.

ومنها قولهم : « ما يَعْرِفُ قَبِيلاً من دَبِير »(١) فقد روى العلماء في معناه تسعة أقـوال أيضاً ، منهـا : لا يعرف الأمـر مقبلاً ولا مـدبراً ، ولا يعرف القبيل من الفتل ، وهو ما أُقبل به على الصدر ، من الدبير ، وهَو ما أُدْبر به عنه . ولا يعرف القبيل ، وهو القُبُل ، من الدبير وهو الدُّبُـر ، ولا يعرف القبيل ، وهو القُطْن ، من الـدبير ، وهـو الكَتَّان . ولا يعـرف نسب أمه من نسب أبيه . ومآل الكلام في كل هذا أنه لا يعرف شيئاً .

ومنها قولهم : « جاء قبل عَيْرٍ وما جَرَىٰ »(٢) وروي في معناه سبعة أقوال ، منها أن المراد بالعَيْر هنا إنسان العين ، وبجريه حركتـه للنظر ، يعني أنه بَكَّر قبل انتباه العِيون . ومنها أن المراد بالعَيْر حمارُ الـوحش ، وإنما خصوه لأنه أحذر ما يُقنص ، وإذا كان كذلك كان أسرعَ جرياً من غيره ، فضرب بـه المثل في السـرعة . وأيًّا ما كـان المعنى فإن المثـل يضرب للتبكير والسرعة .

ومنها قولهم : « جاء بالطِّمِّ والرِّمِّ »(٣) وفي معناه وردت ستة أقوال فقد قيل : الطِّمّ : البحر ، والرِّمّ : الثَّرَى ، وقيـل : الطم : الـرَّطْب ،

---

(١) اللسان (دبر ، قبل) .

(٢) جمهـرة الأمثـال ٢/١٢١ ، والـدرة الفـاخـرة ١/٣٢٠ ، ومجمـع الأمثـال ٢/٩٦ ، واللسـان (عير) .

(٣) جمهرة الأمثال ١/٣١٥ ، ومجمع الأمثال ١/١٦١ ، واللسان (رمم ، طمم) .

والرم : اليابس ، وقيل : الطم : ما حمله الماء ، والرم : ما حمله الريح . ومعناه على كُلٍّ : جاء بالكثرة ، أو جاء بالكثير والقليل .

ومنها قولهم : « هذا أمرٌ لا يُنَادَىٰ وليدُه »(١) وفي معناه ستة أقوال أيضاً ، منها أنه أمر عظيم ، لا يُدْعَى فيه الصغار ، وإنما يدعى الكبار . ومنها أنه أمر كامل لا خَلَلَ فيه ولا اضطراب ، وقد قام به الكبار ، فاستُغني بهم عن الصغار . وقيل : إن أصله في الشدة والجدب ، يصيب القوم حتى يَشغل الأمَّ عن وليدها فلا تناديه ، ثم جعل مثلاً لكل شدة وأمر عظيم .

وقولهم : « لا يَعْرِفُ الحَيَّ من اللَّيِّ »(٢) في معناه : أربعة أقوال ، فقد قيل : الحيّ : الكلام الظاهر ، والليّ : الكلام الخفي . وقيل : الحي : الحَوِيَّة ، وهي الكساء يُخاط ويجعل مركباً من مراكب النساء ، والليّ : لَيُّ الحَبْل وفتله . وقيل : الحي : الحق ، والليّ : الباطل . ويضرب للأحمق الذي لا يعرف شيئاً .

وقولهم : « أجبنُ من صَافِرٍ »(٣) روي فيه أربعة أقوال ، فقيل: إن الصافر هو كل ما يَصْفِر من الطير ، والصفير لا يكون في سباع الطير ، وإنما يكون في صغارها وما يصاد منها . وقيل : إن الصافر طائر يتعلق من الشجر برجليه ، ويُنَكِّس رأسه خوفاً من أن ينام فيؤخذ ، فيظل يصفر منكوساً طول ليلته . وقيل : إن المراد بالصافر هنا هو الرجل الذي يصفر بالمرأة للرِّيبة ، وإنما يجبن لأنه وَجِلٌ مخافةَ أن يُطلع على أمره ، وقيل غير هذا .

---

(١) أمثال أبي عكرمة ، ورقة ٣ ، وجمهرة الأمثال ٢/٤٠٧ ، والخصائص ٣/١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) جمهرة الأمثال ٢/٤١٩ ، واللسان (حيا) .

(٣) الدرة الفاخرة ١/١١١ ، واللسان (صفر) .

وقولهم : « أسمحُ من لافظة »[1] ورد فيه خمسة أقوال ، فقيل : هي العَنْز التي تُشْلَىٰ للحَلْب ، فتجيء لافظةً جِرَّتَها فرحاً منها به . وقيل: هي الحمامة ، لأنها تُخرج ما في بطنها لفرخها . وقيل : هي الديك ، لأنه يأخذ الحبة بمنقاره فلا يأكلها ، ولكن يلقيها إلى الدجاجة ، والهاء في « لافظة » على هذا القول للمبالغة . وقيل : هو البحر لأنه يلفظ بكل مافيه من العنبر والجواهر ، والهاء للمبالغة أيضاً . وقيل: هي الرَّحَىٰ ، لأنها تلفظ ما تطحنه . والأمثال من هذا النوع كثيرة كثرة مفرطة .

(١) الدرةالفاخرة ١/٢٢٨ ، ١/٢٢٨ ، واللسان (لفظ) .

الفصل الثاني

الدراسة الأدبية

(١)
مكانة الأمثال بين فنون الأدب

الأمثال حكمة الأمم والشعوب ، تبدو فيها نظراتها إلى الحياة ، ومذاهبها في الأخلاق الفردية والعلاقات الاجتماعية ، كما أنها تكشف عن جوانب شتى من حياتها اليومية ، وكثير من عاداتها ومعتقداتها ، وهي بهذا تفضل سائر الفنون الأدبية ، التي لا تستوعب هذه الأمور كما تستوعبها الأمثال ، ولا تفصِّلها تفصيلها .

والأمثال لغة الشعب كله ، بجميع طبقاته ومستوياته الفكرية ، فمنها ما يصدر عن الخاصة كالحكماء والعلماء والشعراء ، ومنها ما يصدر عن العامة ، وهم سواد الناس ، ولهذا نرى فيها حياة الرجل العادي ، ومختلف شؤونه واهتماماته وأعماله .

وهي في هذا غير الشعر الذي لا يصدر إلاَّ عن طبقة ممتازة من الشعب ، أُوتيت مواهب فنية ، تمكنها من صنعة الشعر الذي يعتمد على الخيال والوزن والقافية ، ويهتم بأمور لا تهم الرجل العادي ، كالفخر والمدح والرثاء والهجاء ، ومن ثم جاز للدارسين المعاصرين أن

يعدُّوا الأمثال من قبيل الآداب والفنون الشعبية ، لدلالتها على حياة الشعب ، وصدقها في هذه الدلالة .

والأمثال صادقة في التعبير عن الحياة ، لا تتأثر في هذا بعاطفة ، ولا تجنح إلى خيال أو مبالغة أو تهويل ، وإنما تصف الواقع بما هو عليه ، وبعد تدبرٍ فيه وتأمل له ، وذلك عكس الشعر الذي يقوم على العواطف الثائرة ، والأخيلة المجنَّحة ، والمبالغات الممقوتة التي تزيِّف الواقع وتشوِّهه أحياناً ، ولهذا كانت الأمثال أصدق منه لهجة ، وأكثر واقعية .

وللأمثال قداستها في نفوس الناس ، ولها سلطانها عليهم ، بما تتضمنه من أحكام يرتضونها ، ويُجمعون على الإذعان لها ، حتى إنهم يستشهدون بها في شتى المواقف ، فتصدع بالحق ، وتحسم الخلاف ، أو كما يقولون عنها : تصيب المَحَزَّ ، وتطبِّق المَفْصل .

وقد عرف العرب ذلك عنها فاستكثروا منها في كلامهم ، شعراً ونثراً ، يقول الجاحظ : « وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف ، فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلَّا لما فيها من المرفق والانتفاع ، ومَدار العلم على الشاهد والمثل »[١] .

ولا تجد كلاماً أكثر دَوَراناً على الألسنة والأقلام من الأمثال ، ومردُّ ذلك إلى أمرين ، هما : ما تتضمنه الأمثال من خبرات ومعان صائبة ، وما تمتاز به على سائر أنواع الكلام من إيجاز شديد . وهاتان الميزتان جعلتاها أخف على الألسنة ، وأعلق بالأسماع والأفئدة ، كما جعلتاها أيضاً أطول عمراً من غيرها في نفوس الناس وذواكرهم ، إذ

(١) البيان والتبيين ٢ / ١٨٠ .

كلما كان الكلام طويلا ، أو تافه المعنى ، أسرع إليه النسيان ، بل الضياع .

وتخلع الأمثال على الكلام روعة وبهاء ، وتَكسبه فخامة وقبولاً ، تجعله يصافح المسامع ، ويلامس القلوب ، ويقع من النفوس موقعاً كريماً . وقد فطن إلى هذا علماء البلاغة ، فقال أبو هلال العسكري : « ثم إني ما رأيتُ حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان ، بعد سلامته من اللحن ، كحاجته إلى الشاهد والمَثَل ، والشَّذْرة والكلمة السائرة ، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيماً ، ويكسبه قبولاً ، ويجعل له قدراً في النفوس ، وحلاوة في الصدور ، ويدعو القلوب إلى وَعْيه ، ويبعثها على حفظه ، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة ، والاستظهار به أوانَ المجادلة في ميادين المجاولة ، والمصاولة في حَلَبات المقاولة ، وإنما هو في الكلام كالتفصيل في العِقْد ، والتنوير في الروض ، والتسهيم في البُرْد »[١] .

والأمثال نصوص لغوية أصيلة ، تحمل الكثير من خصائص اللغات وصفاتها ، في مفرداتها وتراكيبها ، ولهذا يسوقها العلماء جنباً إلى جنب مع النصوص الأخرى ، شواهدَ على اللغة ، مفرداتٍ وتراكيب. وقد فَصَّلنا الكلام على هذا الموضوع في الفصل الأول من هذا الباب .

وإذ كان للأمثال وظيفتها التي لا تنكر في التأثير والإقناع ضربها اللّه تعالى في كتابه العزيز ، بل أكثر من ضربها في مواطن إقناع الناس وموعظتهم وتبصيرهم بما ينفعهم أو يضرهم .

---

(١) مقدمة « جمهرة الأمثال » .

وكان الأنبياء عليهم السلام يستخدمون الأمثال في دعواتهم ، يؤيدون بها ما يدعون إليه ، ويكشفون للناس عن وجوه الحق والباطل ، والخير والشر .

يقول الجاحظ : « ولن تجدوا وصايا أنبياء اللَّه إلَّا مُبَيَّنة الأسباب ، مكشوفة العِلَل ، مضروبة معها الأمثال »[1] وكان لمحمد ﷺ كثير من الأمثال السائرة ، بل كان يتمثل بأمثال العرب في الجاهلية .

وكان الخطباء في الجاهلية والإسلام يتمثلون بالأمثال ، ويحتجون بها في خطبهم ، وقَلَّ أن تجد خطبة لهم خالية من مثل أو أكثر . وكذلك كان يفعل الكتاب في رسائلهم وسائر كتاباتهم . وربما كانت رسالتا ابن زيدون الجِدِّية والهَزْلية أوضح دليل على أن الأمثال إذا تخلَّلت الكتابة منحتها الكثير من أسباب القوة والبلاغة ، وضمنت لها بعض أسباب البقاء والخلود . أما ما اقتبسه الشعراء من الأمثال النثرية فكثير ، وسيأتي الحديث عنه إن شاء اللَّه .

لا غرو بعد كل هذا أن يهتم العلماء قديماً وحديثاً بالأمثال ، جمعاً وتدويناً، ودراسة وتفسيراً ، وأن تنشط في العصر الحاضر حركة تدوين الأمثال العامِّيَّة ، ودراستها واستخلاص حياة الشعوب وصورها الاجتماعية منها .

---

(١) رسائل الجاحظ (رسالة المعاش والمعاد ١ /٩٧) .

(٢)

بلاغة المثل

المثل من أساليب الاستعارة التمثيلية التي أساسها تشبيه حالة بحالة ، أو هيئة بهيئة كما يقول علماء البلاغة . وهذه الاستعارة أقوى أساليب البيان ، وأعلاها كَعْباً في البلاغة ، لأنها تجسِّد المعاني المعقولة وتشخِّصها ، وتُخْرجها في صور حسِّية تزخر بالحركة والألوان والحياة .

وإذا حللنا مثلاً كالذي يقول : « كالمُسْتَجِير من الرَّمْضاء بالنار » وجدنا أن مضربه هو الرجل يفر من الأمر إلى ما هو شر منه ، وهو أمر معقول ، قد يَعْسُر تصوره . أما مورده فهو الرجل يفر من حر الرمضاء ، وهي التراب الحار ، فيقع فيما هو أشد حرارة منه ، وهي النار ، وتلك صورة حسية، تقع عليها أبصارنا، وتألفها سائر حواسنا ، فإذا استعرناها لحالة الرجل الأول كنا قد بَيَّناها أحسن بيان ، وأبرزناها من الخفاء إلى الوضوح ، وهكذا تفعل الأمثال بالمعاني المعقولة .

وقد شرح مَسْكَوَيْه (ت ٤٢١ هـ) وظيفة التمثيل وضرب الأمثال في الكلام شرحاً وافياً إذ قال فيما نقله عنه أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠ هـ) : « إن الأمثال إنما تضرب فيما لا تدركه الحواس مما تدركه ، والسبب في ذلك أُنْسُنا بالحواس ، وإلْفُنا لها منذ أول كونها ، ولأنها مبادىء علومنا ، ومنها نرتقي إلى غيرها ، فإذا أخبر الإنسان بما

لا يدركه ، أو حُدِّث بما لم يشاهده ، وكان غريباً عنه ، طلب له أمثالاً من الحس ، فإذا أُعطي ذلك أنس به ، وسكن إليه لإلْفه له . وقد يعرض في المحسوسات أيضاً هذا العارض ، أعني أن إنساناً لو حُدِّث عن النعامة والزرافة والفيل والتمساح لطلب أن يصوَّر له ، ليقع بصره عليه ، ويحصل تحت حسه البصري ، ولا يقنع فيما طريقُه حِسُّ البصر بحس السمع حتى يرده إليه بعينه . وهكذا الأمر في الموهومات ، فإن إنساناً لو كُلِّف أن يَتوهم حيواناً لم يشاهد مثلَه لسأل عن مثله ، وكلَّف مخبرَه أن يصوره له ، مثل عنقاء مُغْرِب ، فإن هذا الحيوان ، وإن لم يكن له وجود ، فلا بد لمتوهمه أن يتوهمه بصورة مركبة من حيوانات قد شاهدها . فأما المعقولات فلما كانت صورها ألطفَ من أن تقع تحت الحس ، وأبعدَ من أن تُمَثَّل بمثال حسي إلا على جهة التقريب صارت أحرى أن تكون غريبة غير مألوفة ، والنفس تسكن إلى مَثَل وإن لم يكن مِثْلاً ، لتأنس به من وحشة الغربة ، فإذا ألفتها ، وقويت على تأملها بعين عقلها من غير مثال سهل حينئذ عليها تأمل أمثالها »[1] .

وللعلماء في بلاغة المثل وأسبابها أقوال أخرى ، نُورد هنا بعضها ، يقول ابن المقفع (ت : ١٤٢ هـ) : « إذا جُعِل الكلام مثلاً كان أوضحَ للمنطق ، وآنقَ للسمع ، وأوسعَ لشعوب الكلام »[2] . ويقول المبرد (ت ٢٨٦ هـ) : « والكلام يجري على ضروب ، فمنه ما يكون في الأصل لنفسه ، ومنه ما يُكْنَى عنه بغيره ، ومنه ما يقع مثلاً فيكون أبلغ في الوصف »[3] . ويقول الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، في معرض الكلام عن المثل القرآني : « لما جاء بحقيقة صفتهم عَقَّبها

---

(١) الهوامل والشوامل ٢٤٠ .

(٢) مقدمة « مجمع الأمثال » .

(٣) الكامل ٦٧٤ .

بضرب المثل زيادةً في الكشف ، وتتميماً للبيان . ولضرب الأمثال ، واستحضار العلماء المُثُل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى يريك المتخيَّل في صورة المحقَّق ، والمتوهَّم في معرض المتيقَّن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألدِّ ، وقمع لسَوْرة الجامح الأَبِيِّ ، ولأمرٍ ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثالَه ، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء »[1] ويقول الشيخ محمد رشيد رضا : (ت ١٩٣٥ م) : « وذلك أن المعاني الكلية تعرض للذهن مجملة مبهمة ، فيصعب عليه أن يحيط بها ، وينفذ فيها فيستخرج سِرَّها ، والمثل هو الذي يفصّل إجمالها ، ويوضح إبهامها ، فهو ميزان البلاغة وقِسْطاسها ، ومِشْكاة الهداية ونبراسها »[2] .

وإذا كانت هذه الأقوال قدتناولت جانباً واحداً من جوانب بلاغة المثل ، وهو إبرازه للمعاني الخفية في صور جلية حسية فإن هناك أقوالاً تعرضت لجوانب أخرى لهذه البلاغة ، منها قول القاسم بن سلام (ت : ٢٢٤ هـ) : « والأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ ما حاولت في المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه »[3] ، وقول إبراهيم النظّام (ت ٢٣١ هـ) : « يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية فهو نهاية

(١) الكشاف ١/ ٥٤ .
(٢) تفسير المنار ١/ ٢٣٧ .
(٣) مقدمة « كتاب الأمثال » له .

البلاغة »[1] . وقول أبي حيان التوحيدي : « قال أبو سليمان : وأما بلاغة المثل فأن يكون اللفظ مقتضباً ، والحذف محتملاً ، والصورة محفوظة ، والمرمى لطيفاً ، والتلويح كافياً ، والإشارة مغنية ، والعبارة سائرة »[2] .

ونستطيع أن نستخلص من الأقوال السابقة عناصر بلاغة المثل وأسبابها ، وهي : الإيجاز ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، والذيوع والسيرورة .

أولاً : الإيجاز :

ليس في كلام الناس أوجزُ من الأمثال ، إذ هي كلمات قليلة يسيرة ، تحمل الكثير من المعاني ، وتطوي الكثير من التفصيلات ، وتستثير على قلّتها أحداثاً تاريخية ذات وقائع متعددة . وهذا الإيجاز في الأمثال أبرزُ صفاتها ، وأخص خصائصها ، وبه تمتاز على ما عداها من فنون الأدب ، ومن ثم لا يُغفله العلماء في تعريف المثل ، بل يشترطونه فيه . ومن ناحية أخرى أفصح بعض العلماء عن هذه الميزة بعبارات مختلفة فقال أبو عبيد البكري : « والأمثال مبنية على الإيجاز والاختصار ، والحذف والاقتصار »[3] ، وقال أيضاً : « والأمثال موضع إيجاز واختصار ، وقد ورد فيها من التوسع والحذف ما لم يجيء مثله إلا في أشعارهم »[4] وقال الزمخشري : « حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى ، وقصرت العبارة فأطالت المغزى ، ولَوَّحت فأغرقت في التصريح ، وكَنَتْ فأغنت عن الإيضاح »[5] .

---

(١) مقدمة « مجمع الأمثال » .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٤٠ .
(٣) فصل المقال ٤٧ .
(٤) نفسه ٩٧ .
(٥) مقدمة « مستقصى الأمثال » .

وقال القلقشندي : « وأما الأمثال الواردة نثراً فإنها كلمات مختصرة ، تُورَد للدلالة على أمور كلية مبسوطة . . . وليس في كلامهم أوجز منها . ولما كانت الأمثال كالرموز والإشارة التي يُلَوَّح بها على المعاني تلويحاً صارت من أوجز الكلام ، وأكثره اختصاراً »[1] .

وتناول أبو هلال العسكري هذا الإيجاز تناول الناقد الأديب ، البصير بوجوه البلاغة وأسبابها ، حيث يقول : « ولمَّا عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام ، وتدخل في جُلِّ أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ ، ليخفَّ استعمالها ، ويسهل تداولها ، فهي من أجلِّ الكلام وأنبله ، وأشرفه وأفضله ، لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ، ويَسِيرِ مُؤْنتها على المتكلم ، مع كبير غايتها ، وجسيم عائدتها . ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب ، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب ، والحفظ موكَّل بما راع من اللفظ ، وندر من المعنى »[2] .

وعلينا الآن أن نتبيَّن مدى الإيجاز في الأمثال العربية ، وسنرى أن كثيراً من هذه الأمثال يتكون من كلمتين أو ثلاث ، ثم يؤدي ، على الرغم من هذا ، معاني كلية ، ويحمل أحكاماً عامة وآراء في الحياة ، لا ينهض بها إلا مطوَّل الكلام ، ومبسوط العبارة .

وإذا حَلَّلنا الأمثال « السرُّ أمانة ، العَوْدُ أحمد ، الخَلاء بَلاء ، الحرب غَشُوم ، آخرُ الدواء الكَيُّ ، مَقتل الرجل بين فَكَّيْه ، أَعْذَر مَنْ أنذر ، مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ ، من أجدب انْتَجع » وجدنا كلاً منها ينطوي

(1) صبح الأعشى ١/٢٩٥ .

(2) مقدمة « جمهرة الأمثال » .

على معنى من المعاني الكلية التي تحتاج إلى كلام كثير لبيانها وتوضيحها .

ومن الأمثال ما يَختصر الكلام ، ويَحذف منه ، مع محافظته على المعنى ، وعدم الإخلال بشيء منه ، كقولهم : « التمرُ في البِئْر » إذ أصل هذا المثل أن منادياً كان يقوم في الجاهلية على أُطُم من آطام المدينة حين يُدْرِك البُسْر فينادي « التمرُ في البئر » وهو يريد أن يقول للناس : أكثروا من سَقْيِ نخلكم ، فإن من سَقَى وجد عاقبة سَقْيه في تمره[١] . وهكذا اختصَر المثل الكلام ، وعَبَّر بثلاث كلمات عن أفعال يحتاج التعبير عنها إلى كثير من الألفاظ .

ومعظم الأمثال العربية مرتبط بأصول وأحداث ذات تفصيلات ووقائع متعددة . وفي هذا النوع يبدو الإيجاز بصورة أكثرَ وضوحاً ، فالمثل «سَبقِ السيفُ العَذَل »[٢] أصله أن ضَبَّة بن أُدٍّ كان له ولدان يقال لهما : سَعْد وسُعَيد ، خرجا يَرعيان إبلاً له ، فاعترضهما شاب وقتل سُعَيداً ، وسَلب بردتَه وسيفه ، وعاد سعد وحده بالإبل ، ثم إن ضبة خرج يسير في الأشهر الحرم فعثر عفواً على قاتل ولده فقتله ، فلما لامه الناس على قتله في الشهر الحرام قال لهم المثل .

وحين نتمثل بهذا المثل في الأمر الذي لا يُستطاع رَدُّه نكون قد اختصرنا هذه الحادثة بوقائعها ، وأومأنا إليها بثلاث كلمات هي كلمات المثل .

و « جزاءُ سِنِمَّار »[٣] مثل آخر جاهلي ، أصله أن بَنَّاء رومياً مُجِيداً

---

(١) جمهرة الأمثال ١ / ٢٦٤ .

(٢) نفسه ١ /٣٧٧ ، ٥١١ .

(٣) نفسه ١ /٣٥٠ ، واللسان (سنمر) .

اسمه « سنمار » بنى الخَوَرْنقَ للنعمان بن امرىء القيس ، فلما نـظر إليه النعمان استحسنه ، وكـره أن يعمل مثله لغيـره ، فألقـاه من أعلاه فخَـرَّ صريعاً ، فتمثَّل العرب بهذه الفَعْلة المنكَرة في سـوء الجزاء ، وقـالوا : « جزاءُ سِنِمَّار » مُشِيرين إلى كل الوقائع السالفة ، التي طواها المثل في كلمتين اثنتين .

ويقال مثل ذلـك في المثل : « صَحِيفـةُ المُتَلَمِّس »[1] إذ إن أصله أن عمرو بـن المنذر بن امـرىء القيس كان يـرشِّح أخـاه قابـوساً للملك بعـده ، فقدم عليـه المتلمسُ وطَرَفـة الشاعـران ، فجعلهما في صَحـابة قابوس ، وأمرهما بلزومه ، فكانا يركبـان معه للصيـد ، ويركضـان طول النهار حتى يصيبهما الكلالُ والتعب ، فضجر طرفة بذلك ، وأنشد شعراً هجا به عمرو بن المنذر أخاه ، ولما علم بذلك عمرو استشاط غضبـاً ، ودعـا بالمتلمس وطـرفة ، وخـاف إن قتل طـرفة أن يهجـوه المتلمس ، لأنهما كانا خليلين ، فقال لهما : لعلكما اشتقتما إلى أهليكما ؟ قـالا : نعم ، فكتب إلى عـامله بـالبحـرين أن يقتلهمـا حينمـا يصـلان إليــه ، وأعطاهما الكتابين ، وهما لا يدريان ما فيهما ، وأخبرهما أنه كَتب لكل منهما بجائـزة ، فخرجـا من عنده ، متجهَيْن إلى البحـرين ، ومَرَّا بنهـر الحِيـرة على غلمـان يلعبـون ، فقـال المتلمس لـطرفـة : هـل لـك في كتابَيْنا ، فـإن كان فيهمـا خير مضينـا له ، وإن كـان شراً اتَّقَينـاه ، فأبى طرفة عليه ، فأعـطى المتلمس كتابه لبعض الغلمان فقـرأه عليه ، وقـال لــه : أنتَ المتلمس ؟ قـال نعم ، قـال : النجـاةَ ، فقـد أمـر الملك بقتلك ، فألقى الصحيفة في النهر وهرب . أمـا طرفـة فقد أبى أن يَنْثني

---

(١) جمهرة الأمثال ١/٥٧٩ ، ومجمع الأمثال ١/٣٩٩ ، واللسان (صحف) وانظر أيضاً : الأغاني ٢١/١٢٥ (ساسي) وديوان المتلمس ٦٣ وما بعدها .

عن وَجْهه ، ومضى وأوصل الصحيفة إلى عامل البحرين ، فأمر بأن يُفْصد منه الأكحلان ، فنزف دمه حتى مات . وقيل : بل قُطعت يداه ورجلاه ، ودفن حياً .

فإذا تمثلنا بصحيفة المتلمس للذي يسعى بنفسه في هلاكه نكون قد عَبَّرنا بكلمتين اثنتين عن قصة طويلة ، تشتمل على أشخاص متعدِّدين ، وأحداث وأماكن متعددة .

والمثل « شَرَّابٌ بأنْقُع »[1] أصله أن الطائر إذا كان حذراً لم يرد مَشارع الماء ، ولكن يأتي المناقع والفلوات حيث لا يَبْلغ القُنَّاص ،ولا تُنْصب له الشِّرَاك . ويضربونه للرجل الكَيِّس الحذر الذي لا يتقحَّم الأمور ، ولكن يعاودها مرة بعد مرة . وقد علق أحمد بن فارس على هذا المثل بقوله : « وما أشبه هذا من بارع كلامهم ، ومن الإيماء اللطيف ، والإشارة الدالة »[2] .

ثانياً : إصابة المعنى :

تنشأ الأمثال نتيجة لتأمل الحياة وأحداثها ، أو نتيجة للتجارب التي تتمخض عن خبرات ومعارف صحيحة ، ومن ثم تتسم دائماً بالصدق والواقعية ، ولولا ذلك ما تلقاها الناس بالقبول والاستحسان، وما تداولوها واستشهدوا بها في كلامهم .

والحياة تتكرر ، ويُعيد بعضها بعضاً ، وما يحدث بالأمس يحدث مثلُه اليوم ، ويحدث مثلُه غداً ، فهي كالنهر الجاري ، تتشابه قطراته ، ويتصل منبعه بمصبه دائماً . والإنسان هو الإنسان منذ بدء الخليقة ، لا

---

(١) جمهرةالأمثال ١ / ٥٤٠ ، والأنقع : جمع نقع ، وهو المكان الذي يستنقع فيه الماء .

(٢) الصاحبي ٤٥ .

تتبدَّل طبائعه ، ولا تتغير مشاعره باختلاف العصور والأزمان ، وحاجاتُه الضرورية ، وعلاقاتُه بغيره من الناس لا تكاد تختلف من آن لآخر ، فما أشبه الليلةَ بالبارحة !

ولهذا تُصيب الأمثالُ المعاني دائماً ، وتقع منها في الصميم . أليست نتاجَ عقول كبيرة ، وثمارَ تأمل وتدبر للحياة ؟ أليست خلاصات تجارب ومعاناة ؟ أليست الحياة هي الحياة ، والانسان هو الإنسان ؟! والأمثال صائبة المعنى في ذاتها ، وصائبة المعنى حين يتمثل بها الإنسان ، حتى أصبحت كالقضايا المسلَّمة ، وأصبح لها من القداسة والسلطان عند الشعوب ما لنصوص القوانين . ولهذا جاء كثير منها في صيغ النصوص القانونية والأحكام العامة ، كصيغة الجملة الاسمية التي تدل على الثبوت والدوام ، وصيغة الجملة الاسمية التي تفيد الشمول والعموم ، وصيغة الجملة الشرطية التي تدل على ترتب شيء على شيء .

ومن النوع الأول قولهم : « أولُ الحزم المَشوُرة ، المرء بخليله ، المَعَاذِرُ مَكَاذب ، الحربُ غَشوم ، خيرُ الأمور أوساطُها ، الحديث ذو شُجون ، الحق مَغْضَبة ، البلاء موكَّل بالمنطق ،المِكْثار كحاطب الليل ، الحق أبلجُ ، والباطل لَجْلَج . الرائد لا يكذب أهله . السعيد من وُعظ بغيره . الشجاع مُوَقًّى . الشحيح أعذرُ من الظالم . شَرُّ الرأي الدَّبَرِيُّ . شر الشدائد ما يضحك. الشرُّ يبدؤه صغاره . الصمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعله . الظلم مَرْتَعهُ وخيم . حِيلةُ مَنْ لا حيلة له الصبرُ » .

ومن النوع الثاني قولهم : « كلُّ امرىءٍ سيعود مُرَيْئاً ، كل امرىء في بيته صَبيٌّ ، كل ذات بعل سَتَئِيمُ ، كل ذات ذَيْلٍ تختال ، كل ذات صِدَارٍ خالةٌ ، كل شاة تُناط برجلها ، كل فتاة بأبيها مُعْجَبة ، كل شيء

أخطأ الأنفَ جَلَلٌ ، كل لائم مُلِيمٌ ، لكل جوادٍ كَبْوَةٌ ، لكل جديدٍ لَذَّةٌ ، لكل ساقطةٍ لاقطةٌ » .

ومن النوع الثالث قولهم : « مَنْ أشبه أباه فما ظَلم ، من استرعى الذئبَ ظَلَم ، من أكثر أَسْقَطَ ، مَنْ حَفر مُغَوَّاة وقـع فيها ، من سَـرَّه بنوه ساءته نفسه ، من سَلك الجَدَد أمِنَ العِثَار ، من عَزَّ بَزَّ ، من قَلَّ ذَلَّ ومن أمِرَ فَلَّ ، من لاحـاك فقدِ عاداك ، من يَسْمَعْ يَخَلْ . من يَنكح الحسنـاء يُعْطِ مهرَها ، من عالج الشـوقَ لم يَستبعد الـدار ، من لم يَأْسَ على مـا فات وَدَّع نفسه ، إذا عَزَّ أخوك فَهِنْ ، إذا رأيت الريحَ عاصفاً فَتـطامَنْ ، إذا كنت كَـذُوباً فكن ذَكُـوراً ، إذا نزا بـك الشرُّ فـاقعد ، لـو تُرِكَ القـطا لنـام ، لو كـان ذا حيلة تَحَوَّل ، لـولا الوِئـام هلك الأنام ، متى أمكنتَ منك الذئبَ خان » .

كمـا جاء بعضهـا في صورة الأمـر والنهي اللذين يُستخـدمـان في الحث على الخير ، والزجر عن الشر ، أو إسداء النصيحة والمـوعظة ، كقولهم : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، ألق دَلوك في الـدِّلاء ، زاحِمْ بعَوْدٍ أو دَعْ ، اكذب النفسَ إذا حدثْتَها ، البَسْ لكل حالة لَبُوسَها ، خذ الأمـرَ بقوابله ، جـاور بحـراً أو ملكـاً ، عَشِّ ولا تغتـر ، اشتـرِ لنفسـك وللسوق ، ارضَ من المركب بالتعلُّق ، أعطِ أخاك من عَقَنْقـل الضب ، أعطِ القـوس باريهـا ، اعصِبْه عصبَ السَّلمَـة ، دَمِّثْ لنفسك قبـل النوم مُضجعاً ، أمرَ مبكياتك لا أمرَ مضحكاتك ، لا تَبُلْ على أكَمـة ، لا تَبُلْ في قليب شربتَ منه ، لا تسخر من شيء فيحورَ بك ، لا تكن كالباحث عن الشفـرة ، لا تكن مُـرّا فتُعْقَى ، ولا حلوا فتُـزْدَرد ، لا تنـهَ عن خلق وتأتي مثله ، لا تَهْرِف بما لا تَعرِف ، لا تَقْتَنِ من كلب سَوْءٍ جَرْوًا » .

ثالثاً : حسن التشبيه :

أساس المثل التشبيه ، أيّاً كانت الصورة التي جاء عليها ، أعني سواء أجاء في صورة تشبيه اصطلاحي أم في صورة استعارة أم في صورة كناية ، أم جاء في صورة الحقيقة ، ففي كل هذه الصور يتضمن المثل تشبيه مضربه بمورده .

وللتشبيه مكانته في كلام العرب ، ومنزلته من بلاغتهم ، إذ صاغوا معظم كلامهم في صُوَر منه ، وفي ذلك يقول المبرد (ت ٢٨٦ هـ) : « والتشبيه جارٍ كَثِيرٌ في الكلام ، أعني كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم يُبْعِد »[١] . ويقول قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) : « وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب ، وبه تكون الفطنة والبراعة عندهم »[٢] . ويقول أبو هلال العسكري (ت : نحو ٣٩٥ هـ) : « والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأكيداً ، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يَستغنِ أحد منهم عنه . وقد جاء عن القدماء ، وأهل الجاهلية من كل جِيلٍ ، ما يُستدل به على شرفه وفضله ، وموقعه من البلاغة بكل لسان »[٣] .

وأما الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت : ٤٧١ هـ) فيشرح وظيفة التشبيه في الكلام بقوله : « وهل تَشُكُّ في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينَيْن ، حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المُشْئِم والمُعْرِق ، وهو يُريك للمعاني الممثَّلة بالأوهام شَبَهاً في الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، يُنطق لك الأخرس ، ويُعطيك

---

(١) الكامل ٨١٨ .

(٢) نقد النثر ٥٨ .

(٣) الصناعتين ٢٤٩ .

البيان من الأعجم ، ويُريك الحياة في الجماد ، ويُريك التئامَ عَيْن الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعَيْن ، والماءِ والنار مجتمعَيْن »[1] .

وإذا كان التشبيه ، بجميع صوره وأشكاله ، من أساليب البيان المتفق على بلاغتها ، فإنه في الأمثال يبلغ قمة البلاغة ، ويحتل ذروتها ، ذلك أن مضارب الأمثال تكون عادة من المعاني المعقولة التي قد يصعب تصورها واستكناه حقيقتها ، ومن ثَمَّ يلجأ الناس إلى ضرب الأمثال لها بأمور حسية ، وأحداث واقعية ، تكون مأنوسة لهم ، ومعروفة لديهم ، وهي موارد الأمثال ، فلا تلبث هذه المعاني المعقولة أن تبرز من الخفاء حتى تكون في متناول الحواس الظاهرة .

ويسمي علماء البلاغة هذا النوع من التشبيه بالتمثيل ، ويتفقون على أنه من أرفع أساليب البيان وأسماها ، وفيه يقول عبد القاهر الجرجاني أيضاً : « واعلم أن مما اتفق العلماء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في مَعْرِضه ، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أُبَّهة ، وأكسبها مَنْقبة ، ورفع من أقدارها ، وشَبَّ من نارها ، وضاعف قُواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صَبابة وكَلَفاً ، وقَسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً »[2] ، ثم يذكر بعض أسباب ذلك في قوله : « فأولُ ذلك وأظهرُه أن أُنْسَ النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها في الشيء تُعْلمها إيَّاه إلى شيء آخر ، هي بشأنه أعلم ، وثقتُها به في المعرفة

---

(١) أسرار البلاغة ١٠٤ .

(٢) نفسه ٩٢.

أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعمّا يُعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طريق الحواس ، أو المركوز فيها ، من جهة الطبع وعلى حد الضرورة ، يَفْضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام »(١) .

ونحلل الآن بعض الأمثال لنرى مدى بلاغة التشبيه وحسنه فيها ، فالمثل « فَتَل له في الذِّرْوة والغارب » يُضرب في الرجل الذي يَخدع صاحبه ، ويمكر به ، وهذا معنى معقول لا تدركه الحواس الظاهرة ، وهو المشبَّه في المثل . أما المشبَّه به ، وهو مورد المثل وأصله ، فهو البعير يكون صعباً شرساً ، لا يعطي رأسه لصاحبه ، فيعمد إلى أن يَحُكَّ سنامه وغاربه ، ويفتل الوبَر الذي فيهما بأصابعه ، حتى يأنس البعير بذلك ، ويهدأ فيتمكن منه .

والمثل « كمُبْتَغِي الصَّيْدِ في عِرِّيسَة الأسد »(٢) يضرب في الرجل يخطىء في طلب الحاجة في غير موضعها ، فيطلبها حيث يُغْلب عليها ، وهذه الحالة هي المشبه ، أما المشبه به فالرجل يَدخل عرينَ الأسد يطلب فيه صيداً ، فيعرِّض نفسه لخطر افتراس الأسد .

والمثل « قبلَ الرِّماء تُمْلأ الكنائن »(٣) يضرب في الاستعداد للأمر قبل حلوله ، وهو معنى معقول ، شُبِّه بحالة مُحَسَّة ، هي حالة الرجل يستعد للرمي قبل أوانه ، فيملأ جعبته سهاماً .

---

(١) أسرار البلاغة ١٠٢ .

(٢) العريسة : الشجر الملتف ، وهو مأوى الأسد .

(٣) الكنائن : جمع كنانة ، وهي جعبة السهام .

ومثل رابع قولهم : « منكَ عِيصُكَ وإن كان أشِباً »[1] ويُتمثل به في استعطاف الرجل على قريبه ، وحثه على احتماله على ما به من عيوب . وهذا المضرب ، كما ترى ، أمر معنوي لا يُدرك إلا بالعقل ، ومن ثم لجأ الحكيم العربي إلى إخراجه في صورة حسية ، فشبه القريب بالأَجَمة التي يمتلكها الإنسان ، وفيها أشجار كثيرة ملتفة ، متداخلة الأغصان ، ذات شوك متشابك ، وعلى صاحبها أن يسلكها ، ويتحمل أذاها .

ومثل خامس هو قولهم : « ليس الهِنَاءُ بالدَّسِّ »[2] ، ويضربَ للذي يقصِّر في الأمر ، ولا يبالغ في إصلاحه ، وهو أمر معقول لا تدركه الحواس . أما أصله ، وهو المشبه به ، فهو أن يَجْرَب البعير في مواضع من جسمه ، فيقتصر الذي يَطليه بالقَطِران على هذه المواضع وحدها ، على حين أن الواجب عليه أن يعم بالطلاء جميعَ جلده ، لئلا يتعدى الجربُ موضعه ، فيجرب موضع آخر . وبهذا التشبيه خرج المعنى من دائرة العقل إلى دائرة الحس ، وبَرز من الخفاء إلى الوضوح .

ومثل سادس ، وهو قولهم : « سَقَط العَشاءُ به على سِرْحَان »[3] ويتمثَّل به للرجل يطلب حاجة فيؤدِّيه طلبها إلى التلف . أما أصله فرجل خرج يلتمس العَشاء فصادف ذئباً فأكله . وبالمقارنة بين المضرب والمورد ، في هذا المثل ، يتبين لنا كيف أَدَّى التشبيه وظيفته في

---

(١) العيص : الأجمة . والأشب : ذو الشوك المشتبك غير السهل .
(٢) الهناء : طلي البعير بالقطران . والدَّسّ : أن يطلي الطالي المواضع التي يسرع إليها الجرب من البعير ، وهي الآباط والأرفاغ .
(٣) السرحان : الذئب .

تشخيص المعنى وتصويره .

فنحن نرى في هذه الأمثال جميعاً أن مضاربها ، وهي المعاني المرادة للمتمثِّل ، أمور معقولة ، لا تدرك إلا بالفكر والنظر ، ولذلك لجأ العرب إلى صور حسية منتَزعة من البيئة ، فشبَّهوا بها تلك المعاني المعقولة ، وأخرجوها بهذا التشبيه من الخفاء والإبهام إلى الوضوح والجلاء . وهكذا جميع الأمثال .

رابعاً ـ جودة الكناية :

يعد أسلوب المثل من أساليب الكناية والتعريض ، من حيث إن المتمثل به لا يصرِّح بالمعنى الذي يريد ، وهو مضرب المثل ، ولا يُعَبِّر عنه بالألفاظ الموضوعة له في اللغة ، وإنما يُخفي هذا المعنى ، ويُعَبِّر عنه بألفاظ أخرى ، هي ألفاظ المثل ، وهذا هو معنى الكناية والتعريض لغوياً ، إذ يقول ابن منظور : « والكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره ، وكَنَى عن الأمر بغيره ، يكني كناية ، يعني إذا تكلم بغيره مما يستدل به عليه . . . وكُنَى الرؤيا هي الأمثال التي يضربها ملك الرؤيا ، يَكنى بها عن أعيان الأمور »(١) ، وإذ يقول : « والتعريض خلاف التصريح ، والمعاريض : التوريةُ بالشيء عن الشيء . . . والتعريض قد يكون بضرب الأمثال ، وذكر الألغاز في جملة المقال »(٢) .

والكناية ، بهذا المعنى اللغوي ، أرحبُ صدراً ، وأفسح مجالاً من الكناية التي اصطلح عليها علماء البلاغة ، وقسّموها ثلاثة أقسام : كناية عن الصفة ، وكناية عن الموصوف ، وكناية عن النسبة ، ذلك أنها

---

(١) اللسان (كنى) .
(٢) نفسه (عرض) .

تشمل هذه الصور ، وتشمل غيرها من كل كلام يُتكلم به في شيء ، ويراد غيره .

وللكناية والتعريض فضلهما الكبير في تصوير المعاني ، وتشخيصها في مناظر تتألّق رونقاً وجمالاً ، هذا فضلاً عن أنهما يُسعفان الإنسان حينما يريد التلويح لا التصريح ، والإبهام لا الإفصاح .

وقد أوضح الإمام عبد القاهر الجرجاني بلاغة هذين الأسلوبين بقوله : « إنا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض ، كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب ، وإذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسنُ تملأ الطَّرْف ، ودقائقُ تُعجز الوصف ، ورأيت هناك شعراً شاعراً ، وسحراً ساحراً ، وبلاغة لا يَكْمُل لها إلَّا الشاعر المُفْلق ، والخطيب المِصْقع ، وكما أن الصفة إذا لم تأتك مصرَّحاً بذكرها ، مكشوفاً عن وجهها ، ولكن مدلولاً عليها بغيرها ، كان ذلك أفخمَ لشأنها ، وألطفَ لمكانها ، كذلك إثبات الصفة للشيء تُثْبتها له ، إذا لم تُلْقه إلى السامع صريحاً ، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية ، والرمز والإشارة ، كان له من الفضل والمزية ، ومن الحسن والرَّوْنق ، ما لا يقلُّ قليلُه ، ولا يُجهل موضعُ الفضل فيه »[1] .

ولتوضيح الكناية في المثل نقول : إن قولهم : « بَلَغ السيلُ الزُّبَى » ، يراد به الأمرُ يبلغ غايته في الشدة والصعوبة ، ولكن المتكلم أخفى هذا المعنى ، ولم يستخدم الألفاظ التي وُضعت له في اللغة ، وكَنَى عنه بالألفاظ التي جاء عليها المثل .

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

وقولهم : « تَسْأَلُنِي بِرامَتَيْنِ سَلْجَماً » يضرب في الرجل الذي يلتمس ما لا يجد ، وهو معنى أخفاه المتمثل ، ثم كَنَى عنه بحالة تلك المرأة التي كانت مع زوجها في قفرة من الأرض ، لا تُنبت السلجم ، وطلبت منه أن يُحضر لها هذا النبات .

وقولهم : « لا أفعلُ ذلك ما دام السَّعْدانُ مستلقياً » يريدون به عدمَ الفعل أبداً ، ولكنهم كَنَوْا عن ذلك بالسعدان ، لا ينمو إلَّا مستلقياً مفترشاً على وجه الأرض ، ولا ينهض على ساقٍ أبداً .

وهكذا كل الأمثال ، لا يصرَّح فيها بالمعاني المُرادة ، وهي مضاربها ، وإنما يُكْنَى عنها بعبارات وألفاظ تفيد معاني أخرى ، وهي مواردها وأصولها . وتكتسب المعاني المرادة من الأمثال بهذه الكناية وضوحاً وإشراقاً ، وتكتسي حللاً زاهية من الجمال والبهاء .

خامساً : الذيوع والسيرورة :

عند حديثنا عن « مكانة المثل بين فنون الأدب » في صدر هذا الفصل ألمحنا إلى أن من خصائص المثل ومقوماته كثرةَ الدوران على الألسنة والأقلام ، وهذا أمر متفق عليه ، وواضح كل الوضوح ، ذلك أنه ليس من أنواع الكلام ما يسير مَسير الأمثال ، ولا ما يبقى بقاءَها ، فهي تَلِجُ المدائن والقرى ، وتغشى البدو والحضر ، وتعبر السهول والجبال والبحار ، وتتخطى العصور والدهور .

ولا غرو فالأمثال حكمة الأمم والشعوب ، وأوجز الكلام وأخصره ، وأقواه عبارة ، وأمتنه بناء ، وهي « صوت الشعب » ولسانه الذي يترجم عن ضميره ، ويفصح عن حياته . ثم هي ، بعد ذلك ، جزء عزيز من تراثه ، يحرص عليه كما يحرص على كل أثر من آثاره الحضارية .

ولهـذا تُعَمَّر الأمثـال طويـلاً في لغـة الشعب أو الأمـة ، إمـا على الألسنـة وإما في بـطون الكتب . والعرب يشبهـون بها كـل شيء يَشيـع ويَذيع ، فيقولون : « أسيرُ من مثل » ويقول شاعرهم :

مـا أنـتَ إلَّا مـثـلٌ سـائـرُ يعـرفـه الجـاهـل والـخـابـرُ

ولم ينسَ مـدونو الأمثـال أن ينوِّهـوا بهـذه الخصيصـة ، إذ يقـول الزمخشري : « ولأمر مَا سَبقت أراعيلَ الرياح ، وتركتهـا كالـراسفة في القيـود ، بتدارُك سيرِهـا في البـلاد ، مُصْعِـدةً ومُصَـوِّبـة ، واختـراقِهـا الآفاق ، مُشَرِّقة ومُغَرِّبة ، حتى شبهوا بهـا كل سـائرٍ أمعنـوا في وصفه ، وشاردٍ لم يَأْلُوا في نعته »[1] وقال أحمد بن عبد ربه : « نُطق بها في كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسـر شيء مَسيرهـا ، ولا عَمَّ عمـومَهـا حتى قيـل : « أَسْيَـرُ من مثـل »[2] . كما لم يَنْسَ الشعـراء أن يلموا بهـذا المعنى ، إذ يقول ابنُ مُقبل[3] :

ظَنِّي بهم كَعَسَىٰ وهم بِتَنُـوفَـةٍ يَتنـازعـون جـوائـزَ الأمـثـال

ويـروى « جوائبَ الأمثـال »[4] إذ إن المراد من جـوائز الأمثـال ما جاز من بلد إلى بلد[5]، ومن جوائبها ما جاب البلاد واخترقها[6] .

ولكن ليس معنى هـذا أن الأمثال على درجـة واحـدة من الشيـوع

---

(١) مقدمة « مستقصى الأمثال » .

(٢) العقد الفريد ٣/٦٣ .

(٣) اللسان (جوز) .

(٤) نفسه (جوب) .

(٥) نفسه (جوز) .

(٦) نفسه (جوب) .

والانتشار ، وإنما تتفاوت في هذا الأمر فيكون بعضها أسيَرَ من بعض ، ولذا وجدنا العلماء يقولون في تعليقهم على الأمثال : « ومن أمثالهم السائرة كذا » ، أو « ومن أمثالهم السائرة على وجه الدهر كذا » ، مما يشعر بتفاوت حظوظها من الشهرة والذيوع ، كما وجدناهم يصفون بعضها بالشرود فيقولون : « هذا مثل شارد أو شَرُود » يعنون به ذلك الذي يشيع ويشرد حتى لا يُستطاع رده ، ولا يمكن إخماده ، تشبيهاً له بالبعير الذي يشرد وينفر في الأرض[1] .

ونستطيع أن نقول بعد هذا : إن بعض الأمثال يُؤتَى حظاً موفوراً من الشهرة يجعله يطبِّق الآفاق ، ويتغلغل في أعماق الأزمنة والعصور ، وإن بعضها يكون أقل حظاً ، بحيث ينحصر في بلد بعينه ، أو في عصر بعينه ، أو في فئة من الناس ، كالزراع والتجار والنساء . وليس مَرَدُّ هذا الأمر إلى جودة المثل أو رداءته وحدهما ، بل هناك أسباب أخرى ، قد يكون من أهمها اختلاف البيئات ، وتنائي الديار والأقطار ، وتباين الطبقات ، واختلاف المجتمعات والأزمان ، على أن الجاحظ يذكر سبباً آخر لهذه الظاهرة ، وهو أن العامة قد تُؤْثر مثلاً أو بيتاً من الشعر على ما عداهما ، لأنهما أخف على ألسنتهم ، وذلك حيث يقول : « والعامة ربما استخفت أقلَّ اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً ، وتدع ما هو أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر . وقد يَبلغ الفارس والجواد الغاية في الشهرة ، ولا يُرزق ذلك الذكرَ والتنويهَ بعضُ من هو أولى منه بذلك »[2] .

---

(١) انظر : العمدة لابن رشيق ١/ ١٩٠ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٣ (سندوبي) .

(٣)
الصور البيانية والمحسنات اللفظية
في المثل العربي

تتوافر في الأمثال العربيـة ألوانٌ من التعبيـر المجازي ، وضـروبٌ من الصنعة اللفظية ، لا تتوافر في غيرها من فنون النثر الأخرى .

ذلك أن العرب كانوا يهتمون كل الاهتمـام بالألفـاظ والعبارات ، باعتبارها القوالبَ التي تُصاغ فيها مضامين الكلام ومعانيه ، وعلى مقدار التأنق فيها والعناية باختيارها وتجويدها تكون بلاغة الكلام ، وشدة تأثيره ونفاذه إلى النفوس .

وقد فطن إلى هذا ابن جني فقال : « وذلـك أن العرب كمـا تُعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها ، وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها بالشعـر تارة ، وبالخطب أخرى ، وبالأسجاع التي تلتزمها ، وتتكلف استمرارها ، فإن المعاني أقوى عندها ، وأكـرم عليها ، وأفخم قـدراً في نفوسهـا . فأول ذلك عنايتها بألفـاظها ، فـإنها لمـا كانت عنـوانَ معانيهـا ، وطريقـاً إلى إظهار أغراضهـا ومراميهـا ، أصلحوهـا وَزَيَّنوهـا ، وبالغـوا في تحبيرهـا وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لهـا في السمع ، وأذهبَ بهـا في الدلالـة على القصد . ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعاً لَـذَّ لسامعـه فحفظه ، فإذا هو حفظه كان جديراً بـاستعمالـه ، ولو لم يكن مسجـوعاً لم تَـأنس النفس بـه ، ولا أَنِقَت لمستمعه ، وإذا كـان ذلك لم تحفـظه ، وإذا لم

تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وُضع له ، وجيء من أجله »[1] .

وإذاً فقد كان العربي حريصاً على تدبيج عبارته ، وتحسين ألفاظه وتجميلها ، وكان أشد حرصاً على ذلك في أمثاله ، لأنه يدرك أن هذه الأمثال ستدور في الكلام وتشيع ، ومن حقها عليه أن يُوَفِّر لها ما أمكن ، من أسباب القوة والجمال . وفي هذا يقول أبو هلال العسكري : « ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام ، وتدخل في جُلِّ أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ ، ليخف استعمالها ، ويسهل تداولها »[2] .

وليس معنى هذا أن أمثال الأمم الأخرى عارية من الأساليب البيانية والمحسِّنات اللفظية ، فقد لاحظ الدارسون لهذه الأمثال شيوع هذه الأساليب والمحسنات فيها[3] ، حتى يمكننا أن نقول : إن هذه الظاهرة صفة من صفات الأمثال لدى كل الأمم والشعوب .

وإذا استقرأنا الأمثال العربية وجدنا كثيراً منها جاء في صور رائعة من أساليب التشبيه والاستعارة والكناية .

فمما جاء على أسلوب التشبيه قولهم : « كالحادِي وليس له بعيرٌ » ، كمجيرِ أمِّ عامر ، كالفاخرة بحِدْجِ رَبَّتِها ، كمستبضع التمر إلى هَجَر ، كالثور يُضرب لما عافت البقر ، كأنما أُفْرِغ عليه ذَنُوب ، جَذَّها جَذَّ العَيْرِ الصِّلِّيانة ، عَصَبه عَصْب السَّلَمة ، أجودُ من حاتم ، أبلغُ من قُسٍّ ، أسمعُ من فرس ، أطيشُ من فراشة » .

---

(١) الخصائص ١/٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) مقدمة « جمهرة الأمثال » .

(٣) انظر : فنون الأدب الشعبي لأحمد رشدي صالح ٢/٥ ، ٦ .

ومما جاء على أسلوب الاستعارة قولهم : « الحرب غَشُوم ، الحليم مَطِيَّةُ الجهول ، قَتَل أرضاً عالِمُها ، محا السيفُ ما قال ابنُ دارَةَ أجمعا ، شَمِّر ذيلاً وادَّرِعْ ليلاً ، كثيرُ النصح يَهْجم على كثير الظِّنَّة ، النساء حبائل الشيطان » .

ومما جاء على أسلوب الكناية قولهم : « قَلَب له ظهرَ المِجَن ، ركب أصولَ السَّخْبَر ، قَرِع له ساقه ، اختلط الحابلُ بالنابل ، اقشعرَّت منه الذوائب ، هو ضَيِّقُ العَطَن ، هو على طَرَف الثُّمَام ، لبستُ له جلدَ النمر ، حتى يَؤُوبَ القارظان ، حتى يشيب الغراب ، حيث لا يضع الراقي أنفَه ، شَبَّ عمرو عن الطَّوْق ، بَلغ السيل الزُّبَىٰ ، جاوز الحزامُ الطُّبْيَيْن » .

وليس معنى هذا أن الأمثال العربية لم تأتِ إلَّا على صورة من صور البيان الثلاث ، بل منها كثير جاء في صورة الحقيقة أيضاً ، كقولهم : « الحديثُ ذو شجون ، أسعدٌ أم سُعَيْدٌ ، أعذر من أنذر ، إن غداً لناظره قريبٌ ، عند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليقينُ ، وافق شَنٌّ طَبَقَة » .

أما المحسِّنات اللفظية ، من سجع وجناس ومقابلة وازدواج ، فتشيع في الأمثال شيوعاً يستلفت النظر ، ويدل على أن العرب كانوا يقصدونها ، بل يتكلَّفونها ويتصرفون في الألفاظ من أجلها ، ففي المثل « حَنَّتْ ولا تَهَنَّتْ وأنَّىٰ لكِ مقروع ! » تصرف العرب في الفعل « تهنت » بحذف الهمزة منه ، لأن أصله « تهنأت » وفعلوا ذلك تحقيقاً للسجع والازدواج . وفي المثل « أطرقْ كَرَا إن النعامَ في القُرى » رَخَّموا كلمة « كرا » وأصلها « كَرَوان » تحقيقاً للسجع أيضاً .

والذي يَتَتَبَّع الأمثال العربية يجد أن السجع ، من بين المحسِّنات اللفظية ، يستأثر بكثير منها ، ويكفي أن نذكر منه قولهم :

« أخبرتُهُ بعُجَرِي وبُجَرِي ، إذا أردت المُحَاجَزة فقبل المُنَاجَزة ، أَصُوصٌ عليها صُوصٌ ، أُعطى العبدُ كراعاً فطلب ذراعاً ، بعت داري ولم أبع جاري ، بمثل جارية فلتزن الزانية سراً وعلانية ، حالَ الجَرِيضُ دون القَرِيض ، الحَوْر بعد الكَوْر ، الذلة مع القلة ، رُبَّ قَوْلٍ أنفذُ من صَوْل ، زوجٌ من عُود خير من قُعود ، عِشْ رَجَباً تَرَ عَجَباً ، العُنُوق بعد النُّوق ، في الجريرة تشترك العشيرة ، يُبْلَغ الخَضْم بالقَضْم ، كُسَيْر وعُوَيْر وكل غير خير ، لا تهرِفْ بما لا تعرِف ، لكل ساقطة لاقطة ، ليس له هارِب ولا قارِب » .

ولا شك أن السجع الذي في هذه الأمثال قد وَفَّر لها من جمال اللفظ والجرس ما جعلها أعلقَ بالنفس ، وأخف على السمع .

والمقابلة والطباق من أسباب البيان والجمال ، ولهذا جاء عليهما كثير من الأمثال ، كقولهم : « مع اليوم غدٌ ، مُبْشرٌ مُؤْدَمٌ ، ما يعرف قَبِيلًا من دَبِير ، الحرُّ يُعطى والعبد يألم قلبه ، اختلط الحابل بالنابل ، اختلط المَرْعيُّ بالهَمَل ، أصمُّ عما ساءه سميعٌ ، أمرَ مبكياتك لا أمرَ مضحكاتك ، ذهب بين الصَّحْوة والسَّكْرة ، رِجْلاَ مستعيرٍ أخفُّ من رِجْلَيْ مُؤَدٍّ ، رُهباك خير من رُحماك ، غَثُّك خير من سمين غيرك ، كلبٌ اعْتَسَّ خير من أسد رَبَض ، كم ظاهرٍ دَلَّ على باطن ، لا أطلب أثراً بعد عَيْن ، لا تنتطح جَمَّاء وذاتُ قَرْن ، لا يدري أَيُخْثِر أم يُذِيب ، ما أصبتُ منه أقذَّ ولا مَرِيشاً ، مَنْ لي بالسانح بعد البارح ، ويلٌ للشجيِّ من الخليِّ ، اليومَ خمرٌ وغداً أمرٌ » .

وقد اجتمع الازدواج والطباق أو المقابلة في بعض الأمثال ، فرفع من شأنها ، وحرك النفوس لحفظها ووعيها ، كما نرى في قولهم : « الطريفُ خفيف ، والتليد بليد . لا ماءَكِ أبقيتِ ، ولا حِرَكِ أنقيتِ .

لا تَعْدَم خرقاءُ عِلَّة ، ولا تعدم صَنَاعُ ثَلَّة . الحق أبلج ، والباطل لَجْلَج . الكذب داء ، والصدق دواء . من قَلَّ ذَلَّ ، ومن أَمِرَ فَلَّ . الأخذ سُرَّيْط ، والقضاء ضُرَّيْط » .

* * *

هذا وقد التفت الدكتور شوقي ضيف إلى ظاهرة انتشار الصور البيانية والمحسنات اللفظية في الأمثال العربية القديمة فقال : « من يُنعم النظر في الأمثال الجاهلية يجد طائفة منها تُوُفِّر لها ضروب من القيم التصويرية والموسيقية ، ففيها أحياناً تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل ، وفيها أحياناً أخرى صَقْل وسجع وتنميق . ونحن نصطلح على تسمية هذه القيم الفنية ، التي تقابلنا في نصوص الأدب الجاهلي نثرِه وشعرِه ، باسم الصنعة .

وقد تسربت إلى الأمثال بعض هذه القيم التي كانت تشيع في نثر الجاهليين وشعرهم ، وليس معنى ذلك أنهم حَقَّقوا لأمثالهم جميعاً ضروباً مختلفة من هذه القيم ، فذلك إنما يظهر في القِلَّة القليلة ، أما الكثرة فمغسولةٌ من كل فن وبيان ، ومرجع ذلك إلى أن الأمثال تجري في لغة التخاطب وأحاديث الناس اليومية العادية ، وقلما نَمَّق أصحاب هذه الأحاديث لغتهم ، أو حاولوا أن يوفروا لها ضروباً من الجمال الفني البديع ، ومن ثم كان كثير من الأمثال الجاهلية يخلو خلوّاً تامّاً من المهارة البيانية »[1] .

إلى أن قال : « ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا : إن الأصل في الأمثال ألَّا تكون مصقولة ولا مصنوعة ، لأنها من لغة الشعب ، وقلما نَمَّقَ الشعب

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٢٤ ، ٢٥ .

في لغته ، غير أنه كثيراً ما تصدر الأمثال عن الطبقة الراقية في الأمة ، طبقة الشعراء والخطباء ، فتحقق لها هذه الطبقة ضروباً من عنايتها العامة بفنها ، وهذا هو مصدر الاختلاط في الحكم على الأمثال ، فبينما نجد أمثالاً غير مصقولة نجد أخرى تفنن أصحابها في صوغها وإخراجها في أسلوب بديع »(١) .

ونحن نخالف الدكتور شوقي في بعض ما ذهب إليه ، ولا نوافقه على أن معظم الأمثال الجاهلية مغسول من كل فن وبيان ، وأن الأصل في الأمثال ألَّا تكون مصقولة ولا مصنوعة ، ونرى عكس ذلك تماماً ، وهو أن الكثرة الكاثرة من هذه الأمثال أخرجها العرب في صور رائعة من التشبيهات والاستعارات والكنايات ، وزيَّنوها بألوان زاهية من الأسجاع والمقابلات والازدواج والجناس . وقد أثبتنا هذه الظاهرة فيما مضى ، وسقنا عليها الشواهد الغزيرة من الأمثال ، ودَعَمناها بأقوال العلماء والبلغاء .

وقد علل الدكتور شوقي ، لخلو معظم الأمثال الجاهلية من آثار الصنعة والبيان ، بأن الأمثال من لغة الشعب ، وأن الشعب قلما ينمِّق لغته ، وكأنه يريد بهذا أن معظم الأمثال يصدر عن عامة الناس وسَوادهم ، لا عن خاصتهم وذوي العقول الكبيرة منهم .

ونحن نرى عكس هذا أيضاً ، مؤكِّدين أن معظم الأمثال العربية صدر عن الطبقات الممتازة من العرب ، وهم الشعراء والحكماء والبلغاء ، يؤيدنا في ذلك قول حمزة الأصبهاني : « إذ كانت أمثال العرب القديمة إنما صدر أكثرها عن قرائح الشعراء فسار على أَلْسُنْ

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٢٥ .

الدَّهْماء »[1] كما يؤيدنا قول الزمخشري : « ثم هي قصارى فصاحة العرب العَرْباء ، وجوامع كلمها ، ونوادر حِكَمها وَبَيْضة منطقها ، وزُبْدة حوارها ، وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة ، والركَن البديع ، إلى ذرابة اللسان ، وغرابة اللَّسَن »[2] .

ومن ناحية أخرى لو تصفَّحنا الأمثال الجاهلية لوجدنا كثيراً منها يُنسب إلى لقمان العادي، أو أكثم بن صَيْفي ، أو عامر بن الظَّرب ، أو أوس بن حارثة ، أو غيرهم من الحكماء والشعراء ورؤساء القبائل والعشائر .

وبناء على ما تقدم ينبغي أن يفسر قول القائلين بأن الأمثال من لغة الشعب ، على أنها تجري في أحاديث الناس اليومية ، وتستخدمها كل الطبقات في الكلام ، سواء في ذلك الخاصة والعامة ، دون أي مَساس بألفاظها وأساليبها التي أُنْشئت عليها .

على أن الدكتور شوقي قد اعترف ، في نهاية حديثه عن الأمثال الجاهلية ، بأن العرب ، وهم مشغوفون بالبيان والبلاغة ، أعطوا لهذه الأمثال نصيبها منهما ، حيث يقول : « وطبيعي أن تظهر الصنعة في بعض الأمثال الجاهلية ، فقد كان العرب حينئذ مشغوفين بالبيان والبلاغة ، وصور القرآن الكريم فيهم هذا الجانب ، فقال جل شأنه : ﴿ **ولَتَعرِفَنَّهم في لَحْن القول** ﴾ وقال : ﴿ **وإن يقولوا تَسْمَعْ لِقولِهم** ﴾ وقال : ﴿**ومن الناس من يُعْجِبُكَ قولُه في الحياة الدنيا** ﴾ ، وفي جميع آثار نثرهم وشعرهم نجد آثار هذه الرغبة الملحّة في استمالتهم الأسماعَ

---

(١) مقدمة (الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر) مخطوط .

(٢) مقدمة « مستقصى الأمثال » .

بجمال منطقهم ، وخلابة ألسنتهم ، وقد دفعتهم هذه الرغبة دفعاً إلى تحسين كلامهم ، وتحبير ألفاظهم حتى في أمثالهم ، وهَيَّأ ذلك أن كثيراً من بلغائهم وفصحائهم أسهموا في صناعة هذه الأمثال ، فكان طبيعياً أن تظهر فيها خصائصهم الفنية التي يستظهرونها في بيانهم ، وتدبيج عباراتهم حين ينظمون أو يخطبون »[1] .

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٢٦ .

(٤)
وفرة الأمثال العربية
ودور الشعر في نموها وتكاثرها

تمتاز الأمم الشرقية بالحكمة والمثل والقول المأثور ، فهي وريثة حضارات روحية قامت على ما جاءت به الأديان السماوية والكتب المقدسة ، وعلى أقوال الأنبياء والرسل عليهم السلام ووصاياهم وحكمهم ، وكانوا جميعاً يعيشون في الشرق ، وينشرون رسالاتهم بين ربوعه ، فلا غرو أن ينبغ في هذه الرقعة الفسيحة من الأرض كثير من الحكماء والبلغاء على مرّ العصور .

يضاف إلى ذلك أن المجتمعات الشرقية كانت ، وما يزال الكثير منها ، مجتمعات زراعية أو تجارية أو رَعَوية . وفي مثل هذه المجتمعات تظهر الأمثال والحكم والأقوال المأثورة التي تنظم قواعدَ السلوك الخلقي والاجتماعي بين الناس[١] .

والأمة العربية من الأمم الشرقية ، ولكنها تمتاز على غيرها من هذه الأمم ، بل وعن سائر الأمم ، بالبراعة في القول ، وبالبلاغة والفصاحة ، حتى لقد وصلت في هذا إلى الغاية التي لا تُدرك ، وانتهت إلى الذروة التي لا تُنال ، يشهد بذلك وفرةُ من نبغ فيها من الشعراء والحكماء والخطباء والكتاب ، وما أُثر عنهم من روائع الشعر ،

---

(١) انظر : فنون الأدب الشعبي لأحمد رشدي صالح ٢ /٧ .

وشوارد الأمثال ، ونوادر الحكم ، وفرائد الخطب والرسائل .

وقد صَدر عن هذه الأمة في الجاهلية من الأمثال ما لم يَصدر عن أمة سواها ، من حيث الكثرة والجودة معاً . ويكاد العلماء والدارسون ، قديماً وحديثاً ، يطبقون على هذا الرأي ، إذ يقول ابن رشيق (ت ٤٦٣هـ) : « العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم ، كفضل اللسان على اليد »[١] . ويقول جرجي زيدان : « ولا غرو إذا امتازت اللغات الأوربية بالشعر القصصي فإن اللغة العربية وأخواتها تمتاز بنوع من الآداب كبير الأهمية ، ليس منه في لغات الفرنج إلَّا نُتَف ، نعني الأمثال ، فإنها جزء مهم من آداب اللغات السامية ، ولا سيما العربية والعبرانية ، وتندر فيما سواها »[٢] . ويقول أحمد أمين : « إن العرب حقاً أجادوا في مضمار المثل من الأدب ، وخلَّفوا لنا ما يدل علىٰ عقليتهم أكثر مما يدلنا الشعر والقصص »[٣] .

أما حمزة الأصبهاني (ت نحو ٣٥١هـ) ، وهو فارسي الأصل ، فقد قارن بين أمثال العرب وأمثال الفرس في قوله : « فأمثال الفرس مع تدوينهم لها ، ونمائها على الدهور القديمة لم تَعْشُر أمثالَ العرب ، فقد حَكَى أبو عبيدة ، فيما روى أبو حاتم عنه ، أنه أوصل إلى أحمد بن سعيد بن سلم الباهلي أربعة عشر ألف مثل عربي ، بعضها في الجلود ، وبعضها في القُطْني ، وبعضها في القراطيس ، وبعضها في الخزف»[٤] .

---

(١) العمدة ١/٤ ، والمزهر ٢/٤٧١ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ١/٢٧ .

(٣) فجر الإسلام ٦٤ .

(٤) مقدمة « الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر » لحمزة (مخطوط) .

وإذا كانت أمثال الفرس ، وهي من الأمم ذات الحضارة والآداب العالمية ، لم تبلغ عشر أمثال العرب ، فما بالك بأمثال الأمم الأخرى ؟ !

وإذا تساءلنا : وأين ذهبت كل هذه الأمثال ، وما بأيدينا منها الآن لا يتجاوز ستة آلاف مثل ؟ فإن الجواب عن هذا أن معظم هذه الأمثال قد ضاع فيما ضاع من كلام العرب ، بسبب الأمية التي كانت غالبة عليهم في العصر الجاهلي ، والتي لم تمكنهم من تدوين كل آثارهم ، وبسبب الخطوب التي ألمَّت بهم فيما بعد فذهبت بكثير من كتبهم ، ولأبي عمرو بن العلاء كلمة مشهورة تدل على ضياع معظم كلام العرب ، وهي قوله : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقلُّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[1] ومثلها لعبد الصمد بن الفضل الرقاشي ، الذي يقول : « ما تكلمت به العرب من جيد النثر أكثرُ مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يُحفظ من المنثور عُشْره ، ولا ضاع من الموزون عُشْره »[2] .

ولقد كان للشعر العربي في الجاهلية والاسلام أثر بالغ في نماء الأمثال العربية وتكاثرها ، إذ إن كثيراً من أشطاره وأبياته يتضمن حكماً وأقوالاً صائبة ، أتاحت له أن يسير بين الناس ، وتتداوله ألسنتهم وأقلامهم ، فيدخل حظيرة الأمثال ، ويختلط بالأمثال النثرية .

ولكي نتصور أبعاد هذا الأثر نذكر أن الأمة العربية أنجبت من الشعراء ما لم تنجبه أمة أخرى ، أياً كانت ، وأن كثيراً من هؤلاء الشعراء كانوا من شعراء الحكمة . ولو رحنا نتصفح الشعر العربي

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢٣ .
(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٥٨ .

لوجدنا أنه قلما تخلو قصيدة منه من بيت أو عدة أبيات سائرة ، بل لوجدنا فيه قصائد برمتها خَلَصت للأمثال ، ومن هذه القصائد أرجوزة أبي العتاهية التي تسمى « ذات الأمثال » والتي قال عنها أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) : « وهذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية ، ويقال : إن له فيها أربعة آلاف مثل»[١] .

وقد نوه حمزة الأصبهاني بدور الشعر في نماء الأمثال العربية ، وتوالدها فقال : « فأبيات الشعر كَثَّرت أمثال العرب ، وزادت على أمثال سائر الأمم أضعافاً مضاعفة»[٢] ، إلى أن قال : « فتفرُّد العرب من بين الأمم بكثرة الأمثال إنما هو بمادة الأشعار التي هي نامية بالتوالد على مدى الأيام كنماء النسل في الأنام » ومن قبل حمزة ألم الجاحظ بهذا المعنى في قوله : « وفي بيوت الشعر الأمثال والأوابد ؛ ومنها الشواهد ، ومنها الشوارد »[٣] .

وإذا حللنا الأبيات الشعرية التي صدرت عنها الأمثال أمكننا أن نصنفها على النحو التالي :

١ ـ أبيات يُتمثل بها كلها ، صدراً وعجزاً ، وهذا هو الغالب الأعم كقول زُهَيْر بن أبي سُلْمَى[٤] :

ومَهْمَا تَكُنْ عند امرىءٍ من خليقةٍ وإن خالها تَخْفَى على الناس تُعْلَمِ

وقول المتلمس[٥] :

---

(١) الأغاني ٤/٣٦ (دار الكتب المصرية) .
(٢) مقدمة « الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر » .
(٣) البيان والتبيين ٢/٧ .
(٤) من معلقته .
(٥) فصل المقال ١٣١ ، وهو من الأصمعية ٩٢ .

لِـذِي الـحِلْمِ قبـل اليـوم مَـا تُـقْـرَعُ الـعَـصَـا
وما عُـلِّمَ الإنـسـانُ إلا لِـيَـعْـلَمَـا

وقول عمرو بن مَعْدِ يكرب(1) :

إذا لـم تَسْتَـطِعْ شيئـاً فَـدَعْـهُ   وجـاوزهُ إلـى مـا تسـتـطيـعُ

وقول المتوكِّل الليثي(2) :

لا تَـنْـهَ عن خُـلُقٍ وتَـأتيَ مِـثْـلَهُ   عـارٌ عليـك إذا فعـلتَ عـظيمُ

٢ ـ أبيات تقع الأمثال في صدورها دون أعجازها ، كقول يـزيـد بن خَذَّاق(3) :

هَـوِّنْ عليك ولا تُـولَـعْ بـإشفـاقِ   فـإنما مـالُنـا للوارِثِ البـاقِي

وقول المتلمس(4) :

وَأَطْرقَ إطراقَ الشجـاعِ ولو يَـرَى   مَسَـاغاً لنَـابَـيْـهِ الشجـاعُ لَصَمَّمَـا

وقول الحطيئة(5) :

لكـل جـديـدٍ لـذةٌ غيـرَ أَنَّني   وجدتُ جديـدَ الموتِ غيـرَ لذيـذِ

٣ ـ أبيات تقع الأمثال منها في الأعجاز دون الصدور ، كقـول صَخْر بن عمرو أخي الخَنْساء(6) :

أَهُمُّ بـأمـر الحَـزْمِ لـو أستـطيعُـهُ   وقـد حِيـلَ بين العَيْـرِ والنَّـزَوَانِ

---

(1) جمهرة الأمثال ١/١١٧ ، وهو من الأصمعية ٦١ .
(2) جمهرة الأمثال ٢/٤١٢ ، وهو من قصيدة له في الأغاني ١٢/١٦٠ .
(3) جمهرة الأمثال ٢/٣٥٩ .
(4) المستقصى ١/٢٢١ ، وهو من الأصمعية ٩٢ .
(5) جمهرة الأمثال ٢/١٨ ، وهو من قصيدة له في ديوانه ١١٠ .
(6) جمهرة الأمثال ١/٣٧٢ .

وقول أبي الأسود الدؤلي [1] :

وما طلبُ المعيشةِ بالتمنّي ولكِنْ أَلْقِ دَلْوَكَ في الدِّلاَءِ

وقول الآخر [2] :

يا باريَ القوْسِ بَرْياً ليس يُحْكِمُهُ لا تَظْلِمِ القوسَ أَعْطِ القوسَ بَارِيها

وقول الآخر [3] :

ولقد هممتُ بذاك إذ حُبِسَتْ وأُمِّرَ دونَ عُبَيْدَةَ الوَذَمُ

وقول الآخر [4] :

وتَلُومُ عِرْسَكَ بعدما هَرِمَتْ ومن العناءِ رياضةُ الهَرِمِ

وقول الآخر [5] :

المستغيثُ بعمروٍ حين كُرْبَتِهِ كالمستغيثِ من الرَّمضاءِ بالنَّارِ

٤ ـ أبيات صدورها أمثال ، وأعجازها أمثال أخرى ، كقول امرىء القيس [6] :

اللّهُ أَنْجَحُ ما طلبتَ بِهِ والبِرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّحْلِ

وقول اللُّجَيْم بن صَعْب [7] :

إذا قالت حَذَامِ فصَدِّقُوهَا فإن القولَ ما قالت حَذَامِ

---

(١) جمهرة الأمثال ١/٧٣ .

(٢) نفسه ١/٧٦ .

(٣) نفسه ١/١٦٥ .

(٤) نفسه ٢/٢٧٩ .

(٥) نفسه ٢/١٦٠ .

(٦) نفسه ٢/٣٨٢ ، وديوانه ٢٣٨ .

(٧) جمهرة الأمثال ٢/١١٦ .

وقول لبيد (١) :

أَلَا كـلُّ شيءٍ مـا خـلا اللهَ بـاطـلُ   وكـلُّ نـعيـمٍ لا محـالـةَ زائـلُ

وقوله طرفة (٢) :

سَتُبْدِي لك الأيامُ ما كنتَ جـاهلاً   ويـأتيـكَ بـالأخبـارِ مَنْ لَمْ تُـزَوِّدِ

وقول أبي ذُؤيب (٣) :

والـنـفسُ راغـبـةٌ إذا رَغَّـبْـتَـهـا   وإذا تُـرَدُّ إلـى قـليـلٍ تَـقْـنَـعُ

وقول الحطيئة (٤) :

مَـنْ يَـفـعَـلِ الـخـيـرَ لَا يَـعْـدَمْ جَـوَازِيَـهُ

لا يـذهـبُ الـعُـرْفُ بـيـن اللّـهِ والـنـاسِ

٥ ـ أبيات يشتمل كل منها على ثلاثة أمثال ، وهذا النوع نادر قليل ، كقول النابغة الذبياني (٥) :

الـرِّفْـقُ يُـمْـنٌ وَالأنَـاةُ سـعـادةٌ   فَـاسْتَـأْنِ في رِفْقٍ تُـلَاقِ نَجَاحَـا

وقول زهير (٦) :

وفـي الـحـلـمِ إدْهَـانٌ وفـي الـعـفـو دُرْبَـةٌ

وفـي الـصـدقِ مَـنْـجَـاةٌ مـن الـشـرِّ فـاصْـدُقِ

وقول صالح بن عبد القُدُّوس (٧) :

---

(١) جمهرة الأمثال ٢ / ٣٨٢ ، وديوانه ٢٥٦ .

(٢) من معلقته .

(٣) ديوان الهذليين ٣ .

(٤) ديوانه ٢٨٤ (القاهرة ١٩٥٨) .

(٥) فصل المقال ٢٦٢ ، والعمدة ١ / ١٩٢ .

(٦) المصدران السابقان ، وهوفي ديوانه ٢٥٢ .

(٧) فصل المقال ٢٦٢ ، والعمدة ١ / ١٩٢ .

كلُّ آتٍ لا بُدَّ آتٍ وذو الجهل مُعَنًّى بالغَمِّ والحُزْنُ فَضْلُ .

٦ ـ أبيات أخذ العرب من معانيها أمثالاً نثرية ، فالمثل « أنـا من غَزِيَّـة » مأخوذ من قول دُرَيد بن الصِّمَّة[١] :

وما أنا إلَّا من غَـزِيَّـةَ إن غَـوَتْ غَـوَيْتُ وان تَـرْشُـدْ غَـزِيَّـةُ أَرْشُـدِ

والمثـل « السعيدُ من وُعظ بغيـره» مـأخـوذ من قـول الحـارث بن كَلَدة[٢] :

إن السَّعِيـدَ لَـهُ في غيـره عِـظَةٌ وفي الحـوادثِ تحكيمٌ وَمُعْتَبَـرُ

والمثل « أطولُ صحبـةً من الفرقَـدَيْنِ » مأخـوذ من قول عَمْـرو بن مَعْد يكرب[٣] :

وكـلُّ أخٍ مـفـارِقُـهُ أخـوهُ لـعمـرُ أبيـكَ إلا الـفَـرْقَـدَانِ

والمثل « أَصْفَى من لُعاب الجراد» مأخوذ من قول الأخطل[٤] :

عُقَـاراً كَعَيْنِ الديـكِ صِرْفـاً كأنَّـهُ لعـابُ جـرادٍ في الفـلاة يَـطِيـرُ

والمثـل « أضيعُ من غِمْـد بغير نَصْـل» مأخـوذ من قـول مسلم بن الوليد[٥] :

وإنِّي وإسمـاعيـلَ يـومَ فِـرَاقِـهِ لكـالغمدِ يومَ الرَّوْعِ فارقَه النَّصْلُ

والمثل : «أبغضُ من قَدَح اللَّبْلَابِ» مأخوذ من قول الشاعر[٦] :

---

(١) جمهرة الأمثال ١/١٩٥ ، واللسان (غزا) .
(٢) جمهرة الأمثال ١/٥١٢ .
(٣) الدرة الفاخرة ١/٢٨٧ .
(٤) نفسه ١/٢٦٦ .
(٥) نفسه ١/٢٧٨ .
(٦) نفسه ١/٨٣ .

يــا بغيـضــاً زاد في البُـغْض ِ عــلى كــل بَغِـيض ِ
أنــتَ عنــدي قَــدَحُ الـلّبْـلاَبِ في كَفِّ المــريض ِ

والمثـــل: « أدبُّ من الشمس إلى الـغَسَـق» مــأخــوذ من قــول الآخر[1] :

أرى الـشيـبَ مــذ جــاوزتُ خـمـسين دائـبـاً
يَــدِبُّ دبيـبَ الـشـمس ِ فــي غَسَــقِ الــظُّلَمْ

ومثلما أخذ الناس الأمثال من الشعر أخذ الشعراء الأمثال النثرية ، وضمنـوها شعـرهم ، إما مـع المحافـظة على تركيبها وألفـاظها ، وإمـا بتصـرف فيهمـا إذا كـان الـوزن يقتضي ذلـك ، فمن النـوع الأول قـول الأعشى[2] :

ولم يُــودِ من كـنتَ تَـسْعَـى لَــهُ كمـا قِيـلَ في الحَـرْبِ أَوْدَى دَرِمْ

وقول العُدَيْل بن الفَرْخ[3] :

أصبحتُ من حَذَرِ الحَجَّاجِ مُنْتَجِباً كالعَيْرِ يَضْـرِطُ والمِكْوَاةُ في النَّـارِ

وقول الراعي[4] :

ومـا هَجَـرْتُــكِ حتى قلتِ مُعْلِنَـةً لا نـاقـةٌ ليَ في هــذا ولا جَمَـلُ

وقول رؤبة[5] :

عــاذلُ قــد أُولِعْتِ بِــالتَّـرْقِيش ِ إِلَـيَّ سِــرّاً فَــاطْـرُقي ومِـيشِـي

---

(١) الدرة الفاخرة ١/ ٢٠٠ .
(٢) جمهرة الأمثال ١/ ١٦٧ ، وديوانه ٣٩ ، وروايته «في الحيِّ» .
(٣) جمهرة الأمثال ٢/ ١٢٣ .
(٤) نفسه ٢/ ٣٩١ .
(٥) نفسه ١/ ١٨٩ .

وقول الشاعر في الحجاج بن يوسف[1] :

شَكَــوْنَـا إليــه خــرابَ السَّــوَادِ　　فَـحَــرَّم فيـنــا لـحــومَ الـبَـقَــرْ
فَـكُـنَّــا كـمــا قــال مَــنْ قَـبْلَنَـا　　أُرِيهَــا السُّهَى وَتُــرِيـني الـقَـمَــرْ

وقول الآخر[2] :

ولا تَـأْمَنَنَّ الحـربَ إن اشْتِغَـارَهـا　　كَضَبَّـةَ إذ قال : الحـديثُ شُجُـونُ

وقول الآخر[3] :

احْفَظْ لسـانَـكَ أن تقــولَ فَتُبتَلَى　　إنَّ البــلاءَ مُــوكَّــلٌ بــالمَنْــطِقِ

وقول الآخر[4] :

جمعتَ شتى وقـد فـرقتَهـا جمـلاً　　لأنت أخسـرُ من حمالـة الـحـطبِ

ومن النوع الثاني ، أعني الأمثال التي تصرف الشعراء في ألفاظها وتركيبها ، قول عَديّ بن زيد[5] :

الْبَسْ جـديـدَكَ إني لابسٌ خَلَقِي　　ولا جـديـدَ لمن لا يَلْبَسُ الخَلَقَـا

فإنه قد ضمن قولهم : «لا جديد لمن لا خَلَقَ لـه» وقول كعب بن زهير عن أبيه[6] :

وأشــبهــتُــهُ من بــيــن مَــنْ وَطِـيءِ الــحَــصَــا　　ولــم يَــنْــبُ عَــنِّــي شِــبْــهُ خــالٍ ولا ابــن عَــمّْ
فــقــلــتُ شَــبِــيــهــاتٌ بــمــا قــال عَــالــمٌ　　بــهــنَّ ومــن يُــشْــبِــهْ أبــاه فــمــا ظَــلَــمْ

---

(1) جمهرة الأمثال ١/١٤٢ .
(2) نفسه ١/٣٧٧ .
(3) نفسه ١/٢٠٧ .
(4) الدرة الفاخرة ١/١٧٤ .
(5) جمهرة الأمثال ٢/٣٨٣ .
(6) نفسه ٢/٢٤٤ .

فإنه قد ضمن قولهم : «من أشبه أباه فما ظَلَم» وقول نَهار بن تَوْسِعة [1] :

أُقَيْبُ قد قلنا غداةَ لَقِيتَنَا بَدَلٌ لعمرك من يَزِيدٍ أَعْوَرُ

حيث ضمن المثل « بَدَلٌ أعورُ» . وقول أبي الأسود الدؤلي [2] :

لعمركَ ما شيءٌ عرفتَ مكانَهُ أحقَّ بسَجْنٍ من لِسَانٍ مذَلَّلِ

وهو مضمن قولهم : « أحقُّ شيءٍ بسَجْنٍ لسانٌ » وقول الشاعر [3] :

إن كنتِ لا تُلْطِفِيني فاقْبَلي لَطَفْي
لا تَجْمَعي لي سُوءَ الكيلِ والحَشَفَا

حيث ضمن المثل « أحشفاً وسُوءَ كيلَةٍ » ! وقول الآخر [4] :

وكانت كعَنْزِ السُّوءِ جاءت لِحَتْفِهَا
إلى مُدْيَةٍ مدفُونَةٍ تَسْتَثِيرُهَا

فإنه مضمن معنى قولهم : « حَتْفَها تبحثُ ضأنٌ بأظلافِها» .

وهكذا تفاعل النثر والشعر في فن الأمثال العربية ، وأخذ كل منهما من الآخر ، فنتج عن تفاعلهما أمثال جديدة ، وأبيات جديدة ، وهكذا أيضاً أسهم الشعر في الجاهلية والإسلام بنصيب موفور في تكاثر هذه الأمثال كثرة مفرطة .

---

(١) جمهرة الأمثال ١/ ٢٢٩ .
(٢) نفسه ١/ ٢٢ .
(٣) نفسه ١/ ١٠١ .
(٤) نفسه ١/ ٣٦٣ .

(٥)

قصص الأمثال

يرتبط كثير من الأمثال العربية بأخبار وأحاديث ، يرجع معظمها إلى العصر الجاهلي ، وهي التي يطلق عليها العلماء اسم « أصول الأمثال » أو « أسباب الأمثال» أو « موارد الأمثال » .

وتدور هذه الأخبار والأحاديث حول الأحداث التاريخية ، كأيام العرب في الجاهلية والإسلام ، أو حول العلاقات بين الناس في معاملاتهم وحياتهم اليومية . أما الأشخاص الذين صنعوها فهم غالباً من مشاهير الرجال ، كالملوك ورؤساء القبائل والعشائر ، أو من سواد الناس وعامتهم ، رجالاً ونساء .

هذه الأخبار والأحاديث أمدت اللغة العربية بنوع فريد من النثر الفني ، يمكن أن نعده من البذور الأولى للقصة العربية ، إذ يشتمل على أهم عناصر القصة ، وهي الأشخاص والأحداث والمكان والزمان ، ويزخر بصور من حياة العرب الاجتماعية ، حافلة بالعبرة والموعظة والفكاهة ، وتتفاعل فيها الأشخاص والأحداث تفاعلاً حياً .

وقد أشاد محمود تيمور بهذا النوع من الفن القصصي إذ قال : « تُسْرد أنواع النثر الجاهلي فتذكر من بينها الأمثال ، ويُساق منها ما يساق ، ويَغبن المؤرخون لوناً هو أعلى من الأمثال شأناً ، وأقرب إلى

الأدب نسباً ، ذلك هو أصول الأمثال وحكاياتها ، لا جملها وعباراتهـا ، والمؤرخون يتجافَوْن عن أصول الأمثال في أنواع النثر الجاهلي ، لأنهـا عندهم ليست نصوصاً موثـوقاً بتعبيـرها في الـدلالة على ذلـك العصر إذ دُوِّنت فيما بعد ، على أنهم حين يؤرخـون أدب العصور التـالية التي تَمَّ فيها التدوين يُغفلون كذلك هذا اللون من الأدب القصصي . والواقع أن أصول الأمثال التي بين أيدينا تحمل ، فيما تحمل ، صورة من النثر في العصور المتقدمة»(١) ، إلى أن قال : «لقـد حوت جُعبـة الأخباريين في مختلف عصور العربية صوراً من الحياة الاجتماعية ، تمثل نفسيـة الأمة العربية ، وتجلو نظراتها إلى غرائز النفـوس ، وقيم الأخلاق ، وأسبـاب المعاش ، وبهذه القصص التي تسمى « الأخبار» نستطيع القول بـأن فن القصـة في الأدب العربي واضـح في كل عصـر ، حَيٌّ في كـل عهـد ، تحتويه كتب الثقافة العربية ، وتحتفي به ، وإن جحده حقـه نقاد الأدب ومؤرخوه»(٢) .

ثم دَرَس فاروق خورشيد في كتابه القيِّم « في الرواية العربيـة »(٣) القصة في الأدب العربي القديم دراسة واعية شافيـة ، أثبت فيها بـالأدلة العقلية ، وبالنصـوص الصحيحة ، أن هـذا الفن مُعْرِق في أدبنـا ، وأنه فن أصيـل غير ملفَّق ولا مـزوَّر ، وذهب إلى أبعد من هـذا ، فأثبت أنـه كان مدوناً قبل الإسلام .

ثم مثَّـل له بمـا جـاء منـه في كتـابَيْ « التِّيجـان في ملوك حِمْيَـر» لوهب بن منبه ، و« أخبار ملوك اليمن » لعُبَيْد بن شَـرْية الجُـرْهمي ، ثم

---

(١) محـاضرات في « القصص في الأدب العـربي ، مـاضيـه وحـاضـره » ص ٢٨ (نشـرة معهـد الدراسات العربية العاليـة بالقاهرة ، عام ١٩٥٨ م) .

(٢) نفسه ٢٩ ، وانظر أيضاً : ص ٢٦ .

(٣) مطبوعات « الجمعية الأدبية المصرية » وهو سلسلة من الأحاديث أذيعت بالبرنامج الثاني .

بما جاء في كتب التاريخ والسير والطبقات والأدب والأمثال .

وقال : « وأهم أشكال النثر التي عرفتها آداب العالم ، لتعبِّر عن روح الشعب وطبيعته ، الروايةُ والقصة ، ولم يَخْلُ أدب في العالم من تراث قصصي كبير يُغنيه ، ويُثري معرفته بتاريخ شعبه وحضارته ، ويعود السؤال : وأدبُنا العربي ؟ أين فيه القصة والرواية ؟ وقبله يأتي سؤال : أكانت حياة العرب بليدة خامدة لا تعرف التعبير عنها إلا طبقاتها العليا المتصلة بالحكم والحكام ؟ أعني هل جَمَد حِسُّ الشعب العربي إلا فيما يتعلق بأغراض القبيلة أول الأمر ، والخليفة بعد ذلك ، فلم يحس بحاجته إلى لون من التعبير ، يعبر عن مجموعه في مختلف طبقاته ؟ الحقيقة تقول غير هذا ، فحياة العرب في الجاهلية كانت ، رغم كل شيء ، حياة خصبة بالأحداث مليئة بالحركة والنشاط ، وناهيك بشعب يعيش دائماً على خطر ، على خطر من الصحراء التي تحيط به دائماً ، وتُطْبِق على حياته من كل جانب ، وهي بعدَ هذا مجهول مخيف ، لا يَدري من أمره إلا القليل الأقل ، وهو على خطر من اعتداء بعضه على بعض ، يدفعه إلى هذا حاجة العيش ، وقلة الثروة ، وضعف فرص الحياة إلا للأقوياء ، وعلى خطر من اعتداء الآخرين عليه ، فهو يقف في طريق اتصال الشعوب بعضها ببعض ، وهو يتحكم في خط سير التجارة بين أجزاء العالم المعروفة آنذاك .

وناهيك بحياة هي سلسلة من الانتصارات على قوى الطبيعة مرة ، وعلى القوى الخارجية أخرى ، وهي أيضاً سلسلة من الهزائم الفاجعة أمام هذه القوى ، متفرقة مرة ، ومجتمعة مرات . هذه الحياة التي استمرت بما وضعت لنفسها من قيم ، وما خَلَقت من تقاليد ، وهذه الحياة التي نَشُم فيها رائحة الصراع ، ونسمع فيها جلبته كيف

يمكن أن تخلو من كل صور الرواية أو القصة»[1] ؟

وقال : « والعلماء مجمعون على أن العرب في الجاهلية كانت لهم قصص كثيرة ومتعددة ، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التي تدور حول أجدادهم وملوكهم وفرسانهم ، وشعرائهم ، وكتابُ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يكاد يكون ذخيرة كاملة من القصص الذي تناقله الناس عن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم . . . وليس كتاب الأغاني هو المرجع الوحيد في هذا ، بل إن المكتبة العربية غنية بأمثال « الأمالي » و «الشعر والشعراء » وكتب الطبقات ، بما لا يدع مجالاً للشك في أن الفن القصصي قد تناول الحياة الجاهلية في كل مظاهرها»[2] .

ثم قال : « والواقع أنني لا أريد أن أزعم أنه كانت هناك قصص فحسب ، بل أريد أن أصل من هذا الزعم إلى قضية أكبر ، بأن أؤكد أن هذه القصص كانت بالمكان الأول من الحياة الأدبية ، وأنها كانت الفن المفضل عند الغالبية العظمى ، بينما حفلت أقلية خاصة بأمر الشعر والخطابة»[3] .

وبهذا يكون العرب في الجاهلية قد عرفوا فن القصة الذي يتمثل في أصول الأمثال ، والأخبار التي تتصل بها ، وإن كان هذا الفن لم يدون إلا حين أخذ العلماء في جمع الأمثال وتفسيرها ، وبهذا أيضاً يسقط قول القائلين بأن العربية في عصورها الأولى كانت خالية من أدب القصة ، وكأنهم يريدون القصة بمفهومها الحديث .

---

(١) مطبوعات «الجمعية الأدبية المصرية» وهو سلسلة من الأحاديث اذيعت بالبرنامج الثاني ١٤ ـ ١٦ .
(٢) المرجع السابق ٢٢ ـ ٢٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٤ .

ومن ناحية أخرى شَكَّك بعض الدارسين للأمثال العربية في هذه القصص ، وذهبوا إلى أنه من المحتمل أن تكون كلها أو بعضها من نسج الخيال ، ومن تزوير العلماء والرواة . ومن هؤلاء المستشرق الألماني « زلهايم » إذ ذكر أن « فرايتاج » حاول أن يستخلص عمر هذه القصص وأمثالها من الحوادث التاريخية التي تشير إليها[1] ، ثم قال معلقاً على هذه المحاولة : « ولم يخطر على بال «فرايتاج » هذا الخاطر القريب ، وهو أن تكون القصص التي تُروى مع الأمثال مخترعة ، نُسجت خيوطها على ضوء هذه الأمثال ، تماماً كما ترتبط القصص التَّبْريرية ببعض أبيات الشعر العربي . حقاً يمكن أن يكون الأساس التاريخي المروي لنا ، بالنسبة لهذا المثل أو ذاك ، مقارباً للحقيقة ، غير أننا لا نملك الوسيلة التي نقرر على أساسها في كل حالة ما إذا كانت الوقائع التاريخية التي تحكيها هذه القصص وقائع حقيقية أو مزيفة ، لأن ما نعرفه عن الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وعن تاريخ القبائل هناك ، قليل جدّاً ، وكذلك فإن القصص القليلة نسبيّاً ، والقصيرة جداً في كثير من الأحيان ، والتي تخبر عن عصور إسلامية ، لها في الغالب طابع الحكاية المسلية ، ولذلك يندر أن يعثر عليها في أعمال المؤرخين ، هذا إلى أن بعض الأخبار قد قام بوضعها اللغويون ليعللوا بها مثلاً من الأمثال»[2] .

ثم جاء الدكتور عبد المجيد عابدين فبالغ في هذا المذهب قائلاً : «فلا شك أن طائفة كبيرة من هذه الأمثال كانت هي الأصل ، ثم لُفِّقت لها القصص بعد ذلك لشرحها وتفسيرها . . . ومع ذلك كان هناك

---

(١) انظر أمثال العرب لفريتاج (العصر الذي نشأت فيه الأمثال) .

(٢) الأمثال العربية القديمة ٥٠ (المترجم) .

فئة من الرواة يتعقبون أصول هذه الأمثال ، يرون أن ذلك من كمال صناعتهم ، ومن موجبات حرفتهم . وفي هذا المجال كان « الاجتهاد » في تفسير الأمثال يلعب دوراً كبيراً في أقوال الرواة ، فإذا نظرنا إلى القصص الواردة في أمثال الضبي لا يسعنا إلا أن نسأل في شيء من الدهش : كيف وصلت هذه الأمثال إلينا مقترنة هكذا بقصصها ومواردها ، كأن الناس كانوا لا ينطقون الأمثال إلا ومعها هذه القصص ؟ ! والرأي أن كثيراً من هذه القصص إنما جاء بعد تعرُّف الأمثال ، وذلك حين بحث العلماء والرواة في أصول الأمثال ومناسباتها ، قد تكون موضوعة في عهود جاهلية ، وقد تكون حادثة فيَ الإسلام ، ولكننا على كل حال لا نجزم بأن هذه القصص صحيحة كلها»[1] .

أما رأينا في هذه القصص فيتلخص في النقاط التالية :

١ - أنها قامت على أحداث تاريخية مشهورة ، أو وقائع حقيقية ، ردَّدها الشعر وهو « ديوان العرب » وسجل حياتهم ، وسَجَّلتها كتب التاريخ والأنساب والآداب ، وهذا التردد والتواتر في النصوص العربية يشهدان بصحتها .

٢ - أنها قديمة قدم الأمثال نفسها ، وكان العرب في الجاهلية يعرفون تفاصيلها ، ويتداولونها بينهم ، ويروونها جيلاً عن جيل ، حتى انتهت إلى عصر التدوين ، وهذا الرأي هو الأشبه بالحق ، والأقرب إلى العقل والمنطق ، لأن هؤلاء العرب كانوا يعاصرون هذه الأحداث والوقائع ، بل ويصنعها بعضهم ويشترك فيها . أما القول بتلفيق الرواة لهذه القصص ، أو وضع اللغويين لها فهو قول

---

(١) الأمثال في النثر العربي القديم ٣٧ .

مرفوض ، لأنه لا يستند إلى دليل علمي أو عقلي ، ويتجافى مع الواقع والمنطق السليم .

٣ ـ أن العلماء الذين عُنوا بتدوين الأمثال وتفسيرها اجتمعت أقوالهم على صحة هذه القصص ، فرووها في كتبهم ، ونقلها بعضهم عن بعض ، وكما نجدها في كتب الرعيل الأول من هؤلاء العلماء ، وهم صحار بن عياش ، وعبيد بن شرية ، وعلاقة بن كرشم ، نجدها كذلك في كتب من أتى بعدهم ، كأبي عمرو بن العلاء ، والشرقي ابن القطامي ، والمفضل الضبي ، ويونس بن حبيب ، وأبي عبيدة ، وأبي زيد ، والأصمعي ، والقاسم بن سلام ، وغيرهم من علماء اللغة والأدب والأخبار . ومثل هؤلاء العلماء لا يمكن وصفهم بالغفلة وعدم التمييز بين صادق الأخبار وكاذبها ، كما لا يمكن وصفهم بالتلفيق والتزوير في الأخبار والمأثورات الأدبية . وكيف يمكن ذلك وهم الذين نقلوا إلينا اللغة ، مفردات وتراكيب ، ونقلوا الشعر الجاهلي وما يتصل به من أخبار ، ونقلوا الأمثال والخطب والوصايا . فإذا جاز لنا أن نرفض ما نقلوه من أصول الأمثال وأسبابها ، وأن نصمه بالتلفيق والتزوير والوضع ، جاز لنا ، قياساً على ذلك ، أن نرفض كثيراً مما قالوه عن اللغة وآدابها ، وجاز لنا من ناحية أخرى ، أن نرد كثيراً مما قاله المؤرخون والنسابون ، وهذا أمر لا يرتضيه عاقل .

٤ ـ أن ندرة القصص والأخبار الإسلامية التي تتصل بالأمثال في كتب التاريخ الإسلامي ليست دليلاً على افتعالها واختراعها ، كما يذهب إلى ذلك « زلهايم » ، لأن هذه الكتب إنما تؤرخ للخلفاء والملوك والولاة والحكام ، أولئك الذين جرت على أيديهم وقائع وأعمال كبرى ، غَيَّرت من مجرى التاريخ ، ولا شأن لها بمن

عداهم من رؤساء القبائل والعشائر أو عامة الناس ، وهم الذين كانت الأمثال تدور حولهم غالباً .

٥ - أن نظرية التلفيق والتزوير والانتحال في النصوص العربية بصفة عامة نظرية تقوم على التخمين والتكلف ، واعتساف الأدلة ، وتصيد الأسباب ، ولم يقم عليها حتى الآن دليل قاطع من أقوال العلماء الثقات ، ولا من وقائع التاريخ العربي ، فكيف يجوز لنا أن نتبنّاها ونسترشد بها في دراسة اللغة العربية وآدابها ؟ !

وبعد هذا نقول : إن لهذه القصص والأخبار قيمة أدبية جليلة ، يمكن تفصيلها فيما يلي :

١ - أنها تُعين على فهم الأمثال فهماً دقيقاً ، وذلك بتفصيل الأحداث التي تكتنفها ، كما أنها تعين على تحديد مضاربها واستخدامها في الكلام استخداماً سليماً .

٢ - أنها ساعدت الأمثال في الكشف عن جوانب شتى من حياة العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، وهي جوانب لا تستطيع الأمثال ، بإيجازها الشديد ، أن تجليها وتلم بكل تفاصيلها .

٣ - أنها حددت لنا ، إلى درجة كبيرة ، العصور الأدبية والبيئات المكانية للأمثال ، عن طريق التعريف بالأعلام والأحداث التي تتضمنها ألفاظ الأمثال .

٤ - أنها أضافت إلى الأدب العربي نوعاً فريداً وبارعاً من النثر الفني ، زاخراً بمعالم الحياة العربية في العصر الجاهلي ، وهو الذي نوهنا به فيما مضى ، وعددناه من البذور الأولى للقصة العربية .

الباب الثالث

دراسة اجتماعية للأمثال العربية

الفصل الأول

الأخلاق الفردية والاجتماعيّة

تتجه الأمثال في تناولها للأخلاق ، الفردية والاجتماعية ، اتجاهاً يخالف اتجاه الشعر ، ذلك أن الأمثال حكمة الأمة أو الشعب ، والحكمة تتوخى الموعظة والنصيحة دائماً ، وتحثُّ على الفضائل ، وتنفر من الرذائل . أما الشعر ، إذا استثنينا منه شعر الحكمة والأمثال ، فإن وظيفته الأولى تَهييج العواطف ، وإثارة الانفعالات ، بغض النظر عن الحق والباطل ، والخير والشر . ومن ثم وجدنا معظمه يقوم على الكذب والمبالغة والتهويل وتزييف الواقع حتى قيل عنه : « أعذبه أكذبه » .

فإذا درسنا خلقاً كالجود عند العرب وجدنا أمثالهم تدعو إليه ، وتبيِّن عوائده على الفرد والجماعة ، ثم تذم البخل وتحذِّر من عواقبه الوخيمة ، كل ذلك بأساليب هادئة رزينة ، تبدو فيها آثار التدبر والتعقل والفكر العميق .

أما الشعر فإنه لا يتكلم عن الجود نفسه ، وإنما يذكره في معارض الفخر والمدح والرثاء ، على أنه خلق من الأخلاق التي يتحلى بها الشاعر نفسه أو قبيلته أو الممدوح أو المَرثي ، ويذكره بكثير من المبالغة والتهويل . ويلاحظ من يدرس الشعر العربي في الجاهلية أنه

قد بالغ أشد المبالغة في وصف العرب بالجود ، بحيث جعل معظمهم أجواداً كرماء ، ولكن هذا غير الواقع الذي أثبته القرآن الكريم ، وأشارت إليه الأمثال العربية .

ومن ثَم كان على من يريد أن يدرس الحياة الخلقية عند العرب في الجاهلية ألا يقتصر على الشعر وحده ، بل يضم إليه الأمثال حتى يخرج بصورة متكاملة صادقة عن هذه الحياة .

الأخلاق الفردية

حفظ اللسان

لما كان اللسان أهم أسباب سعادة الإنسان أو شقائه اهتم العرب في أمثالهم بالدعوة إلى حفظه ، وحذَّروا من غوائله ، وما يجره على الإنسان من وخيم العواقب .

فصوَّروه تارة في صورة العدو الفاتك ، حيث يقول أحد حكمائهم : « إيَّاك وأن يضربَ لسانُك عنقك » وحيث يقول أكثم بن صيفي : « مَقْتل الرجل بين فَكَّيه »[1] وحيث يقولون : « رُبَّ قول أشدُّ من صَوْل » ويقول أحد شعرائهم :

رأيتُ اللسانَ على أهله　　　إذا ساسه الجهلُ ليثاً مُغِيرا

كما اتخذت أمثالهم مناهج أخرى للدعوة إلى حفظ اللسان ، تتمثل في الأمر بالصمت ، والاقتصاد في الكلام ، والصدق ، وكتمان السر .

أما الأمر بالصمت فيقولون فيه : « الندمُ على السكوت خيرٌ من الندم على القول » ، و « عَيٌّ صامت خير من عَيٍّ ناطق »[2] ، و « لكلِّ

---

(١) الفكان : اللحيان . ويريد بما بينهما اللسان .

(٢) العَيّ ـ بفتح العين ـ العاجز عن البيان والإفصاح .

ساقطةٍ لاقطة »[1] ، و « رُبَّما أعلم فأذر »[2] ، و « البلاءُ موكَّل بالمنطق » .

وأما الدعوة إلى الاقتصاد في الكلام والإقلال منه فمن أمثالهم الرائعة فيه قول أكثم بن صيفي : « المِكْثار كحاطب الليل » وشبهه بحاطب الليل ، لأنه ربما نهشته حية ، أو لسعه عقرب ، وهو يحتطب ، فكذلك المكثار ربما أصابه من جراء إكثاره بعض ما يكره .

ومن حكمهم الرائعة أيضاً في هذا قول بعض الأعراب : « إنما جُعلتْ لك أذنان ولسان واحد ، ليكون استماعك ضعفَيْ كلامك » .

ويَروون عن عَلْقمة بن عُلَاثة ، وهو من حكماء العرب في الجاهلية ، أنه قال : « أول العِيّ الاختلاط ، وأسوأ القول الإفراط »[3] .

ومن أمثالهم الموجزة في التحذير من كثرة الكلام قولهم : « مَنْ أكثر أَهْجَر »[4] و « أَفْرَط فأسْقَط »[5] .

وأما الصدق فإن العرب كانوا يفطنون إلى قيمته الخلقية ، وأثره في الكشف عن الحقيقة ، ولذلك قالوا في أمثالهم : « الكذبُ داء ، والصدقُ شفاء » ذلك أن الكذب يغرِّر بالمكذوب ، ويغطِّي عليه الأمر ، ويجعله يخطىء في تقدير الموقف ، فتطيش أحكامه فيه . وأما الصدق

---

(١) معناه : أن الكلمة الرديئة قد تسقط من فم الإنسان ، وهو لا يأبه لها ، فيلتقطها لاقط ، ويشيعها بين الناس ، فيتورط قائلها في المصاعب .

(٢) معناه : أنني ربما تركت ذكر الشيء وأنا به عالم ، لما أحاذر من مغبة ذكره .

(٣) الاختلاط : التخليط في الكلام . ويروى « الاحتلاط » بالحاء المهملة ، وهو الغضب ، والإفراط : المبالغة في الكلام والإكثار منه .

(٤) الهجر : قبيح الكلام .

(٥) معناه : أكثر من الكلام فكثر خطؤه وسقطه .

فإنه يجعل المَصدوق يعمل على بصيرة من الأمـر ، وعلى تقديرٍ يكون فيه مصيباً ، وذلك هو داء الكذب وشفاء الصدق .

وفي هذا المعنى ورد عن العرب ثلاثة أمثال أخرى هي قولهم : « لا يَعـرف المكـذوبُ كيفَ يَـأتمـر»[1] ، وقـولـهم : « لا رأيَ لمكـذوب »[2] و « لا يكذبُ الـرائدُ أهلَه » . والـرائد هـو الرجـل الذي يختاره القوم ليرتاد لهم كلأً أو منزلاً أو ماء أو حِرْزاً يلجئون إليه من عدو يطلبهم ، فإن كَـذَبهم أو غَرَّهم جاء تـدبيرهم لأمـورهم على خـلاف الصواب ، فكانت فيه هَلَكتهم .

وكانوا يعدون الصدقَ من أسباب عزة الإنسان وكرامتـه ، والكذبَ من دواعي ذلته ومهانتـه ، إذ قالـوا في مثل : « الصـدقُ عِزٌّ ، والكـذبُ خضـوع » وهـذا أمر بديهي ، لأن الصادق لا يستطيع أحد أن ينـال منه منالاً ، بينما يكون الكذاب عرضة للنيل من كرامته ، وتحقير شأنه كلمـا تبين كذبه . والـرجل الـذي يُعرف بـالصدق يصـدقه النـاس في كل مـا يقول ، حتى ولو كذب مرة أو مـرات ، وأما الـذي يعرف بـالكذب فـإنه يُكَـذَّب حتى ولو كـان صادقـاً ، وعَرف العـرب هذه الحقيقـة فضمنوهـا قولهم : « مَن عُرِف بالصدق جـاز كذبُـه ، ومن عُرِف بـالكذب لم يَجـز صدقُه » .

وكانوا يـرون أن الكذب ضـار دائماً ، وأن الصـدق نافـع دائماً ، ومن ثَم حـذروا من الكذب ، وأغـروا بالصـدق فقالـوا : « دَع الكـذبَ حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك ، وعليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك

---

(١) الائتمار : تدبر الأمر وتنفيذه .

(٢) معنى المثل : أنه لا رأي له ينتفع به .

فإنـه ينفعـك » ، ويؤكـد هـذا المعنى قـولهم في مثـل آخـر : « سُبَّني واصْدُق » ، لأن معناه: أني لا أبالي بما تسبني بـالذي أعـرفه من نفسي بعـد أن تُجانب الكـذبَ ، فجنِّبني الكـذبَ وإن كـان نـافعـاً ، وعليـك بالصدق وإن كان ضاراً .

ويشهِّر مثل من أمثالهم بالكذاب الذي يزيف الحقيقة ، ويخـالف الواقع ، فيكـون عرضـة للتناقض في أقـواله، والتخبط فيهـا ، وينصحه هذا المثل بأن يكون على ذِكْـر بما يقـول حتى لا يخجل عنـدما يـواجَه بالحقيقة ، وهو قولهم : « إذا كنت كَذُوباً فكن ذَكُوراً » .

وأما كتمان السر فقد تشـدد العرب في النصـح به ، ذلـك أن سر الإنسان يكون ملكاً له وحده ما دام مكتوماً في صدره ، فإن باح به لغيره خرج من حَوْزته، وتسرب هنا وهناك ، وربما جرَّ عليـه هذا التسـرب ما لا تُحمـد عقباه . وفي هـذا المعنى يقولـون : « صَدْرُكَ أوسـعُ لسـرك » ويقولون : « أملكُ الناس لنفسه من كَتم سـرَّه عن صديقـه وخليله » لأنه ربما تغير ما بينهما من الصداقة والمودة ، فأفشى صديقُه سِـرَّه ، وجلب عليه بذلك ما لا يحب .

وبلغ من تشـدد العرب في النصـح بكتمان السـر ، والتحذيـر من إفشائه أن عَدُّوه بعض دم الإنسـان الذي تقـوم عليه حيـاته ، فقـالوا في مثـل : « سِرُّك من دمـك » ، ومن ثَم تجب المحافـظة عليـه كمـا تجب على الحياة نفسها . وقد أخذ أبو مِحجن الثقفي معنى المثل فقال[1] :

وأَطْعُنُ الطعنةَ النجلاءَ عن عُرُضٍ   وأكتمُ السـرَّ فيه ضـربـةُ العُنُقِ

وكان الواحد منهم إذا باح لآخر بسر من أسراره شَدَّد عليه الوصيةَ

---

(١) البيت في ديوانه ٢٦ ، والشعر والشعراء ٣٣٨ ، وكتب الأمثال .

بكتمانه وقال له : « اجعل هذا في وعاء غير سَرِب » وكأنه يقول له : اكتمه بحيث لا يتسرب منه شيء ، ولا يكن عندك كالسقاء الذي يتسرب منه الماء ويسيل .

الصبر :

فطن العرب في الجاهلية إلى أن الحياة مليئة بالمصائب والمحن ، وأن الإنسان بضعفه لا يستطيع مقاومتها ، ولا التغلب عليها ، وأنه لا سبيل أمامه إلا الصبر وتوطين النفس على المكاره ، فقالوا : « مَنْ حَدَّث نفسه بالبقاء فليوطِّنْ نفسَه على المصائب » وقال أكثم بن صيفي : « حِيلةُ من لا حيلةَ له الصبرُ » ، ومعناه أن من لم يقدر على دفع المكروه عن نفسه يستطيع أن يفعل شيئاً آخر خيراً له منه ، وهو أن يصبر عليه ، فينتفع بثواب الصبر وحسن الأحدوثة . كما فطنوا إلى أن هذه المصائب والمحن لا تلبث أن تنكشف وتزول ، فالأولى بالإنسان أن يصبر عليها لا أن يجزع منها فقالوا : « غَمَراتٌ ثم يَنْجلينَ »[1] .

وكانوا يرون أن أية مصيبة تصيب المرء وراءها ما هو أكبر منها وأدهى ، ومن ثَم فعلى العاقل أن يصبر على مصيبته ، ويرضى بها ، وفي ذلك يقولون : « بعضُ الشر أهونُ من بعض » ، و« إن في الشرِّ خِياراً » .

ولهم في حسن احتمال البلاء والصبر عليه ، وعدم الجزع منه أمثال أخرى ، تصف مصائب أصابت بعضهم فثبت لها حتى مرت بسلام ، منها قولهم : « كانت وَقْرة في حَجَر » والوقرة : حفرة صغيرة

---

(١) الغمرات : الشدائد . وانجلاؤها : انكشافها وانفراجها .

تكون في الحجر وغيره . ومعناه أن المصيبة لم تَهدمه ولم تَهده ، ولم تذهب بقوته ، ولم تؤثر فيه إلاّ كما تؤثر تلك الحفرة في الحجر الضخم . وقولهم : « كان جُرْحاً فبَرِىء » ، وهذا المثل لحكيم منهم ، وقد أصيب بابن له ، فبكاه حولاً ، ثم سئل عن حاله بعده فقال هذه المقالة ، وقولهم : « أساف حتى ما يَشْتَكي السَّوَاف »[1] ، ومعناه أن هذا الرجل اعتاد جوائح الدهر وصروفه ، ومرن عليها حتى أصبح لا يجزع منها ولا يشكو .

أما حكمهم الشعرية والنثرية في الصبر فأكثر من أن تحصى ، وقد ذكرت كتب الأمثال من الحكم النثرية قولهم : « إن شراً من المرزئة سوء الخَلَف منها » ويعنون بسوء الخلف الجَزَع ، وقولهم : « المصيبةُ للصابر واحدة ، وللجازع اثنتان » .

وكانوا يشبهون الصابر بالجمل ، إذ كان عندهم مضرب الأمثال في الصبر ، ولذلك قالوا : « أصبرُ من ذِي ضَاغط »[2] و « أصبرُ من عَوْدٍ بدَفَّيْه جُلَب »[3] .

القناعة :

من يتتبع الأمثال العربية يجدها تدعو إلى القناعة والرضا بالمقسوم من الرزق مهما كان يسيراً ، كما تدعو إلى عدم التطلع إلى ما في أيدي الناس والزهد فيه ، لأن التطلع يُرهق النفس ، ويعرضها للذلة

---

(١) السواف : ذهاب المال وهلاكه .

(٢) ذو الضاغط: البعير الذي يَضغط إبطُهُ أصلَ كِرْكِرته فيدميه .

(٣) العَوْد : الجمل المسن . والدفان : الجانبان . والجلب : جمع جلبة ، وهي القرحة التي تقارب البرء .

والمهـانة ، يقـول أكثم بن صيفي : « غَثُّك خيـر من سَمِين غيرك »[١] ، ومعناه أن قليلك إذا قنعت به كان خيراً لـك من كثير غيـرك ، تمتد إليـه عينك فتذل بذلك وتهون . ويقول آخر : « يكفيك نصيبُك شُحَّ القـوم » أي إن حـظك الذي قسمـه الله لك إن استغنيت بـه عن مسـألـة النـاس كفـاك ، وحقن ماءَ وجهـك من أن يُراق لـدى البخلاء والأشحـاء . وفي معنى هذا المثل يقول المَرَّار بن مُنقذ[٢] :

وإن قُـرابَ البَـطْن يَكْفيـكَ مَلْؤُهُ   ويكفيكَ سَوْءاتِ الرجالِ اجتنابُها

وكانوا يعدون القناعة من أسباب عـزة الرجـل وشرفـه وكرمـه على أهله ، ويقولون في ذلـك : « عزُّ الـرجل استغنـاؤه عن الناس » ، و « شرُّ الفقـر الخضـوع ، وخيـر الغنى القنـوع » ، و « من استغنى كَـرُم على أهله » .

أما الطمع فكانوا يعدونه من أسباب الذلة والمهانة ، ويقـولون في أمثـالهم : « تُقَطِّع أعنـاقَ الرجـال المطامـعُ » ، و « أذلَّ الحرصُ أعنـاقَ الرجال »[٣] ويقول شاعرهم[٤] :

رأيـتُ مَخِـيلةً فـطَمِـعْتُ فـيـهـا   وفي الـطمـع المَـذَلَّـةُ للرقـابِ

بـل كانـوا يجدونـه سبيلاً إلى الـدَّنَس والعيب ، وهاديـاً إليهمـا ، ويقولون : « رُبَّ طمع يَهدي إلى طَبَع »[٥] ويقول ثابت قُطْنة[٦] :

---

(١) أصل الغث : اللحم المهزول ، والسمين : ضده .

(٢) قراب الشيء : ما قارب قدره .

(٣) عجز بيت لأبي العتاهية ، صدره « تعالى الله يا سلم بن عمرو» .

(٤) جمهرة الأمثال ١ /٢٧٨ .

(٥) الطبع : الدنس والعيب .

(٦) الغفة : البلغة من العيش .

لا خيرَ في طمعٍ يُدْني إلى طَبَعٍ
وغُفَّةٌ من قِوَامِ العَيْش تَكْفِيني

والحرُّ يصون نفسه عن دنيء المكاسب ، ويَربأ بها عما يدنسها ، ويضع من قدرها ، حتى ولو كان فقيراً مُعدماً ، وقد ألمت الأمثال العربية بهذا المعنى ، ففي مثل مشهور لهم « تجوعُ الحرةُ ولا تأكل بثديَيْها » ويقصدون بالأكل بالثديين إرضاعَ الأطفال بالأجر ، والحرة تؤثر الجوع على أن تكون ظئراً تُستأجر ، ذلك أن الإرضاع عند العرب كان من عمل الإماء والخدم ، أما الحرائر فكن لا يَمْتَهِنَّ هذه المهنة مهما ساءت حالهن . وفي مثل آخر « سُوءُ حَمْلِ الفاقة يَضع الشرف » فالفقير إذا لم يستعفّ ، وتعرض للسؤال حَطَّ ذلك من شرفه ، وفي معناه يقول الشاعر[1] :

ولقد أبيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّهُ حتى أنالَ به كريمَ المَأْكَلِ

ويقول الآخر :

فَتًى كان يُدنيه الغِنَى من صَديقِه إذا ما هو اسْتَغْنَى ويُبْعِدُه الفَقْرُ

والشراهة والجشع وحب الطعام من أقبح صور الطمع وأرذلها ، والعرب تستنكر هذا الخلق ، وتنفر منه ، وتقول في أمثالها : « رُبَّ أكلةٍ تمنع أكلاتٍ » وأصله أن رجلاً أكل طعاماً كثيراً ، فبَشم وترك الطعام أياماً . ويقول شاعرهم :

ورُبَّتَ أَكْلَةٍ مَنَعتْ أخاهَا بلَذَّةِ ساعةٍ أَكَلاتِ دَهْرِ

ويقول النابغة الذبياني[2] :

---

(١) الطوى : الجوع ، ومعناه أني أبيت جائماً ، وأستمر على ذلك حتى أنال مع الجوع مأكل الكريم ، فلا يتضع شرفي ، ولا تنحط درجتي .
(٢) ملحق ديوانه ٩٨ ، واللسان والأساس (ذبح) والذباح : القتل ، ونبات من السم .

واليأسُ عما فات يُعْقِبُ راحةً ولَرُبَّ مَطْعمةٍ تكون ذُبَاحَا

ثم صوروا الشَّرِهَ في أمثالهم بصور تنفر منها النفوس ، فقالوا : « لا تَجْعَلْ شِمَالَك جَرْدَبانا »[1] ، و« أراد أن يأكل بيدَيْنِ »[2] ، و« وَحْمَى ولا حَبَل »[3] وهذه الأمثال ، وإن كانت أصولها في ذم الشراهة وحب الطعام ، تضرب أيضاً في ذم التكالب على جمع المال .

الشجاعة والفروسية والفتك :

في مجتمع كالمجتمع العربي في الجاهلية تصير الشجاعة وجرأة القلب ضرورة تحتمها الظروف ، وخلقاً تفرضه طبيعة الحياة . ذلك أن هذا المجتمع كان الناس يعيشون فيه دون حراسة من قانون أو حاكم ، وكان معظم العرب حنيذاك يسكنون البوادي والصحارى عرضة للمعتدين ، وهدفاً للوحوش ، لا تحميهم من هؤلاء وأولئك بيوت أو أسوار ، هذا فضلاً عن الحروب المتصلة ، والغارات المتتابعة التي أرهقت هذا المجتمع ، ومزقت أوصاله[4] .

ومن ثَم لم يكن أمام العربي ، لكي يحمي نفسه وأهله وماله وسط هذه الظروف القاسية ، إلَّا أن يعتمد على نفسه وسيفه ورمحه ، أو أن يلجأ إلى جارٍ يجيره ، أو حليف يحميه . وكل هذا يقتضي الشجاعةَ والجرأة ، والتهيؤ لركوب الأهوال ، واقتحام الأخطار .

---

(١) الجَردبان : الذي يستر الطعام بشماله لئلا يراه أحد فيأخذه من بين يديه .

(٢) يضرب لمن له مكسب من وجه ، فَيَشْرَه إلى وجه آخر .

(٣) الوِحام : شهوة الحبلى خاصة . ويضرب للشهوان ، ومعناه أنه لا يذكر له شيء إلا اشتهاه ، وكذلك الوحمى من النساء ، تشتهي أكل كل شيء .

(٤) انظر في الشجاعة عند العرب ودواعيها ومظاهرها «الفتوة عند العرب» للأستاذ عمر الدسوقي ٢٦ ـ ٥٨ وقد أوفاها ما تستحق من دراسة وتحليل .

وكان العرب كذلك حقاً ، حتى أصبحت الشجاعة من أخلاقهم الشائعة التي بها يفخرون ويمدحون . وقد فطن إلى ذلك العلامة ابن خلدون فقال : « وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في النواحي ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يكلونها إلى سواهم ، ولا يثقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع إلَّا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ، ويتوجسون للنَّبْآت والهَيْعات ، ويتفردون في القفر والبيداء ، مُدِلِّين ببأسهم واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً ، والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داعٍ أو استنفرهم صارخ »[1] .

وإذا تصفحنا الشعر العربي في الجاهلية ، ولا سيما شعر الحماسة ، وجدنا الافتخار بالشجاعة ، والمدح بها، يمثلان خطاً بارزاً فيه ، يكاد يتخلل جميع قصائده[2] .

وإذا تجاوزنا الشعر إلى الأمثال وجدناها تدعو دعوات قوية إلى الشجاعة ، وركوب متون الأهوال واقتحام جسام الأمور ، فمثَلُ منها يقول : « اكْذِب النفسَ إذا حدثتَها » ، ومعناه : لا تحدث نفسك عند الأمر الجليل بأنها لن تستطيعه ، فإن ذلك يثبطها عن ركوبه ، ولكن حدِّثها بالقدرة عليه حتى تعينك على الظفر به . وآخر يقول : « الشجاعُ مُوَقًّى » وفي معناه يقول الزِّبرقان بن بدر[3] :

---

(١) المقدمة ٢/٤١٨ ، ٤١٩ (تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي) .

(٢) انظر بعض هذا الشعر في « الفتوة عند العرب » لعمر الدسوقي ، و « الحياة العربية من الشعر الجاهلي » للدكتور أحمد الحوفي ٢٤١ ـ ٢٥١ .

(٣) اللسان (ثفر) .

تَعْدُو الذئابُ على من لا كِلَابَ لَهُ وَتَتقِي مَـرْبِضَ المُسْتثفـرِ الحَـامِي

ويقول شَبِيب بن البَرْصاء[1] :

تـأخرتُ أستبقي الحيـاةَ فلم أَجِدْ لنفسي حيـاةً غيـرَ أن أتقـدمَـا

ومن ناحية أخرى نجد الأمثال تحذر من الجبن ، وتنفر من عواقبه الوخيمة ، إذ يقول مثل : « إن الجبانَ حَتْفُهُ من فوقه » . فـالجبان مهمـا حـذر الموت ، لا ينجيـه منه حـذره ، لأن منيته إنمـا تأتيـه من حيث لا يستـطيع لهـا دفعاً ، وبحيث لا يستـطيع منهـا فِراراً ، وكيف وهي تـأتيه بقدَر من السماء ؟! ويقول مثل آخر : « الصدق يُنْبي عنـك لا الوعيـدُ » والمراد بالصدق هنا صدقُ اللقاء ، ومعناه أن الذي يُبعد عنك عـدوك ، ويدفع أذاه عنك إنما هو أن تلقاه ، وأن تواجهه بشجـاعة ، لا أن تكتفي بتهديده وتوعّده بالمقال من غير فعل .

وكانوا يقولون للجبان الذي يُوعِد ، ولا يُوقع بعدوه العقاب الـذي يَردعه : « أسمعُ جَعْجَعة ولا أرى طِحْناً »[2] ، كما يقولون : « أوسعتَهم سَبًّا وأودَوْا بالإبل » ، وأصل هذا المثل أن بعض بني أسـد استاقـوا إبلاً لزهير بن أبي سُلمى ، فأخذ يتهـددهم ويسبهم بالشعـر ، فلما أكثـر من ذلـك ، وهم لا يكترثـون لقولـه ، قال لـه ابنـه كعب : « أوسعتَهم سَبًّـا وأودَوْا بالإبل » .

ولما كان الأسد أشجعَ حيوان عرفوه وأجرأه شبهـوا به كـل شجاع جريء القلب ، فقالوا في أمثالهم : « أجرأُ من ذي لِبَد » ، و« أجرأ من قَسْورة » ، و« أشجع من أُسَامة » .

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي ١/ ١٩٠ .

(٢) الجعجعة : صوت الرحى . والطحن بكسر الطاء : الدقيق .

وإذا كانت حياة العرب ، وظروفهم الاجتماعية قد حَتَّمت عليهم أن يكونوا شجعاناً ، فإن هذه الحياة وتلك الظروف قد فرضت عليهم أيضاً أن يكونوا فرساناً ، ذلك أن حروبهم التي لم تتوقف أرحاؤها كان لا يغني فيها شيء من العتاد والسلاح غَناء الخيل التي بها يقاتلون ، وعليها يكرون ويفرون .

وكذلك كان من أعمالهم الصيد ، ومطاردة الأوابد والوحوش ، وحراسة اللطائم والقوافل التجارية التي تمرّ بديارهم ، وإجارتها من المغيرين عليها مقابل أجور تدفع لهم من أصحابها ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا كثيراً ما يتلَهَّون بخيولهم ، فيُجرونها في الخلاء ، أو يتسابقون بها متراهنين على هذا السباق[1] .

ولما جاء الإسلام ، واحتيج في الدفاع عنه ونشره إلى القوة والعدة ، كانت الخيل في مقدمة أسباب هذه القوة ، ومن ثَم أمر اللَّه تعالى بإعدادها وارتباطها لقتال الكفار والمنافقين فقال : ﴿ **وأَعِدُّوا لهم ما اسْتَطَعْتُم من قُوَّةٍ ومن رِباطِ الخيلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عدوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾[2] ، ثم امتدحها رسول اللَّه ﷺ ، وأمر برعايتها والدعاء لها فقال : « الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة ، وأهلُها مُعَانون عليها ، فامسحوا نواصيَها ، وادعوا لها بالبركة » .

كل هذه المهام التي نيطت بالخيل جَعلت العرب أمة تعتز بها ، وتهتم برعايتها وتربيتها وترويضها ، فكانوا يُفَدُّونها بالآباء والأمهات ،

---

(١) انظر : الفروسية في الشعر الجاهلي لنوري حمود القيسي (بغداد ١٩٦٤) والشعراء الفرسان لبطرس البستاني (بيروت ١٩٤٤) والفروسية العربية في الشعر الجاهلي للدكتور سيد حنفي (سلسلة اقرأ ٢١١) .

(٢) سورة الأنفال ٦٠ ، والرباط : اسم للخيل التي تربط في سبيل الله .

ويؤثرونها بالطعام على الأولاد ، يقول عبيدة بن ربيعة التميمي فيها[1] :

مُـفَـدَّاةٌ مُـكَـرَّمَـةٌ عـلـيـنـا   يُجـاعُ لهـا العِيَـالُ ولا تَجُـوعُ

وكانوا ينصحون بصيانتها وإكرامها ، ويحذرون من إهمال أمرها ، وعدم ترويضها ، يصور ذلك قول أخي بني عامر لقومه :

بَنِي عامرٍ ماذا أرى الخيلَ أَصْبَحَتْ   بطاناً وبعضُ الضُرِّ للخيلِ أَمْثَلُ
بني عـامـر إن الخيـول وقـايـةٌ   لأنفسكم والمـوتُ وقتٌ مُؤَجَّـلُ
أَهِينُـوا لها مـا تُكْرِمُـونَ وبـاشِـرُوا   صيـانَتَها والصَّـوْنُ للخيـلِ أَمْثَـلُ
متى تكـرموهـا يُكْرِمِ المـرءُ نفسَه   وكلُّ امرىءٍ من قومه حيث يَنْـزِلُ

وبلغ من إعـزازهم لها أنهم كـانوا يعـدونهـا حصـونـاً ومعـاقـل ، يحتمون بها ، ويلجئون إليها ، كما قال الأسعر الجُعْفي[2] :

ولقـد علمتُ على تَجَشُّمِيَ الرَّدَىٰ   أن الحصونَ الخيلُ لا مَدَرُ القُرَى

وكما قال لبيد[3] :

مَـعـاقِلُنَـا الـتي نَـأْوي إلـيـهـا   بَـنَـاتُ الأَعْـوَجِيَّـةِ والـسيـوفُ

لا غـرو ، إذن ، أن ينبغ في هـذه الأمة كثيـر من الفرسـان ، وأن تسير ببعضهم الأمثال في الفـروسية ، كعـامر بن الـطفيل ، وبسـطام بن قيس ، وعتيبة بن الحارث ، وأبي بَراء عامر بن مالك .

أما عامر بن الطفيل فهو ذلك الشاعـر المخضرم الشهيـر ، ويذكـر العلماء أنه كان أفرس أهـل زمانـه وأسودَهم ، وأنـه كان لـه منادٍ ينـادي

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢١٠ .
(٢) من الأصمعية ٤٤ ، والمدر : الطين اليابس ، ويريد بمدر القرى الحصون المبنية .
(٣) ديوانه ٣٥١ ، وروايته «لا السيوفُ» والأعوجية : منسوبة إلى أعـوج ، وهو فـرس سابق ركب صغيراً فاعوجت قوائمه ، وكان فحلاً كريماً تنسب الخيل الكرام إليه .

بعكاظ : هل من راجلٍ فأحملَه ، أو جائع فأطعمَه ، أو خائفٍ فأؤمنَه ؟[1] . وقد شهد له بالفروسية رسولُ اللّه ﷺ حين وفد عليه يريد الإسلام ، في حديث طويل فصَّلته كتب الأخبار والأمثال[2] .

وكان بسطام بن قيس فارسَ بكر ورئيسَها ، وكان يكنى « أبا الصَّهباء » ويذكر حمزة الأصبهاني أنه لم يكن في الجاهلية ولا في الإسلام أفرسُ منه[3] .

وكان عتيبة بن الحارث فارسَ تميم ، وكان يلقب « سَمَّ الفُرْسان » و « صَيَّادَ الفوارس » حتى غلب عليه هذان اللقبان دون اسمه ، وقال العرب عنه : أفرس من سَمِّ الفرسان »[4] و « أفرس من صَيَّاد الفوارس »[5] .

وأما أبو براء عامر بن مالك فكان فارسَ قيس ، وكانوا يلقبونه مُلاعبَ الأسِنَّة ، ويقولون عنه : « أفرسُ من مُلَاعِب الأسِنَّة »[6] .



وقد ظهر إلى جانب هؤلاء الفرسان جماعة من الفُتَّاك الذين اعتادوا قتلَ الناس مجاهرة ، أو على غرة منهم . ويبدو أن هذا الخلق لم يكن بالخلق المَرْضي عند العرب ، لأنه يجافي طبيعةَ العربي التي يغلب عليها الوفاء والنفور من الغدر والخيانة ، ولذلك رأينا بعض هؤلاء

---

(١) الدرة الفاخرة ١/٣٣٣ .

(٢) انظر : المثل « أغدة كغدة البعير وموتاً في بيت سلولية» في جمهرة الأمثالُ ١/١٠٢ ، وفصل المقال ٢٩٨ .

(٣) الدرة الفاخرة ١/٣٣٣ .

(٤) نفسه ١/٣٣٢ .

(٥) نفسه ١/٣٣٢ .

(٦) نفسه ١/٣٣٢ .

الفتـاك يخلعه أهله ، ويتبـرؤون من جرائـره وجنايـاته ، فيصبـح خليعـاً منبوذاً طريداً[1] .

وعلى الرغم من كثرة هـذه الفئة في الجـاهلية لم تسـر الأمثال إلَّا بثـلاثـة منهم هم : البـراض بن قيس الكِنـاني ، والحـارث بن ظـالم المُرِّي ، وعمرو بن كلثوم التغلبي .

أما البراض فكان يَجني الجنايـاتِ على أهله فخلعوه وتبـرؤوا من فعاله ، ففارقهم وهام على وجهـه في البلاد . وكـانت أشهر فتكـاته قتِلَه عروةَ الرحَّال ، في حديث طويل فصَّلته كتب الأمثال والأخبار[2] .

وكـانت أشهر فتكـات الحارث بن ظـالم قتلَه خالـدَ بن جعفـر بن كلاب ، وهو في جوار الأسود بن المنذر الملك[3] .

أما أشهر فتكات عمرو بن كلثـوم فما فعله بعمـرو بن هند في دار مُلْكه ، حيث هَتَكَ سرادقه ، وانتهب رحله وقتله . وكـانت هذه الفتكـة السبَبَ في إنشاد معلقته المشهورة[4] .

وإذ كانت هذه الفَتَكات الثلاث من مشاهير الأحداث والوقـائع في الجـاهليـة ضـرب العـرب بـأصحـابهـا الأمثـال فقـالـوا : « أفتـكُ من البَرَّاض » ، و « أفتكُ من الحـارث بن ظالم » ، و « أفتـكُ من عمرو بن كلثوم » .

---

(١) انظر في الفتاك وأخبارهم : المحبر لمحمد ابن حبيب ١٩٢ ـ ٢١٢ .
(٢) الدرة الفاخرة ١ /٣٣٥ ، والمحبر ١٩٥ . ١٩٦ .
(٣) الدرة الفاخرة ١ /٣٣٧ ، والأغاني ١١ /١٠٧ ، والكامل لابن الأثير ١ /٣٥٢ .
(٤) الدرة الفاخرة ١ /٣٧٩ ، والمحبر ٢٠٢ ـ ٢٠٤ ، والأغاني ١٠ /٥٣ ، ٥٤ ، والشعر والشعراء ٢٣٤ .

العزة والمنعة

كان المجتمع العربي في الجاهلية مجتمعاً قبلياً، يقوم على العصبيات والاعتداد بالأحساب والأنساب ووفرة الرجال. وطبيعي أن يكون الحَكَمُ في مثل هذا المجتمع هو القوة وحدها، وأن تكون الغلبة والعزة للأقوياء دون سواهم. ومن ثَم نشأ هناك طبقتان: طبقةُ الأعزة، وهي التي تمتلك أسباب القوة، من أعراق كريمة، ووفرة في العدد والثروة، وطبقةُ الأذلة، وهي التي لا تمتلك شيئاً من هذه الأسباب.

وتُبرز الأمثال العربية ظاهرة العزة والذلة في هذا المجتمع، وتنطوي على كثير من أسبابها ومظاهرها، وعلى أسماء بعض الأعزة والأذلة من العرب. فالمثلان «من قَلَّ ذَلَّ ومن أَمِرَ فَلَّ»[1] و«الذلةُ مع القلة» يفيدان أن كثرة أفراد القبيلة كانت من أسباب العزة عندهم، وأن قلتها كانت من أسباب الذلة، وفي ذلك يقول أبو هلال العسكري: «وكثرة العدد عندهم محمودة، وقلته مذمومة»[2]. والمثل «أذلُّ من قَيْسِيٍّ بِحِمْصَ» يفيد ذلك أيضاً، لأن العلماء يذكرون في تفسيره أنه لم يكن بحمص سوى بيت واحد من قيس، وأنهم كانوا أذلاء لذلك.

وإذا كانت كثرة أفراد القبيلة من أسباب عزتها فإن كثرة الإخوة في الأسرة كانت تكفل لها العزة أيضاً، يدل على ذلك قولهم: «من يَطُلْ أَيْرُ أبيهِ يَنْتَطِق به» إذ معناه: من كثر إخوته اعتزَّ بهم، واشتد ظهره، وأصبحوا له كالمنطقة التي تشد الظهر وتقويه.

وعند ورود المياه والمناهل تظهر عزة القبائل أو ذلتها، لأن

---

(١) أمر: كثر. وفل: غلب وهزم.

(٢) جمهرة الأمثال ٢/٢٣٥.

القبائل العزيزة كانت ترد أولاً ، فتحصل على ما تريد من الماء ، وتسقي أنعامها ، ثم تجيء بعد ذلك القبائل الذليلة . ويشير إلى هذه العادة قولهم : « آخرُها أقلُّها شُرْباً » ،ويقصدون بقولهم : « آخرها» إبلَ القبائل الذليلة لأنها آخر ما يرد من الإبل ، وكانت أقلَّ حظاً من الماء ، لأنها ترد وقد مضى الناس بصفو الماء ، أو ترد وقد نفد الماء . ويعلق أبو هلال العسكري على هذا المثل بقوله : « ولا يكون تأخير الورود عندهم إلا من ذل أو عجز »[1] ، ونجد هذا المعنى بوضوح في قول النجاشي يهجو بني العَجْلان[2] :

إذا اللّهُ عَادَى أهلَ لُؤْمٍ ودِقَّةٍ
فَعَادَى بني العَجْلَانِ رَهْطَ ابنِ مُقْبِلِ
قُبَيِّلَةٌ لا يَغْدِرُونَ بِذمَّةٍ
ولَا يَظْلِمُونَ الناسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ
ولَا يَرِدُونَ الماءَ إلا عَشِيَّةً
إذا صَدَرَ الوُرَّادُ عن كل مَنْهَلِ

وأكثر من هذا أن أصحاب الماء كانوا يقدمون إبل الأعزة في السقي على إبل غيرهم ، وكانوا يميزون بين هذه وتلك بالنار التي يُوسَم بها كل منها . ويدل على هذا بعض أمثالهم وأرجازهم ، إذ قالوا : « نِجَارُها نَارُها » أي أصل هذه الإبل وسمتها التي تعرف بها ما عليها من نار الوَسْم ، وقال راجزهم[3] :

* لا تَنْسُبُوهَا وَانْظُرُوا مَا نَارُها *

(١) جمهرة الأمثال ١/ ٨١ .
(٢) الشعر والشعراء ٣٣١ ، والعمدة ١/ ٣٧ .
(٣) اللسان (نور) .

وقال آخر[1] :

قَـد سُقِيَـتْ آبَـالُهُـمْ بـالـنـارِ   والـنـارُ قـد تَشْـفِـي مـن الأُوَارِ

وتـدعـو الأمثـال العـربيـة بشـدة إلى العـزة وإبـاء الضيم ، وأخـذ الحقـوق بالقـوة والقهر حيث تقـول : « مَنْ عَزَّ بَـزَّ »[2] ، و « من لا يَذُدْ عن حَـوْضه يُهَـدَّم » ، و « حلبتُها بـالساعـد الأشَدِّ »[3] ، و « المَنِيَّـةُ ولا الـدَّنِيَّة » ، و « النـارُ ولا العـارُ» وحيث يقـول مَعْن بن أوس في بيت من الأبيات السائرة[4] :

ويَـرْكَـبُ حَـدَّ الـسـيـفِ مـن أن تَـضـيـمَـهُ
إذا لـم يـكـن عـن شَـفْـرةِ الـسَّـيْـفِ مَـزْحَـلُ

وتقـول ليلى بنت طَـرِيف تـرثي أخـاهـا الـوليـد بن طـريف العَنْبَري[5] :

فَـتَـىً لا يُـحِـبُّ الـزادَ إلا مـن الـتُّـقَـى
ولا الـمـالَ إلا مـن قَـنـاً وسُـيُـوفِ

ومن نـاحية أخـرى تدل هـذه الأمثال على أنهم كـانـوا يحتقـرون الذليل ويمتهونه ، لأنهم شبهوه بكل ضعيف ممتَهن من الحيوان والنبات والجمـاد ، فقـالـوا : « أذلُّ من النَّقَـد »[6] ، و « أذل من البَـذَج »[7] ،

---

(١) اللسان (نور) .

(٢) عز : غلب . وبز : سلب .

(٣) ومعناه : أنني حين لم أقدر على أخذ حقي بالرفق أخذته بالقوة والشدة .

(٤) من قصيدة له في معجم الشعراء للمرزباني ٣٢٣ ، والمزحل : المندوحة .

(٥) البيت من كلمة لهـا في أمالي القالي ٢/ ٢٧٤ ، وينسب البيت لغيرها ، وانظر في تخريجه : فصل المقال ١٤٤ ، وسمط اللآلي ٩١٣ .

(٦) النقد : ولد الضأن .

(٧) البذج : ولد الضأن أيضاً .

و « أذل من حمـار قَبَّانٍ »[1] ، و « أذل من بَعِيـرِ سَانِيَـة»[2] ، و « أذلُّ من حمارٍ مُقَيَّدٍ » و « أذل من فَقْعٍ بقَرْقَرة »[3] ، و « أذل من قَرْملة »[4] و « ذليلٌ عاذ بقَرْمَلَة » و « أذل من وَتَدٍ بقاع » و « أذل من قِمْـع »[5] ، و « أذل من بَيْضة البَلَد»[6] ، و « أذل من النَّعْل» و « أذل من الشِّسْع» .

وتشير الأمثال إلى ذلة بعض القبائل وعزة بعضها ، فالمثـل « أَغدَّةً كغـدة البعير ومـوتـاً في بيت سَلوليـة !» يفيـد أن قبيلةَ سَلُول كـانت من القبائل الذليلة آنذاك ، يؤيد ذلك قول الشاعر[7] :

إلـى الـلّٰهِ أَشْـكُـو أنَّـنـي بِـتُّ طـاهـراً
فـجـاء سَـلُولِـيٌّ فَـبَـالَ عـلى رِجْـلِـي
فـقـلتُ اقـطَعُـوهـا بـاركَ الـلّٰهُ فـيـكُـمُ
فـإنـي كـريـمٌ غـيْـرُ مُـدْخِـلها رَحْـلي

والمثلان « أذل من النَّعْل» ، و « أذل من قراد بمَنْسِم » يدلان على ذلة قبيلة كُلَيب ، ذلك أن العلماء ذكروا أن الأول منهما مأخـوذٌ من قول البَعِيث[8] :

وَكُـلُّ كُـلَيْـبِـيٍّ صَـفِـيـحَـةُ وَجْـهِـهِ
أذلُّ لأقـدامِ الـرجـالِ مـن الـنَّـعْـلِ

---

(1) حمار قبان : ضرب من الخنافس .
(2) بعير السانية : هو الذي يستقي عليه الماء .
(3) الفقع : البيضاء الرخوة من الكمأة : والقرقرة : الأرض المنخفضة اللينة .
(4) القـرمل : شجر قصير لا ذرى له ، وواحده قرملة .
(5) القمع : الجزء المتصل بأعلى الثمرة ، يرمى فيوطأ بالأرجل .
(6) وهي التي يتركها الطائر في مفازة ، ويطير عنها ، ثم لا يرجع إليها .
(7) جمهرة الأمثال ١ /١٠٣ .
(8) من أبيات له في الشعر والشعراء ٣٧٢ .

وأن الثاني مأخوذٌ من قول الفرزدق[1] :

هـنـالـكَ لـو تبـغـي كُـلَيْبـاً وجـدتَـهـا
أذلَّ مـن الـقِـرْدَانِ تـحـتَ الـمَـنَـاسِـمِ

وكان بنو أنف الناقة من القبائل العزيزة ، لشرفهم وعدَدهم[2] ، ويشهد لعزتهم قول الحطيئة في بيت سائر[3] :

قـومٌ هـم الأنـفُ والأَذْنَـابُ غـيـرهُـمُ
وَمَـنْ يُـسَـوِّي بـأنـفِ الـنـاقـةِ الـذَّنَـبَـا

أمـا الأشخاص الـذين سارت بهم الأمثـال في العـزة والمنعـة من عرب الجاهليـة فهـم : كُلَيْب وائل ، ومَـرْوان القَرَظ ، والـزَّبّاء ، وحَلِيمة ، وأم قِرْفة .

أما كليب فكان سيد ربيعة ، وقائدَ نزار كلها . وتذكر كتب الأمثال والأخبار عن مظاهر عزته أنه كان لا يظلم إلاّ القوي ، وأنه كـان يحمي الكلأ فلا يُقرب حماه ، ويُجير الصيد فلا يهاج ، وكـان إذا سقط المطر لم يحـوِّض إنسان إلا على مـا فَضَل عنـه ، وكان لا يَحتبي في مجلسـه غيرُه ، ولا يمر أحد بين يديه ، ولا يُرفع الصوت عنده[4] .

وكـان مروان بن زنبـاع العَبْسي من مشهـوري الجـاهليـة في بُعـد الغـارة[5] . ويذكـر بعض العلماء أنـه إنما أضيف إلى القـرظ لأنه كـان يحمي القرظ بعزه . ويذهب آخرون إلى أنه إنما سمي بـذلك لأنـه كان

---

(١) من ثلاثة أبيات له في الكامل للمبرد ١٢٣ .
(٢) الاشتقاق ٢٢٥ .
(٣) ديوانه ١٢٨ .
(٤) انظر : أمثال الضبي ٥٥ ، والدرة الفاخرة ١/ ٣٠٠ ، والفاخر ٩٣ ، والحيوان ١/ ٣٢٠ .
(٥) الاشتقاق ٢٧٨ .

يغزو اليمن ، وهي مَنابت القرظ[1] .

أما الزبـاء فإن المصـادر العربيـة القديمـة تجمع على أنهـا كانت ملكة على الجزيرة ومشارف الشام ، وأنها ملكت هذه الديـار بعد مقتـل أبيهـا عمرو بن ظـرب بن حَسان بن أُذَيْنَـة العَمَـاليقي على يـد جَـذِيمـة الأبرش ملك الحيرة ، وأنها كادت لجذيمة حتى قتلته ثائرة لأبيها منـه ، وأن عمرو بن عَدِيّ اللخمي ، وكان ابن أخت جذيمة ، وَوَلِيَ مُلْكَه من بعده ، استطاع بمساعدة قصير مولى جذيمة أن يقتلها[2] .

أمـا الباحثـون المعاصـرون فيرى فـريق منهم في شخصية الـزباء وحياتها رأياً آخر[3] . ومهما يكن من شيء فإن العرب قد ضربوا المثـل بها في العزة والمنعة فقالـوا : « أعزُّ من الـزَّباء »[4] ، ذلـك أنها ، وهي امـرأة ، كانت تغـزو بـالجيـوش ، واستـطاعت أن تثـأر لأبيهـا من قـاتله جذيمة الأبرش ، ولم يكن جذيمة بالرجل الهين ، وإنما كان من أفضل الملوك رأيـاً ، وأظهرهم حـزماً ، وأبعـدهم مُغاراً ، وأشـدهم نكـايـةً ، وكانت تُجبى إليه الأموال ، وتفد عليه الوفود[5] . وكان من مظاهر عزتها ومنعتها أيضاً أنها بنت حصوناً وقصوراً وأنفاقاً على شاطىء الفرات لتلجأ

---

(١) الدرة الفاخرة ١/٣٠٠ .

(٢) انظر في القصة والأمثـال التي قيلت فيها : تـاريخ الـطبري ١/٤٣٣ (بغـداد) ومروج الـذهب ١/٢٨٧ ، والكامل لابن الأثيـر ١/٣٤٥ (بريـل ١٨٦٧) والأغاني ١٤/٧١ (سـاسي) وأمثال الضبي ٦٤ ، والدرة الفاخـرة ١/٣٠١ ، وجمهرة الأمثـال ١/٢٣٢ ، وفصل المقـال ١٠٩ ، واللسان والتاج (زبب) .

(٣) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام لجـواد علي ٣/٩٩ وما بعـدها ، والفن ومـذاهبه في الـنثر العربي للدكتور شوقي ضيف ١٦ ، والأمثال في النثـر العربي للدكتـور عبد المجيـد عابـدين ٣٨ ـ ٤١ .

(٤) الدرة الفاخرة ١/٣٠١ .

(٥) انـظر : تـاريـخ الـطبـري ١/٤٣٩ ، والكـامــل لابن الأثيـر ١/٣٤٢ ، والأغـــاني ١٤/٧١ (ساسي) .

إليها عند الحاجة ، وهذا ما دعا عمرو بن عـدي إلى أن يقول لقصيـر ، وقد وعده بقتلها : «كيف وهي أَمْنَعُ من عُقَاب الجو ! »[١] .

أما حليمة فهي بنت الحـارث بن أبي شَمر الغسـاني الأعرج ملك الشام . والعرب يضـربون بهـا المثل في العـزة فيقـولـون : « أَعَـزُّ من حَلِيمَة »[٢] لأنها وقفت مـوقفاً جليـلاً في يوم من أشهـر أيام العـرب في الجاهلية ، حينما غزا المنذرُ بن ماء السماء ملكُ العراق أباها في جموع كثيفـة لا قبل لـه بها ، فكـادت له مكيـدة أطاحت بـه وبجيشه ، فنسب ذلك اليوم إليها وسمي « يومَ حليمة » وطارت شهـرته في الآفـاق ، حتى ضرب به المثـل أيضاً فقيـل : « ما يـومُ حليمةَ بِسِـرٍّ»[٣] . ويدل الشعـر العربي على أن هذا اليـوم كان أشهـر أيامهم حتى إنهم كـانوا يؤرخـون به ، إذ يقول النابغة الذبياني يصف السيوف[٤] :

تُـخُـيِّـرْنَ مـن أزمـانِ يـومِ حَـلِيـمَـةٍ
إلـى اليـوم قـد جُـرِّبْـنَ كُـلَّ التـجـاربِ

وكـانت أم قِرْفَـة ، وهي فاطمـة بنت ربيعة بن بـدر ، ممن ضرب بهم الأمثال في العزة والمنعة أيضاً . وقد ذكر العلماء من أسباب عـزتها ومنعتها أنه كان يُعَلَّق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجـلاً ، كلهم لها مَحْرم ، وكلهم فارس شجاع . ومن ثَم قال العرب عنها : « أعـزُّ من أم قرفة»[٥] و « أمنعُ من أم قرفة»[٦] .

---

(١) مجمع الأمثال ٢ /٣٢٣ ، والمستقصى ١ /٣٦٩ .

(٢) الدرة الفاخرة ١ /٣١ .

(٣) الضبي ٧٩ ، وجمهرة الأمثال ٢ /١٩٤ ، واللسان (حلم) .

(٤) ديوانه ٤٥ ، واللسان (حلم) وروايته «تورِّثن » .

(٥) الدرة الفاخرة ١ /٣٠٢ .

(٦) اللسان (قرف) .

الأخلاق الاجتماعية

الجود والكرم

كان الجود عند العرب ، في الجاهلية والإسلام ، من الأخلاق الاجتماعية الأثيرة ، بل كان أهم هذه الأخلاق جميعاً ، حتى إنه كان يمثل خطاً رئيسياً في شعري المديح والفخر في هذين العصرين .

وكانت له دواع طبيعية واجتماعية ، تفرضه عليهم فرضاً ، إذ كانت بلادهم كثيراً ما تتعرض لفترات من الجدب والقحط ، بسبب قلة الأمطار ، تصعب معها الحياة وتقسو ، ويصبح الجود آنذاك ضرورة اجتماعية لا مَحيد عنها .

ثم إن الصحراء العربية مترامية الأطراف ، خافية المعالم ، وعرة المسالك ، والسفر فيها عسير شاق ، ومهما تزود المسافر فيها لسفره فهو عرضة لأن ينفد زاده من طعام وماء ، فإذا أُوصدت في وجهه سبل الجود هلك في هذه الفيافي ، وانقطع به الطريق[1] .

ولم يلبث هذا الخلق أن أصبح سجية متأصلة في نفوس كثير من

---

(١) انظر «الفتوة عند العرب» للأستاذ عمر الدسوقي، ص ١٥٩ ـ ١٠٣ ، وقد درس فيه الكرم ودوافعه ومظاهره دراسة شافية ، قائمة على الشواهد الغزيرة من الشعر .

العرب ، وعادة يعتادونها ، بعد أن كان قانوناً تفرضه طبيعة الحياة العربية ، يقول حاتم الطائي :

وقائلةٍ أَهْلَكْتَ بالجود مالَنا
ونفسَك حتى ضَرَّ نَفْسَك جُودُهَا

فقلتُ دَعِيني إنما تلكَ عادَتِي
لكلِّ كريمٍ عَادَةٌ يَسْتَعِيدُها

ثم فَلسف العرب جودَهم ، والتمسوا له الأسباب والدوافع التي تفرضه عليهم ، وتجعله أثيراً عندهم ، فهم يَتَّقون به الذم ، ويحمون به الأعراض ، كما قال شاعرهم :

وعِرْضِيَ أبْقَى ما ادَّخَرْتُ ذَخِيرةً
وبَطْنِيَ أطْوِيهِ كَطَيٍّ رِدَائِيَا

أو كما قال عمرو بن الأهتم[1] :

وكل كَرِيم يَتَّقِي الذمَّ بالقِرَى
ولِلْحقِّ بين الصالحين طريقُ

لعمركَ ما ضاقَت بلادٌ بأهلها
ولكن أخلاقَ الرجال تَضِيقُ

وهم يرون أن البخل لا يخلد صاحبه ، وأن الذي يخلده حقاً هو الجود ، ومن ثم فعلى العاقل أن يستهلك ماله في سبيل المعروف ، وقد تردد هذا المعنى بكثرة في شعرهم ، يقول سَوَادَة اليَرْبوعي[2] :

لقد بَكَرت مَيٌّ عليَّ تلومُني
تقول ألَا أهلكْتَ مَن أنت عائِلُهْ

---

(١) من المفضلية ٢٣ ، وضمن أربعة أبيات في شرح الحماسة للمرزوقي ١٦٥٢ .

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٧٣٢ .

ذَرِينِي فإن البخل لا يُخْلِدُ الفَتَى
ولا يُهلكُ المعروفُ مَنْ هو فاعِلُهْ

ويقول حُطَائط بن يَعْفر يعاتب زوجته[1] :

ذَرِينِي أَكُنْ للمالِ رَبًّا ولا يَكُنْ
لِيَ المال رَبًّا تَحْمَدي غِبَّه غَدَا
أريني جواداً مات هَزْلاً لعلَّني
أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مُخَلَّدَا

ويَرون كذلك أن الجود قد يكون سبباً في الثراء ، وسبيلاً إلى الغنى ، فينمو به المال ويزداد ، وفي ذلك يقول قيس بن الخطيم[2] :

ولا يُعْطَى الحريصُ غِنىً لحرصٍ
وقد يَنْمِي على الجودِ الثَّرَاءُ
وليس بنافعٍ ذا البخل مالٌ
ولا مُزْرٍ بصاحبه السَّخَاءُ

وكان من منطقهم السليم ، وفلسفتهم الرشيدة للجود والبخل أن الرجل إذا ضن بالمال واكتنزه فلن يأخذ معه في قبره منه شيئاً ، بل سيذهب إلى القبر صِفْرَ اليدين ، لم ينل من ماله إلَّا المذمة وإهانة العرض ، بينما يقتسم وارثوه من بعده هذا المال ، وينالون به الشرف ، وحسن الأُحْدُوثة ، وذلك غاية الحمق ، وقد تكرر هذا المعنى في شعر حاتم الطائي إذ يقول[3] :

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٧٣٣ ، والشعر والشعراء ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(٢) من قصيدة له في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٨٧ .
(٣) ديوانه ٨١ ، ٨٢ ، وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٨/٣٩ .

فنفسَك أَكْرِمْها فإنكَ إن تَهُنْ عليك فلن تَلْقى لها الدهرَ مُكْرِمَا
أَهِنْ للذي تَهْوَىٰ التِّلادَ فإنه إذا مِتَّ كان المالُ نَهْباً مُقَسَّمَا
ولا تَشْقَيَنْ فيه فيسعدَ وارثٌ به حين تَغْشَى أَغْبَرَ الجوف مُظْلِمَا
يقسِّمه غُنْماً ويُشْرَى كرامةً وقد صرتَ في خطٍّ مِن الأرض أَعْظُمَا
قليلاً به ما يَحْمَدَنَّكَ وارثٌ إذا نال مما كنت تجمعُ مَغْنَمَا

وإذ يقول[1] :

أَمَاوِيَّ إن المال غادٍ ورائحٌ ويَبْقَى من المال الأحاديثُ والذِّكْرُ
أماوِيَّ لا يُغْنِي الثراءُ عن الفتَى إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ
أماوِيَّ إن يُصْبِحْ صَدايَ بِقَفْرةٍ من الأرض لا ماءٌ لديَّ ولا خمرُ
تَرَىْ أن ما أنفقتُ لم يَكُ ضَرَّنِي وأن يَدِي مِمَّا بخلتُ به صِفْرُ
وقد علم الأقوامُ لو أن حاتماً أراد ثراء المالِ كان له وَفْرُ

وإذا كان الجود ممدوحاً عندهم في جميع الأحوال فإنهم كانوا أكثر ما يمدحون به ، أو يفخرون ، حينما يكون الواحد منهم مقلًّا معسراً ، ثم يجود ويقري ، ويؤثر المحتاج على نفسه ، وفي ذلك يقول أبو هلال العسكري : « وما مَدحت العرب ، ولا تمدَّحت بمثل الإعطاء على العسر ، والمواساة على القلة ، وذلك أن أكثرهم كان في شدة وإضاقة ، فلو جعلوا ذلك حجة ، وقبضوا أيديهم عن صلة الغريب ، وبر البعيد لارتفعت العوارف فيما بينهم ، وغاض الجود فيهم »[2] . ويقول أيضاً : « وقد علمتَ أن حاتماً وكعباً وَهَرِما لم يُجعلوا أمثالاً في الجود لعظم عطياتهم في القَدْر ، لأن الواحد منهم إنما كان يقري ضَيْفاً ، أو يهب بعيراً ، أو

---

(١) الشعر والشعراء ١٩٩ ، ٢٠٠ .
(٢) فضل العطاء على العسر ١٧ .

عدداً من الشاء قليلاً ، ولكن ذهب صيتهم في السماح ، وبَعُد ذكرهم في الجود لأنهم كانوا يعطون وهم محتاجون ، ويُنيلون وهم مختلُّون . وقد عرفت أن كعباً إنما رزق هذا الاسم الكبير في الجود بما آثر صاحبه ، ورزقه حاتم بإنهابه ماله ، ولم يكن بالعَكَر الدثْر[1]، ولكن قَصداً ، أو نزراً قليلاً ، وأن هرماً إنما أعطى زهيراً رواحل وثياباً تقل قيمتها ، ولا يعظم مقدارها ، وكان عطاء الرشيد والبرامكة والمأمون والأمين في اليوم الواحد أكثرَ من جميع ما أعطاه أولئك في جميع أيامهم ، ولم يضرب بواحد من هؤلاء المثل كما ضرب بأولئك ، فهذا يدل على أن الناس إنما استحسنوا منهم بذلهم مع ضيق أحوالهم ، وقلة ذات بينهم ، فجعلوهم أمثالاً مضروبة لكل من استغربوا فعله ، واستبدعوا صنيعه »[2] .

وللعرب أمثال تحثّ على الإيثار ، وعلى الجود مع الفقر والفاقة ، منها قولهم : « أعطِ أخاك من عَقَنْقَل الضَّب»[3] إذ معناه أنك إذا كنتَ لا تملك إلَّا مِعًى ضب فلا تبخل به على أخيك ، بل اجعل له منه نصيباً . وقولهم « إن الرَّثِيئة تَفْثأ الغضب »[4] وأصله أن رجلاً غضب على قوم ، وكان مع غضبه جائعاً ، فأتاهم ليُوقع بهم ، فسقوه رثيئة ، فسكن غضبه ، وكفّ عنهم .

وقد رَدَّد الشعر العربي هذا المعنى ، فقال المقنّع الكندي[5] :

---

(١) العكر بفتحتين : ما فوق خمسمائة من الإبل ، ويراد به هنا الإبل الكثيرة التي لا تعد . والدثر : الكثير .

(٢) فضل العطاء على العسر ٥١، ٥٢ .

(٣) عقنقل الضب : معاه ومصرانه .

(٤) الرثيئة : لبن حامض يصب عليه حليب فيخثر . وتفثأ : تكسر وتسكن .

(٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ضمن ثلاثة أبيات ١٧٣٤ ، والفضول : ما فضل من الغنيمة حين تقسم .

ليس العطاءُ من الفُضول سماحةً حتى تجودَ وما لديكَ قليلُ

وقال آخر[1] :

سأَقْدَحُ من قِدْري نصيباً لجارتي وإن كان ما فيها كَفافا على أَهْلِي
إذا أنتَ لم تُشْرِك رفيقَك في الذي يكون قليلاً لم تُشَارِكْه في الفَضْلِ

ولعل أروع ما قيل في هذا قول عُروة بن الوَرْد ، يفتخر بجوده على قلة ذات يده[2] :

إني امرؤٌ عافي إنَائِيَ شِرْكَةٌ وأنت امرؤٌ عافي إنائِكَ واحدُ
أتهزأُ مِنّي أن سَمِنْتَ وأن تَرَى بوجهي شُحُوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ
أُقَسِّم جسمي في جسومٍ كثيرةٍ وأَحْسُو قَرَاحَ الماء والماءُ باردُ

وأدرك العرب بفطرتهم أن المنَّ يبطل المعروف ، ويشوه جمال الكرم ، فقالوا في مثل لهم : « المِنَّةُ تَهدم الصنيعة » ، ومدحوا كثيراً بعدم المن ، فقال شاعرهم[3] :

المُنْعِمُونَ ومَا مَنُّوا على أحدٍ يوماً بنُعْمَى ولو مَنُّوا لما مَانُوا

وقال الحطيئة[4]:

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٦٥١ ، بدون نسبة ، وأقدح : أغرف . والكفاف من القوت : الذي يكون على قدر الحاجة إليه ، لا زيادة فيه ولا نقصان .

(٢) الأغاني ٣/٧٤ ، والشعر والشعراء ٦٧٥ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٦٥٣ ، والعافي : طالب المعروف ، والماء القراح : البحت الذي لا يخالطه شيء من اللبن او غيره ، وكني عن هزاله ببرد الماء ، لأن المهزول يجد برد الماء أكثر مما يجده السمين .

(٣) مانوا : كذبوا .

(٤) ديوانه ١٤٠ ، والبنى : جمع بنية ، وهي البناء . وإن عقدوا شدوا : إن عقدوا عقد جوار لجار أحكموه . ولا كدروها ولا كدوا : لم يكدروا النعمة بالمطل على المنعم عليه ، ولا بالكد والإلحاح .

أولئـكَ قومٌ إن بَنَـوْا أَحْسَنُوا البِنَى   وإن عاهدُوا أَوفَوا وإن عَقَدُوا شَدُّوا
وإن كانت النَّعماءُ فيهم جَـزَوْا بها   وإن أنعمـوا لا كَدَّرُوهـا ولا كَدُّوا

وللعـرب أمثـال أخـرى تـرغِّب في المـواسـاة بـالمـال وعمـل المعروف ، كقولهم : « إن أخاك من آساك » ومعنـاه أن أخاك الحق من آثرك بالمال ، وقدَّمك فيه على نفسه ، وقولهم : « لا يَذهب العُرْفُ بين اللَّه والنـاس » ، وقولهم : « إنمـا سُمِّيتَ هانئاً لِتَهْنَـأ »[1] يعني : إنمـا قُدِّمْتَ وسُوِّدت لتفعل أفعال السادة المقدَّمين ، وتتفضل على الناس بمـا عندك .

ولما كانت الجزيرة العربية قديماً عرضة للجدب والقحط ، بسبب ندرة الأمطار ، وهلاك الحرث والنسـل ، أصبح من أهم مـظاهر الجـود عنـدهم قري الضيف ، وهـو إكـرامـه بـالـطعـام والشـراب والمـأوى ، وملاطفته بالحديث ، فكانوا يقدمون لضيـوفهم أعز مـا يمتلكون ، وهـو اللحم واللبن . أما اللحم فكانوا إذا نحروا لم ينحـروا إلَّا سميناً ، وإذا وهبوا لم يهبوا إلَّا سميناً ، يؤيد ذلك قول شاعرهم يمدح قوماً[2] :

تَـرَى فُصْـلاَنَهُمْ في الـوِرْد هَـزْلَى   وتَسْمَنُ في المَقَـارِي والحِبَـالِ

فهؤلاء قوم يسقون ألبان نياقهم على المـاء ، ويحرمـون الفصلان منهـا ، وإذا لم يفعلوا ذلك كـان عاراً عليهم ، كمـا أنهم إذا نحـروا لم ينحـروا إلَّا سميناً ، وإذا وهبـوا لم يهبوا إلَّا كـذلك . كمـا يؤيـده قـول الآخر يفتخر[3] :

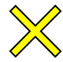
---

(1) الهانىء : المعطي .

(2) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٦٥١ ، واللسان (قرا) والمقاري : القدور .

(3) من كلمة بشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٦٤٨ ، بدون نسبة ، وأعضضتـه سيفي : ضربتـه به ، وجعلته يعض عليه . و « خيرهـا بلاء » يعني في العمـل والولادة وغـزارة اللبن ، وقولـه « وخير المال ما يتخير» معنـاه أن الإبل كلهـا خيار ، ولكنني اخترت من بينها خيـرَها إكـراماً للضيف .





هذا ، وقد برز في العصر الجاهلي رجال من العرب ، كانوا مثلاً في الجود والقرى حتى ضربت بهم الأمثال في هذين الخلقين الكريمين ، فممن ضربت بهم الأمثال فيهما معاً حاتم الطائي ، وكعب بن مَامة الأيادي ، وهَرِم بن سنان المري ، إذ يقول العرب : « أجودُ من حاتم » ، و « أجودُ من كعب » ، و « أجود من هَرِم » ، و « أَقْرَى من أرماق المُقْوين » والأرماق : جمع رمق ، وهو بقية الروح . والمُقْوِي : الذي صار في القَواء ، وهو الأرض القفر ، ثم سمي كل فقير مقوياً . ويجمع العلماء على أن المراد بأرماق المقوين في هذا المثل حاتم وكعب وهرم ، وأنهم إنما لقبوا بهذا اللقب لأنهم كانوا يُحيون الهُلَّاك بجودهم ، ويُطعمون من نفد زاده[1] .

وقد أفاضت كتب الأمثال والأخبار ، كما أفاض الشعر العربي ، في التنويه بجودهم ، وذكر نوادر وطرائف من قراهم للضيف[2] .

وأما من ضربت به الأمثال في القرى خاصة فجماعة من مختلف القبائل هم : عبد اللَّه بن جُدْعان ، وقَتادة بن مَسْلمة الحنفي ، وعبد اللَّه بن حبيب العَنْبري ، ومُسافر بن أبي عمرو بن أمية ، وأبو أمية بن المغيرة ، والأسودُ بن المطلب ، وكنانة بن عبد يَالِيل الثقفي ، ولَبِيد بن ربيعة العامري ، وأبوه ربيعة .

قال العرب في عبد اللَّه بن جُدعان : « أَقْرَى من حَاسِي الذَّهَب » ولَقَّبوه بهذا اللقب لأنه كان لا يشرب إلَّا في إناء من ذهب . وإنما ضرب به المثل في القرى لأنه كان يطعم أهل مكة الفالوذج في جفان

---

(١) المستقصى ١/ ٢٨٠ .

(٢) انظر : كتب الأمثال ، والأغاني ١٠/ ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ (دار الكتب) ، ١٦/ ٩٣ - ١٠٥ (ساسي)والشعر والشعراء ٢٤١ ، وبلوغ الأرب ١/ ٧٢ - ٨١ .

واسعة ، ولم يكن أحد من العرب يفعل ذلك غيره[1] .

وقالوا في قَتادة بن مَسلمة : « أَقْرَى من غَيْثِ الضَّرِيك » ، والضريك : الفقير سيئُ الحال ، ولقب بذلك لإغاثته الفقراء وإسعافهم ، ومبالغته في قراهم[2] .

وقالوا في عبد اللّه بن حبيب العنبري : « أَقْرَى من آكل الخُبْز » ، ولقبوه بذلك لأنه كان لا يأكل التمر ، ولا يرغب في اللبن ، وهما الطعامان الغالبان على العرب آنذاك ؛ وإنما كان يقتصر في طعامه على الخبز . وكان عبد اللّه بن حبيب هذا سيدَ بني العنبر في زمانه ، فإذا افتخروا قالوا : منا آكلُ الخبز ، ومنا مُجِيرُ الطير[3] .

وقالوا في مسافر بن أبي عمرو، وأبي أمية بن المغيرة ، والأسود ابن المطلب : « أَقْرَى من أَزْواد الرَّكْب » ، لأنهم كانوا إذا سافروا مع قوم لم يتزودوا معهم[4] ، أو لأنهم كانوا لا يتركون غريباً ، ولا مارَّ طريق ولا محتاجاً يجتاز بهم إلَّا أنزلوه ، وتكفلوا به حتى يَظْعن[5] .

وقالوا في كنانة بن عبد ياليل ، ولبيد بن ربيعة ، وأبيه ربيعة العامري : « أَقْرى من مطاعيم الريح » ، ولقبوهم بذلك لأنهم كانوا إذا هبت الصَّبا أطعموا الناس ، وخُصت هذه الريح لأنها كانت لا تهب إلَّا زمن الجدب ، وكان العرب يمتدحون القرى في هذه الحالة[6] .

* * *

(١) الدرةالفاخرة ٢/٣٥٦ ، واللسان (حسا) .
(٢) الدرة الفاخرة ٢/٣٥٧ .
(٣) نفسه ٢/٣٥٨ .
(٤) الدرة الفاخرة ٢/٣٥٦ ، واللسان (زود) .
(٥) الأغاني ٩/٤٩ .
(٦) الدرة الفاخرة ٢/٣٥٧ .

هـذا ، ومهما قلنـا : إن العرب في الجـاهليـة كـانـوا يمتـدحـون الجـود ، ويفتخـرون بـه ، وإن كثيـراً منهم تفـوق في هـذا الخلق الاجتماعي ، حتى ضربت بهم الأمثال فيه ، فلن نستطيع أن نـدعي أن المجتمع العربي آنذاك كان بريئاً من آفة البخل والشح بالمال ، لأن مثل هذا الادعاء لم يقم عليه دليلٌ ، بل هناك أدلة قاطعـة تؤكد حب العـرب للمال ، وحرصهم على جمعه بوسائل غير شريفـة ، كالـربا والمَيْسـر ، وتـطفيف الكيل والميزان ، وإكراه الفتيات على البغـاء ، وغيـرهـا من الوسائل التي حرَّمها الإسلام ، وبكل هذا نـطق القرآن الكـريم ، وحذر من عواقبه الوخيمة ، وتوعَّد البخلاء والأشحاء بأشد العقـاب ، وفي هذا يقول الدكتور طه حسين : « فـالشعر الجـاهلي يمثل لنـا العرب أجـواداً كـرامـاً ، مُهِينين لـلأمـوال ، مسـرفين في ازدرائهـا ، ولكن في القـرآن إلحاحاً في ذم الطمع ، فقد كان البخل إذن من آفات الحياة الاقتصاديـة والاجتماعية في الجاهلية »[1] .

ومن نـاحية أخـرى نرى الأمثـال العـربيـة قـد أفـاضت في وصف بخـلاء هذا العصـر ، وصَـوَّرت أحـوالهم التي كـانـوا عليهـا في صـور كريهة ، تنفر منها النفوس . ويتضمن كتاب القاسم بن سلام باباً طـويلاً عنوانه « ذكر الأمثال في البخل وصفاته وأشكاله »[2] قسَّمه المؤلف اثني عشـر بابـاً صغيراً ، على حسب الحـالات التي يكون عليهـا البخيـل ، وأورد فيه طائفة كبيرة من أمثال العرب في البخل والبخلاء .

فمن أمثـالهم في صفـة البخيـل قـولهم : « مـا عِنْـدَه خَـلٌّ ولا

---

(١) من تاريخ الأدب العربي ٩٣ (بيروت) .
(٢) أمثاله ٣٠٦ ـ ٣١٥ .

خَمْرٌ »[1] ، و « ما عنده خَيْرٌ ولا مَيْـرٌ »[2] ، و « سواءٌ هـو والعَدَم »[3] ، و « سواءٌ هو والقَفْر »[4] وهذه الأمثال الأربعة كنـايات عن البخيـل الذي لا يصيب الإنسان عنده شيئاً من الخير .

ومنها قولهم : « ما يَبِضُّ حَجَرُه »[5] والبَضُّ : أدنى مـا يكون من السيـلان ، ومعناه أن هـذا الرجـل من بخله لا يَخرج منـه أدنى خيـر . وقولهم : « ما يُنَدِّي الرَّضْفة »[6] والرضفة : الحجارة المُحَمَّاة . وأصله أن العرب كانـوا إذا أعوزهم أن يجـدوا قدراً يـطبخون فيهـا جعلوا الماء واللبن والوَدَك في وعاء كهيئـة القدر ، يتخـذونه من الجلود ، ثم يلقـون فيـه الحجر المُحَمَّى لينضـج ما فيـه . ومعنى المثل على هـذا أن هـذا البخيل من قلة خيره يشبه ذلك الوعاء الذي لا يوجد به ما يُنَدِّي الرضفة ويَبُلُّها .

ومن أمثـالهم في البخيل يمنـع مع السَّعَـة والغنى قـولهم : « رُبَّ صَلَفٍ تحت الرَّاعِدَة »[7] وفيه تشبيه للبخيل الغني بالغمـامة ذات الـرعد والماء الكثير ، وهي مع ذلك لا تجود بمطرٍ ما .

ومن أمثالهم في البخيل يمنـع مالـه ويأمـر غيره بـالبخل قـولهم : « الحر يُعْطي والعبدُ يَأْلَمُ قلبُه »[8] ، والحالة التي يصورها المثل أعجب

---

(١) نفسه ٣٠٦ .

(٢) نفسه ٣٠٦ ، والمير والميرة : الطعام يشتريه المرء من السوق .

(٣) أمثال أبي عبيد ٣٠٧ .

(٤) نفسه ٣٠٧ ، والقفر : الأرض لا نبات فيها ولا ماء .

(٥) أمثال أبي عبيد ٣٠٧ .

(٦) نفسه ٣٠٧ .

(٧) نفسه ٣٠٨ ، والصلف بفتحتين : قلة الخير والنزل ، والراعدة : السحابة ذات الرعد .

(٨) أمثال أبي عبيد ٣٠٨ .

حالات البخل ، وأبعد غاياته ، وهل هناك أعجب من رجل لا يجود ، ومع ذلك يشق عليه ويؤلمه جودُ غيره ؟!

ولهم مثلان رائعان في وصف البخيل الذي اعتاد منع المال في حالتي الرخاء والشدة ، ثم يعتل لبخله بالإعسار والإعدام ، وهما قولهم : « قَبْلَ البكاءِ كان وَجْهُكَ عابساً »(١) ، و« قبل النِّفاس كنتِ مُصْفَرَّة »(٢) .

ولهم أمثال في الاضطرار إلى مسألة البخيل ، وانتظار ما عنده ، منها قولهم : « شَرٌّ مَا أجاءكَ إلى مُخَّةِ عُرْقُوب »(٣) وذلك أن العرقوب لا مخ له ، فليس يحتاج إليه إلَّا من لا يقدر على شيء .

وقد صوروا في أمثالهم أيضاً البخيل الذي يموت وماله وافر لم يذهب منه شيء بصورة البعير الذي تنتفخ بطنه من كثرة الطعام ، فقالوا : « مات وهو عَرِيضُ البِطَانِ »(٤) ، كما قالوا : « مات بِبِطْنَتِهِ لم يَتَغَضْغَضْ منها شيء »(٥) .

فهذه الأمثال وغيرها تدل على أن المجتمع العربي في الجاهلية كان مَؤوفاً بآفة البخل والشح بالمال ، وأن البخلاء والأشحاء كانوا يعيشون فيه جنباً إلى جنب مع الكرماء والأجواد ، لأن الأدب بأنواعه وفنونه يعتمد على واقع الأمم والشعوب التي يعبر عنها ، ويصف مظاهر

---

(١) أمثال أبي عبيد ٣١٠ .

(٢) نفسه ٣١٠ ، وأصل المثل أن المرأة تكون مصفرة من خِلقة ، فإذا نفست زعمت أن صفرتها من النفاس .

(٣) أمثال أبي عبيد ٣١٢ .

(٤) أمثال أبي عبيد ٣١٤ ، والبطان للبعير بمنزلة الحزام للفرس ، وعرضه كناية عن انتفاخ البطن وسعتها ، وامتلائها بالطعام .

(٥) أمثال أبي عبيد ٣١٤ ، ولم يتغضغض : لم ينقص .

حياتها الطبيعية والاجتماعية ، فإذا تحدثت أمثال أمة عن البخلاء بهذه الطريقة فذلك دليل على أن هذه الأمة كانت تعرف البخل والبخلاء .

الوفاء والغدر :

الوفاء نوعان : وفاء في القول ، وهو إنجاز المواعيد ، وضده الخُلْف . ووفاء في الفعل ، وهو رعاية العهود والمواثيق ، وضده الغدر[1] .

أما النوع الأول ، وهو إنجاز المواعيد ، فإن الأمثال العربية تدل على أن العرب كانوا يمتدحونه ، ويحثّون عليه ، بل كانوا يعدونه من الصفات التي تميز الأحرار عما سواهم ، ففي مثل من أمثالهم : « أنجزَ حرٌّ ما وَعد » . ويشير مثل آخر لهم إلى أن للوفاء عند اللّه منزلة كريمة ، وذلك قولهم : « الوفاءُ من اللّه بمكان » أي بمكان مَرْضِيٍّ كريم .

وطبيعي ، وقد امتدح العرب الوفاء وإنجاز الموعد ، أن يذموا الخلف ، وأن يجعله بعض حكمائهم من آفات المروءة وعيوبها ، فيقول : « آفةُ المروءةِ خُلْفُ الموعد » . وأكثر من هذا أن يفضّل بعضهم الموتَ عليه ، فقد رَووا عن عَوْف بن النعمان الشيباني أنه قال في الجاهلية الجهلاء : « لأَنَ أموتَ عطشاً أحبُّ إليَّ من أن أكون مِخْلاَفَ الموعد» .

وكانوا يشبهون مخلف الوعد بالبرق الذي لا مطر معه ، تحقيراً له ، وتهويناً من شأنه ، فقالوا : « إنما هو كَبَرْقِ الخُلَّب » ، يعنون

---

(١) انظر في الوفاء بالوعد وحماية الضعيف كتاب « الفتوة عند العرب» للأستاذ عمر الدسوقي ، وقد أشبع القول فيهما باستقصاء دقيق .

بذلك أنه يخلف مواعيده كما يخلف ذلك البرق . كما كانوا يشبهون المواعيد التي يخلفها أصحابها بشرب الكَمُّون ، ويقولون عنها : « أخلفُ من شُرْب الكَمُّون » ، و « مواعيدَ الكَمُّون » ، ذلك أن هذا النبات كان يُمنَّىٰ بالسَّقي دائماً ، ويقول له الساقي : غداً تشرب الماء ، ثم لا يسقيه . وقد اقتبس الشعراء معنى هذين المثلين ، وضمّنوه بعض أشعارهم[١] .

ويبدو أن خلف الموعد لم يكن فاشياً عند العرب ، ولم يكن من طباعهم التي جُبلوا عليها ، لأن أمثالهم لم تَسِرْ فيه إلَّا برجل واحد ، هو « عُرْقوب » الذي كان من أهل « يَثْرب » ووعد بعض إخوانه ثمرة نخلة له ، فجاءه ذلك الأخ حين أَطْلَعت النخلة[٢] ، فقال له : دَعها حتى يصير بَلَحاً ، فلما أبلحت قال له : دعها حتى يصير زَهْواً[٣] ، فلما أَزْهَت قال : دعها حتى يصير رُطَباً ، فلما أرطبت قال : دعها حتى يصير تمراً ، فلما أتمرت عمد إليها فَجذَّها ، ولم يعطه شيئاً منها ، فسار مثلاً في الخلف ، وقال العرب فيه : « أخلفُ من عُرْقوب » ، كما قالوا : « مواعيدَ عُرْقوب » ، وقد تمثل بهذا الرجل ومواعيده الشعراء فقال كعب بن زهير[٤] :

كانت مواعيدُ عُرْقُوبٍ لها مَثَلاً ۝ وما مواعيدُهُ إلَّا الأباطيلُ

وقال الأشجعي[٥] :

---

(١) ممن اقتبسه بشار بن برد (ديوانه ٢/٢٦٧) والأغاني (١٤/٣٣٤) وأبو نواس (ديوانه، ورقة ١١١ ، مصورة جامعة الدول العربية رقم ٢٨٠) .

(٢) أطلع النخل : أخرج طلعه .

(٣) زها النخل وأزهى : ظهرت الحمرة والصفرة في بسره ، والزهو : البُسر الملون .

(٤) ديوانه ، واللسان والتاج (عرقب) .

(٥) اللسان والتاج (عرقب) .

وعدتَ وكان الخُلْفُ منكَ سَجِيَّةً　　مواعيدَ عُرْقوبٍ أخاه بيَثْرِبِ

وقال آخر(١) :

* اليأسُ أَرْوَحُ من ميعاد عُرْقوبِ *

* * *

وأما النوع الثاني من الوفاء ، وهو الحفاظ على المواثيق والعهود ، فقد فرضته فرضاً طبيعةُ الحياة العربية في العصر الجاهلي ، وحتمته ظروف كانت تحيط بالعرب آنذاك ، أهمها كثرة الحروب والإغارات ، وشدة الحاجة إلى المحافظة على الأرواح والأعراض والأموال ، ومن ثَم نشأ بينهم بعض النظم والأعراف الاجتماعية ، وفي مقدمتها **الحلف والجوار** .

أما **الحِلْف** فهو العهد يكون بين القوم ، وأصله المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق(٢) ، وكان يتم بين الفرد والفرد ، أو بين الفرد والقبيلة ، أو بين القبائل بعضها مع بعض ، وبه كانت تتوثَّق العُرى بين الحلفاء حتى يصبحوا يداً واحدة ، يعتز بعضهم ببعض ، ويحمي أحدهم الآخر .

وكان للعرب في توثيق الحلف والوفاء بالعهد عادات وتقاليد ، منها **لَعْق الدم** ، إذ كانوا يحضرون جَفنة ملأى بالدم ، ثم يغمس كل حليف يده فيه ، ثم يلعق ما يعلق بيده منه ، وهؤلاء كانوا يلقبون (لَعَقة الدم)(٣) ، ومنها **غمس الأيدي في الطيب** ، ومسح الكعبة بها ، كما حدث في حلف « المطيَّبين »(٤) ومنها **التحالف على النار** ، وقد وصف

---

(١) الدرة الفاخرة ١/١٧٨ .

(٢) اللسان (حلف) .

(٣) الأغاني ٧/٢٦ ، والمحبر ١٦٦ .

(٤) سيرة ابن هشام ١/١٤٢ ، والمحبر ١٦٦ .

الجاحظ هذا الحلف في قوله : « ونار أخرى هي التي توقد عند التحالف ، فلا يَعتَدُّون حلفهم إلَّا عندها ، فيذكرون عند ذلك منافعها ، ويدعون إلى اللَّه عزّ وجل بالحرمان والمنع من منافعها على الذي ينقض عهد الحلف ، ويَخِيس بالعهد ، ويقولون في الحلف : الدمُ الدمُ ، والهَدَمُ الهدَمُ ، لا يزيده طلوع الشمس إلَّا شَدّاً ، وطول الليالي إلَّا مَدًّا ، ما بَلَّ بحرٌ صوفةً ،وَمَا أقام رَضْوَى مكانَه ، وكل قوم يذكرون جَبَلَهم ، والمشهور من جبالهم ، وربما دَنَوْا منها حتى تكاد تحرقهم ، ويهوِّلون على من يُخاف عليه الغدرُ بحقوقها ومنافعها ، والتخويف من حرمان منفعتها »[1] وفي هذه النار يقول الكميت[2] :

كَهَوْلَةِ ما أَوْقَد المُحلِفُو ... نَ للحالِفِينَ وما هَوَّلُوا

ويقول أوس بن حَجَر[3] :

إذا اسْتَقْبَلَتْه الشمسُ صَدَّ بوجهِهِ ... كما صَدَّ عن نار المهوِّلِ حَالِفُ

وكان غرضهم من مثل هذه العادات والتقاليد الإشهادَ المادي على عزيمة الوفاء ، والنص على الاستمرار فيه ، وعدم الغدر فيما تحالفوا عليه ، وقد أشار إلى هذا الحارث بن حِلِّزة إذ يقول في معلقته[4] :

واذْكُرُوا حِلْفَ ذي المَجَازِ وما قُدِّم فيه : العهودُ والكُفَلَاءُ
حذرَ الغدرِ والتعدِّي وهل تَنْقضُ ما في المَهَارِقِ الأهواءُ؟!

وبلغ من نفورهم من الغدر ، وكراهيتهم لنقض المواثيق

---

(١) الحيوان ٤/ ٤٧٠ ، والبيان والتبيين ١/ ٧ .
(٢) الحيوان ٤/ ٤٧٠ .
(٣) البيان والتبيين ١/ ٧ .
(٤) شرح القصائد العشر للتبريزي ٣٤٥ ، والمَهارق : الصحف البيضاء ، واحدها مهرق ، وهو فارسي معرب .

والعهود ، أن كانوا يشهِّرون بالغادرين في سوق عكاظ ، فيرفعون لهم ألوية ليعرفهم الناس بغدرهم ، فلا يعاملوهم ، ويكون هذا تأديباً لهم ، وعظة لغيرهم ، وفي ذلك يقول الحادرة قُطْبة بن مِحْصَن يفتخر بقومه[1] :

أَسُمَيَّ ويحكِ هل سمعتِ بِغَدْرةٍ   رُفِعَ اللواءُ لنابها في المَجْمَعِ
إنا نَعِفُّ فلا نُرِيبُ حليفَنَا   ونكفُّ شُحَّ نفوسِنا في المَطْمَعِ

وأما الجوار فهو لجوء إنسان إلى آخر ، والدخول في جواره وحماه ، بحيث يصير محسوباً عليه، ويصبح في أَمَنَة على دمه وعرضه، فهو أشبه باللجوء السياسي في العصر الحاضر . وتطلق كلمة (الجار) على كل من المستجير والمجير ، ففي كتب اللغة : « ويقال للذي يستجير بك جار ، وللذي يُجير جَار . . . والجار : الذي أجرته من أن يظلمه ظالم »[2] .

وكان الجوار يتم بين الرجلين بمجرد أن يقول الواحد للآخر: أنا جارٌ لك ، أو أستجير بك ، فإذا قبل المجير هذا الجوار أصبح عليه أن يحمي جاره ، ويدفع عنه كل ظلم ، ويشهد لذلك قول أبو جُنْدَب الهذلي[3] :

وكنتُ إذا جَارِي دَعَا لمَضُوفَةٍ   أُشمِّر حتى يَنْصُفَ الساقَ مِئْزِرِي

وأكثر من هذا أن الجار كان يصبح كفرد من أفراد القبيلة ، له من الحقوق ما لكل فرد فيها ، بل كان يقدَّم أحياناً في هذه الحقوق على

---

(١) من المفضلية ٨ ، ولا نريب حليفنا : لا نغدر به ، ولا تأتيه منا ريبةٌ .
(٢) اللسان (جور) .
(٣) نفسه (جور) وديوان الهذليين ٩٢/٣ .

أفـراد القبيلة أنفسهم . وقـد صـور قيس بن زهير هـذه الحقـوق في قوله[1] :

إنَّ للنَّمـر في إجـارتهـا الـجـا ... رَ وأمنِ الـطَّريد حَـظًّا عَـظِيمَا
يَـأْمَـنُ الـجـارُ فيـهـمُ ويُـرَى وَسْـطَهـم ذا خُـؤولـةٍ مَـعْـمُـومَـا
يَمـلأ الـدَّلْـوَ قبلَ دَلْـو أخي النَّمر ومـا حَـوْضُ جـارِهم مَهْـدومَـا

كما امتدح العرب وافتخروا بحمـاية الجـار وإعزازه ، فقـال عديُّ ابن زيد يمدح بني شيبان[2] :

إني حَمَدْتُ بني شيبانَ أَنْ خَمَدَتْ ... نيـرانُ قـومي وفيهم شُبَّتِ النـارُ
ومِنْ تَكَـرُّمِهم في المَحْـل أنهمُ ... لا يَعلم الجـارُ فيهم أنـه الجـارُ
حتى يكـونَ عـزيـزاً من نفـوسهمُ ... أو أن يَبِينَ جميعـاً وهـو مُخْتَـارُ
كـأنـه صَـدَعٌ في رأس شَـاهِقَـةٍ ... من دونـه لعتـاقِ الـطيـرِ أوكـارُ

وقال السموءل يفتخر بقومه[3] :

ومـا ضَـرَّنـا أنَّـا قليـلٌ وجـارُنَـا ... عـزيـزٌ وجـارُ الأكثـرين ذَلِيـلُ

وقال أسد بن كُرْز[4] :

ومـا جارُ بَيْتِي بـالذليـلِ فتُـرْتَجَى ... ظُـلاَمَتُـهُ يـومـاً ولا المُتَهضَّمِ

وقال الآخر[5] :

فَجَـارُكَ عند بيتـك لَحْمُ ظَبْيٍ ... وجـاري عـنـد بَـيْـتِـيَ لا يُـرامُ

وبلغ من إعزازهم للجار ، ورعاية حـرمته أن شبهـوه بالإبـل التي تُهـدى إلى الحَرَم ، فسمـوه هَدْيـاً وهَـدِيًّـا ، فقد جـاء في كتب اللغـة :

---

(١) المعمرون ١٤٥ .
(٢) الصدع بالتحريك والتسكين : الوَعَل الفتي الشاب القوي .
(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٢ .
(٤) المتهضم : المنقوص الحق .
(٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٣ .

« وفلان هَدْي بني فلان وهَدِيُّهم ، أي جارهم ، يَحرم عليهم منه ما يحرم من الهَدْي ، وقيل : الهَدْي والهَديُّ : الرجل ذو الحرمة يأتي القوم يستجير بهم ، أو يأخذ منهم عهداً ، فهو ما لم يُجَر أو يأخذ العهد هَدِيٌّ ، فإذا أخذ العهد منهم فهو حينئذ جارٌ لهم »[1] .

وقد تمادى العرب في حماية الجار إلى حد أن حَمَوْه من الموت ، أي أَدَّوا دِيَتَه إلى أهله إذا مات في جوارهم ، فقد رَوى أبو الفرج الأصفهاني أن الأعشى خاف بني عامر على ما معه من عطايا الأسود العَنْسي ، فأتى علقمة بن عُلاثة فقال له : أجرني ، فقال : أجرتك ، قال : من الجن والإنس ، قال : نعم ، قال : ومن الموت ، قال : لا ، فأتى عامرَ بن الطفيل فقال : أجرني ، قال : أجرتك ، قال : من الجن والإنس ، قال نعم، قال : ومن الموت ، قال : نعم . قال : وكيف تُجيرني من الموت ؟ قال : إن مِتَّ وأنت في جواري بعثت إلى أهلك الدية ، فقال : الآن علمت أنك قد أجرتني من الموت ، ثم مدح عامراً ، وهجا علقمة »[2] .

وذكر حمزة الأصبهاني أن كعب بن مامة ، كان إذا جاوره رجل فمات وَداه ، وإن هلك له بعير أو شاة أخلف عليه ، فجاوره أبو دُؤاد الإيادي الشاعر ، وكان يفعل به ذلك ، فصارت العرب إذا حَمَدت جاراً لحسن جواره قالت: « كجار أبي دُؤاد »[3] وقد تمثل بعض الشعراء بكعب وحسن جواره فقال قيس بن زهير[4] :

---

(١) اللسان (هدي) .
(٢) الأغاني ٨/٨٠ .
(٣) الدرة الفاخرة ١/١٣٠ .
(٤) من قصيدة له في الأغاني ١٦/٢٨ (ساسي) .

أُطَــوِّفُ مــا أطــوِّفُ ثــم آوي إلــى جــارٍ كــجــار أبــي دُؤادِ

وقال طرفة[1] :

إنِّي كَفَــانِيَ من هَمٍّ هَمَــمْتُ بِــهِ جارٌ كجار الـدُّؤادِيِّ الذي اتَّصَفَا

وتمادوا أكثر فأجاروا الطيرَ والوحشَ إذا نزلت بأفنيتهم ، أو لجأت إلى أخبيتهم ، وقد سجل هذا الجوار مثلان لهم ، هما قولهم : « أَحْمَى من مُجير الجراد » و « كمُجِير أمِّ عامر » .

أما مجير الجراد فتذكر كتب الأمثال أنه مُدْلِج بن سُوَيْـد الطائي ، وأنه خلا يوماً في خيمته ، فإذا هو بقوم من طيىء ، معهم أوعيتهم ، فقال لهم : ما خَطبكم ؟ قالوا : غزونا جارَك ، قال : أيَّ جيـراني ؟ قالـوا : جراداً وقع بفنائك ، فجئنا لنأخذه ، فقال : أَمَا وقد سمَّيتوه لي جاراً فلا سبيل إليه ، ثم ركب فرسه ، وأخذ رمحه ، وقـال : والله لا يعرض لـه منكم أحد إلا قتلته ، أنتم رأيتموه في جواري ، ثم تريدون قتله وأخذه ، فلم يزل يحرسه حتى حَمِيت عليه الشمس وطار ، فقال : شأنكم الآن ، وقد ترحَّل عن جواري .

وأما مجير أم عامر ، وهي الضبع ، فتذكـر كتب الأمثال أيضـاً أن قوماً خرجوا للصيد في يوم حار ، فعَرضت لهم أمُّ عامر ، فطردوها حتى ألجؤوها إلى خباء أعرابي فاقتحمته ، فخرج إليهم الأعـرابي وقال : مـا شأنكم ؟ قالوا : صيدُنا وطريدتُنا ، فقـال : كلا والـذي نفسي بيده ، لا تصلون إليها ما ثَبت قائمُ سيفي بيدي ، فرجعوا وتركوه ، وقام إلى نعجة فحلبها ، وماءٍ فقرَّبه منها ، فأقبلت تلغ مرة في هذا ، ومرة في هذا حتى عاشت واستراحت . فبينما الأعرابي نـائم في جوف بيتـه إذ وثبت عليه

---

(١) ديوانه ٢١٥ ، والشعر والشعراء ١٩٠ .

فبَقرت بطنه ، وشربت دمه وتركته ، فجاء ابن عم له يطلبه ، فاذا هو بَقِيرٌ في بيته ، فالتفت الى موضع الضبع فلم يرها ، فقال : صاحبتي والله ، ثم أخذ قوسه وكنانته واتبعها ، فلم يزل حتى أدركها فقتلها[1] . فضرب العرب الأعرابي والضبع مثلاً فيمن يصنع المعروف في غير أهله ، وقالوا : « كمجير أم عامر » .

هذا ، وقد سجلت الأمثال العربية أسماء رجال ونساء من الجاهلية اشتهروا بالوفاء بنوعيه ، قولاً وفعلاً ، حتى صاروا أعلاماً فيه ، كما سجلت أسماء رجال منهم اشتهروا بالغدر والخيانة ، وخلف المواعيد ، وخذلان الحليف والجار ، حتى أصبحوا أعلاماً على هذه الأخلاق أيضاً .

فممن ضربت بهم الأمثال في الوفاء : السَّمَوْأل بن عادياء اليهودي[2] ، وأبو حَنْبل الطائي[3] ، والحارث بن ظالم المُرِّي[4] ، والحارث بن عُبَاد[5] ، وعَوْفُ بنُ مُحَلِّم الشيباني[6] ، وخُمَاعة بنت عوف ابن محلِّم[7] ، وفُكَيْهة بنت قَتادة[8] ، وأم جَمِيل الدَّوْسية[9] .

وممن ضربت به الأمثال في الغدر والخيانة : قيس بن عاصم[10] ،

---

(١) مجمع الأمثال ٢/١١٩ ، والمستقصي ٢/٢٣٢ .
(٢) انظر : الدرة الفاخرة ٢/٤١٥ ، والمحبر ٣٤٩ .
(٣) انظر : الدرة الفاخرة ٢/٤١٧ ، والمحبر ٣٥٢ .
(٤) انظر : الدرة الفاخرة ٢/٤١٧ ، والمحبر ١٩٤ .
(٥) انظر : الدرة الفاخرة ٢/٤١٨ ، والمحبر ٣٤٨ .
(٦) انظر : الدرة الفاخرة ٢/٤١٩ ، والمحبر ٣٤٩ .
(٧) انظر : الدرة الفاخرة ٢/٤١٩ .
(٨) انظر : الدرة الفاخرة ٢/٤١٩ ، والمحبر ٤٣٣ .
(٩) انظر : الدرة الفاخرة ٢/٤٢٠ ، والمحبر ٤٣٤ .
(١٠) انظر : الدرة الفاخرة ١/٣٢٤ ، والأغاني ١٤/٧١ ـ ٧٥ ، والكامل للمبرد ١/٣٤٦ .

وعُتَيبة بن الحارث[1] . وكان من قبائلهم قبيلة برمتها اشتهر رجالها بالغدر ، وهي قبيلة بني سَعد ، فصارت بهم الأمثال ، وقال العرب : « أغدرُ من كُنَاة الغَدْر »[2] ، وإنما لقبوا بهذا اللقب لأنهم كانوا يكنون عن الغدر حين يرومون استعماله بكلمة وضعوها له ، وهي (كَيْسان) . ويذكر الزمخشري نقلاً عن أبي النَّدَى أن أصل هذه التسمية أن بعض بني زرارة خرج بعيرٍ لكسرى يطلب اليمن ، فحدَّثت سعدُ نفسَها بأخذها ، فقال بعض شيوخهم : أتغدرون بابن عمكم وهو فيها ؟ فأجابه بعضهم : الغدرُ في بعض المواطن أكيس ، فجعلوا شعارهم « كَيْسان »[3] .

الحلم :

يُعَرِّف علماء اللغة الحلم بأنه الأناة والعقل والتثبت في الأمور ، وأنه نقيض السَّفه. وتقول الحكمة العربية : « الحلم سيد الأخلاق »، وإنما كان الحلم كذلك ، لأنه يضم تحت جناحيه كثيراً من الخلال الكريمة ، لا يتحقق إلا بها ، كالصبر ، وكظم الغيظ ، والعفو عند المقدرة ، والصفح عن المسيء ، وسَعة الصدر ، والأناة وتدبر العواقب ، والرحمة والشفقة ، فالرجل لا يكون حليماً حتى تتوافر فيه هذه الخلال ، وليس هناك خلق كالحلم يعتمد على كل هذه الصفات ، فهو بحق سيد الأخلاق ورئيسها .

وإذ كان الحلم بهذه المثابة صار من الصفات التي يجب أن تتوافر في رئيس القبيلة العربية ، ومن الشروط التي تؤهله لهذه الرياسة ، يدل على ذلك قولهم : « آلةُ الرياسة سَعةُ الصدر » وهذا أمر طبيعي ، وقانون

---

(١) انظر : الدرة الفاخرة ١/٣٢٤ .
(٢) نفسه ١/٣٢٤ .
(٣) المستقصى ١/٢٦٠ .

اجتماعي ، لأن رئيس القبيلة أبٌ لكل فرد فيها ، عليه أن ينظر إلى أخطائهم نظرة الأب إلى أخطاء أبنائه ، ثم هو حَكَمٌ بينهم ، فلو كان ضيقَ الصدر ، حادَّ الطبع ، طاشت أحكامه وجارت آراؤه[1] .

وكان العرب في الجاهلية يعرفون هذا الخلق النبيل ، ويدركون ما يكابده الحليم من السفهاء ، وما يجب عليه نحوهم ، يقول مَعْن بن أوس المُزني من قصيدة طويلة[2] :

وذِي رحمٍ قَلَّمْتُ أظفارَ ضِغْنِـه	بحلميَ عنه وهو ليس له حلمُ
فإن أعفُ عنه أُغْضِ عيناً على قَذَىً	وليس له بالصفح عن ذنبه عِلْمُ
صبرتُ على ما كان بَيْني وبينَهُ	وما تَسْتَوي حربُ الأقارب والسِّلْمُ
فما زلتُ في ليني له وتعطُّفي	عليه كما يَحْنُو على الولد الأمُّ
وخَفْضٍ لهِ مِنّي الجَناحَ تَألُّفاً	لِتُدْنِيَه مني القرابةُ والرّحمُ
وصبري على أشياء منه تُريبُني	وكَظْمي على غَيْظي وقد ينفعُ الكَظْمُ
لأَسْتَلَّ منه الضِّغْنَ حتى استللتُهُ	وقد كان ذا ضِغْنٍ يَضِيقُ به الحلمُ

وقد دَعت الأمثال العربية بشدة إلى الحلم ، وحَثَّت عليه ، إذ يقول مثل منها : « إذا نَزا بك الشرُّ فاقْعُدْ » ، ويقول آخر : « تَطَأْطَأْ لها تُخْطِئْكَ » أي أخفض رأسك للحادثة التي تمر بك ، فإنك إن فعلت ذلك أخطأتك ، وسلمت منها ، ويقول مثل ثالث : « دَعِ الشَّرَّ يَعْبُر» .

وإذا كانت هذه الأمثال الثلاثة قد أتت على صورة الأمر ، لتحث

---

(١) انظر : كتاب « الفتوة عند العرب» للأستاذ عمر الدسوقي ص ٩٢ وما بعدها ، وقد حلل فيه الحلم تحليلاً دقيقاً ، ساق خلاله الكثير من أشعار العرب فيه .

(٢) الأغاني ١٢/ ٦٠ ، وأمالي القالي ٢/ ١٠٢ ، والضغن : الحقد والعداوة والبغضاء . والرحم : القرابة . وتريبني : تسوؤني وتزعجني .

على الحلم ، وتأمر بمخالفة الهوى ، وعصيان الشر ، فإن هناك أمثالاً تُرَغِّب في الحلم ، وتُنَفِّر من الجهل والسفه والنزَق ، أتت في صور أخرى من صور البيان ، كالمثل الذي يقول : « الحليمُ مَطِيَّةُ الجَهُول » ؛ إذ معناه أن على الحليم أن يتحمل أذى السفهاء والجهلاء ، وأن يكون في ذلك كالدابة ، تَتحمل ما حُمِّلت في صبر ورضا ، وكالمثل الذي يقول : « الغضبُ غُولُ الحِلْم » أي مغتاله ومُهْلِكه. وفي هذا المعنى شَبَّه العرب الحليم بالصُّرَعة ، لأن حلمه يَصرع غضبه ، فهو كالصُّرعة الذي يصرع الرجال ولا يصرعونه .

وهناك مثل آخر يُعْلِي من منزلة الحليم ، ويجعله أسمى من أن ينزل بنفسه إلى مستوى السفيه الجاهل الذي اعتاد مَساءة الناس ، فيجازيه على إساءته ، وهو قولهم : « لا يَنْتَصِفُ حليمٌ من جَهُول » .

وقد جرت على ألسنة حلمائهم أمثال غايةٌ في جمال العبارة والصورة ، تنطق برزانتهم ، وعدم مبالاتهم بأذى السفهاء ، وما يتفوَّهون به من جارح الكلمات ، كقولهم : « جَعَلْتُه دَبْر أذني »[1] ، و « لَبِسْتُ عليه أذني »[2] و « طَوَيْته على بِلَاله »[3] و « حِلْمِي أصمُّ وأذني غيرُ صَمَّاء »[4] .

وكان من صفات بعض حلمائهم التي تميِّزهم عما سواهم الوَقار والهيبة والسكينة ، وجاءت هذه الصفات في ثلاثة أمثال لهم ، هي قولهم : « إنه لواقعُ الطَّيْر » ، و « كأنَّ على رؤوسهم الطير » . فهذان

---

(١) معناه : جعلت هذا الكلام خلفي ، وتصاممت عنه ، ولم ألتفت إليه .

(٢) معناه : سكت عليه كالغافل الذي لم يسمعه ، محتملاً لأذيته .

(٣) البلال : جمع بلة ، وهي الماء . وأصل المثل في السقاء الذي يجب أن يطوى وهو ندي ، لأنك إن طويته وهو يابس تكسر ، وإن طويته على بلته تعفن ، وصار معيباً .

(٤) معناه : أعرض عن الخنا بحلمي وإن سمعته بأذني .

المثلان يصوران الحلماء ، في رزانتهم ووقارهم ، وكأن على رؤوسهم طيراً يخشون طيرانها ، فهم لذلك ساكنون لا يتحركون . أما المثل الثالث فقولهم : « إنه لساكنُ الرِّيح » لأن معناه أنه وقور حليم لا يتحرك لأذى يقع عليه .

وقد نبغ من العرب ، في الجاهلية والإسلام ، رجال في الحلم ، كانوا مضرب أمثالهم فيه ، من أشهرهم : سِنان بن أبي حارثة المُرِّي ، وقيس بن عاصم المِنْقَري ، والأحنف بن قَيس التميمي ، ومعاوية بن أبي سفيان .

أما سِنان فكان من الحلماء المذكورين في الجاهلية ، وكان مع حلمه مشهوراً بالحزم أيضاً ، فسارت أمثالهم به في هذين الخلقين ، وقالوا : « أَحْلَمُ من سنان » و « أَحْزَمُ من سنان » ، و « سنانٌ أحزمُ من فَرْخ العُقاب » .

وأما قيس بن عاصم فإن الأحنف بن قيس ، وهو أحلم العرب ، ذكر أنه تعلم منه الحلم ، في حديث روته كتب الأمثال والأدب[١] .

والأحنف بن قيس أشهر حليم عرفه التاريخ ، وأخباره في الحلم أكثر من أن تحصى ، حتى إن أباهلال العسكري يقول فيه : « ولم يحظَ أحد من ذِكْر الحلم بما حظي به الأحنف »[٢] كما يقول عنه الزمخشري : « الحكايات عن الأحنف في باب الحلم لا يُؤْتَى وراءها كثرة »[٣] .

وكان معاوية من حلماء العرب المعدودين ، وقد سارت عنه كلمات

---

(١) انظر : الدرة الفاخرة ١/١٦٤ ، ١٦٥ ، والأغاني ١٢/١٤٠ (ساسي) .
(٢) جمهرة الأمثال ١/٤٠٧ .
(٣) المستقصى ١/٧١ .

تدل على أنه كان غاية في الحلم والرزانة وبعد النظر .

ولم يكلن حلم العربي صبراً على الإهانة ، ولا إغضاء على الضَّيْم والهوان ، فهذا لم يكن من طبيعته ، بل هذا لا يكون حلماً ، كما قال المتنبي :

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغيرِ اقْتِدَارٍ حُجَّةُ لاجِئٍ إليها اللِّئَامُ

كان حلمهم يَصدر عن اقتدار ، وكذلك كان عَفوهم ، كما قال مُهلهل بن أبي ربيعة في إحدى مَراثيه لأخيه كليب[1] :

وإنَّكَ كنتَ تَحْلُمُ عن رِجَالٍ وتَعْفُو عَنْهُمُ ولك اقْتِدَارُ

والأمثال العربية لم تُغفل العفوَ عند المقدرة ، بل عرفته كما عرفه الشعر، وحَثَّت عليه كما حثّ، ففي مثل منها «إذا ارجَحَنَّ شاصياً فارفعْ يَداً » ومعناه أن عدوك إذا سقط على الأرض رافعاً رجله فكُفَّ عنه ، ولا تُجْهز عليه ، وفي مثل آخر « ملكتَ فأَسْجِح » أي ظفرتَ فأحسن ، وقدرتَ فَسهِّل وأحسن العفو ، وفي مثل ثالث « أكرِمُوا الصَّرِيعَ » وهو المطروح على الأرض . .

وكان بعض حكمائهم يفضل العفو على الحق ، فقد رَوى العلماء « أن أحسن ما قيل في العفو قول مُجاشع بن ربعي لقوم رآهم يتآمرون في الانتقام من رجل : هل لكم في الحق أو فيما هو خير من الحق ؟ قالوا : قد عرفنا الحق ، فما الذي هو خير منه ؟ قال : العفو فإن الحق مُرٌّ »[2] .

وأكثر من هذا أن العرب كانوا يرون أن التمكن من العدو يُذهب الغضبَ عليه ، ويدعو إلى العفو عنه ، فقالوا في ذلك : « المَقْدِرَةُ تُذْهب

(١) شعراء النصرانية ٢ / ١٦٣ .

(٢) جمهرة الأمثال ١ / ٦٤ .

الحفيظةَ » ، وكأنهم بهذا المثل جعلوا العفو عند المقدرة طبيعةً في النفس ، وسجية من سجاياها ، لا تحتاج إلى الحث والترغيب .

الصعلكة والصعاليك :

ساعدت أحوال العرب الاجتماعية والاقتصادية ، في العصر الجاهلي ، على نشوء جماعة من الفقراء المحرومين ، كانوا خطراً على الأمن ، ومصدراً من مصادر الخوف على الأرواح والأموال ، وهذه الجماعة هي ما يطلق عليها العلماء اسم « الصعاليك » أو « العَدَّائين » .

وكان من دَأب هذه الجماعة الغزوُ والإغارة والسلب والنهب والاغتصاب ، وأهم الصفات التي تميزهم سرعةُ الجري ، وشدة العَدْو على الساقين ، والبصر بمَسالك الأرض وشعابها ، وهي صفات تتطلبها طبيعة الأعمال التي نذروا أنفسهم لها ، من الإغارة والغزو ، ثم الفرار والهرب[1] .

وتروي المصادر العربية القديمة عن هذه الفئة أخباراً ، وتصفهم بصفات تعد من قبيل الغرائب والعجائب .

وكان أشهرهم السُّلَيك بن سُلَكة ، والشَّنْفَرى ، وتَأَبَّط شَرّاً ، وعُروة بن الوَرْد ، الذي كان يسمى « عروةَ الصعاليك » والأُحَيْمر السعدي » والمُنتشِر بن وَهْب الباهلي ، وأَوْفَى بن مَطَر المازني ، وعمرو بن بَرَّاق ، ونُفَيل بن بُراقة[2] . ولأمرٍ ما لم تَسر أمثال العرب إلا

---

(١) انظر في الصعلكة والصعاليك : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي للدكتور يوسف خليف .

(٢) انظر : الأغاني ١٨/١٣٣ ، ٢١٠ ، ٢١/٨٧ - ٩٣ ، ١١٣ (ساسي) والمحبر ١٩٦ ، ١٩٧ ، والشعر والشعراء ٣٦٥ - ٣٦٨ ، والمستقصى ١/٢٣٨

باثنين منهم فقط هما : السُّلَيك والشَّنْفَرَى ، إذ قالوا : « أَعْدَى من السليك »[1] و « أَعْدَى من الشَّنْفَرى »[2] .

أما السليك فربَّما كان أشهرَ عَدَّاء في الجاهلية ، وقد حفلت كتب الأمثال والأدب بأخباره وغرائبه في الإغارة والعَدْو والفرار[3] ، ويصفه أبو الفرج الأصفهاني بقوله : « وهو أحد صعاليك العرب العدائين الذين كانوا لا يُلْحَقون ولا تَعْلق بهم الخيل إذا عَدَوا »[4] . أما ابن قتيبة فيقول عنه : « وهو أحد أغربة العرب وهُجَنائهم وصعاليكهم ورُجَيْلائهم ، وكان له بأس ونجدة ، وكان أدلَّ الناس بالأرض ، وأجودَهم عَدْواً على رجليه ، وكان لا تَعلق به الخيل »[5] .

وكما أطلق العرب على عُروة بن الورد اسم (عروة الصعاليك) لأنه كان يَعولهم ، ويقاسمهم ما يحصل عليه من مال وطعام ، أطلقوا على السليك اسم « سُلَيك المَقانب » فقالوا في مثل لهم : « أَمْضَى من سُلَيْك المَقانب »[6] .

وأما الشَّنْفَرى فكان من العَدَّائين المشهورين ، وكان هو والسليك أعدى من رُئي ، إذ كانا يسبقان الأفراس ، ويصيدان الظباء عَدْواً[7] ،

---

(١) الدرة الفاخرة ١ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٢) نفسه ١ / ٣٠٣ .

(٣) انظر : الفاخر ١٦١ ، وجمهرة الأمثال ١ / ١٣٥ ، وفصل المقال ٤٠٥ ، والدرة الفاخرة ١ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٤) الأغاني ١٨ / ١٣٣ (ساسي) .

(٥) الشعر والشعراء ٣٦٥ .

(٦) الدرة الفاخرة ٢ / ٣٨٣ ، والمقانب : جمع مقنب ، وهو جماعة الخيل والفرسان .

(٧) المستقصى ١ / ٢٣٨ .

وله في كتب الأمثال والأدب أخبار عجيبة[1] .

الظلم وصوره وعاقبته :

احتفظت الأمثال العربية بصور من الظلم ، كانت سائدة في العصر الجاهلي ، منها العقاب بدون ذنب ، ومَثَلهم في ذلك «مَا لِي إلا ذَنْبُ صُحْر » . وصُحْر بنت لقمان العادي ، ويزعمون أنه تزوج امرأة ، وكان شديدَ الغَيْرة عليها ، فأحلَّها في رأس جبل فخانته ، فرمى بها من أعلاه ، وانحدر مُغْضَباً ، فتلقته ابنته صُحْر فقال لها : وأنتِ أيضاً من النساء ، ولطمها فماتت .

ومنها أخذُ البريء بذنب غيره . والأمثال التي وردت في هذا النوع من الظلم صِيغ بعضها في صيغ القضايا والأحكام العامة ، كقولهم : « جَانِيكَ من يَجْنِي عليك » و « كل شاةٍ تُناط برجلَيْها » فإن معناهما أن كل إنسان مسؤول عما يعمله هو ، لا عما يعمله الآخرون .

وقد وردت عنهم أمثال أخرى تقبِّح هذا الخلق ، وتنفِّر منه ، منها قولهم : « كَذِي العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو رَاتِعُ » و « كالثورِ يُضْرَب لما عافت البَقرُ » .

وسوءُ الجزاء على الإحسان ضربٌ من الظلم ، وقد أشارت أمثالهم إلى أنهم كانوا يعرفونه ، إذ يقول مثل لهم : « « جَزاءَ سِنمَّار » وكان سنمارُ بَنَّاء رومياً بارعاً ، فبنى الخَوَرْنَقَ للنعمان بن امرىء القيس ، فأعجب به النعمان وكره أن يعمل مثله لغيره ، فألقاه من فوقه فخَرَّ ميتاً .

---

(١) انظر : الدرة الفاخرة ١/٣٠٣ ، وجمهرة الأمثال ١/١٦٨ ، ٢/٣٠٤ ، والأغاني ٢١/٨٧ - ٩٣ (ساسي) وبلوغ الأرب ٢/١٤٣ - ١٤٥ .

ويقول آخر : « يَحْمِلُ شَنٌّ ويُفَدَّى لُكَيْز » وشن ولكيز رجلان كانا مع أمهما في سفر ، فنزلوا منزلاً ، فلما هموا بالرحيل قالت الأم : يا لكيز ، قُمْ فَدَيتُك حتى نَرحل ، وقالت لشن : تَعَالَ فاحملني ، فقال لها : « يَحْمِلُ شَنٌّ ويُفَدَّى لُكَيْز » فذهبت كلمته مثلاً في سوء الجزاء .

ويقول مثل ثالث : « خيرَ حالِبَيْكِ تَنْطَحِينَ » وأصله أن بقرة كان لها حالبان ، أحدهما أرفق بها من الآخر ، فكانت تنطح الأرفق وتؤذيه إذا اقترب منها .

وعرف العرب في ذلك العصر مَطْل الحقوق ، والتسويفَ في قضاء الدين ، وعابوا الرجل يفعل ذلك ، فقالوا فيه : « الأكلُ سَلَجَانٌ والقضاءُ لَيَّانٌ »[1] ، وشبهوا هذا المَطْل بنعاس الكلب ، لأنه دائم النعاس متصله ، لا يفتح عينيه إلا بقدر ما يكفيه للحراسة ، فقالوا : « مَطْلٌ كنُعاسِ الكَلْبِ » .

وكانوا يأنفون من ظلم الخسيس للكريم ، ويعدونه ضرباً من الذل والإهانة لا يطاق ، يدل على هذا قولهم : «لو ذاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْني » . وأصله أن امرأة لَطمت رجلاً منهم ، فنظر إليها فإذا هي رَثَّة الهيئة وضيعة ، فقال المثل ، ومعناه أن هذه المرأة لو كانت ذات غِنىً وهيئة حسنة لكانت بَلِيَّتي أخف ، ولاحتملتُ أذاها ، ولكن مصيبتي أنها ليست بكفء لي .

والظلم الذي يقع على الإنسان فلا يستطيع له دفعاً شديد الإيلام للنفس ، بل هو الذلّ بعينه ، وكان أحدهم قد حاق به مثل هذا الظلم فقال : « ذُلٌّ لَوْ أجدُ ناصراً » .

---

(١) السلج : سرعة الابتلاع . واللَّيَّان واللي : المدافعة .

وتتجلى في الحروب صور من أبشع صور الظلم ، وعَرَف العرب ذلك عنها فقالوا : « الحَرْبُ غَشُوم » وإنما كانت غشوماً لأنها تنال بالمكروه من لم يكن من جناتها ، وفي ذلك يقول شاعرهم[١] :

فَإنَّ الحربَ يَجْنِبها أُنَاسٌ ويَصْلَى حَرَّها قومٌ بُرَاءُ

* * *

أما عاقبة الظلم فإن العرب قد عبروا عنها بعدة أمثال غاية في الجمال والبلاغة ، يشتمل بعضها على صور مستمدة من بيئتهم وحياتهم ، كقولهم « الظلمُ مَرْتَعُه وَخيمٌ »[٢] ، و « مَنْ حَفر مُغَوَّاةً وقع فيها »[٣] ، و « يَعْدُو على المرء ما يَأْتَمِرُ » ، و « إنك لا تَجْنِي من الشوك العِنَب » .

ولم يكن العرب يرتضون الظلم ، لأن في أمثالهم دعواتٍ إلى الوقوف في وجهه ، وقمع الظالم والانتصار منه ، إذ يقولون : « هذه بتلك والبادئُ أظلمُ » ، و « مَنْ لا يَذُدْ عن حوضه يُهَدَّم » ، و « اضرِبْه ضربَ غرائب الإبل » ، وأصل هذا المثل أن بعض الإبل كانت ترد الماء وليس لَهَا رَبٌّ ، فيذودها أهل الإبل الواردة عن الماء ، ويضربونها ضرباً شديداً . وكذلك الظالم ينبغي أن يُجَابَه بالشدة والعنف . وبلغ من كراهيتهم للظلم أن شَبَّهوا الظالم بأنواع خبيثة من الحيوان ، تشتهر عندهم بظلم غيرها ، فقالوا : « أظْلَمُ من حَيَّة » ، و « أظلمُ من أَفْعَى » ، و « إنك لَتَظْلِمُني ظُلْمَ الأفعى » ، و « أظلمُ من وَرَل »[٤]

---

(١) اللسان (برأ) .

(٢) المرتع : المرعى وموضع اللعب واللهو . والوخيم : الوبيء الثقيل .

(٣) المغوَّاة : حفرة تحفر للسباع لاصطيادها .

(٤) الوَرَل : دابة مثل الضب .

وظلم هـذه الحيوانـات أنها لا تتخـذ لنفسهـا بيـوتـاً ، وإنمـا تجيء إلى أجحار غيرها ، فتدخلها وتغلب عليها بعد أن يهرب منها أصحابها .

الدفاع عن الحريم :

كان العربي بطبيعته عَيوفاً ، ذا أنفة وحَمِيَّة وكبرياء ، وكان سريع الانفعال ، شديد الغضب ، وقد وصف القرآن الكريم العرب في الجاهلية بالحمية ، فقال : ﴿ **إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُوا في قُلوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ** ﴾[1] .

وكان من مظاهر هذه الحمية الدفاعُ عن النساء ، وحمايتُهن في الحرب والسلم معاً ، ومَنْعُهن من الأسر والسبي[2] ، وفي ذلك يقول عَلقمة بن سَيَّار يومَ ذي قار ، يحرض قومه على الاستبسال في القتال[3] :

مَنْ فَرَّ منكم فَرَّ عن حَرِيمِهْ   أو ذَبَّ منكم ذَبَّ عن حَمِيمِهْ
وجارِه الأدْنَى وعن نَدِيمِهْ

ويقول عمرو بن كُلْثوم في معلقته[4] :

على آثارنا بِيضٌ كرامٌ   نُحاذِرُ أن تُفارِقَ أو تَهُونَا
يَقُتْنَ جيادنا ويَقُلْنَ لَسْتُمْ   بُعُولَتَنا إذا لم تَمْنَعُونَا
إذا لم نَحْمِهِنَّ فلا بَقِينَا   لشيءٍ بعدهنَّ ولا حَيِينَا
وما مَنَعَ الظعائنَ مثلُ ضَرْبٍ   تُرى منه السواعدُ كالقُلِينَا

---

(١) سورة الفتح ٢٦ ، والحمية : الأنفة والتكبر والغضب .

(٢) انظر : « الفتوة عند العرب » للأستاذ عمر الدسوقي ١٢٩ - ١٣١ .

(٣) جمهرة الأمثال ٢ / ٣٣٢ .

(٤) شرح القصائد العشر للتبريزي ٣٢٠ - ٣٢٢ ، ويقتن : من القوت ، وكانوا لا يرضون للقيام على الخيل إلا بأهليهم إشفاقاً عليها . وبعولتنا : أزواجنا . والقُلُون : جمع قُلَة ، وهي خشبة يلعب بها الصبيان .

وكانوا يلقبون الرجل الذي يدافع عن النساء والأعراض بحامي الذِّمار ، وحامي الحقيقة[1] ، وحمايةُ الذمار والحقيقة خيرُ ما يَفتخر به العربي ، وخير ما يمدح به ، يقول زهير بن أبي سُلْمَى[2] :

حَامِي الذِّمار على مُحافظة الـ ... جُلَّى أمينُ مُغيَّبِ الصَّدْرِ

ويقول عامر بن الطفيل[3] :

لقد عَلِمَتْ عُلْيَا هَوَازنَ أَنَّني ... أنا الفارسُ الحَامِي حقيقةَ جَعْفَرِ

وكانوا يعدون الدَّفْع عن الحريم من صفات الحر الكريم ، إذ يقول أوس بن حارثة ، وهو من حكمائهم ، لابنه مالك : « يا مالك ، مِنْ كرَم الكريم الدفعُ عن الحريم » ويقول أَبْجَر بن جابر العِجْلي ، وهو من حكمائهم أيضاً لابنه حَجَّار : « يا بُنَي ، إن أمثل القوم تقيّة الصابرُ عند الحقائق ، والذائدُ عن الحريم » ، بل كانوا يرون أن الرجل الكريم لا ينبغي له أن يتقاعس عند انتهاك حرمته ، ولا أن يُبْقي على حميته عندها ، ويعبر عن هذا المعنى قولهم في مثل لهم : « لا بُقْيا للحميَّة بعد الحَرائم » وهو من كلمة قالها مُحَكَّم اليمامة يوم مُسَيْلِمَةَ الكذاب يحرِّض بها قومه ، قال : « الآن تُسْتَحْقَب الكرائم غير حَظِيَّات ، ويُنْكَحْن غير رَضِيَّات ، فما كان عندكم من حَسَب فأخرجوه ، فلا بُقْيا للحمية بعد الحرائم » .

وكان من مظاهر حميتهم أيضاً الغيرةُ على النساء ، والأنفةُ من

---

(١) ذمار الرجل : كل ما يلزمه حفظه وحمايته والدفع عنه ، وإن ضَيَّعه ليم عليه ، وسمي ذماراً لأنه يجب على أهله التذمر والغضب له . والحقيقة : الحرمة ، وسميت حقيقةلأنه يحق على أهلها الدفع عنها .

(٢) ديوانه ٨٠ ، والجلى : البلية النازلة العظيمة ، أو الخصلة العظمى .

(٣) اللسان (حقق) .

التعرض لذكرهن ، فكانوا يحتملون كل شيء إلا ما يتصل بهن ، ويقولون في ذلك : « كلُّ شَيْء مَهَهٌ ما خلا النساءَ وذِكْرَهُنَّ »[1] إذ معناه أن الرجل يحتمل كل شيء ، حتى إذا ذُكرت حرمته امتعض عند ذلك ، ولم يحتمل أي حديث عنها .

ولم يكن دفاعهم عن حريمهم مقصوراً على القريبات وحدهن ، بل كان يشمل كل النساء ، فقد قالوا في مثل : « كلُّ ذاتِ صِدَارٍ خالةٌ »[2] . وأصله أن هَمَّام بن مُرَّة الشيباني أغار على بني أسد ، وكانت أمه أَسَدِيَّة ، فجعل يَسبي النساء ويضربهن ، فقالت له امرأة منهن : أَبِخَالاتِكَ تفعل هذا يا همام ؟ فقال لها : « كلُّ ذاتِ صِدَارٍ خالةٌ » ومعناه أن النساء سواء ، ينبغي أن يُصَنَّ كلهنّ ، فلو تركتُكُنَّ لوجب عليَّ أن أترك غيركن ، فلم أغْزُ أبداً ، وهذا غير ممكن .

ويبدو أنه كان من أسباب دفاعهم عن النساء ، إلى جانب الغَيْرة عليهن ، أنهم كانوا يَشعرون بما فيهن من ضعف فُطِرْنَ عليه ، فقد قالوا في مثل لهم : « النساءُ لَحْمٌ على وَضَم »[3] فجعلوا النساء كاللحم المكشوف الذي يَتهافت عليه الذباب ، ولا يستطيع له دفعاً .

وكانوا يرون أن من طبيعة الحر وأخلاقه أن يحمي حريمه في كل الحالات ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا يحول دونه سبب أو علة ، وقالوا في ذلك : « الفَحْلُ يَحْمي شَوْلَهُ مَعْقُولاً »[4] أي أن الحر يحتمل الأمر الجليل ، ويحمي حريمه ، وإن كانت به علة تمنعه من ذلك ،

---

(١) المَهَهُ والمَهاهُ : اليسير الهين .

(٢) الصدار : قميص تلبسه المرأة .

(٣) الوَضَم : الخِوان الذي يوضع عليه اللحم عند الشواء ، فيسقط الذباب عليه .

(٤) الشَّوْل : الإبل التي قد شالت ألبانها وارتفعت.

ومَثَلُه في ذلك كمثل الفحل الذي يَحمي النُّوق وإن كان مقيداً معقولاً . كما قالوا فيه : « الخيلُ تَجري على مَسَاوِيها » فالخيل الكريمة ، وإن كانت بها عيوب وأوصاب ، يحملها كَرَمُها على الجري على الرغم مما بها ، وكذلك الحُرُّ من الرجال يَحمي حريمه على ما قد يكون به من علل .

العلاقات بين الأقارب وذوي الرحم :

الأم هي المثل الأعلى للحنان والشفقة ، ومَضرب الأمثال في المحبة والرحمة ، على مر العصور ، واختلاف الأزمان .

وتصفها الأمثال العربية بكل هذه الصفات ، فتقول في حبها لأولادها : « كلُّ شيء يُحِبُّ ولَدَه حتى الحُبَارَى »[1] . وإنما خَصَّ العرب الحبارى من بين سائر الحيوان ، لأنها مما يُضرب به المثل في الحمق ، وهي ، على حمقها، تحب ولدها ، وتعلمه الطيران .

وتقول في شفقتها ، وحنانها : « لا يعدَم الحُوار من أمه حَنَّةً »[2] ، ويضرب للقريب لا يعدم محبة من قريبه ، كما تقول : « لا يَضُرُّ الحُوارَ ما وطئته أمُّه » ، ويضرب للمشفق الذي لا يؤذي وإن همَّ بالإيذاء ، ذلك أن الوطأة ، وإن كانت ضارة في صورتها ، إذا كانت من مُشفق كالأم لا تُحدث ضرراً ما ، لأن الشفقة تحول بينها وبين ذلك ، وقد أخذ الفرزدق معنى المثل فقال[3] :

وإنِّي وَسَعْداً كالحُوَارِ وأُمِّهِ ... إذا وَطِئَتْه لم يَضِرْه اعتمادُها

---

(١) الحبارى : طائر طويل العنق ، رمادي اللون ، على شكل الإوزّة ، في منقاره طول .

(٢) الحوار : ولد الناقة ، والحنة : الحنين والشفقة .

(٣) المستقصى ٢/٢٧٢ .

وكانوا يشبهون الرجل البار بأخيه بالأم ، ويقولون عنه : « أمٌّ فرشَتْ فَأَنَامَتْ» ، ويقول أحد شعرائهم[1] :

وكنتُ له عَمًّا لَطِيفاً ووَالِداً رَؤُوفاً وأُمًّا مَهَّدَتْ فأَنَامَتِ

والأم كَهْف لأولادها ، ومَلاَذ يلوذون به عند الشدائد والمُلِمَّات ، والعرب يقولون لمن يستغيث بمن يغيث : « إلى أمه يَلْهف اللَّهْفَان »[2] و « إلى أمه يَأوي مَنْ ثُبر»[3] .

وهذه الأخلاق جبِلَّة في الأم ، وفطرة فطرها الله تعالى عليها ، لا تملك التخلص منها ، ولا التخلي عنها ، حتى ولو عَقَّها أولادُها ، وتحدثنا الأمثال أن رجلاً تزوج امرأة ، وله أم عجوز تعيش معها ، فقالت المرأة له ذات يوم : لا أنا ولا أنتَ حتى تُخرج هذه العجوز عنا ، فلما أكثرت عليه احتمل أمه على عاتقه ليلاً ، ثم أتى بها وادياً كثير السباع ، فطرَحَها فيه ، ثم تنكَّر لها وَمَرَّ بها وهي تبكي ، فقال : ما يبكيكِ يا عجوز ؟ قالت : طرحني ابني ههنا وذهب ، وأنا أخاف أن يفترسه الأسد ، فقال لها : تبكين عليه وقد فَعَل بك ما فعل ! هَلاَّ تَدْعِين عليه ! قالت : « تَأْبَى له ذلك بناتُ أَلْبُبِي »[4] فذهبت كلمتها مثلاً في حنان الأم وشفقتها على بنيها .

* * *

وإذا تجاوزنا الأم إلى سائر الأقارب وجدنا الأمثال تتعرض لأربعة أنواع من العلاقات بينهم هي : إعجابُ الرجل برَهْطه وعشيرته ،

---

(١) جمهرة الأمثال ١/١٥٢ .

(٢) اللهفان : المتحسر على الفائت .

(٣) ثُبِر : من الثبور ، وهو الهلاك والخسران .

(٤) بنات الألبب : عروق في القلب تكون منها الرقة .

واحتمالُه لهم على ما بهم من عيوب ، ونصرتُه لهم ، ثم ما قد يَنْجُم بينهم من تحاسد وتباغض .

أما إعجاب الرجل بأهله وعشيرته فيصوره قولهم : « كلُّ فَتَاةٍ بأبيها مُعْجَبَة» ، و« زُيِّنَ في عَيْن والدٍ وَلَدُه» ، و« حَمِيمُ الرجلِ أصلُه»[1] ، و« مَنْ يَمْدَحُ العروسَ إلا أهلُها ؟ !» .

وكان من مظاهر هذا الإعجاب عندهم أن الرجل منهم كان لا يبالي أن يناله قريبه بالأذى ، ويؤثر ذلك على أن يقع عليه الأذى من غيره ، ولهم في هذا مثلان ، أحدهما من النثر ، والآخر من الشعر ، أما الأول فقولهم : « آكلُ لَحْمِي ولاَ أَدَعُهُ لآكلٍ» وأما الآخر فقول الممزَّق العَبْدِي[2] :

فإنْ كُنْتُ مَأْكولاً فَكُنْ خَيْرَ آكلٍ
وإلاَّ فَأَدْرِكْنِي ولَمَّا أُمَزَّقِ

وأما وجوب احتماله لهم فإن للعرب ثلاثة أمثال تدعو إلى إغضاء الرجل على ما يصدر من أقاربه من أذى ، وصبره عليهم ، هي قولهم : « مِنْكَ عِيصُكَ وإن كان أَشِباً »[3] و« منك رَبَضُكَ وإن كان سَمَاراً »[4] ، و« منك أنفُكَ وإن كان أَجْدَعَ »[5] .

فهذه الأمثال الثلاثة تؤدي معنى واحداً ، وإن اختلفت ألفاظها في التعبير عنه ، وهو التسامح مع الأقارب ، والتعاطف معهم وإن كانوا غيرَ أهل لهذا التسامح والتعاطف ، وتعلل ذلك بعدم إمكان الاستغناء عنهم .

---

(١) الحميم : القريب ، ومعناه أن قريب الرجل حقاً من هو من أصله .

(٢) من الأصمعية ٥٨ ، وانظر : الشعر والشعراء ٣٦١ .

(٣) العِيص : الأجمة . والأشِب : ذو الشوك المشتبك غير السهل .

(٤) المراد بالربض هنا الأهل والأصل . والسمار : اللبن المخلوط بالماء .

(٥) الأجدع : المقطوع .

والتناصر بين الأقارب ، ووقوف بعضهم إلى جانب بعض في الملمات ، حتى ولو كانت بينهم إحَنٌ وعداوات خلق اجتماعي ، كان العرب يعرفونه في الجاهلية ، وتحثّ أمثالهم عليه ، إذ يقول مثل منها : « لَا تَعْدَمُ من ابن عَمِّك نَصْراً » ، أي إن ابن عمك ، وإن كان كارهاً لك ، لا تعدَم منه صورة من صور المساعدة والنصر عند الحاجة إلى ذلك .

وأكثر من هذا أنهم كانوا يرون أن نصرة القريب لقريبه طبيعة في النفس ، وفطرة لا تتخلف ، يدل على ذلك قولهم : « لا يَمْلكُ مَوْلىً لمَوْلىً نَصْراً » لأن مآل المعنى الذي يحتويه هذا المثل أن القريب لا يستطيع ترك نصر قريبه ، إذ يثور به الغضب له ، والغيرة عليه ، فلا يملك نفسه في ترك نصرته .

وكانوا يرون أن الاعتداء على القريب يَسْتَلُّ السخائم من قلب قريبه ، ويَذهب بالأحقادِ التي قد تكون عالقة به ، ويدفعه إلى نصرته ومعونته ، ويقولون في ذلك : « الحَفَائِظُ تُحَلِّل الأحقادَ »[1] . ويقول عُوَيْفُ القوافي في مثل من الشعر[2] :

نَخَلَتْ لَهُ نَفْسِي النَّصِيحَةَ إِنَّهُ ... عِنْدَ الشَّدَائِدِ تَذْهَبُ الأَحْقَادُ

ويقول القُطامي في مثل آخر[3] :

---

(١) الحفيظة : الغضب لحرمة تنتهك من حرمات الإنسان .

(٢) ضمن خمسة أبيات في الحماسة بشرح المرزوقي ٢٦٢ ـ ٢٦٤ .

(٣) ديوانه ٢٧ ، واللسان (رفض ، حفظ ، كتف) وترفضُ : تذهب وتتفرق . والمحفظات : الأمور التي تُغضب الرجل إذا وُتر في حميمه أو جاره . والكتائف : جمع كتيفة ، وهي السخيمة والحقد والعداوة .

أخـوكَ الـذي لا تَـمْـلِكُ الـحِسَّ نَـفْـسُـهُ
وتَـرْفَضُّ عـنـد الـمُـحْـفِـظَاتِ الـكَـتَـائِـفُ

وإذا كانت القرابة تدعو إلى إعجاب الأقارب بعضهم ببعض ، واحتمال بعضهم لبعض ، ونصرة بعضهم لبعض ، فإن من طبيعتها أيضاً نشوءَ التحاسد والتباغض بين الأقارب ، ولا سيما للسادة والرؤساء منهم ، ويشير إلى هذه الطبيعة مثلان من أمثالهم ، هما قولهم : « أَيْنَمَا أُوَجِّه أَلْقَ سَعْداً » و « في كل وادٍ بَنُو سَعْد» وهما للأضبط بن قُرَيع السعدي ، وكان سيدَ قومه ، فرأى منهم حسداً له ، وبغياً عليه ، فرحل عنهم ونزل بآخرين ، فرآهم يفعلون بساداتهم وأشرافهم مثل ذلك ، فأطلق المثلين ، ومعناهما أن كل الناس مثل قومي في حسدهم لساداتهم .

ولذا وجدنا أمثالاً أخرى تُوصي بالتفريق بين الأقارب ، وعدم تجاورهم في المسكن ، حتى تظل العلاقات بينهم سليمة متينة ، إذ يقول مثل : «فَرِّقْ بين مَعَدٍّ تَحَابَّ» ، لأن ذوي القرابات إذا تراخت ديارهم بعضها عن بعض كان أحرى أن يتحَابُّوا ، فأما إذا تدانت دَبَّ بينهم الحسد والبغضاء . وهذا المعنى جاء في وصية لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري ، إذ كتب إليه « أن مُرْ ذَوِي القرابات أن يَتزَاوَرُوا ولا يَتَجَاوَرُوا»[١] .

العلاقات بين الإخوان والأصدقاء

في الأمثال العربية تفصيل لأحوال الإخوان والأصدقاء ، وما ينبغي في معاملتهم ، والتمسك بهم ونصرتهم ، والإشفاق عليهم ،

---

(١) أمثال أبي عبيد ١٤٨ .

وبذل النصيحة لهم ، وعتابهم .

فمن هذه الأمثال ما يحث على التمسك بالأخ ، لأنه سلاح لأخيه ودرع له ، يقول مثل من الشعر[1] :

أخاكَ أخاكَ إنَّ مَنْ لا أخاً لَهُ
كساعٍ إلى الهَيْجَا بغيرِ سِلاَحِ
وإن ابنَ عمِّ المرءِ فاعلمْ جَناحُهُ
وهل يَنْهَضُ البازي بغيرِ جَنَاحِ

والأخ مفزع لأخيه ، ومَلاذ يلوذ به إذا حَزَ به أمر ، أو ألمت به ملمة ، وفي ذلك يقول القطامي[2] :

وإذَا يُصِيبُكَ والحوادثُ جَمَّةٌ
حَدَثٌ حَدَاكَ إلى أخيكَ الأوْثَقِ

وكانوا يعرفون الإيثار ، ذلك الخلقَ النبيل ، وبه نطقت أمثالهم ، إذ يقولون : «لَكَ ما أبْكِي ولاَ عَبْرَةَ بي»[3] ويقول رجل يخاطب امرأته[4] :

أَرُدُّ شُجَاعَ الجوعِ قد تَعْلَمِينَهُ
وأُوثِرُ غيري من عيالِكِ بالطُّعْمِ

ويذكر العلماء أن جَذِيمة الأبرش نزل منزلاً ، وأمر الناس أن يجتنوا له الكَمْأة ، فكان بعضهم يستأثر بخير ما يجد ، ويأكل طَيِّبَهَا ،

---

(١) لمسكين الدارمي أو إبراهيم بن هرمة . وانظر فيهما : عيون الأخبار ٣/٢ ، وخزانة الأدب ٦٧/٣ ، وحماسة البحتري ٢٤٥ ، وأمثال أبي عبيد ١٨١ .

(٢) من قصيدة له في ديوانه ١١١ ، وعيون الأخبار ٢/٣ ، وانظر : أمثال أبي عبيد ١٨٠ .

(٣) معناه أني أحزن لك ، فأما لشيء يخصني فلا .

(٤) هو أبو خراش الهذلي ، ديوان الهذليين ١٢٧/٢ ، والأغاني ٤٢/٢١ ، والمعاني الكبير ١٢٣١ ، واللسان (شجع) وانظر : أمثال أبي عبيد ١٧٤ .

أما عمرو بن عَدِي اللخمي ابن أخته فكان يأتيه بخير ما يجد ، ولا يأكل منه شيئاً ، ويقول له[1] :

هــذا جَــنَــايَ وخِـيَــارُهُ فِـيــهْ   إذ كــلُّ جــانٍ يَــدُهُ إلــى فِـيــهْ

فذهبت كلمته هذه مثلاً للرجل يؤثر صاحبه بخيار ما عنده .

ومن مـظاهر الأخـوَّة إشفاق الأخ على أخيـه ، وقَلَقُهُ عليـه ، فهـو دائماً يتوقع أن تصيبه المكاره ، وهو في ذلك شبيه بـالأم التي تعيش في قلق دائم على أولادهـا ، ومَثَلهم الـذي يـدل على هـذا قـولهم : « إن الشَّفِيقَ بِسُوءِ ظَنٍّ مُولَعُ» .

ومن مظاهرها كذلك تأثيـر الأخ على أخيه تـأثيراً يصـل إلى درجة الاقتداء به في أخلاقه وسلوكه ، وقد أدرك العرب ذلك فقالوا : « المـرءُ بِخَلِيله » ، لأن معنى المثـل أن الإنسـان يُنْسب إلى خليله وصـديقـه ، ويُقاس عليه ، ويقول عدي بن زيد في هذا[2] :

عــن الــمــرءِ لا تَــسْــأَلْ وسَــلْ عــن قَــريــنِـهِ
فــكــلُّ قَــريــنٍ بــالــمُــقَــارِن يَــقْــتَــدِي

وللأخ حقوق على أخيه ، في مقدمتهـا نُصْرتـه وإعانتـه ، وكانـوا يرون أن الأخ حقاً هو من يفعل ذلك إذ قالوا : « إن أخاكَ من آساكَ» بل كانوا يرون أن الأخ الصديق ربمـا أَرْبَى في نصرتـه لأخيه وحبـه له على الأخ الشقيق ، يـدل على ذلك مثلهم المشهـور « رُبَّ أخٍ لـك لم تَلِدْهُ أمك » .

وقـد تمادى أهـل الجاهليـة في نصـرة الإخـوان ، حتى كـان من

---

(١) الشعر في الأغاني ١٥/٣١٣ ، واللسان (كوم ، جنى) وأمثال أبي عبيد ١٧٤ .

(٢) معجم الشعراء للمرزباني ٨٢ ، وجمهرة أشعار العرب ١٧٩ ، وأمثال أبي عبيد ١٧٨ .

مذهبهم أن ينصروهم مُحِقِّين كانوا أو مُبْطِلين ، ويقولون : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[1] . ويقول راجزهم[2] :

إنَّ أخاكَ الصِّدْقَ مَن كان مَعَكْ
وَمَنْ يَضُرُّ نفسَه لِيَنْفَعَكْ
ومَنْ إذا صَرْفُ الزمان صَدَعَكْ
شَتَّتَ شملَ نفسه لِيَجْمَعَكْ

* وإن غدوتَ ظالماً غدا مَعَكْ *

ومن حق الأخ على أخيه أن ينصحه ، وأن يصدقه في النصيحة ، وأن يبصره بعيوبه ، وينهاه عنها ، ولهم في هذه المعاني عدة أمثال منها قولهم : « أخوكَ مَنْ صَدَقَكَ في النصيحة» ، و « المرءُ مرآةُ أخيه» ، وقول عمر بن عبد العزيز : «رحم الله رجلاً أهدى إليَّ عُيُوبي» .

وتُوصي الأمثال بالتسامح مع الإخوان ومياسرتهم ، وترك الخلاف معهم ، لأن ذلك أبقى للأخوة والمودة ، ومن هذه الأمثال المثل المشهور ، « إذا عَزَّ أخوكَ فَهِنْ» ، إذ معناه : إذا صَعُبَ أخوك فلِنْ ، لأنك إن صَعُبتَ أيضاً كانت الفرقة بينكما . وقد أخذ معاوية بن أبي سفيان معنى المثل فقال : «لو أن بيني وبين الناس شعرةً ممدودةً ما انقطعت ، لأني إذا مَدُّوا أرسلتُ ، وإذا أرسلوا مَدَدْتُ»[3] .

---

(١) قال أبو عبيد في كتاب الأمثال : « وهذا الحرف يروى في حديث مرفوع ، الا أن فيه : قيل: يا رسول الله ، هذا ينصره مظلوماً فكيف ينصره ظالماً ؟ قال : « يكفُّه عن الظلم » قال أبو عبيد : أما الحديث فهكذا هو ، وأما العرب فكان مذهبها في المثل نصرته على كل حال » .

(٢) جمهرة الأمثال ١/ ٥٨ .

(٣) جمهرة الأمثال ١/ ٦٥ .

كمـا تـوصي بحسن الـظن بهم إذا بـدت منهم بعض البـدَوات والهنَوات ، لأن ذلك يُريح البال ، ويَسُلُّ الغيظ من القلب ، يقول أكثم ابن صيفي : «مَنْ جَعَل لنفسه من حسن الـظن بـإخـوانـه نصيبـاً أراح قلبَه» .

والإنسـان بـطبيعتـه يخـطىء ويصيب ، بـل إن أخـطاءه أضعـاف إصـابته ، ومن ثَم فعلى الأخ أن يتحمـل أخاه على أخـطائه ، فـإنـه لـو آخـذه على كـل سَقْـطَة يسقـطهـا فَقَـده ، لأن النفس تنفـر من العتـاب المستمر ،وتمل المؤاخذة الشديدة ، ثم تكون النتيجة أن يفقد الإنسـان بهذه الطريقة إخوانـه ، واحداً تِلْوَ الآخـر ، ويعيش وحيداً في الحيـاة ، معـزولاً عن مجتمعـه ، وفي ذلـك يقـول العـرب في مثـل لهم : «أيُّ الرجالِ المُهَـذَّبُ» ؟ وهو مـأخوذ من قـول النابغـة يخاطبُ النعمـان في إحدى اعتذارياته[1] :

ولَسْـتَ بِـمُـسْـتَـبْـقٍ أخـاً لا تَـلُمُّـهُ
عـلى شَـعَـثٍ أَيُّ الـرجـالِ الـمـهـذَّبُ !

وقريب من هذا المعنى قول مَعْقِل بن خُوَيلد الهذَلي[2] :

وقَـوْلُ الـعَـدُوّ وأيُّ امـرىءٍ   مـن الـنـاس لَـيْسَ لَـهُ عَـائِـبُ

وتنصـح الأمثال بـالعتاب بين الإخـوان ، وتَعُدُّه من أسبـاب بقـاء الأخوة واستمرارها ، فيقول مثـل : «معاتبـةُ الأخ خيرٌ من فَقْـده» . ومن وصية أوس بن حارثة لابنه مالك : « يـا مالـك ، العتابُ قبـل العقاب ، والمنيَّةُ ولا الدَّنِيَّة» .

---

(١) ديوانه ١٤ .

(٢) ديوان الهذليين ٦٨/٣ .

ونصيحة العرب بالعتاب ليست مطلقة ، وإنما هي مقيَّدة بمن يُؤَثِّر فيه العتاب ويُجدي ، أما من يحمله العتاب على اللجاج في الخطأ ، والاستمرار عليه فإن الأمثال تَنصح بترك عتابه لعدم جَدْوَى ذلك العتاب ، حيث يقول مثلٌ منها : « إنما يُعَاتَب الأديمُ ذو البَشَرة » ، ذلك أن الجِلد إذا لم تُصلحه الدبغة الأولى أعيد في الدباغ إن كان ذا قوة ، وتُرك إن كان ضعيفاً كيلا يزداد ضعفاً . ويقول مثل آخر من الشعر[1] :

وليس عِتَابُ النَاسِ للمرءِ نَافِعاً
إذا لم يَكُنْ للمرءِ لُبٌّ يُعَاتِبُهْ

وإذا كانت الأخوة والإخوان بهذه المنزلة عندهم كان الفساد الذي يعتريهما من المشكلات التي لا يجدون لها حلاً ، ذلك أنهم شَبَّهوا هذا الفساد بغُصَّة الماء ، لا حيلة للمرء فيها ، فقالوا : «مَنْ فَسَدَتْ بِطَانَتُهُ كان كَمَنْ غَصَّ بالماء » ، فإن الذي يَغص بالطعام يعالج غصتَه بالماء ، أما من يَغَص بالماء نفسِه فلا حيلة له في التخلص من غصته . وقد عبروا عن هذا المعنى بمثلين آخرين يدلان على التحسر على فساد الإخوان ، هما قولهم : « لو بغَيْرِ الماءِ غَصَصْتُ» وقول عَدِيّ بن زيد[2] :

لو بِغَيْرِ الماءِ حَلْقِي شَرِقٌ   كنتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعْتِصَارِي

كما عبروا عنه بحكمة تقول : «إن الريح إذا هبت خارجَ البيت استترتَ منها ، وإذا كانت في داخل البيت لم يكن إلى الاستتار منها سبيل»[3] .

---

(١) لبشار بن برد ، ديوانه ١ /٣٠٩ ، والأغاني ٣ /٢٨ ، وحماسة البحتري ٧٢ ، ٧٣ .
(٢) الأغاني ٢ /١١٤ ، والحيوان ٥ /١٣٨ ، والاشتقاق ٢٢٩ ، وأمثال أبي عبيد ١٧٩ .
(٣) أمثال أبي عبيد ١٧٩ .

ويُنصح العرب بعدم التمسك بالأخ الذي لا يبادل أخاه المودة ، ولا يحرص على إخائه ، بل إنهم يزهِّدون فيه ، ويرغِّبون في تركه ، فيقولون : «إنما يُضَنُّ بالضَّنينِ » و «خَلِّ سبيلَ من وَهَى سِقَاؤُه» و « خَلِّه دَرَجَ الضب » وإنما خُصَّ الضب لأنه إذا ذهب في طريق لم يهتدِ إلى الرجوع فيه .

الفصل الثاني

العادات والمعتقدات

أولاً : العادات

وأد البنات(*)

يراد بوأد البنات دفنهنَّ أحياء ، وكان ذلك من العادات المتفشية عند العرب في الجاهلية ، وكان الباعث عليه إما مخافة العار الذي يلحقهم بسببهن إذا سُبِينَ ، وطَمع فيهن غير الأكفاء ، وإما مخافة الفقر والإملاق ، ففي اللسان « كان الرجل في الجاهلية إذا ولدت له بنت دفنها حين تضعها والدتها حية مخافة العار والحاجة»[1] . وَيَرْوُونَ أن عَقِيل بن عُلَّفة خُطبت إليه ابنته الجَرْباء فقال[2] :

إني وإن سِيق إليَّ المَهْرُ ألفٌ وَعُبْدَانٌ وخورٌ عَشْرُ

* أحبُّ أَصْهَارِي إليَّ القبرُ *

(*) انظر في وأد البنات : الأغاني ١٢/١٤٤ ، ١٩/٢ وما بعدها (ساسي) وبلوغ الأرب ٣/٤١ ـ ٦٦ والأسرة والمجتمع للدكتور علي عبد الواحد وافي ١١٨ ـ ١٢٣ ، والحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي ١٤٨ ـ ١٥٣ ، وتفسير القرطبي ١٠/١١٧، وتفسير جزء « عم » للإمام محمد عبده ٢٣ ، والدرة الفاخرة ١/٢٧٩ ، واللسان والتاج (وأد) .

(١) مادة (وأد) .

(٢) تفسير القرطبي ١٠/١١٧ ، والخور جمع خَوَّارة ، وهي الناقة الحمراء التي تميل حمرتها إلى الغبرة ، وتكون رقيقة الجلد ، طويلة الوبر ، وإذا كانت كذلك فهي أغزر لبناً .

وقد سَجل القرآن الكريم هذه العادة ، ووصف ما كان يعتري الرجل منهم حين يُبَشَّر بالأنثى ، من غيظ وحقد يَجعلانه يتوارى من الناس خزياً وذلاً ، فقال :

﴿وإذا بُشِّر أحدُهُم بالأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوارَى من القومِ من سُوءِ ما بُشِّرَ به أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أمْ يَدُسُّهُ في الترابِ ألَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] ، كما نَدَّد بفاعلها ، وَتَوَعَّده بأشد العقاب فقال : **﴿وإذَا المَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾**[2] .

وليس معنى هذا أن العرب كانوا يقتصرن في الوأد على البنات ، فقد كان منهم من يقتل البنين أيضاً في المجاعات أو خشية الفقر ، ففي اللسان « ومنهم من كان يئد البنين عند الحاجة»[3] .

ويؤكد القرآن الكريم قتل العرب للبنين والبنات على السواء ، حيث يقول : **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أولَادَكُمْ خَشْيَةَ إملاقٍ نحنُ نَرْزُقُهُم وَإِيَّاكُمْ إنَّ قَتْلَهم كان خِطْأً كَبِيراً﴾**[4] وحيث يقول : **﴿ولا تَقْتُلُوا أولَادَكُم من إملاقٍ نحن نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾**[5] . فإن كلمة « الأولاد » التي وردت في الآيتين الكريمتين تشمل الذكور والإناث معاً ، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين ، كما ذهب إليه بعض الدارسين المعاصرين ، إذ يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي : « وكانت بعض قبائل العرب في الجاهلية تلجأ كذلك إلى قتل أولادها بدون تفرقة بين ذكورهم وإناثهم ، تحت تأثير الفقر ، ورغبة في التخلص من واجب تربيتهم ،

---

(١) سورة النحل ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) سورة التكوير ٨ ، ٩ .

(٣) مادة (وأد) .

(٤) سورة الإسراء ٣١ .

(٥) سورة الأنعام ، من الآية ١٥١ .

ولعلَّ قسطاً من التَّبِعة في انتشار هذا النظام لديهم يقع على بيئة بلاد العرب وحالتهم الاقتصادية ، فإجداب أرضهم وضآلة دخلهم من مهنة الرعي التي كان يزاولها كثير منهم ، واحتكار التجارة في يد أفراد من سَراتهم ، وحياة الشظف التي كانت تعانيها الدهماء ، والمجاعات المتتالية التي كانت تنتابهم ، وكثرة تَنقلهم في طلب الكلأ لأنعامهم ، كل ذلك وما إليه جَعل من الصعب على كثير منهم تربية أولادهم ، واضطرار القبائل السابق ذكرها إلى التخلص منهم بقتلهم عقب ولادتهم . وإلى هذه التقاليد يشير القرآن الكريم إذ يقول مخاطباً العرب : ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أولادَكُمْ خَشْيَةَ إملاقٍ نحن نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**﴾ وإذ يقول مبيناً للرسول ﷺ بعض ما يجب أن يحرمه على العرب من تقاليدهم ومعتقداتهم : ﴿**قل تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا به شيئاً وبالوالدَيْنِ إحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أولادَكُمْ من إملاقٍ نحنُ نرزقكم وإيَّاهم . . .**﴾[1] .

ولكن أكان الوأْد شائعاً في جميع القبائل العربية أم كان مقصوراً على قبائل معينة ؟ يذهب بعض العلماء إلى الرأي الأول ، فقد روى الهَيْثم بن عَدِي أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ، ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام وقد قَلَّ ذلك فيهم إلا في بني تميم[2] . وتابعه الزمخشري في ذلك حيث قال : «كان الوأد في العرب قاطبة ، وقطع الإسلام ذلك إلا عن تميم»[3] ، ويذهب آخرون إلى أن بعضَ القبائل هي التي كانت تستعمله[4] .

---

(١) الأسرة والمجتمع ١١٨ .	(٢) الدرة الفاخرة ١ / ٢٧٩ .

(٣) المستقصى ١ /٢١٧ .

(٤) انظر : الكامل للمبرد ٤٢٥ ، وما بعدها ، وبلوغ الأرب ٣ /٤٢ ، والأسرة والمجتمع ١١٨ ، واللسان (وأد) .

على أنه كان هنالك من لم يرتضِ هذه العادة ، فوقف في وجهها ، وأنقذ البنات من شرها . ومن هؤلاء صَعْصَعَة بن ناجية جَدّ الفرزدق ، فقد روى أبو الفرج الأصفهاني أنه « كان يقال لصعصعة مُحْيِي الموؤودات ، وذلك أنه مر برجل من قومه وهو يحفر بئراً ، وامرأته تبكي ، فقال لها صعصعة : ما يبكيكِ ؟ قالت : يريد أن يئد ابنتي هذه ، فقال له : ما حَمَلَكَ على هذا ؟ قال : الفقر ، قال : فإني اشتريتُها منكَ بناقتين يتبعهما أولادهما ، تعيشون بألبانها ولا تئد الصبية ، قال : فقد فعلت ، فأعطاه الناقتين وجملاً كان تحته فَحْلاً ، وقال في نفسه : إن هذه لَمَكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب ، فجعل على نفسه ألا يسمع بموؤدة إلا فداها ، فجاء الإسلام وقد فَدَى ثلاثمائة مَوْؤُدَة وقيل: أربعمائة »[1] . وقد فَخَر الفرزدق بِجَدِّه هذا وصنيعِهِ كثيراً في شعره فقال[2] :

وجَدِّي الذي مَنَعَ الوَائِدَا ... تِ وأحيا الوَئِيدَ فلم يُوأَدِ

وقال[3] :

ومِنَّا الذي أَحْيَا الوئيدَ وغالبٌ ... وَعَمْرٌو ومِنَّا حاجبٌ والأقَارِعُ

أولئكَ آبائِي فِجِئْني بمثلِهِمْ ... إذا جَمَعَتْنَا يا جَرِيرُ المجامِعُ

وقد أشار مثلان من أمثالهم إلى هذه العادة المنكَرة ، هما قولهم «أَضَلُّ من مَوْؤُدَة »[4] و «أَضْيَعُ من مَوْؤُدة»[5] وإنما قالوا ذلك لأنهم كانت لهم طرق في وأْدِ البنات تقشعرُّ منها الأبدان ، منها أن الرجل

---

(١) الأغاني ١٩/٢ (ساسي) .

(٢) نفسه ١٩/٤ ، وديوانه ٢٠٣ ، واللسان والتاج (وأد) .

(٣) ديوانه ٥١٧ .

(٤) الدرة الفاخرة ٢٧٨/١ ، والضلال : الضياع والهلاك .

(٥) الدرة الفاخرة ٢٧٧/١ .

منهم كان إذا وُلدت له بنت تركها حتى تكون في السادسة من عمرها ، ثم يقول لأمها : طَيِّبيها وزَيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، ثم يأخذها إلى الصحراء ، وقد أعد لها حفرة فيها ، فإذا بلغ هذه الحفرة قال لبنته : انظُري فيها ، ثم يدفعها دفعاً ، ويُهيل عليها التراب حتى تُسَوَّى بالأرض . ومنها أن الوالدة كانت إذا جاءها المَخَاض حفرت حفرة ، فتمخضت على رأسها ، فإن كان المولود بنتاً رَمَتْ بها فيها ، وإن كان ذكراً رجعت به معها[1] .

الميسر والقداح[*] :

الميسر هو اللعب بالقداح والمقامرة بها ، وكان يطلق على هذه القداح اسم « قِدَاح المَيْسر » وهي عيدان تُتخذ من شجر النَّبع ، فتُنْحَتُ وتُمَلَّس ، وتُجعل سواء في الطول ، وإن كانت تختلف في العلامات والرُّسوم ، إذ كانت تُمَيَّز بحزوز تبين نصيبَ كل منها ، فكان على بعضها حَزٌّ واحد ، وعلى بعضها حَزَّان أو ثلاثة أو أربعة ، حسب اصطلاحهم على أنصبة كل منها . وربما كانت هذه العلامات بالنار بدل الحُزُوز . وكان عدد هذه القداح عشرة ، سبعة منها عليها علامات ، ولها أنصبة ، وثلاثة غُفْل ، ليس بها علامات ، ولا حظوظ لها .

أما طريقة الميسر عند العرب فكانت أن يجتمع اللاعبون ،

---

(١) بلوغ الأرب ، وتفسير جزء « عم » ٢٣ .

(*) أنظر في الميسر وقداحه وطريقته عند العرب وبواعثه : الميسر والقداح لابن قتيبة ، ونهاية الأرب للنويري ٣/١١٨ ، ١١٩ ، وبلوغ الأرب للألوسي ٣/٥٣ وما بعدها ، وصبح الأعشى ١/٨٢٥ ، والمخصص ١٣/٢٠ ـ ٢٣ ، وتفسير الفخر الرازي ٢/٢٢٠ ، وتفسير القرطبي ٣/٥٧ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٢/١٥٧ ، واللسان والتاج (بدأ ، يسر ، برم) والميسر والأزلام للأستاذ عبد السلام هارون ، والحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي ٣٥١ ـ ٣٥٦ .

ويشتروا جَزوراً يضمنون ثمنه لصاحبه ، ثم يقسمه الجَزّار عشرة أجزاء ، ثم يُجاء بالقداح فيأخذ كل من اللاعبين منها على مقدرته ، ثم تُجعل في خَريطة ، ويُجليها المحكَّم ويحركها ، ثم يُخرج أولَ قِدْح باسم أحدهم ، فإن خرج قِدْحُه كان له نصيبُه ، وبقي القدح خارج الخريطة ، وإن لم يخرج غرم نصيبه ، وهكذا حتى العشرة . أما الثلاثة الذين تخرج لهم القداح الغُفْل فيغرمون ثمن الجَزور بالتساوي .

وكان الميسر شائعاً بين الأغنياء من عرب الجاهلية ، وكانت له بواعث اجتماعية نعثر عليها كثيراً في الشعر الجاهلي ، وفي مقدمة هٰذه البواعث الجود والقِرَى ، وإغاثة الفقراء والمُعْوِزين ، وفي ذلك يقول الأستاذ عبد السلام هارون : « لم يكن الميسر عند العرب لهواً يتلهَّون به ، أو لُعبة يلعبونها ، إنما كان نظاماً اجتماعياً ، دعتهم إليه ظروفهم المعيشية ، وساقتهم إليه طباعهم البدوية ، فالباعث الحقيقي عليه كان « الكرم » وكان التباهي بالكرم . . وكان من بواعثه أيضاً إعانة الفقراء فيما بينهم ، إذ كان الفائز منهم بنصيب لا يتناول منه شيئاً ، بل يلقيه إلى المحتاجين والمعوِزين من ذَوِيه ليسد أرماقهم »[1] .

ومن ثم نجد في الشعر الجاهلي كثيراً من فخرهم ومدحهم بالمشاركة في الميسر ، وذمهم بعدم المشاركة فيه ، وكانوا يسمون هذا الذي لا يشارك « بَرَماً »[2] يقول متمِّم بن نُوَيرة يرثي أخاه مالكاً[3] :

---

(١) الميسر والأزلام ١٧ .

(٢) انظر : « الفتوة عند العرب » للأستاذ عمر الدسوقي ٨٥ ـ ٨٧ .

(٣) من المفضلية ٦٧ ، والقشع : بيت من جلد . والأيسار : جمع يَسَر ، وهو الشريف الذي يدخل مع القوم في الميسر . وتضجعاً : قعد ولم يقم به ، يعني : إذا بقي من القداح شيء لم يؤخذ أخذه هو مع قدحه .

ولا بَـرِمـاً تُهْـدِي النسـاءُ لِعِـرْسِـهِ
إذا الـقَشْـع من بَـرْدِ الـشتـاء تَـقَـعْـقَـعَـا
إذا جَـرَّد الـقـومُ الـقِـدَاحَ وأُوقِـدَتْ
لـهـم نـارُ أيسـارٍ كَـفَى من تَـضَجَّـعَـا

ويقول النابغة الذبياني مفتخراً[1] :

هَـلاَّ سَـأَلْتِ بَني ذُبْيَـانَ عَـن حَسَبِي
إذا الـدخـانُ تـغـشَّـى الأَشْـمَطَ الـبَـرِمـا
وهَـبَّـت الـريـحُ مـن تِـلْقـاءِ ذي أُرُلٍ
تُـزْجي مـع الليـلِ من صُـرَّادِهـا صِـرَمَـا
إنِّـي أُتَـمِّـم أيـسـارِي وأَمْـنَـحُـهـمْ
مَـثْنَى الأيـادِي وأكْسُـو الـجَـفـنـة الأدَمَـا

ويقول لبيد في معلقته[2] :

وجَـزُورِ أيسـارٍ دَعَـوْتُ لِحَتْفِهَـا بِمَغَـالِقٍ مُتَشَـابِـهٍ أعـلامُهَـا
أدعُـو بهنَّ لعـاقـرٍ أو مُـطْفِـلٍ بُـذِلَتْ لجيرانِ الجميعِ لِحَـامُهَـا
فـالضيفُ والجارُ الجَنِيبُ كأَنَّمَـا هَـبَطَا تَبَـالـةَ مُخْصِباً أَهْضَـامُهَـا

(١) ديوانه ٢٥ ، والشعر والشعراء ١٩٨ ، ١٩٩ ، والأشمط : الـذي خالط سـواد شعره بيـاض . وأرل : جبل بأرض غطفان . والصراد : سحاب بارد ندي ليس فيه ماء ، والصِرَم : القطع من السحاب . ومثنى الأيادي : الأنصباء التي كانت تفضل من جزور الميسر ، فكان الرجل الجواد يشتريها ويطعمها الأبرام الذين لا ييسرون .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، والجزور : النـاقـة التي تُشترى للذبح . والمغـالق : القداح التي يضـرب بها ، الـواحـد مِغْلق ومِغْـلاق . والأعـلام : العـلامـات . والعاقر : الناقة التي لا تلد . والمطفل : التي معها ولدها الصغير . واللحـام : جمع لِحم . والجار الجنيب : الغريب . وتَبـالة : موضع بـاليمن كثير الخصب، ويضـرب به المثـل في ذلك . والأهضام : ما تطامن من الأرض ، وخَصه لأن السيل إليـه أوصل ، فهـو لذلـك أكثر خصباً .

ويقول العَرَنْدس في قوم من العرب[1] :

هَيْنُـون لَيْنُـون أيسـارٌ ذَوُو كَـرَمٍ   سُـوَّاسُ مَكْـرُمَـةٍ أبنـاءُ أَيْسَـارِ

ولما كان من أهم بواعث الميسر عند العرب قِرَى الضيف وإغاثة المحتاج كان الوقت الطبيعي لممارسته فصلَ الشتاء ، حين تُجدب الأرض ، ويعمّ الفقر، ويحتاج الناس الى الطعام[2] .

ويزعم العرب أن أول من وَضع الميسر ، وأجال القداح على الجَزُور لقمانُ العادي ، وأنه كان أضربَ الناس بالقداح ، وكان هنالك ثمانية أيسار يلعبون معه ، ويُنسبون إليه ، ومن ثم قالوا في أمثالهم : « أَيْسَرُ من لقمان » ، وقالوا للأيسار إذا شَرُفوا : « هم كأَيْسَار لقمان » وقال طرفة بن العبد[3] :

وهُـمْ أَيسـارُ لُـقْـمَـانَ إذا   أَبْـدَتِ الشَّتْـوةُ أبـداءَ الجُـزُرْ

وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤكد انتشار الميسر في الجاهلية ، وما يدعو إلى تحريمه ، باعتباره ضرباً من القمار وأكل أموال الناس بالباطل ، ولأن فيه إغراءً للعداوة والبغضاء بين الناس ، وإلهاءً عن ذكر الله وعن الصلاة ، وإتلافاً للأموال ، إذ يقول : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عن الخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس وإثمُهما أكبرُ من نَفْعِهِما** ﴾[4] ، وإذ يقول : ﴿ **يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا إنَّما الخمرُ والمَيْسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجْتَنِبُوهُ لعلكم تُفْلِحُون** ﴾

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٩٣ ، وهَيْنون لَيْنون : جمع هَيْن ولَيْن ، مخفَّف عن هَيِّن ولَيِّن بالتشديد ، ويقال : رجل هين لين ، إذا كان موصوفاً بالرفق والوقار والسكينة والسهولة . وسُوَّاس : جمع ساسٍ من السياسة ، وهي الرياسة والقيام بالأمر .

(٢) انظر : الميسر والقداح ١٠٧ ، والميسر والأزلام ١٨ .

(٣) ديوانه ٨٥ ، واللسان والتاج (بدأ ، يسر) .

(٤) سورة البقرة ٢١٩ .

إنما يُريد الشيطانُ أن يُوقع بَينكم العَداوَةَ والبَغْضَاءَ في الخمرِ والمَيْسِرِ وَيُصدَّكُمْ عن ذِكْرِ اللَّهِ وعن الصلاةِ فهل أنتم مُنْتَهُونَ ﴾[1] .

أما منافع الميسر التي أشارت إليها الآية الأولى فقد لخصها القرطبي في قوله : « ومنفعة الميسر مصير الشيء إلى الانسان في القمار بغير كدٍ ولا تعب ، فكانوا يشترون الجَزور ، ويضربون بسهامهم ، فمن خرج سهمه أخذ نصيبَه من اللحم ، ولا يكون عليه من الثمن شيء ، ومن بقي سهمه آخراً كان عليه ثمن الجزور كله، ولا يكون له من اللحم شيء . وقيل : منفعته التوسعة على المحاويج ، فإن من قُمِر منهم كان لا يأكل من الجَزور ، وكان يفرقه على المحتاجين »[2] .

أما الأمثال العربية التي تضمنت إشارات إلى هذه العادة فمنها قولهم للرجل ينصحونه بأن يَعرف قَدْرَه ، ويتأمل أمره ، حتى يعرف ما له وما عليه : « أَبْصِرْ وَسْمَ قِدْحِك »[3] ، وقد أخذ جرير المثل فنظَمه في شعر يهجو به الفرزدق يقول فيه[4] :

فما أُمُّ الفرزدقِ من هِلالٍ
وما أُمُّ الفرزدقِ من صُبَاحِ
ولكنْ أصلُ أمك من شُيَيْمٍ
فأَبْصِرْ وَسْمَ قِدْحِك في القداحِ

---

(١) سورة المائدة ٩٠ ، ٩١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥٧/٣ ، وانظر : بلوغ الأرب ٦٥/٣ ، والأنصاب والأزلام ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) الوسم : العلامة التي تكون على القدح ، وتدل على مقدار نصيبه .

(٤) اللسان (قدح) .

ومنها قولهم للرجل يكشف عما في نفسه : « صَدَقَنِي وَسْمُ قِدحه » ، وقولهم للرجل يعمل عملاً لم يَحِنْ أوانُه بعد : « مُجِيلُ القِداحِ والجَزُورُ تَرْتَعُ » . ذلك أن إجالة القداح ، وهي إدارتها في الخريطة ، لا تكون إلا بعد أن تُنحر الجزور ، وتقسَّم أجزاؤها .

وقولهم للرجل ينتمي إلى نسبٍ ليس له ، أو يتمدَّح بما لا يوجد فيه : « حَنَّ قِدْحٌ ليس منها »[1] وللرجل يَغيب ثم يجيء بعد فراغ القوم مما هم فيه : « آبَ وَقِدْحُ الفَوْزَةِ المَنِيحُ »[2] أي عاد بالخيبة .

وكانوا يضربون المثل في اللؤم والبخل بالبَرَم ، وهو الرجل الذي لا يدخل مع الأيسار في الميسر وهو موسر ، فيقولون : « ألأمُ من البَرَم » . ويقولون لكل بخيل يَجُرُّ المنفعة إلى نفسه : « ألأمُ من البَرَم القَرُون »[3] و « أَبَرَماً قَرُوناً » !

وسم الإبل بالنار :

جرت عادة العرب على أن يميز كل منهم إبله عن إبل غيره ، وكان يَتِمُّ لهم هذا التمييز بوَسْمها بنار تسمى « نار الوَسْم » كانت تختلف من إبل إلى إبل ، بحيث إذا نظر الناس في هذه النار وهذا الوسم عَرفوا أصحاب الإبل ، ولم يحتاجوا إلى السؤال عنهم .

وجاء في أمثالهم ما يشهد بهذه العادة ، إذ قالوا : « نِجَارُهَا نَارُهَا » ومعناه أن سِمَة هذه الإبل تدل على أصلها وأصحابها ، وفي هذا

---

(١) القدح : أحد قداح الميسر ، وإذا كان من غير جوهر إخوته ، ثم أجاله المُفيض خرج له صوت يخالف أصواتها ، فيعرف أنه ليس من جملة القداح .

(٢) آب : رجع ، والمنيح من قداح الميسر : ما لا نصيبَ له .

(٣) القَرون : الذي يأكل قطعتين قطعتين من اللحم .

المعنى قال راجزهم[1] :

* لَا تَنْسُبُوهَا وانْظُرُوا ما نَارُهَا *

وبهذه النار أيضاً كانت تقدِّم إبل الشرفاء والأعـزَّة على غيرهـا في الشرب إذا وردت الماء ، وإلى هـذا يشير قـول الراجـز الآخر[2] :

حَتَّى سَقَوْا آبالَهُم بالنَّار
والنَّارُ قد تَشْفِي من الأُوارِ

ومعناه أن هؤلاء القوم سَقَوْا إبلهم بالسِّمة التي بالنـار ، لأن الناس لما نظروا فيها عرفوا أرباب الإبل، وشرفَهم وعزَّتهم ، فَخَلَّوا لها الماء ، وقدموها على إبلهم فشربت .

ومن أمثالهم في هذا أيضاً قولهم : « كُلُّ نِجَارِ إبلٍ بَخَارُهَا »[1] وهو مأخوذ من قول أحد اللصوص ، وكان قد أغار على إبل من وجوهٍ مختلفة ، وجاء بها إلى السوق لبيعها ، فسأله الناس عن سِمَتها للتعرف على أصحابها ، فأنشأ يقول[3] :

تَسْأَلُنِي البَاعَةُ أَينَ نَارُهَا ... إذ زَعْزَعوها فَسَمَتْ أَبْصَارُها
كُلُّ نِجَارِ إبلٍ نِجَارُهَا ... وكلُّ دارٍ لأُناسٍ دَارُها

* وكُلُّ نارِ العالَمِينَ نَارُها *

نار الحرب :

وكان من عادتهم في الحرب إذا توقعوا جيشاً عظيماً ، وأرادوا اجتماع قومهم ، أوقدوا بالليل ناراً على جَبلهم ، ليكون ذلك إعلاماً

---

(١) مجمع الأمثال ٢/٣٣٨ .

(٢) اللسان والتاج (نور) .

(٣) الحيوان ٤/٤٩٢ ، واللسان والتاج (نجر ، نور) .

لهم كي ينهضوا للحرب ، فإذا كان الأمر خطيراً أوقدوا نارَيْن[1] .
وكانوا يبالغون في تَسْعير هذه النار ، كما يفيد قولهم في مثل لهم : « نارُ الحربِ أَسْعَرُ »[2] وقد أشار إلى هذه النار عمرو بن كلثوم إذ يقول في معلقته[3] :

ونحنُ غَداةَ أُوقِدَ في خَزَازَى
رَفَدْنَا فوقَ رَفْدِ الرَّافِدينَا

كما أشار إلى النارَيْن الفرزدق في قوله[4] :

قَتَلُوا الصنائعَ والملوكَ وأَوْقَدُوا
نَارَيْنِ أَشْرَفَتَا على النِّيرانِ
لولا فوارسُ تَغْلِبَ ابنةِ وائلٍ
سَدَّ العدوُّ عليكَ كلَّ مكانِ

النذير العريان :

وكان من عاداتهم في الحروب والغارات أن الرجل منهم إذا رأى الغارةَ قد فَجِئَتهم ، وأراد إنذار قومه تجرَّد من ثيابه ، وأشار بها ، فيعلمون أن خطراً يدهمهم ، فيستعدون له ، وهذا الرجل كانوا يسمونه « النَّذِيرَ العُرْيَان » .

ومن أمثالهم فيه قولهم في كل شيء تُخشى مفاجأته : « أنا النذيرُ العُريان »[5] . وينقل ابن منظور في تفسير المثل قوله : « خُصَّ العريان

(١) الحيوان ٤/٤٧٤ ، ٤٧٥ .
(٢) الدرة الفاخرة ٢/٤٥٨ .
(٣) شرح المعلقات العشر للتبريزي ٣١٢ ، واللسان والتاج (خزز) ومعجم البلدان (خزاز ، وخزازى) .
(٤) ديوانه ٨٨٣ .
(٥) الفاخر ٨٤ ، ومجمع الأمثال ١/٤٨ ، واللسان (نذر) .

لأنـه أَبْيَنُ للعين ، وأشنع عنـد المُبْصر ، وذلـك أن ربيئة القـوم وعينَهم يكـون على مكانٍ عـالٍ ، فإذا رأى العـدوَّ وقد أقبـل نَزع ثـوبه ، وألاح به ، لينذر قومَه ، ويبقى عرياناً »[١] .

استنباح الكلاب :

وكان الرجل منهم إذا خرج مُغيـراً أو زائراً أو ملتمسـاً للقِرَى ، أو ضَلَّ الطريق ليلاً ، ولم يبصر ناراً تَهديه عَوَى ونَبـح مثل نُبـاح الكلب ، لتسمعه الكلاب ، وتتوهمه كلباً فتجيبه بنباحها فيستدل بهذا النبـاح على موضع الناس[٢] .

وفي مَثل من أمثالهم ما يؤيد هذه العادة ، إذ يقولون فيمن يَـطلب الخير فيقع في شر ، أو في المستغيث بمن لا يغيثه : « لولكَ أَعْوِي مـا عَوَيْتُ » أو « لَوْلَكَ عَوَيْتُ لم أَعْوِهْ » ، وأصله أن رجلاً ضَـلَّ في قفرة ، فنبح لتجيبه الكلاب ، فسمع صوته ذئب فأقبل يـريده . وقـد رَدَّد الشعر العربي هذه العادة بشكل واسع[٣] .

أكل الدم :

وكان من عادتهم أيضاً أن الرجل منهم إذا حَلَّ بـه ضيـف ، وليس لديه ما يقريه به ، وشَحَّ أن ينحر لـه راحلته عَمَـد إليها فَفَصَـدَها ، حتى إذا خرج الدم أخذه فَسَخَّنه حتى يَجمـد ، ثم أطعمه الضيفَ ، ويسمى هـذا الـدم « الفَصِيـد » وكـانـوا يفعلون ذلـك أيضـاً في الأزمـة وشـدة الزمان[٤] .

---

(١) اللسان (عرا) .

(٢) الحيوان ١ / ٣٧٩ ، واللسان (عوى) .

(٣) انظر : الحيوان ١ /٣٧٧ ـ ٣٧٩ .

(٤) اللسان (فصد) .

ومن أمثالهم التي تشير إلى هذه العادة قولهم في القناعة ببعض الحاجة : « لَمْ يُحْرَمْ مَنْ فُصِدَ لَهُ » ؛ وأصله أن رجلين باتا عند أعرابي ، فالتقيا صباحاً فسأل أحدهما صاحبه عن القِرَى ، فقال : ما قُرِيتُ وإنما فُصِد لي ، فأجابه بالمثل .

ضرب الثور إذا عافت البقر الماء(*) :

كان من عادة العرب إذا أوردوا البقر الماء فلم تشرب ، إمَّا لِكَدَر الماء ، أو لأنه لا عَطَش بها ضربوا الثور الذي معها ليقتحم الماء ، فتتبعه البقر . ويقال في ضرب الثور قولٌ آخر ، هو أن العرب كانت تزعم أن الجن تركب ظهور الثِّيران فتصدها عن الشرب ، فتفعل البقرُ مثلَها ، فيضربون الثيران كي تشرب .

ومهما يكن من شيء فقد أشار مثل من أمثالهم إلى هذه العادة ، وهو قولهم في الرجل يُؤخَذ بذنب غيره . « كالثَّوْر يُضرب لَمَّا عافت البَقَر » وقد اقتبس بعض الشعراء معنى المثل ، فقال أَنَس بن مُدركة الخَثْعمي في قتله سُلَيْكَ بن سُلَكة[1] :

إنِّي وقَتْلِي سُلَيْكاً ثم أَعْقِلَهُ
كالثور يُضْرَبُ لَمَّا عافتِ البَقَرُ

وقال الأعشى[2] :

فإنِّي وما كَلَّفْتُموني ورَبِّكُمْ
لأَعْلَمُ مَنْ أَمْسَى أَعَقَّ وأَحْوَبَا

(*) انظر في هذه العادة : الحيوان ١/١٨ ، ١٩ ، واللسان والتاج (ثور) والحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

(١) الحيوان ١/١٨ ، والمعاني الكبير ٩٢٨ ، واللسان (ثور) .

(٢) ديوانه ١١٥ ، والحيوان ١/١٩ ، واللسان والتاج (ثور) .

لــكـــالــثــور والــجِــنِّــيُّ يَــضْــرِبُ ظَــهْــرَهُ

ومــا ذَنْــبُــهُ أَنْ عــافــتِ الــمــاءَ مَــشْــرَبَــا

ومــا ذَنْــبُــه أَنْ عــافــتِ الــمــاءَ بــاقــرٌ

ومــا إنْ تَــعَــافُ الــمــاءَ إلا لِــيُــضْــرَبَــا

كَيُّ البعير السليم ليبرأ الأجرب(*) :

وكان من عادتهم أن الإبل إذا فَشَا فيها الجَرُب كَوَوْا بعيراً صحيحاً أمامها وهي تنظر إليه ، زاعمين أن الجَرْبَى تبرأ بذلك ، ويدل على هذا قولهم لمن يُعَاقَب بذنب غيره : « كَـذِي العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهـو راتعٌ » ، وهو مأخوذ من قول النابغة في اعتذارياته[1] :

فَـحَـمَّــلْتَـنِــي ذَنْـبَ امــرىءٍ وَتَــرَكْــتَــهُ

كــذِي العُــرِّ يُكْــوى غيــرُه وهــو رَاتــعُ

وقـد سخر الجـاحظ من هذه العـادة فقال : « وكـانـوا إذا أصـاب إبلَهم العُرُّ كَوَوْا السليم ليدفعه عن السقيم ، فـأَسْقَمُوا الصحيـح من غير أن يُبْرِئوا السقيم »[2] .

(*) انظر : نهايـة الأرب ١٢٣/٣ ، والحيوان ١٦/١ ، ١٧ ، والبيـان والتبيين ٩٦/٣ ، والمعاني الكبيـر ٢٢٩ ، وبلوغ الأرب ٣٠٥/٢ ، واللسان والتـاج (عرر) والحيـاة العربيـة من الشعر الجاهلي ٣٩٦ .

(١) ديوانه ٥٤ ، واللسان والتاج (عود) .

(٢) الحيوان ١٧/١ .

ثانياً : المعتقدات

الزجر والعِيَافة والطِّيَرة (التفاؤل والتشاؤم)[*] :

الزّجر والعِيافة بمعنىً ، وهما التفاؤل بأسماء الطير والوحش وأصواتها ومساقطها وممرِّها ، أو التشاؤم بذلك ، ففي اللسان : « والزجر : أن تزجر طائراً أو ظبياً سانحاً أو بارحاً فتتطيَّر منه . والزجر : العِيافة ، وهو ضرب من التكهن »[1] . و« العيافة : زَجر الطير ، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها ومَمرِّها »[2] .

وكان زجر الطير وغيره من الحيوان من معتقدات العرب في

(*) انظر في هذه المعتقدات : الحيوان ١٢٩/٣ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٤٤٣ ـ ٤٤٧ ، والبيان والتبيين ١٨٤/٣ ، وعيون الأخبار ١٤٦/١ ، ١٤٨ ، والعمدة ٢٠٢/٢ ، ٢٤٦ ـ ٢٥٠ ، وصبح الأعشى ٣٩٩/١ ، ٤٠٠ ، وبلوغ الأرب ٣٣١/٢ ، ٣٣٢ ، والدرة الفاخرة ٧٨/١ ، ٢٤٨ ـ ٢٥٣ ، وفصل المقال ٣٧٢ ، وجامع الأصول لابن الأثير ٤٥٢/٨ ، والحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي ٣٧٨ ـ ٣٨٧ ، واللسان والتاج (عرقب ، غرب ، برج ، سنح ، نطع ، جرد ، قعد ، زجر ، طير ، عيف ، خيل ، دأى) .

(١) مادة (زجر) .

(٢) مادة (عيف) .

الجاهلية ، ومن العادات الفاشية فيهم ، فكان الواحد منهم إذا أراد فعلَ أمر أو تركَه زَجر الطيرَ حتى يطير ، فإن طار يميناً كان له حُكْم ، وإن طار شِمالاً كان له حكم ، وإن طار أماماً كان له حكم ، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم[١] .

ويشرح ابن الأثير طريقةَ الزجر عندهم في قوله : « كانت العرب إذا خرج أحدُهم من بيته غادياً في بعض الحاجة نَظر هل يرى طائراً يطير فيَزجر سُنوحه أو بُرُوحَه ، فإذا لم ير ذلك عَمد إلى الطير الواقع على الشجر فحرَّكه ليطير ، ثم نظر إلى أي جهة يأخذ فزَجره »[٢] .

وكان العرب يختلفون في التفاؤل أو التشاؤم بالسانح والبارح[٣] ، فمنهم من كان يَتَيَمَّن بالسائح ، ويتشاءم بالبارح ، ومنهم من كان يتيمَّن بالبارح ويتشاءم بالسانح . ويذكر ابن دريد أن « السانح يتيمن به أهل نَجْد ، ويتشاءمون بالبارح ، ويخالفهم أهل العالية فيتشاءمون بالسانح ، ويتيمَّنون بالبارح »[٤] وقد جاء الشعر العربي مؤيداً لهذه الظاهرة[٥] . ولعل السبب في هذا الاختلاف أن الزجر والعيافة ضرب من التكهن ، لا أصلَ له من علم أو منطق ، ومن ثَم كان مَنْ تَبرَّك بشيء مَدحه ، ومن تشاءم به ذَمَّه . على أن كثيراً من عقلاء العرب في الجاهلية أنكر الزجر ، ونفى تأثيرَه في مصائر الناس ، فقال لبيد[٦] :

---

(١) صبح الأعشى ١/٣٩٩ .

(٢) جامع الأصول ٨/٤٥٢ .

(٣) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك .

(٤) العمدة ٢/٢٤٩ .

(٥) انظر / اللسان والتاج (سنح) .

(٦) من قصيدة له في الأغاني ١٥/٣٧٣ .

لَعَمْـــرُكَ مـا تَــدْري الضَّـوَارِبُ بــالحَصَى
ولا زاجــراتُ الــطيــرِ مــا اللهُ صــانِــعُ

وقال علقمة بن عَبْدة[1] :

ومَنْ تَعـرَّضَ لِلغـرْبَـانِ يَـزْجُـرُهَـا   عـلى سَــلامتِـه لا بُــدَّ مَـشْؤومُ

وقال عَوْف بن عطية[2] :

نَــؤُمُّ الــبـلادَ لِــحُــبِّ الـلِّقــاءِ
ولاَ نَــتَّـقِـي طـائـراً حـيــث طَــارَا
سَــنِـيــحـــاً ولا بَــارِحــاً إنْ جَــرَى
ونــرجــو هــنــاك بِــهِــنَّ الــيَــسَــارَا

هـذا ، ويشير مثـل من أمثالهم إلى هـذه العقيدة ، وهـو قولهم : « مَنْ لي بـالسَّـانِـحِ بعـد البـارِحِ » ! ويضـرب في اليـأس من الشيء . وأصله أن رجلاً مَرَّت به ظباء بارحة ، فكـره ذلك ، وتشـاءم منه ، وأراد أن يرجع عن حاجته ، فقال له قـائل : امضِ على وجهـك فإنهـا ستمر بك سانحةً ، فمَضَى وجعل يقول : «مَنْ لي السانحِ بعد البارِح» !

وأما الطِّيَرة والتطيُّر فهمـا التشاؤم بخاصة ، وهما مأخوذان من لفظ « الطَّيْر» لأن العرب، كما أسلفنا ، كانوا يزجرون الطير ، ويتشاءمـون بها إذا مرت بارحة أو سانحة ، فسَموا الشؤم طَيْـراً وطائـراً وطِيرَة[3]، يقـول الجاحظ : « وأصل الطِّيَرة إنما كان من الـطَّيْر ، ومن جهـة الطيـر إذا مَرَّ بارحاً أو سـانحاً ، أو رآه يَتفَلَّى ويَنْتَتف ،حتى صـاروا إذا عاينـوا الأعورَ من النـاس أو البهائم أو الأعضَبَ أو الأبتـرَ زَجروا عنـد ذلك ، وتـطيروا

---

(١) ديوانه ٦٧ ، وهو من المفضلية ١٢٠ .

(٢) معجم الشعراء للمرزباني ٢٧٦ .

(٣) اللسان (طير) .

عندها ، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال ، فكان زجر الطير هو الأصل ، ثم اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك في كل شيء »[1] .

والطِّيَرة والتفاؤل عقيدتان شائعتان في كل الأمم والشعوب على مَسار التاريخ الإنساني الطويل ، فما من شعبٍ إلا وله ما يَتفاءل به أو يتشاءم منه .

وكان العرب في الجاهلية يتشاءمون بأنواع خاصة من الطير والوحش ، نَطق بها شعرهم ، وأمثالهم ، فكانوا يتطيرون بالبارح أو السانح على خلاف بينهم في ذلك ، وكانوا يتطيرون بالنَّطِيح والقَعِيد من الحيوان ، وبالثور الأعْضَب أو الأبتر[2] . وكانوا يتطيرون بالجَرَاد لأن فيه معنى الجَرْد ، ولأنه ذو ألوان[3] ، ولأن من معانيه القَحْط والمنع والتَّعْرِيَة والبِلَى[4] .

وقد ضربوا أمثالهم في الشؤم بأربعة أنواع من الطير هي : الغراب ، والأخْيَل ، والزُّمَّاح ، والبُوم .

أما الغراب فكان في مقدمة ما يتطيرون به ، إذ يقول مثل من أمثالهم « أشأمُ من غُرَاب البَيْنِ»[5] ، وإنما أضافوه إلى « البَيْن » وألزموه هذا الاسم « لأن الغراب إذا بَانَ أهلُ الدار للنُّجعة وَقَعَ في مواضع بيوتهم يَتَلَمَّس ويَتَقَمَّم فتشاءموا به ، وتطيَّروا منه ، إذ كان لا يَعتري

---

(١) الحيوان ٣/٤٣٨ .

(٢) النطيح والناطح : ما يستقبلك ويأتيك من أمامك من الطير والظباء والوحش وغيرها مما يزجر والقعيد : ما أتاك من ورائك ، والأعضب : المكسور القرن . والأبتر : المقطوع الذنب .

(٣) الحيوان ٣/١٣٦ .

(٤) اللسان (جرد) .

(٥) الدرة الفاخرة ١/٢٤٩ ، واللسان (غرب) .

منازلَهم إلا إذا بانوا ، فسموه « غراب البَيْن» ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم مخافةَ الزجر والطيرة[1] .

ويُطبق العلماء على أن هذا الطائر كان أنكدَ الطير عندهم ، فيقول الجاحظ : « فالغراب أكثر من جميع ما يُتطير به في باب الشؤم ، ألَا تراهم كلما ذَكروا مما يَتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه»[2] . ويقول حمزة الأصبهاني : « وليس في الأرض بارح ولا نَطِيح ، ولا قَعِيد ولا أَعْضَب ، ولا شيء مما يتشاءمون به إلا والغراب أنكدُ منه»[3] . ويقول ابن رشيق : «والغراب أعظم ما يتطيرون به ، والقول فيه أكثر من أن يُطلَب عليه شاهد ، ويسمونه حاتماً لأنه يُحتِّم عليهم بالفراق ، ويسمونه الأعورَ على جهة التطير بذلك ، إذ كان أصحَّ الطير بصراً[4] .

أما السبب في تطيرهم بالغراب فقد لَخصه الجاحظ في سَواده ، وحلوله بالديار إذا رحل عنها أهْلُها ، ووقوعه على ذوات الدَّبَر من إبلهم ، يَنقر دَبرَها ، ويُحدث بها أضراراً بليغة[5] .

وبلغ من تطير العرب به ، وبُغْضهم له أن تحرَّزُوا عن التصريح باسمه وكَنَوا عنه بالأعْور ، على الرغم من أنه مشهور عندهم بحدة البصر ، وصَفَاء العين ، وصحة البدَن ، كما جاء في قولهم : «أبصرُ من غراب»[6] ، و« أصْفَى عيناً من غراب» ، و« أصحُّ بَدَناً من غراب» ، كما بلغ من تطيرهم به أنهم اشتقوا من اسمه كلمات تدل على الفراق والنَّوَى ، وهي : الغُرْبَة والاغتراب والغَريب[6] .

---

(١) الدرة الفاخرة ١/٢٤٩ .

(٢) الحيوان ٣/٤٤٣ .

(٣) الدرة الفاخرة ١/٢٥٠ .

(٤) العمدة ٢/٢٤٧ .

(٥) الحيوان ٣/١٢٩ .

(٦) الدرة الفاخرة ١/٢٥٠ ، والحيوان ٣/١٣٥ .

وأما الأخْيَل فهو طائر على قَدْر الهدهد ، مُرَقَّط بحُمْرة وخُضْرة وبَيَاض وسَوَاد ، وإنما تشاءموا به لأنه كان لا يقع على ظهر بعيرٍ دَبِرٍ إلا عَقَرَه ، ولذا كانوا يسمونه « مُقَطِّع الظهور»[1] ومَثَلُهم الذي يشهد بتشاؤمهم منه قولهم : « أشأمُ من الأخْيَل» .

وأما الزُّمَّاح فكان طائراً عظيماً ، يُقال : إنه كان يقع على آطام يَثْرِب ويَصيح : خَرِّبْ خَرِّبْ ، فجاء لعادته عاماً فرماه رجل منهم بسهم فقتله ، ثم قَسَّم لحمَه في الجيران ، فلم يَحُل الحولُ على من أصاب من ذلك اللحم حتى مات ، ومن ثَم ضربوا به المثل في الشؤم ، وقالوا : «أشأمُ من الزُّمَّاحِ » وتمثل به قيس بن الخَطِيم في قوله[2] :

أَعَلَى العَهْدِ أَصْبَحَت أُمُّ عَمْرٍو
لَيتَ شِعْرِي أم عاقَهَا الزُّمَّاحُ ؟ !

وأما البُوم فكانوا يسمونه « طير العراقيب»[3] ، ذلك أنه كان ينقضُّ ليلاً على ما بقي من عظام الجيفة فيذهب بها ، فتشاءموا به ، وقالوا : « أشأم من طير العراقيب» .

الحج :

كان الحج معروفاً عند العرب ، منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ولما جاء الإسلام أقرَّه وأوجبه ، بعد أن أزال ما كان فيه من ضروب الشرك والمنكرات ، وزاد فيه مناسكَ وعبادات جديدة .

وتؤكد الأمثال العربية أن العرب في الجاهلية كانوا يحجون ،

---

(١) الدرة الفاخرة ١/٢٤٩ .

(٢) ملحق ديوانه ١٦٤ ، واللسان والتاج (زمح) .

(٣) العراقيب : جمع عرقوب ، ويراد به هنا آخر ما يتبقى من الجيفة .

وكانوا يقومون ببعض شعائر الحج المعروفة ، كالوقوف بعرفة والمزدَلِفة ، والنحر ، فمن أمثالهم « أقبل الحاجُّ والداجُّ »[1] ، و « مَا حَجَّ ولكنه دَجَّ » و « الحاجَّ أسمعتَ»[2] .

ومنها قولهم : « أشرِقْ ثَبِيرُ كيما نُغِير»[3] أي ادخل يا ثبيرُ في الشروق كي نسرع إلى النحر ، لأنهم كانوا إذا حجوا ، ووقفوا بعرفات أو المزدلفة لم يُفيضوا منها حتى تشرق الشمس .

ومنها « تركتُهُ على مثل ليلة الصَّدَر»[4] . والصَّدَر : اليوم الرابع من أيام النحر ، لأن الناس يَصدرون فيه عن مكة إلى ديارهم .

ويشير مثل آخر إلى عمل من أعمال الحج عندهم ، وهو قولهم : «أَصَحُّ من عَيْر أبي سَيَّارة» إذ يذكر العلماء أن أبا سَيَّارة هذا رجل من عَدْوان ، كان له حمار أسود أجاز الناسَ عليه أيام الحج من المزدلفة إلى منىً أربعين عاماً .

تحريم أنواع من الحيوان :

كان العرب في الجاهلية يحرِّمون على أنفسهم أنواعاً خاصة من الحيوان فلا يذبحونها ، ولا يمنعونها عن مَرْعىً تريده ، ولا يَصدُّونها عن ماء تَرِده ، ويُعفون ظهورَها من الركوب والحَمْل ، وكانوا يسمونها: البَحِيرَة والسَّائِبَة والوَصِيلَة والحَامي[5] .

---

(١) الداج : الذي يخرج للتجارة .

(٢) معناه : إذا أسمعت الحاجَّ فقد أسمعت الخلق كُلَّه ، ويضرب في إفشاء السر .

(٣) ثبير : جبل من جبال مكّة .

(٤) معناه : تركته على حال لا خيرَ فيه .

(٥) انظر في معنى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ، وأول من سَنَّ هذه السنة من العرب ، ورأي الإسلام فيها : صبح الأعشى ٤٠٢/١ ، ٤٠٣ ، وبلوغ الأرب ٣٦/٣ - ٣٩ ، وكتب التفسير (سورة المائدة ، الآية ١٠٣) واللسان والتاج (سيب ، بحر ، وصل ، حما) .

ويشير مثل من أمثالهم إلى هذه العقيدة ، وهو قولهم : «حراماً يَرْكَبُ من لا حَلَالَ له» . ويذكر العلماء في أصل هذا المثل أن حَرْمَلَةَ بن عبد الله القُرَيْعِي أغار على إبل جُرَيَّة بن أوس الهُجَيْمي يوم «مَسْلُوق»[1] فأطردها غيرَ ناقةٍ مما يحرِّم أهل الجاهلية ركوبها ، فأراد أن يركبها جُرَيَّة في أثر القوم ، فقال له ابن أخته : إنها حرام ، فقال المثل . ويضرب في القناعة باليسير عند فوات الجزيل[2] .

الفَـرَع :

الفَرَع والفَرَعة بفتح الراء : أول نِتَاج الإبل والغنم ، وكان أهل الجاهلية يَذبحونه لآلهتهم تبركاً وتقرباً . وقيل : هو ذِبْح كان يُذبح إذا بلغت الإبل ما يتمناه صاحبها . وقيل : بعير كان يذبحه الرجل كل عام إذا بلغت إبلُه مائةَ بعير ، فيُنحر ويأْكُلُه الناس ، ولا يذوقه الرجل هو ولا أهلُه[3] .

وفي أمثالهم ما يدل على هذا المعتقَد عندهم ، إذ قالوا : «أولُ الصَّيْدِ فَرَعٌ » و « أولُ الصيدِ فَرَعٌ ونِصَابٌ» ذلك أنهم كانوا يُرسلون أول شيء يصيدونه إلى آلهتهم تيمناً بذلك . وقالوا كذلك : «أَفْرَعَ بالظَّبْي وفي المعْزَى دَثَرٌ »[4] ومعناه أن مِعزاه كثيرة ، وهو على الرغم من ذلك يذبح الظبي .ويضرب المثل لمن له إخوان كثير ولكنه يستعين بغيرهم .

---

(١) مسلوق : موضع تلقاء مكة ، كان فيه وقعة لهم .

(٢) المستقصى ١/٣١١ ، وانظر : اللسان «سيب».

(٣) بلوغ الأرب ٣/٣٩ ، ٤٠ ، واللسان (فرع) .

(٤) أفرع بالظبي : ذبحه . والدثر ـ بفتحتين ـ الكثرة .

عقد الرَّتَم(*) :

كان الرجل من العرب إذا أراد سفراً عَقَدَ بين غصنين من شجرة ، غصناً على غصن ، أو عقد بين شجرتين ، أو عقد خيطاً في شجرة ، معتقداً أن امرأته إذا بقيت على العَهْد ، ولم تَخُنْهُ ظلت العُقْدَة على حالها ، وإلا فقد نَقَضت العهدَ وخانته ، وكانوا يطلقون على هذا : الرَّتَم والرُّتْمة والرَّتِيمة[1] .

ويبدو أن هذا كان من معتقدات الجُهَّال وحدهم ، أما العقلاء فكانوا لا يَدينون به ، ولا بِجَدْوَاهُ ، يدل على ذلك قولهم في أمثالهم : «أَمْحَلُ من تَعْقَاد الرَّتَم» فإن كلمة « أَمْحَلُ» مشتقة من كلمة « المُحال» وهو الباطل ، كما يدل عليه قول شاعرهم[2] :

هل يَنْفَعَنْكَ اليومَ إنْ هَمَّتْ بِهَمٍّ
كثرةُ ما تُوصي وتَعْقادُ الرَّتَمْ

ويذكر العلماء في معنى هذا البيت « أن رجلاً من العرب أراد سفراً ، فأخذ يوصي امرأته ويقول : إيَّاكِ أن تفعلي وإياك ، فإنني عاقدٌ لك رُتْمَةً بشجرة فإن أحدثتِ حَدَثاً انحلَّت ، فقال الشاعر : هل يَنْفَعَنْكَ اليومَ . . . . » .

التداوي بدماء الأشراف :

وكان من عقيدة أهل الجاهلية أن الرجل إذا أصيب بداء الكَلَب

(*) انظر في الرتم وما قيل فيه من الشعر : صبح الأعشى ١/٤٠٨ ، وبلوغ الأرب ٢/١٧ ، واللسان والتاج (رتم) والحياة العربية من الشعر الجاهلي ٤٠٢ .

(١) اللسان والتاج (رتم) .

(٢) المعاني الكبير ٢٦٨ ، واللسان والتاج (رتم) ، والدرة الفاخرة ٢/٣٨٨ .

فسُقي من دماء الملوك بَرِىء من علته هذه . والكَلَب بفتحتين : داء يعرض للإنسان من عَضِّ الكَلْب الكَلِب . والكَلِب من الكلاب هو الذي أكل من لحم الإنسان ، فأخذه سُعار وداء يشبه الجنون ، فإذا عَقَر هذا الكلب إنساناً أصابه الكَلَب ، وعَرضت له أعراض رديئة ، إذ يعوي مثلَ عُواء الكلب ، ويمزّق ثيابَه عن نفسه ، وَيَعْقِر مَن أصابه ، ثم يصير أمره إلى أن يأخذه العطش فيموت عطشاً[1] .

ومن أمثالهم الدالة على ذلك قولهم : «دماءُ الملوكِ أَشْفَى من الكَلَب» و «دماءُ الملوك شفاء الكَلَب» .

ومن العلماء من يرى أن العرب كانوا يعتقدون أن دماء الشرفاء والرؤساء جميعاً تَشفي من الكَلَب ، لا دماءَ الملوك وحدَهم ، إذ يقول اللحياني : « إن الرجل الكَلِب يعض إنساناً ، فيأتون رجلاً شريفاً ، فيقطر لهم من دم أصبعه فيَسقون الكَلِب فيبرأ»[2] وقد جاء في أشعارهم ما يؤيد هذا الرأي[3] .

التعشير[*] :

وكانوا ، في الجاهلية ، يعتقدون أن الرجل إذا وَرَد قريةً فخاف وباءَها أو جِنَّها ، ثم وقف ببابها ، ونَهق عشرَ مرات كما ينهق الحمار صُرف عنه وباؤها[4] . وكان هذا العمل عندهم يسمى « التعشير» وهو

---

(١) اللسان والتاج (كلب) .

(٢) التاج (كلب) .

(٣) انظر : الحيوان ٢/ ٥ ، وبلوغ الأرب ٢/ ٣١٩ ، والتاج (كلب).

(*) انظر في هذه الخرافة وبعض ما قيل فيها من الشعر : نهاية الأرب ٣/ ١٢٥ ، وبلوغ الأرب ٢/ ٣١٥ ، ٣١٦ ، والحيوان ٦/ ٣٥٨ ، والمعاني الكبير ٢٦٨ ، والدرة الفاخرة ٢/ ٥٥٨ ، والحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٤) نهاية الأرب ٣/ ١٢٥ ، وبلوغ الأرب ٢/ ٣١٥ ، واللسان (عشر) .

مأخوذ من تَعشير الحمار[1] .

ومن أمثالهم التي تدل على هـذا قولهم لمن يَجـزع حين لا ينفعه الجزع : « عَشَّرَ والمَوتُ شَجَا الوَرِيد»[2] .

ويبـدو أن هذا التعشيـر كان من معتقـدات جُهَّال الأعـراب ، وأن أكثر العرب كانوا يرفضونه ، ويسخرون منه ، إذ يقول أحدهم[3] :

ولَا يَـنْـفَـعُ الـتَّـعْـشِـيـرُ إنْ حُـمَّ واقـعٌ
ولَا زَعْـزَعٌ يُـغْـنِـي ولا كَـعْـبُ أرنـبِ

ويقول آخر[4] :

لا يُـنْـجِـيَـنَّـكَ مِـن حِـمَـامٍ وَاقِـعٍ
كَـعْـبٌ تُـعَـلِّـقُـهُ ولَا تَـعْـشِـيـرُ

(١) يقال : عَشَّر الحمار ، إذا تابع النهيق عشر نهقات ، ووالى بين عشر ترجيعات في نهيقه .

(٢) مجمع الأمثال ٢/٤٢ ، ومعناه : أن هذا الرجل عَشَّر والموت قريب منه قد شَجِي به وريده .

(٣) الحيوان ٦/٣٥٨ ، والمعاني الكبير ٢٦٨ .

(٤) بلوغ الأرب ٢/٣١٦ .

الفصل الثالث

البيئة الطبيعيّة

من يدرس الأدب العربي القديم يجد أن العرب كانوا على معرفة تامة ببيئتهم الطبيعية ، وكل ما تحويه من صامت وناطق ، وأنهم قد تحدَّثوا عن كل مظاهرها ومحتوياتها في شعرهم ونثرهم .

فقد تحدثوا عن الحيوان والنبات ، بكل أنواعهما ، وتحدثوا عن البلاد والبقاع ، والمياه والمراعي ، والمفاوز والمآسد ، والجبال والسهول ، ووصفوا كل ذلك وصفاً دقيقاً ، ونسجوا منه صوراً رائعة من التعبير البياني بكل أنواعه ، وضربوا به الأمثال في معظم المعاني الإنسانية.

وإذا كان من القضايا المسلمة في الدراسات الأدبية أن أدباء كل أمة يستخدمون مظاهر البيئة في التعبير عن الأفكار والمعاني ، فإن العرب كانوا من أبرع الأمم في هذا المسلك الأدبي واللغوي ، إذ أحسنوا التقاط الصور ، وانتقاء المناظر من بيئتهم ، وأجادوا في ذلك حتى أوفوا على الغاية ، بحيث أصبح شعرهم ونثرهم سجلاً لهذه البيئة ، ومرآة تنعكس عليها صورها المختلفة .

ويشهد لذلك أنك إذا قرأت كتاباً من كتب الحيوان أو النبات أو البلدان رأيت الأشعار والأمثال مصدراً أصيلاً من المصادر التي تُستقى

منها المعارف عن هذه الأشياء .

وسنرى ، ونحن ندرس تمثل العرب بـالحيوان والنبـات والبقاع ، أن أمثالهم عكست كثيراً من أنواعها وأشكـالها وصفـاتها ، وأنهـا تتبعتها في أدق خصائصها ، وأخفى مميزاتها .

(١)

التمثُّل بالحيوان

يتردد ذكر الحيوان في الأدب العربي القديم ، شعراً كان ذلك الأدب أو نثراً ، ذلك أن العرب في الجاهلية كانت تغلب عليهم البداوة ، ومن لوازم الحياة في البادية معايشة الحيوان ، والاعتماد على بعض أنواعه في كثير من شؤون الحياة ، وهذا يقتضي شدة العناية بأمره ، ودقة ملاحظته ، ومعرفة الكثير من صفاته وطباعه . يقول الجاحظ : « وقَلَّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة ، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين ، إلاّ ونحن قد وجدناه ، أو قريباً منه ، في أشعار العرب والأعراب ، وفي معرفة أهل لغتنا وملَّتنا »[١] .

وإذا نحن تصفحنا الشعر العربي القديم وجدناه حافلاً بذكر الحيوان ، إما وصفاً له وإما تمثلاً به ، بل وجدنا هنالك قصائد ومقطَّعات برمَّتها ، قد أفردت له ، ويكفي أن يطالع المرء كتاباً كالحيوان للجاحظ ، أو « المعاني الكبير » و « عيون الأخبار »[٢] لابن قتيبة ، أو « ديوان المعاني »[٣] لأبي هلال العسكري ، ليقف على مدى حفاوة الشعر بالحيوان ، والاهتمام بأمره .

---

(١) الحيوان : ٣/٢٦٨ .

(٢) انظر : ٢/٧٣ ـ ١٠٥ .

(٣) انظر : ٢/١٠٦ ـ ١٥١ .

وإذا تجاوزنا الشعر إلى النثر وجدنا أن معظم أمثال العرب مضروبة بالحيوان ، وأن العرب لا يكادون يمدحون أحداً أو يذمونه إلا بصفة من صفاته ، ولهذه الظاهرة أسباب ، تتلخص فيما يلي :

أولاً : أن العرب ، كما أسلفنا ، كانوا يعايشون الحيوان ، ويخالطونه مخالطة شديدة ، تأدَّت بهم إلى معرفة الكثير عنه ، وفي ذلك يقول حمزة الأصبهاني : « والسبب في تفرُّد العرب باستعمال ذلك دون سائر الأمم أن العربَ أُناسٌ إنما وضعوا بيوتهم وأبنيتهم وسط السباع والأحناش ، والهمج والحشرات ، فليس يعثرون إلا بها ، ولا يفتحون عيونهم على سواها »(١) .

ثانياً : أن الله ، جلّت قدرته ، قد فطر كل نوع من أنواع الحيوان على فطرة لا يتحول عنها ، وألهمه من المعارف والوسائل وغريب الهدايات ما يُمسك به حياته ، وهذه الفطر والغرائز أوضح ما تكون فيه ، ومن ثَمَّ جاز للعرب أن يشبهوا به الإنسان ، وأن يضربوا به أمثالهم ، إذا أرادوا أن يمدحوا أو يذموا . يقول الجاحظ : « وكيف فَرَّق فيها من الحِكَم العجيبة ، والأحساس الدقيقة ، والصنعة اللطيفة ، ومما ألهمها من المعرفة ، وحَشاها من الجبن والجرأة ، وبَصَّرها بما يُقيتها ويُعيشها ، وأشعرها من الفطنة لما يحاول منها عدوها ، ليكون ذلك سبباً للحذر ، ويكون حذرها سبباً للحراسة ، وحراستها سبباً للسلامة ، حتى تجاوزت في ذلك مقدار حراسة المجرِّب من الناس ، والخائف المطلوب من أهل الاستطاعة والروية ، كالذي يُروى من تحارُس الغرانيق ، والكَراكِيّ ، وأشكال ذلك كثيرة ، حتى صار الناس لا يضربون المثل إلا بها ، ولا يذمون ويمدحون إلا بما يجدون في

---

(١) مقدمة « الدرة الفاخرة » .

أصناف الوحش ، من الطير وغير ذلك ، فقالوا : أحْذَرُ من عَقْعَق ، وأحذر من غراب ، وأحذر من عصفور ، وأحذر من فرخ العقاب ، وأسمعُ من قُراد ، وأسمعُ من فرس ، وأجبن من صِفْرِد »[1] .

وقد ألحَّ الجاحظ في كتابه « الحيوان » على فكرة إلهام الحيوان ، وبصره بما يقيم حياته ، إلحاحاً شديداً ، وقارن في هذا بينه وبين الإنسان ، مثبتاً أن الانسان ، بفكره وعقله وتدبيره ، لا يستطيع أن يفعل ما يفعله الحيوان بفطرته التي فطره الله عليها[2] .

ثالثاً : أن الإنسان ، وهو نوع من الحيوان ، تتجمع فيه الصفات والأخلاق التي تتفرق في أنواع الحيوان وفصائله ، وإن كانت هذه الصفات والأخلاق أقوى وأوضح بالنسبة للحيوان ، لذلك أمكن للعرب ، إذا أرادوا أن يبالغوا في وصف الإنسان بصفة أو خُلق ، أن يشبهوه بالجنس الذي هو نوع منه . وفي هذا يقول حمزة الأصبهاني : « فحين تأملوا أخلاق تلك البهائم ، فألفَوْها متفرقة في أنواعها ، ثم رأوها مجتمعة في الإنسان الذي يَجمع إلى حرص الذئب حذرَ الغراب ، وإلى تدبير الذَّر كَسْبَ النمل ، وإلى هداية الحمام حزم الحِرْباء ، وإلى حراسة الكُرْكي ختلَ الثعالب ، إلى غير ذلك من أخلاقها ـ قالوا عند ضرب الأمثال بأخلاق الإنسان : إن فلاناً له جرأة الأسد ، ووثوب النمر ، ورَوغان الثعلب ، وخَتْل الفهد ، وصَوْلة الجمل ، وحَمْلة الثور ، وغدر الذئب ، وحِفاظ الكلب ، وعُقوق الضب ، وجَمْع الذر ، وهداية الحمام ، وحماقة الضبع ، وجبن الصِّفْرد ، وغباوة الديك ، وتحنن الدجاجة ، وبِرُّ الهرة »[3] . ومن قبل

---

(١) الحيوان ٩/٧ ، ١٠ .

(٢) نفسه ٣٥/١ ، ٣٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) مقدمة « الدرة الفاخرة » .

حمزة ألمَّ الجاحظ بهـذه الفكـرة[1] ، ومن بعـده ألم بها أبـو حيان التوحيدي (نحو ٤٠٠ هـ)[2] .

من كل ما تقدم نرى أن التمثّل بالحيوان ، وتشبيه أخلاق الإنسان وصفاته بما فطره الله تعالى عليه من أخلاق وصفات ، مسلك من مَسالك التعبير في اللغة العربية ، وعليه جاء القرآن الكريم في كثير من آياته البيِّنات[3] .

* * *

وإذا رحنا نتأمل الأمثال العربية ، بعد هذا ، وجدنا أن العرب قد برعوا كل البراعة في ضرب أمثالهم بالحيوان ، وأنهم لم يتركوا نوعاً من الأنواع التي كانت تعيش في بلادهم دون أن يتمثلوا به . وكانوا يَعْمَدون في ذلك إلى أخص صفات هذه الأنواع وأبرزها ، كحِدَّة الشم في الذَّرة ، وحدة السمع في الفرس ، وحدة البصر في الغراب ، وكالرَّوغان في الثعلب ، والطيش في الفراشة ، والبِرِّ في الهرة ، فيضربون بها أمثالهم .

وبلغ من عمق تأملهم للحيوان أنهم فطنوا إلى أدق طباعه وأخفاها ، كشم الذرة ، فقالوا : « أَشَمُّ من ذَرَّة » . ويفسر حمزة المثل بقوله : « والذرة تشم ما ليس له ريح ، مما لو وضعته على أنفك لم تجد له رائحة ولو استقصيت الشم ، كرِجْل الجرادة ، تَنْبذها من يدك

---

(١) الحيوان ١/٢١٢ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/١٤٣ .

(٣) أنظر : سورة البقرة ٢٦ ، وسورة الأعراف ٤٠ ، ١٧٦ ، وسورة الحج ٧٣ ، وسورة العنكبوت ٤١ ، وسورة الجمعة ٥ ، وتفسير الكشاف ٣/٨٣ ، ٨٤ ، والبحر المحيط ١/١٢٠ .

في موضع لم تر فيه ذرةً قط ، فلا تلبث أن ترى الذر إليها كالخيط الممدود »[1] .

أما الجاحظ فإنه يقصر حاسة الشم هذه على رئيس الذر فيقول : « ورَوى أبو عمر الضرير أن رئيس الذر الرائد الذي يخرج أولاً لشيء قد شَمَّه دون أصحابه لخصوصية خصه الله تعالى بها ، ولطافة الحس ، فإذا حاول حَمْله ، وتعاطى نَقْله ، وأعجزه ذلك بعد أن يُبْلى عذراً أتاهنَّ فأخبرهن فرجع ، وخرجت بعده كأنها خيط أسود ممدود ، وليست ذرةٌ أبداً تسقبل ذرة أخرى إلا واقفتها وسَارَّتها بشيء ، ثم انصرفت عنها »[2] .

ومهما يكن من شيء فإن مثل هذا المثل يدل على أن العرب ، ولا سيما سكان البادية منهم ، كانوا يعرفون من صفات الحيوان ما لا تعرفه أمة غيرهم .

كما بلغ من عمق تأملهم للحيوان ، وتتبعه في أحواله المختلفة أنهم أحصوا لبعض أنواعه عدة صفات ، ضربوا بكل منها مثلاً من أمثالهم، فقالوا في الذئب: «أجرأ من ذئب، وأجسر من ذئب، وأجوع من ذئب ، وأحدّ ضرساً من ذئب ، وأحول من ذئب ، وأخبُّ من ذئب ، وأخبث من ذئب ، وأختل من ذئب ، وأخف رأساً من ذئب ، وأخون من ذئب ، وأصحُّ من ذئب ، وأظلم من ذئب ، وأَعْتَى من ذئب ، وأعدى من ذئب ، وأعوى من ذئب ، وأَعْيَثُ من ذئب ، وأغدر من ذئب ، وأكسب من ذئب ، وأنشط من ذئب ، وأوقح من ذئب ، وأيقظ من ذئب » .

---

(١) الدرة الفاخرة ١/٢٥٤ .

(٢) مناقب الترك ٨٥ ، والحيوان ٤/٧ .

وقالوا في الضب : « أَخَبُّ من ضب ، وأخدع من ضب ، وأروى من ضب ، وأضلُّ من طب ، وأعقُّ من ضب » .

وكما أحْصَوْ البهيمة واحدة عدة صفات مختلفة أشركوا في صفة واحدة عدة أنواع من البهائم ، فقالوا : «أحمقُ من حُبَارَي ، وأحمق من حمامة ، وأحمق من الرَّخَل ، وأحمق من رَخَمة ، وأحمق من الضبع ، وأحمق من عقعق ، وأحمق من نعامة ، وأحمق من نعجة على حوض » .

وقالوا : « أبصرُ من غراب ، وأبصر من عُقاب ، وأبصر من نَسْر ، وأبصر من باز ، وأبصر من صقر ، وأبصر من فرس ، وأبصر من كلب » ولكي نستبين بوضوح مدى استكثار العرب من ضرب أمثالهم بالحيوان ، ومدى براعتهم في هذا المسلك الدقيق ، نسوق فيما يلي طائفة من أمثالهم في ثلاثة أنواع منه ، هي : الإبل ، والذئب ، والضب.

تمثيل العرب بالإبل :

كانت الإبل تملأ على العربي حياته ، فكانت عونه في حله وترحاله ، وسلمه وحربه ، يقطع على ظهورها الفيافي والقفار ، ويتقوَّت بلحومها وألبانها ، وينحرها للضيفان ، ويتخذ من أوبارها بيوته وغطاءه ، ومن جلودها نعاله وأدواته ، وكانت تجمعه بمن يحب تارة ، وتفرِق بينهما تارة أخرى ، كما كان يقدمها مَهْراً للفتاة ، وديةً تُفَضُّ بها الخلافات والمنازعات[1] .

وكان العربي ، من شدة حبِّه للإبل ، وإعزازه لها ، يعرف عنها كل

---

(١) تاريخ العرب لجواد على ١/١٩٧ .

شيء ، يعرف أيَّها أسرع ، وأيَّها أغزر لبناً ، وأيَّها أصبر على الهواجر ، وأيَّها أبهى منظراً ورُواءً ، قال أبو نصر النعامي : « هَجِّر بحمراء ، وأَسْرِ بوَرْقاء ، وَصَبِّح القوم على صَهْباء ، قيل له : ولم ذلك ؟ قال : لأن الحمراء أصبر على الهواجر ، والورقاء أصبر على طول السُّرَى ، والصهباء أشهر وأحسن حين يُنظر إليها »[1] . وقال حُنَيْف الحناتم ، وكان من آبل العرب : « الرَّمْكاء من النوق بُهْيَا ، والحمراء صُبْرَى ، والخَوَّارة غُزْرَى ، والصهباء سُرْعَى »[2] يعني أنها أبهى وأصبر وأغزر وأسرع .

وكان العرب يطلقون عليها اسم « المال » وكأنهم لا مال لهم سواها، يقول ابن سيدة : « حسنُ القيام على المال وهو الإبل »[3] وفي مثل من أمثالهم : « اللَّقُوحُ الرِّبْعِيَّةُ مالٌ وطعامٌ »[4] أراد أنها طعام لسرعة النتاج والانتفاع بلبنها ، وهي في الأصل مال .

وكانت الإبل أعز أموالهم وأفضلها وأنفسها ، بينما كانت المِعْزَى أدناها وأقلها ، يدل على ذلك قول امرىء القيس[5] :

أَلَا إلَّا تَكُنْ إبلٌ فمِعْزَى   كأنَّ قرونَ جِلَّتها العِصِيُّ

وكانت مالَ الأشراف والأقوياء ، بينما كانت الشاء مالَ الضعفاء

---

(١) اللسان (ورق) والورقاء : الناقة السوداء التي يخالط سوادها بياض . والصهباء : التي يخالط بياضها حمرة .

(٢) اللسان (صهب ، رمك) والرمكاء : السوداء التي أشرب سوادها بكدرة كلون الرماد . والخوارة : الحمراء التي تميل حمرتها إلى الغبرة .

(٣) المخصص ٨١/٧ .

(٤) اللقوح : الناقة ذات اللبن : والربعية : التي تنتج في الربيع ، وهو أول النتاج .

(٥) ديوانه ١٣٦ ، والجلة : المسن من الغنم وغيرها . ومعناه : إن لم يكن غنى وكثرة مال فبلغة من العيش تغني عن ذلك .

والأذلاء[1] . ومن ثَمَّ كانوا إذا أرادوا أن يَدْعُوا على إنسان بالفقر والذلة قالوا له : « حلبتَ قاعداً وشربتَ قائماً »[2] ومعناه : لا ملكتَ غير الشاء التي تُحلب من قعود ، ولا ملكتَ إبلاً تحلبها قائماً ، وفي مثل من أمثالهم ، وهو دعاء على الإنسان أيضاً « مَالَهُ حَلب قاعداً واصْطَبَح بارداً »[3] . وكانوا يضربون الأمثال بفقدها للرجل يذل بعد عز ، فيقولون : « هذه العُنُوق بعد النُّوق »[4] و « أَبَعْدَ النوقِ العُنوق ! »[5] ومعنى المثلين أنه صار يرعى المعز بعد ما كان يرعى الإبل ، وعلى عكس ذلك كانوا يضربون الأمثال بامتلاكها للرجل يصبح عزيزاً بعد أن كان ذليلاً ، ويقولون عنه : « أَبَعْدَ العُنوق النُّوقُ »[6] .

وكانوا يمدحون بكثرة الإبل ، يدل على ذلك قول الحطيئة[7] :

فَإنْ تَكُ ذا مالٍ كثيرٍ فَإنَّهُمْ
لهم جاملٌ ما يَهْدَأُ الليلَ سامِرُه

كما كانوا يعدون كثرتها عند الرجل منهم من علامات يساره وحسن حاله ، إذ يقول طُفَيل الغَنَوي[8] .

---

(١) اللسان (قعد) .

(٢) نفسه (قعد) .

(٣) مجمع الأمثال ٢/٢٩٠ ، وأمالي القالي ١/١٠٦ .

(٤) جمهرة الأمثال ٢/٥٦ ، واللسان (عنق) والعنوق : جمع عناق ، وهي الأنثى من أولاد المعز .

(٥) اللسان (عنق) .

(٦) نفسه (عنق) .

(٧) نفسه (جمل) والجامل : القطيع من الإبل معها رعيانها وأربابها ، والمراد بالسامر الرعاة . ومعناه أن هؤلاء الرعاة لا ينامون الليل من كثرتهم .

(٨) اللسان (أبل) وأبل : كثرت إبله . واسترخى به الخطب : حسنت حاله . وأساف : قل ماله .

فَأَبَّلَ واسْتَرْخَى بـه الخَطْبُ بعدَ مـا
أَسَـافَ ولـولا سَـعْيُنَـا لَـمْ يُـؤَبِّـلِ

ويقـول مثل لهم : « القُرُّ في بطون الإبـل »[1] أي ذهاب القـرّ ، يريدون أن البـرد يذهب عنهم إذا نتجت الإبـل ، ذلك أنهم في الشتـاء يصيبهم الهـزال وسوء الحـال ، فإذا جـاء الربيـع ، وهـو وقت النتـاج ، حسنت حالهم ، وانتعشت حياتهم .

وكانت الإبالة من الأعمال التي يُشيدون بها ، ويمدحون بالبراعـة فيها . والإبالة هي التأنُّق والحِذْق برِعْية الإبل ، ولم يكونوا يُشيدون بها ويمدحون إلا لأنها تتصل بأعز مـا يملكون ، فكـانوا إذا امتـدحوا راعيـاً قـالـوا : «آبلُ من حُنَيْف الحَنَـاتم[2] » ، أو « آبـلُ من مـالـك بن زيـد مَناة »[3] .

وكما كانوا يمدحون الرعاة بالإِبَالة كانوا يذمون منهم أولئـك الذين لا يُحسنونهـا ، ويضـربـونهم أمثـالاً لإفسـاد الأمـور ، والتفـريط في الأعمـال ، فيقولـون للرجل الـذي يُفسد مـا يُسند إليـه من أمر : « رَعَى فـأَقْصَبَ »[4] وأصله ألاَّ يُشبـع الـراعي الإبـل فتَقْصَب عن المـاء ، أي تمتنـع عن الشرب ، لأن الشـرب إنمـا يكـون بعـد العَلَف ، ويقـولـون للرجل يفسد الأمـر ، ثم يحاول إصـلاحه فيـزيده فسـاداً : « أساءَ رَعْيـاً فَسَقى مُقْصِباً »[5] وأصله أن يسيء الراعي رعي الإبـل نهارَه ، حتى إذا

(١) مجمع الأمثال ٢/ ١٢٢ .
(٢) الدرة الفاخرة ١/ ٧٠ .
(٣) نفسه ١/ ٧٢ .
(٤) جمهرة الأمثال ١/ ٤٩٢ ، واللسان (قصب) .
(٥) جمهرة الأمثال ١/ ١١٢ .

أراد إراحتَها على أهلها كره أن يظهر لهم سوءُ أثره عليها ، فيسقيها الماء على كُرْه منها حتى تمتلىء أجوافها ، فيزيدها ذلك ضرراً .

وكانوا يَحمدون للرِّعاء قلة ضرب الإبل بالعصا ، ويعيبون أولئك الذين يضربونها ، ويقولون في ذلك : « فلان ضعيفُ العصا »[1] ، و « فلان لَيِّن العصا »[2] يعنون أنه قليل الضرب للإبل بالعصا ، قال مَعْن بن أوس[3] :

عَلَيْهِ شَرِيبٌ وادِعٌ لَيِّنُ العصا
يُسَاجِلُها جُمَّاتِه وتُسَاجِلُهْ

وقال الراعي النُّمَيْري يصف راعياً[4] :

ضعيفُ العصا بَادِي العُرُوقِ تَرَى لَه
عليها إذا ما أجدبَ الناسُ إصْبَعَا

وقال آخر[5] :

لا تَضْرِبَاهَا واشْهَرَا لها العِصِي
فرُبَّ بَكْرٍ ذي هِبَابٍ عَجْرَفِي

* فيها وَصَهْبَاء نَسُولٍ بالعَشِي *

---

(١) مجمع الأمثال ٤٢١/١ ، واللسان (عصا) .

(٢) اللسان (عصا) .

(٣) نفسه (عصا) والشريب : صاحبك الذي يشاربك ، ويورد إبله معك . والجمات : جمع جمة ، وهي الماء نفسه ، أو معظمه .

(٤) اللسان (عصا) والإصبع : الأثر الحسن . يقال : للراعي على ماشيته إصبع ، أي أثر حسن ، وذلك إذا أحسن القيام عليها ، فظهر أثره فيها .

(٥) اللسان (عصا) والهباب : النشاط . والعجرفي : السريع الذي لا يقصد في مشيه من نشاطه . والنسول : التي تُقتنى للنسل .

وقال آخر[1] :

دَعْهَا من الضَّرْب وبَشِّرْهَا بِرِيّ

ذاك الزِّيادُ لا زِيَادٌ بالعِصِيّ

* * *

ومن خلال دراستنا للأمثال العربية اتضح لنا أن الإبل قد استأثرت ، دون سائر أنواع الحيوان ، بالكثير منها ، وهذا يؤكد لنا مرة أخرى أنها كانت أعز أموالهم ، وكانت شُغلهم الشاغل ، فالعربي لم يترك شيئاً من الإبل ، أو مما يتصل بها إلا تمثَّل به ، تمثَّل بها في أسنانها المختلفة ، وتمثَّل بأعضاء جسمها ، وطباعها ، ولِقَاحها ونِتَاجها ، وحَلْبها وحَلَبتها ، وأدوائها وعلاجها ، وأصواتها ، وسيرها وحُدائها ، ورعيها وسقيها ، كما تمثَّل بالأدوات المتصلة بها ، ومَباركها ومَعاطنها .

فمن تمثُّلهم بها في أسنانها قولهم : « أخيبُ من ناتجٍ للسَّقْب من حائل »[2] ، و« ألأمُ من سَقْب رَيَّان » ، و« أَرْغُوا لها حُوارها تَقَر »[3] ، و« حَرِّك لها حُوارها تَحِنّ » ، و« لا يَضُرُّ الحُوارَ ما وطئته أمُّه » ، و« لا يَعدم الحُوار من أمه حَنَّة »[4] ، و« إنما القَرْم من الأَفِيل »[5] ، و« أَتْخَمُ من فصيل »[6] ، و« ألأمُ من فصيل رَيَّان » ،

---

(1) اللسان (عصا) .

(2) السقب : ولد الناقة الذكر ساعة ولادته ، والحائل : الناقة التي لا تحمل .

(3) الحوار : ولد الناقة حين يولد إلى حين يفطم .

(4) الحنة : من الحنان ، وهو الرحمة .

(5) القرم : الفحل من الإبل . والأفيل : ابن سبعة أشهر أو ثمانية .

(6) الفصيل : ولد الناقة إذا بلغ سنة ، وسُمي بذلك لأنه يفصل عن أمه .

و « شَرٌّ مرغوبٍ إليه فصيلٌ رَيَّان » ، و « اسْتَنَّت الفِصَالُ حتى القَرْعَى »(١) ، و « جَلَّت الهاجنُ عن الولد »(٢) ، و « ماله هُبَعٌ ولا رُبع »(٣) ، و « عَدْوَكَ إذ أنتَ رُبَع » ، و « إِحْدَى نَوادِهِ البَكْر »(٤) ، و « صَدَقَني سِنُّ بَكْره » ، و « أحنُّ من شارف »(٥) ، و « نابٌ وقد تَقطع الدَّوِّيَةَ النابُ »(٦) ، و « لا آتيكَ ما حَنَّت النِّيب » ، و « عَوْدٌ يُعَلَّم العَنْج »(٧) ، و « عَوْدٌ يُقَلَّح »(٨) ، و « زاحمْ بعَوْدٍ أو دَعْ » ، و « غَلَبت جِلَّتُها حَوَاشِيَها »(٩) ، و « أتيتُه فما أَجَلَّ ولا أَحْشَى »(١٠) .

ومن تمثلهم بأعضائها قولهم : « أفواهُها مَجَاسُّها » و « مُثْقَلٌ استعان بذَقَنِه » ، و « أَلْقَى عليه جِرَانَه »(١١) ، و « حَبْلُكِ على غاربك »(١٢) ، و « فَتَل له في الذِّرْوة والغارب » ، و « أصبرُ من ذِي ضَاغِط »(١٣) ، و « أصبرُ من عَوْد بدَفَّيْه جُلَب(١٤) » ، و « هما كرُكْبَتي البعير » ، و « وَقَعا كركبتي البعير » ، و « بَصْبَصْنَ بالأذناب إذ

(١) الاستنان : العدو ، والقرع بفتحتين : بَثْر يخرج بالفصال فتجر على السباخ فتبرأ .
(٢) جلت : صغرت . والهاجن : بنت اللبون يحمل عليها فتلقح ، ثم تنتج وهي حقة ، ولا تصلح أن يفعل بها ذلك .
(٣) الربع : ما ينتج من أولاد الإبل زمن الربيع . والهبع : ما نتج منها في الصيف .
(٤) البكر : الفتى من الإبل ، بمنزلة الفتى من الناس ، والنده : الزجر .
(٥) الشارف : الناقة المسنة ، وهي أشد حنيناً على ولدها من غيرها .
(٦) الناب : المسنة من النوق . والدوية الفلاة تدوي فيها الرياح .
(٧) العود : المسن من الإبل ، والعنج ـ بتسكين النون : ضرب من رياضة البعير ، وهو أن يجذب الراكب خطامه فيرده على رجليه .
(٨) القلح : صفرة تركب الأسنان ، والتقليح : نزعة وإزالته .
(٩) جلة الإبل : مسانها ، وحواشيها : صغارها ورذالها .
(١٠) أجل : أعطى الجليلة . وأحشى : أعطى الحاشية .
(١١) الجران : مقدم العنق من مذبح البعير إلى منحره .
(١٢) الغارب : مقدم السنام .
(١٣) يقال : بعير ذو ضاغط ، إذا كان موضع إبطه يضغط أصل الكركرة فيدميه .
(١٤) الدفان : الجانبان ، والجلب : جمع جلبة ، وهي القرحة تركبها الجلدة عند مقاربة البرء .

حُـدِينَ »[1] ، و« إن يَدْمَ أَظَلُّك فقـد نَقِب خُفِّي »[2] ، و« مكانَ القـراد من اسْتِ الجمل » ، و« وَقَعُوا في سَلَى جمل »[3] ، و« وقعوا في مثـل حِوَلَاء الناقة »[4] .

ومن تمثلهم بطباعها قولهم في لؤم الجمل وحمقه : « إنما يَجْزي الفَتَى ليس الجمل »[5] . وقالوا في خفة حلمه وسفاهته : « أخفُّ حِلْماً من بعير »[6] . وفي حِقْده : « أحقدُ من جمل » ، وفي غَيْـرته : « أغيـرُ من جمل » ، وفي صبره « أصبرُ من عَوْد بدَفَّيه جُلَب » و« أصبرُ من ذي ضاغط » ، وفي هدايتـه : « أهدى من جمـل » ، وفي صولتـه وعضه : « أَصْوَلُ من جمل » .

ومن تمثلهم بِلقَاحها ونتَـاجها قـولهم : « لَقْوَةٌ لاقت قَبِيسـاً »[7] ، و« هـل تُنْتَج النـاقةُ إلا لمن لُقِحت لـه »[8] ، و« اللَّقُـوح الـرِّبْعِيَّة مـالٌ وطعامٌ »[9] ، و« شَوَلَانَ البَرُوق »[10] .

---

(1) البصبصة : التحريك ، والحداء : سوق الإبل من خلفها .

(2) الأظـل : باطن منسم البعيـر ، وقيـل : لحم أسفـل خفـه . ونقب خف الـرجـل أو البعيـر : تخرق .

(3) السلى : المشيمة ، وهي الجلدة التي يلتف فيها ولد الناقة .

(4) الحولاء : جلدة ماؤها أخضر ، وفيها أغراس وعـروق وخطوط خضـر وحمر ، وهي تـأتي بعد الولد في السلى الأول ، وذلك أول شيء يخرج منه .

(5) معناه : إنما يَجزى على الإحسان بـالإحسان من هـو كريم ، فـأما من هـو بمنزلـة الجمل في لؤمه وحمقه فإنه لا يوصل إلى النفع من جهته إلا إذا قهر .

(6) المراد بالحلم هنا العقل .

(7) اللقـوة : الناقـة السريعـة الحمل ، والقبيس : الفحـل السريـع الإلقاح ، فهـو يلقـح بقـرعـة واحدة .

(8) نتجت الناقة بالبناء للمجهول : ولدت ، والناتج للنوق كالقابلة للإنسان .

(9) اللقوح : الناقة ذات اللبن ، والربعية : التي تنتج في الربيع .

(10) البروق والمبرق : التي تشول بذنبها ، وتقطع بولها لتوهم أنها لاقح ، وما هي بلاقح .

ومن تمثلهم بحَلْبها وحَلَبتها قولهم : « الإيناسُ قبل الإبساس »[١] ، « والضَّجور قد تُحْلَب العُلْبة »[٢] ، و« أَحْلُبُ وأَشْرَبُ » ، و« ليس كلّ أوانٍ أحلبُ وأشربُ » ، و« حلَب الدهر أَشْطُرَه »[٣] ، و« حلبتُها بالساعد الأشد » ، و« لَتَحْلُبَنَّها مَصْراً »[٤] ، و« شُخْبٌ في الإناء وشُخْبٌ في الأرض »[٥] ، و« سبَق دِرَّتُه غِرَارُه »[٦] ، و« شَتَّى تَؤُوب الحَلَبة »[٧] و« ليس لها رِعَاءٌ ولكن حَلَبَة »[٨] ، و« اسْتُ البائنِ أعلمُ »[٩] .

وقد تعرضت الأمثال لبعض الأدواء التي كانت تصيب الإبل ، كما تعرضت للمواد والوسائل التي كان العرب يعالجون بها هذه الأدواء . فمن أدواء الإبل التي ذكرتها الأمثال الجَرَب ، والعُرُّ ، والقَرَع ، والدَّبَر ، والعَشَا ، والقَلَح ، والغُدَّة ، والقِلَاب ، والسُّواف .

وكانوا يعالجون هذه الأمراض بالكيّ ، والطِّلاء بالقَطران والعَنِيَّة ، والتقليح ، والجَرّ على الأرض السَّبِخة ، وغير ذلك .

---

(١) الإيناس : مداراة الناقة والمسح على جسمها . والإبساس : أن يقول الحالب لها : بس بس لتسكن ، والناقة البسوس : التي لا تدر إلا بالإبساس .

(٢) الضجور : الناقة التي تضجر فترغو عند الحلب . والعلبة : قدح من جلد ، والمراد ملء العلبة .

(٣) الأشطر : جمع شطر ، والناقة تحلب شطراً ، ثم تحلب الشطر الآخر .

(٤) المصر : الحلب بأطراف الأصابع .

(٥) الشخب : اللبن الخارج من الخلف .

(٦) الغرار : قلة اللبن . والدرة : كثرته .

(٧) شتى : متفرقين . والحلبة : جمع حالب . وكان من عادة الرعاء أنهم يوردون إبلهم الشريعة مجتمعين ، ويصدونها متفرقين ، فيحلب كل امرىء منهم وحده .

(٨) أصله في الإبل يكون لها من يحلبها وليس لها من يرعاها .

(٩) البائن : الذي يحلب من الشق الأيمن ، وضده المستعلي ، وهو من يحلب من الشق الأيسر .

وبكل هذه الأدواء وطرق علاجها تمثل العرب فقالوا : « أبغضُ من الطَّلْياء »[1] ، و « أكذبُ من مُجْرِب »[2] ، و « عَنِيَّتُه تَشفي الجرب »[3] ، و « يَضع الهِناءَ مواضعَ النُّقْب »[4] ، و « ليس الهِناء بالدَّس »[5] . وقالوا : « كَذِي العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو راتع[6] ، وقالوا : « أَحَرُّ من القَرَع »[7] ، و « اسْتَنَّت الفِصَال حتى القَرْعَى »[8] ، وقالوا : « هان على الأملس ما لاقى الدَّبِر »[9]، وقالوا : « هو يخبط خبط عشواء»[10] ، و « أخبَط من عَشْواء » ، وقالوا : عَوْد يُقَلَّح[11]، وقالوا : « أَغُدَّةً كغدة البعير وموتاً في بيت سَلُولية »[12]، وقالوا : « ما به قَلَبة »[13] وقالوا : « أَسَافَ حتى ما يشتكي السَّواف »[14]، وقالوا : « أهونُ من

---

(١) الطلياء : الناقة الجرباء المطلية بالهناء ، وليس شيء أبغض إلى العرب من الجرب لأنه يعدي .

(٢) المجرب : صاحب الإبل الجربى ، وكذبه أنه يحلف دائماً أن إبله ليست جربى لئلا تمنع من الورد .

(٣) العنيَّة : قطران وأخلاط تجمع وتهنأ بها الإبل الجربَى فتشفَى بها . وقيل فيها غير ذلك .

(٤) الهناء : ضرب من القطران ، والنقب : الجرب المتفرق في جلد البعير .

(٥) الهناء : أن يُطلى جسم البعير كله . والدس أن يُطلى بعض أعضائه .

(٦) العر : قروح تصيب الإبل في مشافرها أو أعناقها ، ويزعم العرب أن الصحيح منها إذا كُوي برىء السقيم الذي به العر ، وهذا من خرافاتهم .

(٧) القرع : بثر يكون في قوائم الفصلان وأعناقها ، فإذا أرادوا علاجها منه نضحوها بالماء ، ثم جروها في التراب .

(٨) تقدم شرح المثل في « التمثل بأسنان الإبل» .

(٩) الدبر ـ بفتحتين ـ جرح يكون في ظهر الدابة . وقيل : هو أن يقرح خف البعير ، والأملس : ما ليس به دبر .

(١٠) العشواء : الناقة التي لا تبصر بالليل .

(١١) سبق شرح المثل في : « التمثل بأسنان الإبل» .

(١٢) الغدة : طاعون الإبل ، وسلولية : نسبة إلى قبيلة سلول ، وهي من أذل قبائل العرب .

(١٣) القلبة : مأخوذة من القلاب . وهو داء يأخذ الإبل في رؤوسها فيقلبها إلى فوق .

(١٤) السواف : موت الإبل وهلاكها .

ثَمَلة » ، و « أهونُ من رَبَذة » ، و « أهونُ من طَلْية »[1] .

وقد ذكرت الأمثال ثلاثة أنواع من أصوات الإبل ، هي الرُّغاء والإرزام ، والأَطِيط . أما الرغاء ففي قولهم : «كَفَى بِرُغَائِهَا منادياً » ، و « أَرْغُوا لها حُوَارَهَا تَقَرّ»[2] ، و «ما له ثاغيةٌ ولا راغيةٌ »[3] . وأما الإرزام ففي قولهم : « لا أفعلُ ذلك ما أَرْزَمت أمُّ حائل»[4] ، و « لا خيرَ في رَزَمَة لا دِرَّة معها»[5] . وأما الأطيط ففي قولهم : «لا أفعل ذلك ما أَطَّت الإبلُ» .

وقالوا في ضروب من سير الإبل : «قد تَبْلغ القَطُوفُ الوَسَاعَ »[6] ، و « لأُلْحِقَنَّ قَطُوفَها بالمِعْنَاق»[7] ، و « كالنَّازِي بين القَرِينَيْن»[8] ، و « يَرْكب الصَّعْبَ مَنْ لاَ ذَلُولَ لَه»[9] ، و «كالحادِي وليس له بعير»[10].

وقد تعرضت الأمثال كذلك لبعض أحوال الإبل في رعيها وشربها ، وسجلت أسماء بعض المشهورين من رعاتها ، ذلك أن رعي الإبل كان من الأعمال اليومية لكثير منهم ، كما كان حسن القيام بهذا

---

(١) الثملة والربذة والطلية : خرقة تغمس في القطران ، ثم يهنأ بها الإبل الجربى .

(٢) الناقة إذا سمعت رغاء حوارها سكنت .

(٣) الثاغية : الشاة . والراغية : الناقة .

(٤) الإرزام : صوت تخرجه الناقة من حلقها لا تفتح به فاها . والحائل : الأنثى من أولاد الناقة .

(٥) الدرة : اللبن .

(٦) القطوف : متقاربة الخطو . والوساع : واسعته .

(٧) المعناق : الذي يسير سيراً يمد فيه عنقه ، ويسمى هذا الضرب من السير العنق .

(٨) المراد بالنازي البكر يكون مرحاً شديد النزوان ، فيدخل بين بعيرين مقرونين بحبل فيخبطاه .

(٩) الصعب من الإبل : الذي لم يروّض . والذلول : السهل .

(١٠) الحدو : سوق الإبل من ورائها .

الرعي أمراً يهتمون له كل الاهتمام ، لأنه يتصل بأعز ما يملكون .

فمن الأمثال التي تعرضت لرعيها قولهم : « رَعَى فَأَقْصَب»[1] ، و « أساء رَعْياً فَسَقَى » ، و « عَشِّ وَلَا تَغْتَر» و « العَاشِيَةَ تَهِيجُ الآبية» ، و « عُشْبٌ ولا بَعِير » ، و « مَرْعىً ولا أَكُولَة» .

ومن الأمثال التي تعرضت لشربها وضروبه قولهم : « آخرهُا أقلُّها شرباً » ، و « باليَدَيْن ما أوردها زائدةُ»[2] ، و « أوردها سَعْدٌ وسعد مُشْتَمِل»[3] ، و« أهونُ السَّقْي التَّشْريع»[4] و « سامَه سَوْمَ عَالَّة»[5] ، و «ضَرْبَ أَخْمَاسٍ لأَسْدَاس»[6] ، و «ضَرَبَه ضرب غرائب الإِبل»[7] ، و « أشربُ من الهِيم»[8] .

ومن الأمثال التي تتصل برعاتها قولهم : « شَرُّ الرِّعاءِ الحُطَمة»[9] ، و « ليس لها رِعَاءٌ ولكن حَلَبة»[10] ، و « آبَلُ من حُنَيْف الحَنَاتم»[11] ، و« آبلُ من مالك بن زيد مَنَاة» ، و « ما له هابِلٌ ولاَ آبِلٌ»[12].

---

(١) الإقصاب : امتناع الإبل عن الشرب .

(٢) اليدان : القوة والقدرة . وزائدة : اسم رجل .

(٣) معناه : أورد إبله شريعة الماء فشربت ، واشتمل هو بكسائه فنام ، فلم يوردها بئراً فيحتاج إلى الاستقاء لها .

(٤) التشريع : أن يورد الإبل ماء لا يحتاج إلى متح .

(٥) سامه : عرض عليه . والعالّة : من العلل ، وهو الشربة الثانية ، وضده النهل ، وهو الشربة الأولى .

(٦) الأخماس : جمع خمس ، والأسداس : جمع سدس ، وهما نوعان من أظماء الإبل .

(٧) الغرائب : جمع غريبة .

(٨) الهيم : الإبل العطاش .

(٩) الحطمة : مأخوذ من الحطم ، وهو الكسر ، أي الذي يحطم الماشية بضربها .

(١٠) الرعاء : جمع راع . والحلبة : جمع حالب .

(١١) الآبل هو الحاذق البصير برعية الإبل .

(١٢) الهابل : المحتال . والآبل : الحسن الرعية .

وذكر العرب في أمثالهم كذلك كثيراً من الأدوات التي تتصل بإبلهم، كالخِشَاشِ، والخَطِير، والرَّحْل، والقَتَب، والجَهَاز، والحِلْس، والبِطَان، والحَقَب، والثِّيل، فقالوا: «حَرِّكْ خِشَاشَة»[1]، و«جُرُّوا له الخَطِيرَ ما انْجَرَّ»[2]، و«لَا يَرْحَلَنَّ رحلَكَ مَنْ ليس معك»[3]، و«ضَرَبَ في قَتَبِه»[4]، و«ضَرَبَ في جَهَازه»[5]، و«لستَ من أحلاسها»[6]، و«مات عريضَ البِطَان»[7]، و«الْتَقَت حَلْقَتا البطان»، و«الْتَقَى البِطَانُ وَالحَقَب»[8]، و«أخلفُ من ثِيل الجَمَل»[9].

وتمثلوا بمبارك الإبل ومعاطنها وحظائرها فقالوا: «عُودِي إلى مَبَاركك»، و«هذا أمر لا تَبْرُكُ عليه الإبل»، و«إنه لَضَيِّق العَطَن»[10]، و«إنه لواسع العَطَن» و«كالمُهَدَّر في العُنَّة»[11].

وتمثلوا بها وهي مجتمعة فقالوا: «الذَّوْدُ إلى الذَّوْدِ إبل»[12]،

---

(١) الخشاش بكسر الخاء: العود الذي يدخل في أنف البعير.

(٢) الخطير: زمام الناقة.

(٣) الرحل: مركب للبعير.

(٤) القتب: الإكاف الصغير الذي يكون على قدر سنام البعير.

(٥) الجهاز بفتح الجيم: القتب بأداته.

(٦) الحلس: كساء يوضع تحت البرذعة على ظهر البعير.

(٧) البطان: الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير.

(٨) الحقب: حبل يشد به الرحل في حقو البعير لئلا يؤذيه التصدير.

(٩) ثيل الجمل: وعاء قضيبه.

(١٠) العطن والمعطن: مبرك الإبل حول الماء.

(١١) العنة: حظيرة تعمل من شجر يحبس فيها البعير.

(١٢) الذود: ما بين الثلاث إلى العشر من إناث الإبل.

و « كالبائع الكُبَّة بالهُبَّة»[1] ، و « اذهبْ فلا أَنْدَهُ سَرْبَك»[2] ، و « لا في العِير ولا في النَّفِير»[3] .

تمثل العرب بالذئب :

تردَّد اسم « الذئب» في الأدب العربي كثيراً ، وتمثل العرب بكثير من طباعه وصفاته . وتدل هذه الأمثال على أنهم كانوا يكرهونه ، ويخشونه على ماشيتهم وأنفسهم ، إذ وصفوه بكل ذميم من الطباع ، بل جعلوه مثلاً في كل منها ، كما تدل من ناحية أخرى على أنه كان كثير الانتشار بالجزيرة العربية .

وإذا تتبعنا الأمثال التي قيلت في الذئب وجدناها تصفه ، من ناحية ، بالعداوة واللؤم ، والعقوق والخبث ، والخيانة والظلم ، والغدر وسوء المكافأة ، والمكر والخديعة ، ومن ناحية أخرى تصفه بالحذر وقلة النوم ، والجوع والجرأة ، والصحة والنشاط ، وشدة العَدْو .

عرف العرف أن الذئب عدو للإنسان والماشية فقالوا : « أَعْدَى من ذئب» ، وتتمثل هذه العداوة بصورة واضحة بينه وبين الغنم بخاصة، ذلك أنه إذا انفرد بواحدة منها قَلَّ أن تنجو منه ، وإذا وقع في قطيع عاث فيه قتلاً وجرحاً ، ومن ثَمَّ كان العربي إذا غضب على غنمه دعا عليها بتسليط الذئب والضبع ، يقول شاعرهم في هذا[4] :

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يوماً فقلتُ لها
يا رَبِّ سَلِّط عليها الذئبَ والضَّبُعَا

---

(١) الكبة : الإبل العظيمة . والهبة : الريح .

(٢) النده : الزجر والردع . والسّرب : إبل الحي أجمع .

(٣) العير : الإبل التي تحمل التجارة . والنفير : من نفر من أهل مكة يوم بدر .

(٤) اللسان (ضبع) .

وهذا البيت يفيد الدعاء على الغنم بأن يقتل الذئب أحياءها ، وتأكل الضبع موتاها .

أما إذا أراد العربي لغنمه السلامة والنجاة من الذئب فإنه يدعو لها بقوله : «اللهمَّ ضَبُعاً وذئباً » أي اجمعهما معاً في غنمي ، لأنهما إذا اجتمعا اشتغل كل منهما بصاحبه فسلمت الغنم .

وكان من عادتهم أن الرجل إذا طال عمره وخَرِف خَوَّفوه من الذئب ، ولهم في ذلك مثل يقول : « لقد كنتُ وما أُخَشَّى بالذئب»[1] .

وعرف العرب أن الذئب لئيم ، فقالوا : « ألأمُ من ذئب» ، ويبدو لؤمه في أنه يتعرض بالأذى لكل ما يصادفه من حيوان أو إنسان ، سواء أكان جائعاً أم شبعان ، وذلك عكس الأسد مثلاً الذي إذا كان شبعان تجافى عن كل ما يمر به ، ولذلك يقولون في أمثالهم : « أكرمُ من الأسد» .

ومن أبشع صور لؤم الذئب أنه ربما تعرض للإنسان اثنان منه ، فيتساندان ويقبلان عليه متعاونَيْن ، فإذا أُدْمَى هذا الإنسانُ واحداً منهما وثب الذئب الآخر على هذا المُدَمَّى فمزقه وأكله ، وترك الإنسان[2] ، وفي ذلك يقول الفرزدق[3] :

وكنتَ كذئبِ السَّوْءِ لَمَّا رَأَى دَماً
بصاحِبِهِ يوماً أَحَالَ على الدَّمِ

---

(١) قائل هذا المثل معمر خوَّفوه بالذئب ، فقال لهم : إن كنت كبرت الآن حتى صرت أخوّف بالذئب فقد كنت فيما مضى شاباً لا أخشاه .

(٢) انظر : الدرة الفاخرة ١/٣٠٧ .

(٣) ديوانه ٧٤٩ ، والحيوان ٦/٢٩٨ ، واللسان والتاج (حول) وأحال على الدم : أقبل عليه .

ويقول العُجَيْر السَّلولي[1] :

فَتىً ليس لابن العمِّ كالذئب إنْ رَأى
بصاحبه يوماً دَماً فهو آكِلُهْ

ويقول حمزة الأصبهاني عن هذا الخلق الدنيء : « فليس في خلق الله ألأمُ من هذه البهيمة ، إذ يَحدث لها عند رؤية الدم بمجانسها الطمعُ فيه ، ثم يُحدث لها ذلك الطمعُ قوةً تعدو بها على الآخر»[2] .

ويصف العرب الذئبة بالعقوق حيث يقولون في مثل لهم : «أعقُّ من ذئبة» ، ذلك أنهم رأوها تكون مع ذئبها ، فيُرمى ، فإذا رأته قد دَمِيَ شَدَّت عليه فأكلته ، ومن ثم قال رُؤْيَة[3] :

فلا تَكُوني يابْنَةَ الأشَمِّ ورقاءَ دَمَّى ذئبَها المُدَمِّي

كما يصفونه بالخبث فيقولون : « أخبثُ من ذئب» وكانت الذئاب عندهم تتفاوت في الخبث ، وكان أخبثها تلك التي تتوارى في الخَمَر[4] ، أو تأوي إلى شجر الغضا[5] ، ويشير إلى ذلك قولهم : « أخبثُ من ذئب الخَمَر» ، و « أخبثُ من ذئب الغضا » ، وإنما كانت هذه أخبثَ الذئاب ، لأنها لا تخرج من مكامنها إلا إذا أرادت أن تغير أو تفترس .

والذئبُ ، إلى ذلك ، حيوان خائن ظالم غادر ، عرف العرب عنه هذه الطباع فقالوا : « أخونُ من ذئب» و «متى أمكنتَ منك الذئب

---

(١) من قصيدة له في أمالي القالي ١/ ٢٧٥ .

(٢) الدرة الفاخرة ١/ ٣٠٧ .

(٣) ديوانه ١٤٢ ، والحيوان ٦/ ٢٩٨ ، واللسان والتاج (ورق ، دمى) .

(٤) الخمر : وهدة يستتر فيها الذئب ، أو واد من الشجر .

(٥) الغضا : شجر ينمو بالرمل متكاثراً ، حتى يصبح خمراً ، وتأوي إليه الذئاب وتسكنه .

خـان» ، و« أظلمُ من ذئب» ، و« أَعْتَى من ذئـب» و« مَن اسْتَـرْعى الذئبَ ظلم» ، و« مُسْتَودِع الذئب أظلم» ، و« أغدرُ من ذئب» .

ومن الصفـات التي وَصَم العرب بهـا الذئب سـوءُ المكـافـأة ، إذ يقولون في مثل لهم : « كافأه مكافأة الذئب» ، ويذكر العلمـاء في أصل هذا المثل أن أعرابياً بالباديـة رَبَّى ذئباً ، فلمـا شَبَّ افترس سَخْلة لـه ، فقال الأعرابي[1] :

فَـرَسْـتَ شُـوَيْـهَـتِـي وفَـجَـعْـتَ طِـفْـلاً
وِنِـسْـوَانـاً وأنـتَ لـهـم رَبِـيـبُ

نـشـأتَ مـع الـسِّـخَـال وأنـتَ طـفـلٌ
فـمـا أدراك أن أبـاك ذِيـبُ

إذا كـان الـطـبـاعُ طـبـاعَ سَـوْءٍ
فـلـيس بـمـصـلـحٍ طـبـعـاً أديـبُ

ومن صفات الذئب أيضاً المكر والخـديعة ، حيث قـالوا : «أخبُّ من ذئب ، وأختل من ذئب» ، و« الذئب يَأْدُو للغزال»[2] .

والـذئب حذر ، ومن حـذره أنه لا ينـام إلا قليـلاً ، وأنـه إذا أراد النوم رَاوَحَ بين عينيه فجعل إحداهمـا مُطبقـة نائمـة ، والأخرى مفتـوحة حارسة ، ولهذا قال حُمَيْد بن ثَوْر في وصفه[3] :

يَـنَـامُ بـإحـدى مُـقْـلَـتَـيْـهِ ويَـتَّـقِـي
بـأخـرى المَنَـايَـا فهـو يَقْـظَانُ هَـاجِـعُ

وهـذه الصفة جـاءت في أمثالهم أيضـاً إذ يقولـون : « أحـذرُ من

---

(١) الدرة الفاخرة ١/٢٩٤ ، والمحاسن والأضداد ٤١ ، والحيوان ٤/٤٨ .

(٢) يأدو : يخدع ويختل .

(٣) ديوانه ١٠٥ ، والحيوان ٦/٤٦٧ .

ذئب» ، و « أخفُّ رأساً من ذئب» .

ومن الأمثال ما يصف الـذئب بالجـوع وهي قولهم : « أجـوعُ من ذئب» ، و « رماه الله بداء الذئب» أي بالجـوع ، و « الذئبُ أَدْغَمُ»[1] ، و « الذئب يُغْبَط بِذِي بَطْنِهِ»[2] . إذ معنى المثل أن الذئب تظن به البِطْنة لكثرة عَدْوه ، وشدة جرأته ، وربما كان مجهوداً من الجوع . وإنما يكثر جوع الذئب لأنه لا يأكل إلا ما يصيد ، ولا يرجع إلى فريسة أكل منها ، فـإذا لم يجد شيئاً يأكله استقبـل النسيم حتى يمتلىء منه جـوفه ، فهـو جائع دهرَه كله .

ومن الأمثـال مـا يصفـه بـالجـرأة والجسـارة ، وهي : «أجـرأ من ذئب» ، و « أجسـرُ من ذئب» ، و « أوقحُ من ذئب» ، و « الـذئبُ خاليـاً أَسَدٌ»[3] ، ومعنى المثل الأخير أنه إذا خلا بالإنسـان كان بمنـزلة الأسـد في الجرأة والإقدام ، أو أنـه إذا خلا من أعـوانٍ من جنسه كـان أسداً ، لأنه يتَّكل على ما في نفسه وطبعه من الصرامـة والقوة فيثب وثبـة لا بُقْيَا معها .

ومنها ما يصفه بالصحة والنشاط وشدة العَدْو ، وهي : « أصحُّ من ذئب» ، و « أنشط من ذئب» ، و « أَعْدَى من ذئب» .

وربما كان المثل الذي يقول : «الذئبُ يُكْنَى أبـا جَعْدَةَ» تلخيصـاً لرأي العرب في هذا الحيوان ، لأن معناه أن فعله منكر وإن كـانت كنيته حسنة .

---

(١) الدغمة : سواد أنف الذئب . ومعنى المثل أن الذئب ، ولغ أو لم يلغ ، فالدغمة لازمـة له ، وربما اتهم بالولوغ وهو جائع .

(٢) ذو بطنه : ما في بطنه من طعام .

(٣) انـظر : جمهرة الأمثـال ١/٤٥٩ ، ومجمـع الأمثـال ١/٢٧٨ ، ويـروى « أشـد » بـالشين المعجمة .

تمثل العرب بالضب :

كانت الضباب ، وما تزال ، تعيش في بلاد العرب بكثرة ، وكان العرب يستحبّون أكلها ، ويحرصون على صيدها ، يقول ابن منظور : « والعرب تستخبث الوَرَل وتستقذره ولا تأكله ، وأما الضب فإنهم يحرصون على صيده وأكله»[1] ، ويقول أبو الهِنْدي[2] :

أكلتُ الضِّبَابَ فما عِفْتُهَا ... وإني اشْتَهَيْتُ قَدِيدَ الغَنَمْ
ومَكْنُ الضِّبَابِ طعامُ العُرَيْـ ... ـبِ وَلَا تَشْتَهِيهِ نفوسُ العَجَمْ

وجاءت الأمثال العربية تؤيد أكل العرب للضب ، إذ تقول : « أَعْطِ أخاكَ من عَقَنْقَلِ الضَّب»[3] ، و« ما أُبَالِي ما نَهِيءَ من ضَبِّك وما نَضَج» ، و« ما أُبَالِي أناءَ ضَبُّكَ أم نَضَج»[4] .

ثم دعاهم حُبُّهم للحم الضب إلى أن يتتبعوه حريصين على صيده ، وكانت طريقتهم في هذا ما يسمى في اللغة بالحَرْش ، وهو أن يأتي الصائد جُحر الضب ، فيضرب فوقه بيده ، أو يُقَعْقِع بعصاً عليه ، فيظن الضب أن دابة جاءته تريد أن تقتحم عليه جُحره ، فيزحف بعَجُزه ، ويضرب بذَنَبه ، وحينئذ يناهزه الصائد ، ويمسك بذنبه ويجره ، فلا يقدر على الإفلات منه .

وقد أشارت بعض الأمثال إلى « الحَرْش » إذ يقول أحدها : « أَتُعْلِمُنِي بِضَبٍّ أنا حرشتُهُ» ، ويقول آخر : «أجلُّ من الحَرْش» ، وأحياناً كانوا يستخدمون المِحْفار في حرش الضب ، وذلك إذا كان

---

(١) اللسان (ضبب) والورل : دابة مثل الضب .
(٢) اللسان (مكن) والمكن : بيض الضب .
(٣) عقنقل الضب : مصرانه ومعاه .
(٤) نهيء وناء بمعنى : فيقال : نهيء اللحم وناء ، إذا لم ينضج .

جحره في أرض صلبة ، يشير إلى ذلك قولهم : « إنه لَضَبٌّ كَلَدَة ، لا يُدْرَك حَفْراً ، ولا يُؤخذ مُذَنِّباً»[1] .

وإذا تجاوزنا الأمثال التي تدل على أكل العرب للضب ، وطريقتهم في صيده ، إلى سائر الأمثال التي قيلت فيه وجدنا أنها تناولت كثيراً من صفاته وطباعه ، إذ تصفه بتعقُّد الذَّنَب ، وصغر الكف وقصر الإبهام ، وتصفه بطول العمر ، وطول الذَّماء ، وتصفه بالرِّي وسوء الهداية ، وتصفه بالخَدْع والعقوق .

والضب يشتهر بكثرة العُقَد في ذَنَبه ، ويقال : إن فيه إحدى وعشرين عقدة[2] ، وهو صغير الكف ، قصير الأصابع ، وبهذا جاءت الأمثال فقالت : «أعقدُ من ذَنَب الضب» ، و« أقصرُ من إبهام الضب» ، و« أقصر من فِتْر الضب» .

وهو من الحيوانات المعمَّرة ، الطويلة الذَّماء ، أما طول عمره فتزعم العرب أنه يعيش ثلاثمائة سنة ، وأنه أطول دابة في الأرض عمراً[3] ، كما يزعمون أن الحِسْل ، وهو ولد الضب ، يبلغ مائة عام ، ثم تسقط سنه فيسمى حينئذ ضباً[4] .

ومهما يكن من شيء فإن الأمثال تصف الضب وحِسْله بطول العمر ، إذ تقول : « أعمرُ من ضب» ، و« أَحْيَا من ضب»[5] ، و« لا آتيكَ سِنَّ الحِسْل» ، و« لا أرعاها سِنَّ الحسل»[6] .

---

(١) الكلدة : المكان الصلب الذي لا يعمل فيه المحفار ، ولا يؤخذ مذنباً : أي من قبل ذنبه .

(٢) الدرة الفاخرة ١/٣١٢ .

(٣) اللسان : (سنن) .

(٤) الدرة الفاخرة ١/٣١٣ .

(٥) أحيا : من الحياة .

(٦) هذان المثلان من الأبديات ، ومعناهما : ما بقيت سنه ، وسنه لا تسقط أبداً .

وأما طول ذَمائه فيقولون فيه: «أطولُ ذَماءً من الضب»[1] ، ويفسره حمزة الأصبهاني بقوله : « فالضب يبلغ من قوة نَفْسه أنه يُذبح فيبقى ليلته مذبوحاً ، مَفْرِيَّ الأوداج ، ساكن الحركة ، ثم يُطرح من الغد في النار ، فإذا قدّروا أنه قد نَضَجَ تحرَّك حتى يتوهموا أنه قد كان حياً ، وإن كان في العين ميتاً»[2] . ويشهد لطول ذَمائه أيضاً ما رواه أنس : « إن الضب لَيَموت هُزالاً في جُحْره بذنب ابن آدم»[3] ، أي يُحبس المطر عنه بشؤم ذنوبهم ، وإنما خُصَّ الضب لأنه أطول الحيوان نَفْساً ، وأصبرها على الجوع .

والضب رَيَّانُ دائماً ، لا يشرب الماء أصلاً ، ولكن إذا عطش استقبل الريح ففتح فاه ، فيكون في ذلك رِيُّه ، ولذلك قال العرب في أمثالهم : «أَرْوَى من ضب» ، وقالوا في الأبَدِيَّات : « لا أفعله حتى يَرِدَ الضبُّ الماء» ، و« لا أفعله حتى يَحِنَّ الضب في أثر الإبل الصادرة » ، و« لا آتيك وِرْدَ الحِسْل» ومعناها جميعاً : لا أفعله أبداً ، لأن ورود الضب الماء محال .

والضب سَيِّء الهداية ، إذا خرج من جُحره ضَلَّ طريق العودة إليه ، بهذا نطقت الأمثال فقالت : « أضلُّ من ضب» ، و« كلُّ ضَبٍّ عنده مِرْدَاته»[4] ،ذلك أن الضب إذا خرج من جحره لا يَنْدَلُّ عليه إذا أراد العودة إليه إلا بحَجَر يجعله علامة له .

وتصف الأمثال الضب ، فوق ما تقدم ، بالخَدْع والتوارِي في

---

(١) الذماء : ما بين القتل إلى خروج النفس .

(٢) الدرة الفاخرة ١/ ٢٨٦ .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٧٠ .

(٤) المرداة : الحجر الذي يُردى به ، أي يُرمى .

جُحره ، وطول إقامته فيه ، حيث تقول : « أخدعُ من ضب» ، و « أخدعُ من ضب حرشتَه» .

ويقول العرب في وصف الرجل الخادع الماكر : « هو خَبٌّ ضَبٌّ»[1] ، وإذ كان خروج الضب من جحره نادراً ضرب العرب المثل به للرجل يصنع الخير ، ولم يكن صَنَعه من قبل ، فقالوا : « أولَ ما أَطْلَع ضَبٌّ ذَنَبَه» .

كما تصفه بالعقوق ، وفي مثل منها : «أعقُّ من ضب» ، ويقصدون الضبة الأنثى ، وعقوقها أنها تأكل أولادها ، لأنها إذا باضت حرست بيضها من الحيات وغيرها ، فإذا خرجت فراخُها من البيض ظَنَّتها شيئاً يريد بيضها ، فوثبت عليها تقتلها ، فلا ينجو منها إلا الشريد ، وفي مثل آخر : « أَخذه أخذَ الضبِّ ولدَه» أي أَخْذَةً شديدة مهلكة .

وعلى الرغم من أن العرب كانوا حراصاً على صيد الضب فقد كانوا يحذرون أذاه ، وينصحون بعدم التعرض له وهو يمشي خارج جحره ، ولذلك قالوا : « خَلِّ دَرَجَ الضب» أي خَلِّ طريقه لئلا يسلك بين قدميك فتنتفخ . كما كانوا يضربونه مثلاً في الرجل يَلقى مثلَه في العلم والدهاء ، فيقولون : «إن تَكُ ضَبّاً فإنّي حِسْلُه» .

ومن الخرافات التي نسجها العرب حول الضب أنهم كانوا يزعمونه قاضيَ الدواب والطيور ، قال أبو الدُّقَيْش : « تقول العرب للضب : إنه لَقاضي الدواب والطير ، قال الأزهري : ومما يحقِّق قوله ما رويناه عن عامر الشعبي قال : سمعتُ النعمان بن بَشِير على المنبر

---

(١) اللسان : (خبب ، ضبب) .

يقـول : يا أيهـا النـاس ، إني مـا وجـدت لي ولكم مثـلاً ، إلا الضبـع والثعلب ، أَتَيا الضب في جحره فقالا : يا أبا الحِسْل، قـال : أجئتُما ؟ قـالا : جئنـاك نحتكم ، قـال : في بيتـه يُؤْتَى الحَكَم ، في حـديث طويل»[1] .

(1) اللسان (حسل) .

(٢)

التمثل بالنبات

كما تمثل العرب بالحيوان وأنواعه المختلفة ، وبرعوا في ذلك كل البراعة ، تمثلوا بأنواع النبات التي كانت ببلادهم ، وأوفوا في هذا التمثل على الغاية .

وإذا درسنا أمثالهم في النبات رأيناهم قد تمثلوا بالأشجار الضخام التي كانوا يتخذون منها أدوات القتال والصيد وغيرهما ، وبالأشجار التي كانوا يأكلون ثمارها ، أو يقتدحون بها النار ، أو يدبغون بأوراقها وثمارها ، كما تمثلوا بالنباتات التي كانت تأكلها ماشيتهم فتحبُّها أو تَأْجَمُها ، وبالمراعي التي كانت ترعاها فتسمن عليها ، وتغزر ألبانها ، وتمثلوا كذلك بالنباتات والأعشاب التي كانوا يتداوون بها .

ومن ناحية أخرى نظروا إلى نباتهم من ناحية الصلابة والرخاوة ، والطول والقصر ، فتمثلوا به في قوة الإنسان وضعفه ، وعزه وذله .

ولا شك أن هذه الأمثال قد احتفظت لنا بأسماء أنواع من النبات كانت تنمو بالجزيرة العربية قديماً ، ويمكن أن تكون من النباتات التي انقرضت الآن .

وقد تتبعت أمثال النبات عند العرب في كتب الأمثال واللغة فوجدتهم قد تمثلوا بنحو ستين نوعاً منه .

تمثّل العرب بالنخل :

النخل من أعز أموال العرب وأكرمها عندهم ، يطعمهم في الجَدْب ، ويتخذون منه شراباً وخمراً ، ودواء يستطبُّون به ، وينتفعون بجذوعه وسعفه وليفه[١] . ولا غرو أن يعده رسول الله ﷺ من خير المال فيقول : « خير المال سِكَّة مأبورة ، أو مُهْرة مأمورة »[٢] . وأن تقول عنه بنت الخُس : « نعم المالُ باسقاتُ النخل، الراسخاتُ في الوحل ، المطعمات في المَحْل »[٣] .

وقد لخص بعض الأعراب فوائد النخل أحسن تلخيص ، إذ رُوي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : « لقيت أعرابياً بمكة فقلت له : ممن أنت ؟ قال : أَسَدي ، قلت : ومن أيِّهم ؟ قال : نَهْدي ، قلت : من أي البلاد ؟ قال : من عُمَان ، قلت : فأنَّى لك هذه الفصاحة ؟ قال : إنا سكنا قُطْرا لا نسمع فيه ناجخة التيَّار ، قلت : صف لي أرضك ، قال : سِيفٌ أَفْيَح ، وفضاء صَحْصح ، وجَبَل صَرْدَح ، ورَمْل أَصْبَح ، قلت : فما مالك ؟ قال : النخل ، قلت : فأين أنت من الإبل ؟ قال : إن النخل حَملها غذاء ، وسَعَفها ضياء ، وجذعها بناء ، وكَرَبها صِلاء ، وليفها رِشَاء ، وخُوصها وعاء ، وقَرْوها إناء »[٤] .

---

(١) انظر : تاريخ العرب لجواد علي ١/ ٢٠٧ .

(٢) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٣٤٩ ، والسِكة بكسر السين : الطريقة المصطفة من النخل . والمأبورة : الملقحة . والمأمورة : الكثيرة النتاج والنسل .

(٣) الجمان في تشبيهات القرآن ١٠١ ، والمحل : الجدب .

(٤) ذيل الأمالي للقالي ٢٦ ، والناجخة : الصوت . والتيار : الموج . والسِّيف : شاطىء البحر . وأفيح : واسع . والصحصح : الصحراء . والصردح : الصلب . والأصبح : الذي يعلو بياضه حمرة . والكرب بفتحتين : أصول السعف العراض . والرشاء : الحبل ، والقرو : وعاء يتخذ من جذع النخل ، ينتبذ فيه ، أو القدح .

وإذ كان النخل بهذه المنزلة عندهم رأيناهم يُعِزُّونه ، ولا يُقَصِّرون في رعايته ، فكانوا إذا كثر حمل النخلة الكريمة من التمر ، فخافوا عليها أن تميل به، دعموها بدعامة تُبنى حولها من الحجارة ، حتى لا تنقعر من الرياح والعواصف ، وتسمى هذه الدعامة الرُّجْبة ، ومن ثم قالوا في أمثالهم : « أكرمُ من العُذَيْق المُرَجَّب »[1] و « أنا جُذَيْلها المُحَكَّك ، وعُذَيقها المُرَجَّب »[2] . ويضرب المثل الثاني للرجل الذي يُشتفى بعقله ورأيه ، وكأن المتمثل به يقول : أنا للأعداء إذا احتكوا بي بمنزلة الجُذَيل الذي من احتك به كان دواءَه من دائه ، وأنا في الكرم كهذه النخلة في وفرة ثمارها .

وللنخل في سموه وبسوقه منظر يروق للعين ، ويستثير الإعجاب ، لهذا كان العرب يشبهون به الرجال في امتداد قاماتهم ، وجمال شكلهم ، ويقولون في أمثالهم : « تَرَى الفتيانَ كالنَّخْل ، وما يُدريك ما الدَّخْل »[3] .

وأعظم ما يؤخذ من النخل تَمْرُه ، وكان العرب يعتمدون عليه اعتماداً كبيراً ، لأنه كان طعامهم الغالبَ عليهم ، والأثيرَ عندهم ، وكان يقوم لديهم مقام اللحم واللبن إذا أجدبت الأرض ، وهلكت الماشية .

ويدل على مكانة التمر عندهم أن منادياً كان يقوم في الجاهلية على أُطُم من آطام المدينة حين يُدْرِك البُسْر وينادي : « التمر في البئر » وفي رواية « التمرُ في البئر وعلى ظَهْر الجمل » ، ومعنى المثلين :

---

(١) العُذيق : تصغير العَذق بفتح العين ، وهو النخلة بحملها . والمرجب : الذي جعلت له رجبة .

(٢) الجُذيل : تصغير الجذل ، وهو أصل الشجرة . والمحكَّك: الذي تحتك به الإبل الجربى .

(٣) الدخل : العيب .

أَكْثِرُوا من سَقْي نخلكم ، فإن من سقاه وجد عاقبة سقيه في تمره ، كما يدل عليها أنهم كانوا يضربون التمرة مثلاً للشيء الطيب ، ومن أمثالهم في هذا قولهم : « كلُّ خاطبٍ على لسانه تمرة »[1] ، و« فلان لا يعرف التَّمْرَة من الجَمْرة »[2] ، و« أعطِ أخاك تمرةً فإن أَبَى فجَمْرة »[3] ، و« ما كلُّ سوداءَ تمرة ولا كل بيضاء شَحْمة »[4] ، و« التمرُ بالسَّوِيق »[5] .

والأمثال في التمر كثيرة ، وكثرتها تدل على أنه كان غالب طعامهم في السلم والحرب ، والشدة والرخاء ، وأنهم كانوا يتبادلونه بيعاً وشراء . ومن هذه الأمثال قول عبد الله بن الزبير في بعض الحروب لجنده : «أكلتُم تَمْري وعَصَيْتُم أَمْري » ، وقولهم « كِلاَهُما وَتَمْرا » ، و« التمرةُ إلى التمرة تَمْرٌ » ، و« أَشْبَهُ به من التمرة بالتمرة » .

وقد احتفظت الأمثال بأسماء أنواع من التمور الجيدة التي كانت لديهم ، كالزُّبِّ والنِّرْسِيَان والمُشَان ، وذلك في قولهم : « ألَذُّ من زُبْد بِزُبٍّ » ، و« ألذُّ من زبد بنِرْسِيَان » ، و« بِعِلَّة الوَرَشان يأكل رُطَبَ المُشَان »[6] .

والزُّب : تمر من أجود تمور البصرة ، والنِّرسيان من أجود تمور الكوفة ، والمُشَان : ضرب من الرطب الجيد .

---

(١) يضرب للرجل يطيب كلامه إذا طلب حاجة .

(٢) يضرب للرجل الذي لا يميز الخبيث من الطيب .

(٣) يضرب للذي يختار الهوان على الكرامة .

(٤) يضرب في موضع التهمة .

(٥) يضرب في المكافأة . والسويق : طعام يتخذ من الحنطة والشعير .

(٦) الورشان : طائر ملون الريش .

وكانوا يزعمون أن الغراب يميز بين جيد التمر ورديئه، وأنه ينتقي أجود تمرة ويأكلها ، ولذلك قالوا في أمثالهم : « وَجد تمرةَ الغراب » ، كما قالوا : « الغرابُ أعرفُ بالتمر » .

وكانت ثلاث بلاد من بلادهم تشتهر بكثرة التمر ، وجودته ، وهي : هَجَر وخَيْبَر والبَصْرة ، يدل على ذلك الأمثال التي تقول : « كمُسْتَبْضِع التمر إلى هَجَر » ، و« كجالب التمر إلى هَجَر » ، و« سِطِي مَجَرُ تُرْطِب هَجَر » ، و« كمستبضعٍ تمراً إلى أهل خيبر » ، و« أرخصُ من التمر بالبصرة » .

تمثلهم بغير النخل من النبات :

النَّبْع : شجر من أشجار الجبال ، تُتَّخَذُ منه القِسِيُّ ، والقوس الذي تتخذ منه أفضل القسي قاطبة ، لأنها أجمعها للشدة ولِلّين ، ولا يكون العود كريماً حتى يكون كذلك . ومن أغصان النبع تتخذ السهام أيضاً . ويضرب بالنبع المثل في الصلابة والشدة ، فيقولون : « أصلبُ من عُود النَّبْع » ، ويقولون للرجل الشديد يَلقى مثله في الشدة : « النبعُ يَقْرع بعضُه بعضاً » . ويقول زُفَر بن الحارث[1] :

فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بالنبعِ بعضَه
ببعضٍ أَبَتْ عِيدَانُه أن تَكَسَّرا

والنبع لا نار فيه ، ومن ثم يقول العرب للرجل يصفونه بجودة الرأي والحذق بالأمور : « لو اقْتَدح فلانٌ بالنبع لأَوْرَى نَاراً » .

الشِّرْيَان : شجر تتخذ منه القسيّ أيضاً ، وقوسه جيدة ،

---

(١) جمهرة الأمثال : ٢ / ٣٠٠ .

ويزعمون أن عوده لا يكاد يُعَوَّج . ومن أمثالهم التي تدل على اتخاذهم القسي منه قولهم : « رَمَوْه عن شِرْيَانة » أي اجتمعوا عليه ، ورموه عن قوس واحدة .

السَّلَم : شجر مفترش الأغصان ، ذو شوك . وكانوا إذا أرادوا قطع واحدة منه اكتنفها رجلان ، فَشدَّا أغصانَها بحبل حتى يصلوا إلى أصلها فيقطعوها ، وهذه الصورة أوحت إليهم بعدة أمثال عن السَّلَم ، منها قولهم للعزيز الذي لا يُقهر : « فلان لا تُعْصَبُ سَلَماته » ، وأخذه الكميت فقال[1] :

ولا سَمُرَاتي يَبْتَغِيهِنَّ عاضِدٌ ولا سَلَماتي في بَجِيلَة تُعْصَبُ

ومنها قولهم للرجل البخيل يؤمر بالتضييق عليه حتى يُستخرج ما عنده : « اعْصِبْه عَصْبَ السَّلَمة » ، وقولهم لكل مَنْ يضيق عليه : « عَصَبه عصبَ السَّلَمة » ، .

الغَضَا : شجر ينبت بالرمل ، وينمو متكاثراً حتى يصبح خَمَراً ، ويكثر ببلاد نجد ، ولذلك يسمى أهلها « أهل الغضا »[2] . وتأوي الذئاب إلى هذا الشجر ، وتستتر فيه ، ولهذا وصفت العرب ذئابه بشدة الخبث ، لأنها لا تخرج منه إلا إذا أرادت أن تفترس أو تغير ، فمن أمثالهم : « أخبثُ من ذئب الغضا » ، ومن أقوالهم : « أخبثُ الذئابِ ذئبُ الغضا »[3] ، وكانوا يسمون بني كعب بن مالك بن حنظلة : « ذئاب الغضا »[4] لخبثهم.

---

(١) ديوانه ١/١٠٥ ، ومجمع الأمثال ٢/١٧ .

(٢) انظر : اللسان (غضا) .

(٣) المصدر السابق (غضا) .

(٤) المصدر السابق (غضا) .

القَتَاد : شجر صُلْب كثير الشوك ، يشبه شوكه الإبَر ، وينتشر هذا الشوك على جميع أجزائه ، ولهذا ساغ للعرب أن يقولوا فيه : «أشعثُ من قَتَادة » . وخَرْط القتاد أمر شاق مؤلم غاية الإيلام ، وهو أن تُمِر يدك على القتادة من أعلاها إلى أسفلها حتى ينتشر شوكها ، وإذ كان بهذه المثابة ضرب به العرب المثل للأمر الشاق العسير ، فقالوا : « من دون ذلك خَرْطُ القَتاد » ، و « دون عُلَيَّان خرطُ القتاد »[1] ، والقتاد ، فوق هذا ، لا ثمرَ له يُنتفع به ، ولهذا قيل : « أبعدُ خيراً من قَتادة » .

السَّخْبَر : شجر إذا طال تدلت رؤوسه وانحنَتْ ، ولذلك يضربونه مثلاً للغدر والحؤول عن العهد ، فيقولون : « رَكِبَ أصولَ السَّخْبر » ، و « ركب فلان السَّخْبَر » وإنما خَصوا السخبر بذلك لأنه إذا طالَ تَنَكَّس ، فشبهوا رجوع الرجل عن مودته بانتكاس السخبر بعد طوله وانتصابه ، وكان بنو جعفر بن كلاب يلقبون « فروعَ السَّخْبر »[2] لغَدْرهم . وكما تمثل العرب بالسخبر نثراً تمثلوا به شعراً ، فقال شاعرهم[3] :

أَلْبَسْتُ أثوابَ الفتاةِ سَرَاتَكُمْ
مِنْ بَعْدِ ما رَكِبُوا أصولَ السَّخْبَرِ

وقال حسان بن ثابت[4] :

إن تَغْدِرُوا فالغَدْرُ منكم شِيمَةٌ
والغدرُ يَنْبُتُ في أصولِ السَّخْبَرِ

والحياتُ تألف هذا الشجر ، وتسكن أصوله ، ولهذا يقولون

(١) عليان : فحل كان لكليب بن وائل .

(٢) اللسان (سخبر) .

(٣) جمهرة الأمثال ٢ / ١٢٦ .

(٤) ديوانه ١٢١ واللسان (سخبر) .

للرجل الذي يضمر الغدر ، « لا تُطْرِقْ إطراقَ الأُفْعُوان في أصول السخبر » .

المَرْخ والعَفَار : شجرتان كان العرب يتخذون من أغصانهما الزناد التي يقتدحون بها النار ، وفيهما من النار ما ليس في غيرهما من الشجر ، والزناد التي تتخذ منهما أسرع الزناد وَرْياً ، لا تحتاج إلى كَدِّ القادح وعَنَته ، بل تسقط عنها النار بأقل الجهد .

ومن أجل هذا يَمتدح العرب هاتين الشجرتين ، ويضربون بهما المثل للشيء المتفوق على غيره فيقولون : « في كُلِّ شجرٍ نارٌ واسْتَمْجَد المَرْخُ والعَفَار »(1) ، كما يضربونه للرجل الكريم الذي لا يحتاج إلى أن تَكُدَّه وتُلِحَّ عليه ، فيقولون : « اقْدَحْ بعَفَار أو مَرْخ ثم اشْدُدْ إن شئتَ أو أَرْخ » ، ويقولون : « أَرْخِ يديك واسْتَرْخ إن الزِّناد من مَرْخ » . وكما تمثَّل العرب بهما نثراً تمثلوا بهما شعراً كذلك ، فقال الأعشى(2) :

زِنَادُكَ خيرُ زِنادِ المُلُو ... ك صَادَفَ منهنَّ مَرْخٌ عَفَارا

وقال كثير(3) :

لــه حَسَبٌ فــي الحَيِّ وارٍ زِنَادُه
عَفَارٌ ومَرْخٌ حَلَّه الوَرْيُ عاجلُ

الدِّفْلَى : شجر أخضر ، حسن المنظر ، ولكنه مر الطعم ، وهو من الأشجار التي تُقتدح بها النار أيضاً ، أما مرارته فقالوا فيها : « أَمَرُّ من الدِّفْلى » وأما ناره فقالوا فيها : « اقْدَحْ بدِفْلى أو مَرْخ ، ثم شُدَّ بعدُ أو أرخ » .

---

(1) الاستمجاد : الاستكثار من المجد والشرف .

(2) ديوانه ٤١ .

(3) المستقصى ٢ / ١٨٤ .

العُـرْفُط : نـوع من أشجـار العِضَـاه ، مفتـرش على الأرض ، لا يـذهب في السماء ، وهـو من الأشجـار ذوات الشـوك ، ولـذا كـان من أخبث مراعيهم ، ويضربون بشوكه المثل في شظف الحياة ونكد العيش فيقولون : « أَوَدُّ من عَيْشِـكَ شَوْكُ العُـرْفُط »[1] ، كما يضـربونـه كذلـك لمن يسخر ممن هو أكثر منه مالاً ، أو أعظم قوة ، فيقولون : « أَرْجُلَكُمْ والعُـرْفُطَ »[2] . ولأن العرفط لا يستـر شيئاً لانبسـاطه على وجـه الأرض ضربوا به المثل لمن يتستـر بما ليس يستـره فقالـوا : « أُرَيْنِبٌ مُقْرَنْـفِطَةٌ على سَوَاءِ عُرْفُـطَة »[3] ، ولأنه من أخبث مراعيهم، وشـرار أشجارهم ، ضـربوا بـه المثـل للشـريـر يُكْـرم ويُبَجَّـل فقـالـوا : «عُرْفُطَةٌ تُسْقَى من الغَوَابِق »[4] .

العَـوْسَج : شجـر متداخـل الأغصان ، يلوذ بـه الطيـر خـوفـاً من الجوارح ، ويضربـون به المثـل للرجل يهـابه النـاس ، ويخشون بـأسه فيقولون : « صَقْرٌ يَلُوذُ حَمَامُه بالعَوْسَج » . وللعوسج ثمـر أحمر اللون ، يُسمّى « المُصَع » يضرب بـه المثل في الاحمـرار فيقال : « أشـدُّ حمرةً من المُصَعَة » .

القِلْقِل : شجر ذو حَبٍّ أسود ، هو أصلب ما يكون من الحبوب ، بحيث يصعب دقه وكسره ، ومن ثم يضربون به المثل في الإلحاح على الشحيح ، فيقولون : « دَقَّكَ بالمِنْحَازِ حَبَّ القِلْقِل »[5] .

---

(١) أود : ألين وألذ .
(٢) مجمع الأمثال ١ / ٢٩٠ .
(٣) أُرينب : تصغير أرنب . ومقرنفطة : منقبضة . وسواء الشيء : وسطه .
(٤) الغوابق : السحب .
(٥) المنحاز : المدق أو الهاون ، ويروى « حب الفلفل » بالفاءين المضمومتين ، وهو معروف .

السَّعْـدان : نبت تسمن عليه الإبـل، وتـطيب ألبـانهـا ، ويقـول العرب عنه : «أطيب الإبل لبناً ما أكل السَّعْدانَ والحُرْبُث »[1] ، وهو من أطيب المـراعي ما دام رطبـاً ، وله شـوك يقال لـه : حَسَك السعـدان ، تُشَبَّه به حَلَمة الثدي .

ويضـربون السعـدان مثلاً للرجلين لهمـا فضل ، إلا أن أحـدهمـا أفضل ، فيقولون: «مَرْعىً ولا كالسَّعْدان » . وإذ كان هذا النبات منبسطاً على الأرض دائماً استوحى العرب من هذه الصورة أحد أمثالهم ، فقالوا في الأَبَدِيَّات : « لا أفعلُ ذلك ما دام السَّعْدانُ مُسْتَلْقِيـاً » ، أي لا أفعله أبداً . ويدل على أن هذا النبات كان من أنجع المراعي عند العرب قولُ النابغة الذبياني[2] :

الـواهـبُ الـمـائـةِ الأبـكـارِ زَيَّـنَـهـا
سَعْـدَانُ تُـوضَـحَ في أوبـارِهَـا اللِّبَـدِ

الصِّلِّيـان : من أفضل المـراعي وأحبهـا إلى المـاشيـة ، وتسميـه العرب « خُبْزَةَ الإبل » ، وهو نبت إذا ارتعاه الحمار أو الجمل اقتلعه من أصله ، ولـذلـك يضـربـون اقتـلاعـه مثـلاً لمن لا يتلعثم في يمينـه إذا استُحلف ، فيقولون : « جَذَّهَا جَذَّ العَيْرِ الصِّلِّيَانَة»[3] . كمـا يضربـون حُبَّ المـاشية لـه مثلاً لازدحـام الناس على مـا يحبون ويـرغبون فيـه ، فيقولون : « حَوْلَ الصِّلِّيَان الزَّمْزَمة »[4] .

الـرَّمْـرَام : عشب شـديـد الخضـرة، تحـرص عليـه المـاشيـة ،

---

(١) اللسان (سعد) و (حربث) .

(٢) ديوانه ٢٢ واللسان (سعد) .

(٣) جذها : قطعها . والعير : الحمار . والضمير في « جذها » يعود على اليمين .

(٤) الزمزمة : الصوت المتتابع في الخياشيم ، ويراد به هنا صوت الفرس إذا رأى الصليان .

ويضربون به المثل لمن اطمأن ، وقرت عينه بعيشه ، فيقولون : « ألقتْ مَراسِيَها بِذِي رَمْرَام »[1] .

العُشْب والكَلأ : العشب : الكلأ الرَّطب ، ولا يقال له حشيش حتى يهيج ، والكلأ : العشب رطباً كان أو يابساً ، والعشب من أفضل المراعي ، وقد ضربوه مثلاً للمال الكثير في قولهم : « عُشْبٌ ولا بَعِيرٌ » ، وقولهم : « بكلِّ عُشْب آثارُ رَعْي » . أما الكلأ فقالوا فيه : « لَتَجِدَنِّي بقَرْنِ الكلأ »[2] أي تجدني حيث تطلبني .

التَّأْوِيل والقَفْعَاء : نبتان محمودان من مراعي البهائم ، وكانا من عَلَف الحمار بخاصة عندهم ، ولذلك يضربونهما مثلاً للرجل إذا استبلد فَهْمُه، وأشبه الحمار في ضعف عقله ، ويقولون في ذلك : « إنما طعامُ فلان القَفْعَاءُ والتأويلُ » ، وكذلك يضربونهما مثلاً للرجل البليد الموسَّع عليه في الرزق ، ويقولون : « أنتَ في ضَحَائِك بين القَفْعَاء والتأويل » .

الحَمْض والخُلَّة : الحمض من النبات : ما كان مالحاً أو حامضاً . وضده الخُلَّة ، وهو ما كان منه حلواً . والعرب يقولون عنهما : « الخُلَّة خُبْزَة الإبل ، والحَمْض فاكهتُهَا أو لحمها »[3] ، ويضربون الخُلَّة مثلاً للدَّعة والسَّعة ، والحمضَ مثلاً للشر والحرب[4] ، فيقولون للرجل الذي يجيء متهدداً : « أنتَ مُخْتَلٌّ فَتَحَمَّضْ »[5] أي

---

(١) إلقاء المراسي كناية عن الاستقرار والسكون ، وأصله في السفينة .

(٢) قرن الكلأ : منتهى الراعية .

(٣) اللسان (حمض) .

(٤) نفسه (حمض) .

(٥) الاختلال : رعي الخلة ، والتحمض : رعي الحمض .

انتقلْ من حال إلى حـال ، ذلك أن الإبـل إذا شبعت من الخُلَّة اشتهت الحَمْض . ويقولون للقوم جاؤوا يشتهون الشر فـوجدوا مَنْ شَفـاهم مما بهم : « كانوا مُخِلِّين فلاقَوْا حَمْضاً»[1] .

القَصِيص والكَمْـأة : القصيص : نبات ينبت في أصـوله الكَمْـأة وتُعْـرف منابتهـا به . ويـرى بعض علماء اللغـة أنـه إنمـا سمي قَصِيصـاً لدلالته على الكمأة ، كما يُقتص الأثر[2] . والكمأة : نبات من الفُطْر ، يُجنى ويؤكل مطبوخاً ، وكان العرب حراصاً على تَتَبُّعه وجَنْيه . ويضرب العلم بمنابت القصيص مثلاً للعارف بموضع حاجته ، لأن منابت الكمأة لا يعـرفهـا إلا عـالم بـأمـور النبـات ، فيقــولـون : « هــو أعلمُ بمَنْبِت القصيص» . أما الكمأة فيقولون في التمثل بها : «حَرّاً أخافُ على جَانِي كمـأةٍ لا قُرّاً » ، ويـروى : «عَطَشـاً أخشى على جَانِي كمـأةٍ لا قُـرّاً » ، ذلك أن ظهور الكمـأة يكون في آخر الربيـع ، فإذا بـاكر جـانيها أصـابه البرد، ثم إذا حميت عليه الشمس عطش ، وضرر العطش أشد عليه من ضرر البرد ، لأن البرد لا يدوم . ويضرب المثلان في الاهتمـام بعواقب الأمور وتدبرها ، وترك الاغترار بأوائلها .

الأَرْطَى والطُّرْثُوث : الأَرْطَى : شجر ينبت بالرمل ، وكان العرب يَدْبغون بـه الجـلود . والطُّرْثُوث : نبت ينبت في أصول الأَرْطَى منبسطاً على وجه الأرض . ويضربون بهما المثل في الرجل لا أصل لـه يرجـع إليه ، فيقولون : « طَرَاثِيثُ لا أَرْطى لها» .

الرِّمْث والذُّؤْنُون : الرِّمْث : شجر يشبه الغضا ، وهو من مراعيهم الجيـدة ، لأن الإبـل تُحَمِّض بـه إذا شبعـت من الـخُلَّة ومَـلَّتْهـا .

---

(١) يضرب لمن غمط السلامة ، فتعرض لما فيه شماتة الأعداء .

(٢) اللسان (قصص) .

والـذُّؤْنون : نبت ينبت في أصـول الرِّمْث والأَرْطَى والأَلاء ، تنشق عنـه الأرض فيخـرج مثل سـواعد الـرجـال ، لا ورق لـه . ويضرب الـرمث والذؤنون مثلاً للقوم لا قديم لهم ، فيقال : «ذَآنِينُ لا رِمْثَ لها» .

البَرْوَق : نبت ضعيف رَيَّان ينقصف بسرعة ، ويخضـر إذا غامت السماء ، ويهلك إذا أصابه مطر غزير ، أو حميت عليـه الشمس . ومن هـذه الصفات اشتق العـرب أمثالهم فيـه ، فضربـوه مثـلاً في الشُّكْـر ، والضَّعف ، وسـرعـة الانقصـاف ، وقـالـوا : « أشكـرُ من بَـرْوَقَـة » ، و « أضعفُ من بَـرْوَقَـة» ، و « أقصفُ من بَـرْوَقَـة» ، و « انْـدَرَع انْـدِرَاعَ المُخَّة وانْقَصَف انقصافَ البَـرْوَقَة»[1] ، وكـانوا يشبهـون به كـل ضعيف خَوَّار ، إذ يقول جرير يهجو[2] :

كَـأَنَّ سـيـوفَ الـتَّـيْـمِ عِـيـدَانُ بَـرْوَقٍ
إذا نُـضِـيَـتْ عـنـهـا لِـحَـرْبٍ جُـفُـونُـهَـا

وإذ يقول آخر[3] :

ولَـقَـدْ غَـمَـزْتُ قَـنَـاتَـكُـمْ فـوجَـدتُـهـا
خَـرِعـاً مَـكَـاسِـرُهـا كَـعُـودِ الـبَـرْوَقِ

الثُّمَام : نبت ضعيف قصير ، لا يـطول ، ويسهل تنـاوله ، لأنهم يقولون : إنه يكون على قـدر قامـة الإنسان ، ويسمى « الثُّمَّـة » أيضاً . ويضربونه مثلاً للشيء يسهل تناوله ، وللمطلوب الذي يُنال بغير مشقة ، فيقولون : « هو على طَرَف الثُّمَام » ، و « هو على رأس الثُّمَّة» .

---

(١) اندرع : تقدم في السير . والمخ والمخة : ما يخرج من العظام الجوفاء .
(٢) ديوانه : ٥١٤ ، واللسان (برق) .
(٣) المستقصى ١/١٢٦ .

الفَقْع : نبات أبيض اللون رِخو ، يظهـر على وجه الأرض فيـوطأ بالأرجل ، ولما كان هذا النبات ضعيفاً مهيناً إلى هذا الحد شَبَّـه العرب بـه كـل ذليـل مهين ، فقـالـوا في أمثـالهم : « أذلُّ من فَقْـعٍ بقَـاع » ، و « أذلُّ من فَقْـعٍ بقَرْقَـرَة» ، و « هـو فَقْعَـةُ القـاع » ، وقـد تمثـل بـذُلِّـه الشعراء ، فقال أبو جُنْدَب الهُذَلي[1] :

وَلَا تَـحْـسَـبَـنْ جَـارِي إِلَـى ظِـلِّ مَـرْخَـةٍ
ولا تَـحْـسَـبَـنْـهُ فَـقْـعَ قَـاعٍ بِـقَـرْقَـرِ

وقال جرير[2] :

لَـنْ يَسْتَـطِيـعَ امـتـنـاعـاً فَـقْـعُ قَـرْقَـرَةٍ
بيـن الـطَّرِيـقَـيْـنِ بـالـبِـيـدِ الأمـالـيسِ

القَـرْمَل : شجـر قصـار ، لا ذُرى لـه ولا مَلجأ ولا سِتـر ، ولـذا يضرب به المثل في الذلة والهوان كالفقع ، فيقـال : «أذلُّ من قَرْمَلَة» ، و « ذليـلٌ عـاذَ بقَـرْمَلَة» ، وأخـذ جـريـر المثـل الثـاني فقـال يهجـو الفرزدق[3] :

كَـأَنِ الـفـرزدقُ إذ يَـعُـوذُ بِـخَـالِـهِ
مِـثْـلُ الـذليـلِ يـعـوذُ تـحـتَ الـقَـرْمَـلِ

الكُشُوث : نبت يتعلق بأطراف الشوك ، وأغصان الشجر ، ويلتف حـولها من غيـر أن يضرب بعـرق في الأرض . ويضـرب بـه المثـل في التعلق ، وفي الـرجل لا أصـل لـه ، فيقـال : « ألـزقُ من الكُشُـوث» ، و « هو كُشُوث الشَّجَر» .

---

(١) ديوان الهذليين ٣/٩٢ .

(٢) ديوانه ٣٥٩ .

(٣)ديوانه ٢٥٠ ، والشعر والشعراء ٤٥٠ .

العَـرْفَج : نبت سـريع الاتقـاد ، لهبـه أحمـر ، سـريـع الانتفـاع بالمطر ، يكون يابسـاً ، فإذا وقـع عليه المـطر اخضر . ولاحظ العـرب عليه هذه الصفـات فصاغـوا منها عـدة أمثال حـوله ، وقـالوا في سـرعة اتقاده : « أسرعُ من النار في يَبِيس العَرْفَـج » ، وكانـوا يسمون نـاره «نار الزَّحْفَتَيْن»(١) لأن الذي يوقدها يزحف إليها ، فإذا اتقـدت زحف عنها . وقالوا في شدة حمرته : « كأنَّ لحيتَهُ ضِرَام عَرْفَجَة» ، وقـالوا في سـرعة انتفاعه بالمطر : « كَمَنٍّ الغيثِ على العَـرْفَجَة» . ويضـرب لمن أحسنت إليـه فقـال لـك : أَتَمُنُّ عليَّ ؟ فتجيبـه : كَمَنٍّ الغَيْثِ على العَـرْفَجَـة ، تعني : أن أثر نعمتي عليك ظاهر كظهور أثـر الغيث على العَرْفَجَـةِ وإن جحدتَها وكفرتَها . ويبدو لي أن هذا النبات كان منتشراً ببلادهم ، لأنهم يقولون في مثل لهم : « لَيْتَ لنا من كل عَرْفَجَة خُوصَةً» ، ويضرب لمن يَعِدك الكثير ، ولا يُعَجِّل لك شيئاً .

الحَلْفـاء : نبت أطرافـه محددة ، كـأنها أطـراف سعف النخـل ، ينبت في مَغَـايض الماء والنُّـزُوز ، وتأوي إليـه الأسود ، ويمتـاز بسرعـة الاشتعال كالعَرْفَج ، ومن ثم يضربون بهـذه الميزة المثـل في السرعـة ، ويقولون : « أسرعُ من النار تُدْنَى من الحَلْفاء» .

الألاء : شجـر حسن المنـظر ، مُـرُّ الـطعم ، دائم الخضـرة ، يضربون به المثل في المرارة فيقولون : « أَمَرُّ من الأَلاء » ، ويقـول بِشْر ابن أبي خازم(٢) :

فـإنَّـكُـمُ ومَـدْحَـكُـمُ بُـجَـيْـراً
أبـا لَـجَـأٍ كـمـا امْـتُـدِحَ الأَلَاءُ

---

(١) اللسان (عرفج) .

(٢) ديوانه ٣ ، وأمالي القالي ٢/٣٢ ، واللسان والتاج (ألا) .

يَـرَاهُ الــنـاسُ أخـضـرَ من بَــعِـيــدٍ
وَتَــمْــنَــعُــهُ الــمــرارةُ والإِبَــاءُ

الحَزَاء : نبت يشبه الكَرَفْس ، يُتَدَخَّن به ، وكان العرب يشربون ماءه من الريح ، ويعلقونه على الصبيان إذا خُشِيَ على أحدهم أن يكون به شيء ، وكان النساء يشربون ماءه للزكام والجِنِّ وموت الولد ، ويزعم الأعراب أن الجن لا تدخل بيتاً يكون فيه حَزاء[1] . وقد ضربوا به المثل في الأمر يُخشى شرّه ، فقالوا : «ريحُ حَزَاءٍ فالنَّجَاء» .

الحَنْظَل : شجر مرّ شديد المرارة ، قالوا فيه : «أَمَرُّ من الحَنْظَل» . وإذا أخذ في الاصفرار سُمِّي «الخُطْبَان» . وبه يضرب المثل أيضاً في شدة المرارة فيقال : « أمرُّ من الخُطْبَان» .

السَّلَع والْقَار : شجرتان مرتان سامتان ، يُضربان مثلاً لمن يتوقع خيراً فيصيبه شر ، فمن أمثالهم ، «طَمِعُوا أن ينالوه فأصابوا سَلَعاً وقَاراً » ، ومن تمثلهم بهما في الشعر قول بِشْر بن أبي خازم[2] :

يَسُومُونَ العِلَاجَ بذاتِ كَهْفٍ وما فيها لهم سَلَعٌ وقَارُ

الصَّبِر : من النباتات المرة أيضاً ، يقولون فيه « أَمَرُّ من الصَّبِر» .

العَلْقَم : ثمرة الحنظل ، ويضرب به المثل كذلك في شدة المرارة فيقال : « أمرُّ من العَلْقَم» ، و « أَكْرَهُ من العَلْقَم» .

اللَّبْلَاب : نبت يلتوي على الشجر ، كريه الطعم ، يُتداوى به ، ومن أمثالهم فيه : «أبغضُ من قَدَح اللَّبْلَاب» .

---

(١) اللسان (حزا) .

(٢) اللسان (سلع ، قور) .

المَقِر : نبات مر الطعم ، وهو غير الصَّبِر وإن كان يشبهه ، ففي حديث لقمان العادي ، « أكلتُ المَقِرَ ، وأكلتُ على ذلك الصَّبِر »[1] .
ويضرب به المثل في شدة المرارة أيضاً ، فيقال : « أَمَرُّ من المَقِر » .

(١) اللسان (مقر) .

(٣)

التمثيل بالجبال والأماكن والبلدان

كان العرب يروحون ويجيئون في أنحاء الجزيرة العربية سعياً وراء المراعي والمياه ، وكانوا يضربون في مشارقها ومغاربها ابتغاء الرزق ، بكل وسائله وأسبابه ، فتشاهدوا معالمها الجغرافية وعاينوها .

ومن ناحية أخرى كانوا يسمعون في أشعارهم وأخبارهم عن تلك المعالم ، وما يتصل بها من أحداث وما تمتاز به من صفات .

ومن ثم وجدنا أمثالهم تحتوي كثيراً من أسماء جبالهم ، وسهولهم ،ووديانهم ، ورمالهم ، ومياههم ومراعيهم ، وبلادهم وحصونهم ومآسدهم. . . ووجدناهم يتمثلون بهذه المعالم في المعاني الإنسانية المختلفة .

ولا شك أن لهذه الأمثال قيمة أدبية لا يستهان بها ، إذ أمدتنا بمعارف غزيرة وصحيحة عن حياة العرب في الجاهلية ، من الناحيتين الجغرافية والتاريخية .

تمثلهم بالجبال : للجبال خاصتان واضحتان ، هما : الضخامة والثِّقَل ، والثبات وعدم الزوال . وقد تمثل العرب بجبالهم في كل من هاتين الخاصتين ، فقالوا في الأولى منهما : « أثقلُ من أُحُد»[١] ،

---

(١) أحد : جبل على مقربة من المدينة المنورة ، وعنده كانت غزوة أحد الشهيرة .

و « أثقـلُ من ثَهْلاَن»[١] ، و « أثقـلُ من حَضَن»[٢] ، و « أثقـلُ من دَمْـخ الدِّمَاخ»[٣] ، و « أثقـلُ من عَمَايَـة»[٤] ، و « أثقلُ من نَضَـاد»[٥]، ويبدو لي أن كـل جماعـة منهم كـانت تتمثـل بـالجبـل الـذي يقـع قـريبـاً من ديارهم .

وأما الخاصة الثانية ، وهي الثبات وعدم الزوال ، فقـد تمثلوا فيها باثنين من جبالهم ، همـا عَسِيبٌ ، وَعُوَارِض ، فقـالوا في عَسِيب : «لا أفعلُ ذلك ما أقام عَسِيبٌ»[٦] أي لا أفعله أبداً ، لأن الجبل لا يزول عن مكانه ، وربما كان هذا المثل مأخوذاً من قول امرىء القيس[٧] :

أجـارتَنـا إنَّ الخُـطُوبَ تَنُـوبُ وإنِّـي مُقِيمٌ مـا أقـامَ عَـسِيـبُ
أجـارتَنَـا إنَّـا غَـريبَـانِ هَهُنَـا وكُـلُّ غـريبٍ للغـريب نَسِيبُ

وقالوا في عُوَارض : «لا أفعله حتى يزولَ عُوَارض»[٨] .

ثم تمثلوا ببعض جبالهم في أمور أخرى، فتمثلوا بثَبِير في الإسراع والعَجَلة ، فقالوا : « أَشْرِقْ ثَبِير كيما نُغِير»[٩] ومعناه : ادخل يـا ثبير في الشروق كي نسرع إلى النَّحر ، ذلك أن العـرب في الجاهليـة كانـوا إذا

---

(١) ثهلان : جبل بالعالية ، ويقال : إنه لبني نمير .

(٢) حضن : جبل بنجد .

(٣) دمخ الدماخ : جبل بين جبال ضخام في حمى ضرية ، ويقـال : إنه لبني نفيـل بن عمرو بن كلاب .

(٤) عماية : جبل بالبحرين .

(٥) نضاد : جبل بالعالية .

(٦) عسيب : جبل لهذيل بعالية نجد .

(٧) ديوانه : ٣٥٧ ، ومعجم البلدان (عسيب) .

(٨) عوارض : جبل ببلاد طيء ، ويقال : إن عليه قبر حاتم الطائي .
وانظر اللسان (عرض) ومعجم البلدان ، ومعجم ما استعجم (عوارض) .

(٩) ثبير : جبل من جبال مكة .

حجوا ووقفوا بعرفات لا يُفيضون منها حتى تشرق الشمس .

وضربوا حَضَناً مثلاً في الاستدلال على الشيء بأمارة ظاهرة ، والاستغناء بها عن السؤال عنه ، فقالوا : «أَنْجَدَ مَنْ رَأَى حَضَناً» لأن هذا الجبل كان في أول حدود نجد ، ولذا صار من يشاهده كأنه دخل في أرض نجد .

وتمثلوا بشَمَامِ في طول الصُّحْبَة فقالوا : «أطولُ صُحْبَةً من ابْنَيْ شَمَامِ»[1] ، لأن شَمَامِ كان له رأسان يسميان ابْنَيْ شَمَام : ويذكر العلماء أن هذا المثل مأخوذ من قول لَبِيد :[2]

وكلُّ أخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ
لعمرُ أبيكَ إلَّا ابْنَيْ شَمَامِ

وتمثلوا بيَسُومَ في النية والضمير ، فقال أحدهم : «اللهُ أعلمُ مَنْ حَطَّها من رأس يَسُوم»[3] وأصل هذا المثل أن رجلاً نذر شاة يذبحها ، ويتصدق بلحمها ، فمر بيَسُومَ فرأى فيه راعياً ، فقال له : أتبيعني شاة من غنمك ؟ قال : نعم ، ثم أنزل شاة فاشتراها منه ، وطلب إليه أن يذبحها عنه ، ثم وَلَّى ، فذبحها الراعي عن نفسه ، فلما بلغه ذلك قال المثل .

تمثلهم بالأودية والسهول والرمال : تدل الأمثال العربية على أنه كان يوجد ببلاد العرب ، إلى جانب الجبال والهضاب والحُزُون ، أراض سهلة منبسطة ، وأودية وقفار ورمال . وقد تمثل العرب ببعض هذه المعالم ، وتفيد أمثالهم فيها أن بعضها كان خالياً من النبات

---

(١) شمام : جبل بالعالية لباهلة .

(٢) ديوانه : ٢٠٨ ، واللسان (شمم) .

(٣) يسوم : جبل في بلاد هذيل .

والحياة ، وأن بعضها الآخر شهد بعض الحوادث التاريخية ، كما تفيد ما كانوا يزعمون من أن الجن تسكن بعض رمالهم وقِفَارهم .

كان هنالك سَهْل قريب من الطائف ، لَيِّن مستوٍ ، لا خَمَر فيه يُتوارى به ، يسمى « جِلْذَان» فضربوا به المثل في السهولة والأمر الواضح الذي لا يخفى على أحد ، وقالوا : « أسهلُ من جِلْذَان» و « قد صَرَّحَتْ بِجِلْذَانِ» .

وبين بَالِس وَحَلَب بَرِّيَّة قفرة ، خالية من الناس والزرع ، تسمى «خُسَاف» ضربوا بها المثل لكل مكان لا خير فيه ، فقالوا : «أقفرُ من بَرِّيَّة خُسَاف» .

وكان « أَبْرَقُ العَزَّاف» رملة لبني سعد ، عن يسار طريق الكوفة[1] . وكان العرب يزعمون أن الجن تسكن هذه الرملة ، وأنهم يسمعون عزيفهم ، أي صوتهم ، إذا ساروا فيها ، وأنه إنما سُمِّي العزَّاف اشتقاقاً من هذا الصوت[2] . ولهذا تمثلوا به في الخلوِّ من الخير والناس والزرع ، وقالوا : «أقفرُ من أَبْرَقِ العَزَّاف» والشعر العربي يؤيد هذا المثل ، ويؤيد نظرة العرب إلى هذا المكان ، فقد ورد فيه ما يدل على أنهم كانوا يخشون عبوره ، وذلك حيث يقول حسان بن ثابت[3] :

طَوَى أَبْرَقَ العَزَّافِ يَرْعُدُ مَتْنُهُ
حَنِينَ المَتَالِي فوقَ ظَهْرِ المُشَايِعِ

---

(١) اللسان (عزف) ومعجم البلدان (أبرق العزاف) .

(٢) اللسان (عزف) .

(٣) ديوانه ١ / ٢٥٤ ، ومعجم البلدان (أبرق العزاف) .

كما ورد فيه ما يدل على أنه كان قفراً جَدِيباً ، خالياً من الناس والزرع ، وذلك في قول رجل يهجو بني سعد بن قُتَيْبَة الباهلي [١] :

قَـرَنُـوا الـغَـدَاءَ إلى الـعَـشَـاءِ وقَـرَّبُـوا
زاداً لَـعَـمْـرُ أبـيـك لـيس بِـكَـافِ
وكـأنَّـنِـي لَـمَّـا حَـطَطْتُ إلـيـهـمُ
رَحْـلِـي نـزلـتُ بـأَبْـرَقِ الـعَـزَّافِ

و « جَوْف حِمَار» : كان وادياً بالأحقاف، ذا ماء وشجر ، يزعمون أنه كان يحله رجل من بقايا عاد ، يقال له « حِمَارُ بن مُوَيْلع» خرج بنوه يتصيدون ، فأصابتهم صاعقة أهلكتهم جميعاً ، فكفر الرجل بالله كفراً عظيماً ، وقال : لا أعبد رَبّاً فعل هذا ببَنِيَّ ، ثم دعا الناس إلى الكفر ، فمن عصاه قتله ، فانتقم الله منه ، وأرسل عليه ناراً من أسفل الجوف ، أحرقته بمن فيه ، وغاض ماؤه ، وصار ملعباً للجن ، لا يتجرأ أحد على سلوكه [٢] . هكذا قال العلماء ، ومهما يكن من شيء ، فإن العرب قد ضربوا بهذا الوادي الأمثال في الخلاء والخراب ، فقالوا : « أَخْلَى من جوف حِمَار » و « أخربُ من جوف حِمَار» ، و « وادٍ كجوف الحِمَار» كما ضربوا بالرجل المثل في الكفر فقالوا : « أكفرُ من حمار» وقد تمثل الشعراء أيضاً بهذا الوادي فقال أحدهم [٣] :

وبِـشُـؤْمِ الـبَـغْـيِ والـغَـشْـمِ قَـدِيـمـاً
مـا خَـلاَ جَـوْفٌ ولـم يَـبْـقَ حِـمَـارُ

وقال امرؤ القيس [٤] :

---

(١) معجم البلدان (أبرق العزاف) ضمن خمسة أبيات .

(٢) اللسان (جوف) والدرة الفاخرة ١٨١/١ .

(٣) اللسان والتاج (حمر) ومعجم البلدان (جوف) .

(٤) ملحق ديوانه ٣٧٢ ، واللسان والتاج (جوف) .

ووَادٍ كَجَوْفِ العَيْرِ قَفرٍ قَطَعْتُهُ
بهِ الذئبُ يَعْوي كالخَلِيعِ المُعَيَّلِ

أراد « كجوف الحمار» فلما لم يستقم له الوزن وضع العَيْر موضعه ، لأنه في معناه ، ولأنه في الشعر أخفُّ وأسهل مخرجاً[1] . وعلى هذا يفسر قولهم في المثلين الآخرين : « أَخْلَى من جَوْف العَيْر» و « وادٍ كجوف العَيْر» على أن من العلماء من يرى أن « حمار» في هذه الأمثال ليس اسم رجل ، بل هو الحمار بعينه ، وأن معنى قولهم : « أَخْلَى من جوف الحمار» أن الحمار إذا صيد لم يُنتفع بشيء من جوفه ، بل يُرمى به ولا يؤكل[2] . ويرجِّح الرأيَ الأولَ عندي قولهم : « أخربُ من جوف حمار» ، لأن جوف البهيمة لا يوصف بالخراب ، وإن كان يمكن أن يوصف بالخلوِّ من الفائدة ، كما يرجحه قولهم : « أكفرُ من حمار» لأن البهيمة لا توصف بالكفر ، وأخيراً فإن البيت الذي يقول :

وبِشُؤمِ البَغْيِ والغَشْمِ قَدِيماً
ما خَلاَ جَوْفٌ ولم يَبْقَ حِمَارُ

يلخص القصة التي ساقها العلماء في أصل المثل .

و « قَضِيبٌ» وادٍ باليمن ، كانت تَحُلُّه قبيلة مراد ، وفيه قَتلت هذه القبيلة عمرو بن أُمَامة . وكانت زوجته قد قالت له لما ثارت عليه مراد ، وهو لا يشعر بهم : « سَالَ قَضِيبٌ بماءٍ أو حَدِيد» فذهبت كلمتها مثلاً في إظلال الشر وإقباله[3] .

---

(١) الدرة الفاخرة ١/١٨٢ .
(٢) الدر الفاخرة ١/١٨١ .
(٣) انظر أصل المثل في كتب الأمثال .

و « شَـرْج» مـاء لبني عبس بنجـد ، أو وادٍ بـه بئـر . وعنـده قـال لُقَيْم بن لُقْمان العادي يخاطب أباه : «أَشْبَهَ شَرْجٌ شَرْجاً لـو أنَّ أُسَيْمِراً» في حـادث مشهور فصَّلتـه كتب الأمثال . ويضرب في التشابـه من غيـر القرابات .

تمثّلهم بالمياه والمـراعي : تتصل الميـاه والمراعي بحيـاة العرب في الجـاهلية اتصـالاً وثيقاً ، لأن المـاء مادة الحيـاة للإنسـان والحيـوان والنبات ، وهو أجل خطراً ، وأبعـد أثراً في حيـاة أمة كـالأمة العـربية ، كـانت تتعـرض بـلادهـا كثيـراً لفتـرات من الجـدب بسبب قلة المـطر ونـدرته . أمـا المراعي فعليهـا كانت تعيش مـاشيتهم ، ولا سيما الإبـل التي كانت أعزّ ما يملكون آنذاك .

وطبيعي أن يكون بالجزيرة العربية كثير من عيون المـاء والحياض والآبار التي تكفي حاجة أهلها إلى الماء ، ولكن أمثالهم لم تشر إلا إلى أربعة منها فحسب ، هي صَدَّاء ، وأُضَاخ ، وشُبَيْث ، والأَحَصّ .

أمـا « صَدَّاء » فـربمـا كـان أعذب ميـاههم قاطبـة ، والمثل الـذي ضربوه بمياهه يشهد لذلك ، فهم يقولون للرجلين يكون لهمـا فضل إلا أن أحدهما يمتاز على صاحبه فيه : « ماءٌ ولا كَصَدَّاءَ »[1]. ويتردد اسم هـذا الماء كثيـراً في الشعر في معـرض الحـديث عن عـذوبـة الميـاه ، وتفضيل بعضها على بعض ، واستخدام ذلك في التفاضل بين المعـاني الإنسانية المختلفة ، من ذلك قول ضِرَار بن عُتْبة السَّعدي[2] :

وإنّـي وتَـهْـيَـامِـي بـزيـنـبَ كـالّـذِي
يحـاولُ من أَحْـوَاضِ صَـدَّاءَ مَشْـرَبـا

(١) اللسان (صدا) ومعجم البلدان (صداء) .

(٢) فصل المقال ١٦٩ ، وسمط اللآلى ٣٦٤ .

وقول الآخر[1] :

وإنّـي وهِجْـرَانِـي عَـوَادَةَ بَـعْـدَ مَـا
تَـشَـعَّـبَ أهـواءَ الـفـؤادِ الـمُـشَـاعِـبُ

كـصَـاحِـبِ صَـدَّاءَ الَّـذِي لـيس رَائِـيـاً
كـصَـدَّاءَ مَـاءً ذَاقَـهُ الـدهـرَ شَـارِبُ

وأما « أُضَاخ » فكان منهلاً من المناهل التي يردونها ، وكانوا يضربونه مثلاً للرجل المَغْشِيِّ الكثير الخير ، فيقولون : « إنَّ أُضَاخاً منهلٌ مَوْرُود » وقد ورد في شعر امرىء القيس ما يدل على أن هذا الموضع كانت تهطل عليه الأمطار بغزارة ، وذلك حيث يقول[2] :

فَـلَـمَّـا أَنْ دَنَـا لِـقَـفَـا أُضَـاخٍ
وَهَـتْ أعـجـازُ رَيِّـقِـهِ فَـحَـارَا

وكان « شُبَيْثُ والأَحَصُّ » ماءين متجاورين ، وعندهما طعن جَسَّاس بن مُرَّة كُلَيب بن وائل ، فقال كليب لجساس ، وهو يجود بروحه : اسقني ، فقال له جَسَّاس : « تجاوزتَ الأَحَصَّ وشُبَيْثاً » ، يريد أن يقول : إنك قد تباعدت عن موضع سقياك ، ويضرب هذا المثل لطالب الشيء بعد فواته .

وقد رَدَّد الشعر العربي هذا الحادث وهذا المثل ، فقال النابغة الجَعْدي[3] :

كُـلَـيْـبُ لَـعَـمْـرِي كـان أكـثـر نَـاصِـراً
وأَيْـسَـرَ جُـرْمـاً منـك ضُـرِّجَ بـالـدَّمِ

---

(١) فصل المقال ١٦٩ ، وسمط اللآلى ٣٦٤ .

(٢) ديوانه ١٤٩ ، واللسان (أضخ) .

(٣) ضمن ستة أبيات في معجم البلدان (الأحص) والثاني والثالث في اللسان (حصص) .

فقال لِجَسَّاسٍ أَغِثْنِي بِشَرْبَةٍ
تَمُنُّ بها فَضْلاً عَلَيَّ وأَنْعِمِ
فقال تجاوزتَ الأحصَّ ومَاءَهُ
وبَطْنَ شُبَيْثٍ وهو ذُو مُتَرَسَّمِ

أما المراعي فعلى الرغم من كثرتها عندهم لم تسر أمثالهم إلا بواحد منها ، هو « أَجَلَى » . ويضربونه مثلاً في جودة الشيء وتفوقه على غيره ويقولون : « أَرِهَا أَجَلَى أَنَّى شِئْتَ » ، وهو من كلام حُنَيف الحَناتم ، وكان من آبلِ العرب ، حين سئل : أَيُّ البلاد خيرٌ وأفضلُ مَرْعىً وأَسْمَن ؟ فقال : خياشيمُ الحَزْن والصِّمّان[١] ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : « أَرِهَا أَجَلَى أَنَّى شِئْت » أي متى شئت بعد هذا[٢] .

تمثلهم بالمواضع : اشتملت الأمثال العربية على أسماء عدة مواضع ، كان بعضهاحصوناً ، وبعضها مآسد ، وبعضها طرقاً وثَنِيَّات ، وبعضها شهد بعض الأحداث . وقد تمثل العرب بالصفات التي كانت تتميز بها هذه المواضع، مستخدمين لها في التعبير عن كثير من المعاني التي يريدون .

كان « مَاردٌ والأَبْلَق » حصنين منيعين ، وكان الأول بدُومة الجَندل ، والثاني بأرض تَيْماء ، للسموأل بن عادياء الشاعر اليهودي ، ويذكرون أن الزبَّاء غزتهما فامتنعا عليها فقالت : « تَمَرَّدَ ماردٌ وعَزَّ الأَبْلَقُ » . ويبدو من الشعر العربي أن أول مَن بنى الأبلق عادياءُ أبو السموأل ، لأن السموأل يقول عنه[٣] :

---

(١) الحزن والصمان : ما غلظ من الأرض . والخياشيم : الأنوف .
(٢) الدرة الفاخرة ١/٧١ .
(٣) ديوانه ١٦ ، والمحاسن والأضداد ٧٢ .

بَنَى لِيَ عَادِيَا حِصْناً حَصِيناً   وماءً كُلَّما شِئْتُ اسْتَقَيْتُ
رفيعاً تَزْلَقُ العِقْبَانُ عَنْهُ   إذا ما نَابَنِي ضَيْمٌ أَبَيْتُ
وأَوْصَى عَادِيَا قِدْماً بأَنْ لا   تُهَدِّمْ يا سَمَوْأَلُ ما بَنَيْتُ

وهذا الشعر يدل على أن الأبلق كان حصناً رفيعاً سامقاً منيعاً ، ومن ثَمَّ عَزَّ على الزباء أن تستولي عليه ، كما يدل على ذلك شعر آخر للسموأل يقول فيه[1] :

لنا جبلٌ يَحْتَلُّه مَنْ نُجِيرُه   منيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وهو كَلِيلُ
رَسَا أصلُه تحتَ الثَّرَى وسَمَا بِه   إلى النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنَالُ طَوِيلُ
هو الأبلقُ الفَرْدُ الذي سَار ذِكْرُهُ   يَعِزُّ على مَنْ رَامَه ويَطُولُ

وكانت « تَرْج وخَفَّان وعِفِرِّين » مآسد ، تشتهر أُسُودها بالجرأة والشجاعة ، وتضرب الأمثال بها في هذا الخلق ، فكانوا يقولون : « أجرأُ من المَاشِي بِتَرْج » و « أجرأُ من ليثٍ بخَفَّان » و « أشجعُ من ليثِ عِفِرِّين » .

أما « تَرْج » فهي واد إلى جنب تَبَالة ، أو قرية بين مكة واليمن ، أو موضع بناحية الغَوْر ، ومهما يكن من شيء فقد كانت مَأْسَدة من مآسدهم ، يخشون اجتيازها ، ويَعُدُّون من يمشي بها جريئاً ، كما يفيد المثل ، وكما يشير إليه قول أبي ذُؤَيب الهُذَلي[2] :

---

(١) معجم البلدان (الأبلق) .
(٢) ديوان الهذليين ١/٩٧ ، واللسان (ترج) .

كَأَنَّ مُحَرَّباً من أُسْدِ تَرْجٍ
يُنَازِلُهم لِنَابَيْهِ قَبِيبُ

وأما « خَفَّان » فكانت من مآسدهم أيضاً . وقد تمثَّل الشعراء بأسودها كما تمثَّل الناس ، فقالت ليلى الأخيلية[1] :

وتَوْبَةُ أَحْيَا من فتاةٍ حَيِيَّةٍ
وأجرأ من ليثٍ بخَفَّانَ خَادِرِ

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرَة يَرْثي أخاه مالكاً[2] :

وأجرأ من ليثٍ بخَفَّان مُخْدِرٍ
وأفضلُ إنْ عَيَّ الرجالُ كلامَا

وقال الأعشى :

وَما مُخْدِرٌ وَرْدٌ عليه مَهَابَةٌ
أَبُو أَشْبُلٍ أَضْحَى بخَفَّانَ خَادِرَا

وكانت « عِفِرِّين » مأسدةً أو بلداً .

وكان « طريق العُنْصُلَيْن » بين اليمامة والبصرة ، طريقاً محفوفاً بالمخاطر ، قُتل مِمَّن سلكه كثير ، فضرب العرب سلوكه مثلاً لمن يجيء بالباطل فقالوا : « سَلَكَ طريقَ العُنْصُلَيْن » وضربوه كذلك مثلاً لكل من يَضِل فقالوا : « أَخَذ في طريق العُنْصُلَيْن » .

و « هَرْشَى » كانت ثَنِيَّة في طريق مكة ، قريبة من الجُحْفة ، ولها طريقان يؤديان إليها ، فمن سلك إليها أحدَهما وصل إليها ، ولذا ضربها العرب مثلاً للأمر يسهل من وجهين ، فقالوا : « كِلَا جَانِبَيْ

---

(١) من قصيدة لها في الأغاني : ١/٢٢٥ ، والشعر والشعراء ٤١٩ .
(٢) المستقصى ١/٤٨ .

هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ » وقد يكون المثل مأخوذاً من قول الشاعر[1] :

خُـذَا أَنْـفَ هَـرْشَى أو قَـفَـاهـا فـإِنَّـهُ
كِـلَا جَـانِـبَـيْ هَـرْشَـى لَـهُـنَّ طَـرِيـقُ

و« بَقَّة » موضع بالعراق ، قريب من الحِيرة ، نزله جَذِيمة الأبرش في مَسيرته المشهورة إلى الزبَّاء ، وفيه استشار رجاله في الذهاب إليها ، فوافقوا عليه ما عدا قَصِير بن سعد اللَّخمي مولاه . وسار جذيمة بالرجال حتى انتهى إلى بلاد الزباء ، وهنالك تبين له خطأ رأيه ، فقال لقصير : ما الرأي ؟ فقال له : « بِبَقَّةَ تركتُ الرأيَ » ، أو « بَبقَّةَ صُرِم الأمر » ، أو « خَلَّفْتُ الرأيَ ببَقَّة » ، فذهبت كلمته مثلاً للمكروه سبق به القضاء وليس لدفعه حيلة .

وكانت « رَامَة » هضبة أو موضعاً بالبادية قفراً ، لا نبات فيه ، اجتازته امرأة وزوجها ، فطلبت منه ، وهما يجتازانه ، أن يحضر لها نَبْتاً من البقول يسمى « سَلْجَماً » وإذ كان المكان قفراً تَعَجَّب الرجل من طلبها هذا ، وقال : « تَسْأَلُني بِرامَتَيْنِ سَلْجَماً » فذهبت كلمته مثلاً لكل من يطلب حاجة عسرة .

وكانت « شَعْفان » أكمتَيْن في غَوْر تِهَامة ، جاء ذكرهما كثيراً في شعر اللصوص ، وحدث أن وَجد عروة بن الورد زعيم الصعاليك عندهما جارية صغيرة ، فأتى بها أهله ورَبَّاها حتى كبرت وسمنت ، ثم رآها يوماً وهي تلاعب أترابها ، وتمشي على أربع وتقول : « احْلُبوني فإني خَلِفَة »[2] فقال لها عروة : « لَكِنْ بِشَعْفَيْنِ أنتِ جَدُودُ »[3] فذهبت

---

(١) معجم البلدان ، ومعجم ما استعجم (هرشى) واللسان (هرش) .

(٢) الخلفة : الناقة الحامل .

(٣) الجدود : النعجة التي قلّ لبنها من غير بأس . وجمعه : جدائد .

كلمته مثلاً لكل من كانت حاله سيئة ثم حسنت .

و « وَبَارِ » أرض كانت لعاد بالأحقاف ، فلما هلكت عاد أورثها الله الجنَّ ، فصارت لا يقترب منها أحد . والعرب يضربون بها المثل للإنسان الذي يُترك بمكان قفر ، بحيث لا يُدْرَى أين هو ، فيقولون : « تركتُه بعَيْنِ وَبَارِ » .

و « اليمامة » صُقْع شرقي الحجاز ، ويزعمون أن جارية كانت بها تسمى « زَرْقاء اليمامة » كانت تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام ، ولذلك ضربوا بها الأمثال في قوة الإبصار فقالوا : « أبصرُ من زَرْقاء اليمامة » و « أبصرُ من الزرقاء » .

تمثّلهم بالبلاد : من دراسة الأمثال التي اشتملت على أسماء البلاد وجدنا أن العرب إنما تمثلوا بها لأنها كانت تمتاز على غيرها بصفات ، خَوَّلت لهم أن يتخذوا منها نسيجاً ينسجون منه طائفة من أمثالهم للتعبير عن بعض المعاني التي يقصدون إليها .

كانت هنالك بلاد تمتاز بوفرة نوع من المحصولات الزراعية وجودته ، وأخرى وقعت بها أحداث جسام غَيَّرت مجرى تاريخ أهلها ، وأخرى كانت ترتبط ببعض معتقداتهم وتقاليدهم ، وأخرى اشتهرت ببعض الأعلام ، وهكذا . ولذلك حُقَّ لهم أن يتمثَّلوا بها لشهرتها عندهم جميعاً بهذه الصفات ، وفيما يلي تفصيل لذلك كله .

البصرة : من مدن العراق المشهورة ، وتشتهر بكثرة النخيل والتمر ، ورُعونة الهواء وتقلب الجو ، ويضرب العرب المثل في الرخص بتمرها فيقولون : « أرخصُ من التَّمْر بالبصرة » ، كما يضربون المثل في الرعونة والطيش بهوائها فيقولون : « أَرْعَنُ من هواء

البصـرة »[1] ، أما كثـرة نخيلهـا وتمـرهـا فقـد قـال فيهمـا الأصمعي : « سمعت الرشيد يقول : نظرنا فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة »[2] .

وأما رعونة هوائها واضطرابـه وسرعـة تغيّره فيقـول فيه الجـاحظ : « من عيـوب البصرة اختـلاف هـوائهـا في يـوم واحـد ، لأنهم يلبسـون القُمُص مرة ، والمُبَطَّنات مرة ، لاختـلاف جواهـر الساعـات ، ولذلـك سميت الرعناء ، قال الفرزدق[3] :

لَـوْلَا أَبُـو مـالِـك الـمَـرْجُـوُّ نَـائِـلُهُ
مـا كـانت البصـرةُ الـرَّعْنـاءُ لي وَطَنـا

تبـالـة : بلدة صغيـرة من بلدان اليمن ، تشتهـر بـالخصب ، وبصغرها وضآلتها وخصبها تمثَّلَ العـرب ، إذ يقول مثـل لهم : « أهونُ من تَبَالة على الحَجّاج » ذلك أن تبالة كانت أولَ ولاية يليها الحجّاج من قبل عبد الملك بن مروان ، فلما سار إليها وقرب منها قال للدليل : أين هي ؟ فقال : قد سترتها عنك هذه الأكمة ، فقال الحجاج : أَهْوِنْ عَلَيَّ بعمل بلدة تسترهـا عني أكمة ، ورجـع من مكانـه ولم يدخلهـا ، فتمثل الناس بهذا الحادث .

ويقول مثل آخـر في خصوبتهـا وكثرة خيـراتها : « مـا حَلَلْتَ بَطْنَ تَبـالَة لِتَحْـرِمَ الأضياف » ويضـرب المثل لمن عـوَّد الناس إحسـانه ، ثم يـريد أن يقـطعه عنهم ، ذلـك أن تبالـة لا تخلو من الخصب والخيـر ، والنازل بها لا يصح له أن يحرم الضيوف مُعْتَلاًّ بالجدب وعدم القِـرَى .

---

(١) الرعونة : الحمق .

(٢) معجم البلدان (البصرة) .

(٣) اللسان (البصرة) .

وقد تمثل بها لبيد شعراً فقال[1] :

فَـالضَّيْفُ والجـارُ الجَنِيبُ كَـأَنَّمَـا   هَبَـطَا تَبَـالـةَ مُخْصِباً أَهْضَـامُهـا

الحرم : مكة المكرمة ومـا يحيط بها إلى حـدود معلومة ، وسمي حرماً لأنه يحرم صيده وقطع شجـره ، ومن ثم فالصيـد آمن به ، لا يُثـار ولا يُطارد ، حتى إن العرب قد ضربوا به المثل في الأمن فقالوا : « آمنُ من ظَبْيٍ بالحَرَم » وقد أشار إلى ذلك النابغة الذبياني فقال[2] :

لَا وَالَّـذِي أَمَّـن الـغِـزْلَانَ يَـمْـسَـحُـهـا
رُكْـبَـانُ مـكـةَ بَـيْـنَ الـغِـيـلِ والـسَّـنَـدِ

حُلْوان : قرية بـالعراق ، كـان بها نخلتـان من غرس الأكـاسرة ، قدم تجاورهما ، وطال اصطحابهما ، حتى ضُرب بهما المثل في طـول الصُّحْبة فقالوا : « أطولُ صُحْبَـةً من نَخْلَتَيْ حُلوان » وقد تمثـل الشعراء كثيراً بهاتين النخلتين وطول صحبتهما[3] .

حِمْص : بلدة من بـلاد الشام ، بين دمشق وحلب ، كـان أهلهـا من اليمن مـا عدا بيتـاً واحداً كـان من قيس ، ولذا كـان القيسيون أذلاءَ فيها ، فقال العرب « أذلُّ من قَيْسِيٍّ بحمص » .

خَيْبَر : قرية تبعد عن المدينة المنورة ستة وتسعين ميلاً لمن يريـد الشام ، وكان بهـا حصون ومـزارع ونخل كـثيـر ، فقال العـرب متمثلين بكثرة تمرها: « كَمُسْتَبْضِعٍ تمراً إلى أهل خَيْبَر » .

سَابَاط : من مـدن الفرس ، ويقـال : إنه كـانَ بها حَجَّـام ملازم

---

(١) من معلقته ، وهو في اللسان (تبل) .

(٢) من داليته المشهورة ، شرح القصائد العشر للتبريزي ٤٠٦ .

(٣) انظر : الأغاني ١٣ ، ٣٣٤ ، ومعجم البلدان (حلوان) والدرة الفاخرة ١ /٢٨٨ .

لهـا ، ضَرب بـه العرب المثـل للفراغ في قـولهم : « أفـرغُ من حَجَّـام سَابَاط » وله حديث يفسر هذا الفراغ ذكرته كتب الأمثال[1] .

سَبَأ : إحدى ممالك خمس كانت قديمـاً في اليمن ، وبلغت أوجَ قوتها في القرون السابقة للميلاد، وكانت عاصمتها مَأْرِب ، وقصةُ سدِّها وخرابه مشهورة ، وكان هـذا الخراب سبباً في تفرق أهلهـا في البلاد ، وتمـزقهم في الأرض ، ومن ثم ضرب العـرب بهم الأمثـال في التفـرق الذي لا اجتماع معه ، فقالـوا : « تَفَرَّقُـوا أَيْدِي سَبَـا » أو « أَيادِي سَبَـا » و « ذهبوا أَيْدِي سَبَا » ، وكما تمثل بهم العرب نثـراً تمثلوا شعراً ، فقـال كثير عزة[2] :

أَيَـادِي سَبَـا يـا عَـزَّ مـا كنتُ بَعْـدَكُمْ
فـلم يَـحْـلَ لـلعَـيْـنَـيْـنِ بـعـدكِ مَـنْـزِلُ

وقال ذو الرمة[3] :

أَمِـنْ أَجْـلِ دارٍ صَـيَّـر الـبَـيْـنُ أَهْـلَهـا
أَيَـادِي سَبَـا بَـعْـدِي وطَـالَ احْـتِـمَـالُـهـا !

سَدُوم : من مدن قوم لوط ، ويقال : إنه كان بها قـاض غايـة في الظلم والجور ، فتمثل العرب به في هذا الخلق ، وقالوا : « أَجْـوَرُ من قَاضِي سَدُوم » .

السِّنْد : من بلاد الهند ، واشتهرت عند العرب بكـذب أَسْراهـا ، ذلك أن الأسير الخسيس منهم كان يؤخذ فيزعم للناس أنه ابن الملك ،

---

(١) انظر : الدرة الفاخرة ١/٣٣١ ، والمستقصى ١/٢٧٠ ، واللسان (سبط) .
(٢) اللسان (سبأ) .
(٣) ديوانه ١/٥٠١ .

فتمثل العرب بهؤلاء الأسرى في الكذب ، وقالوا : « أكذبُ من أسِير السِّنْد » .

ظَفَارِ : مدينة باليمن ، كان يسكنها ملوك حمير قديماً ، وحدث أن أعرابياً وقف بين يدي ملك من ملوكها ، فقال له الملك : ثِبْ ، أي « اقْعُد » بالحِمْيَرية ، فظن الأعرابي أنه يأمره بالوثوب ، فقفز ، وكان على مرتفع من الأرض ، فسقط ميتاً ، فقال الملك عندئذ : « مَنْ دَخَلَ ظَفَارِ حَمَّر »[1] ، فذهبت كلمته مثلاً في الرجل يحل بقوم ، وعليه أن يجاريهم في مظاهر حياتهم .

مكة : معروفة ، ويضرب بحمامها المثل في الأمن ، لأنه لا يُثار ، فيقال : « آمنُ من حمام مَكَّة » وقال كثير عزة متمثلاً به[2] :

يَأْمَنُ الظَّبْيُ والحمامُ ولا يَأْمَنُ آلُ الرسولِ عند المَقَامِ

وكذلك قال عُقْبة الأسدي[3] :

مَا زَالَ مُذْحِجٍ بمَكَّةَ مُلْحِداً في حَيْثُ يَأْمَنُ طائرٌ وحَمَامُ

هَجَر : قَصَبة بالبحرين ، وتشتهر بوفرة التمر وجودته ، ولذلك قالوا متمثلين به : «كَجَالِب التَّمْر إلى هَجَر » ، و « كَمُسْتَبْضِعِ التمرِ إلى هَجَر »، و « سِطِي مَجَرّ تُرْطِبْ هَجَر » .

واسط : مدينة بين البصرة والكوفة ، يضرب بأهلها المثل في التغافل فيقال : « تَغَافَلْ كَأنكَ وَاسِطِيٌّ » ، و « تَغَافُلَ وَاسِطِيٍّ » وأصلهما أن الحجاج بن يوسف كان يُسَخِّر أهلها في البناء ، فيهربون وينامون وسط الغرباء في المسجد ، فيجيء الشرطي فيقول : يا واسطي ، فمن رفع رأسه أخذه وحمله ، فلذلك كانوا يتغافلون .

---

(١) حمر : تكلم بالحميرية . (٢) المستقصى ١/ ٩ . (٣) نفسه ١/ ٩ .

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة الأمثال العربية من جميع جوانبها ، سواء في ذلك ما يتعلق بمصنفاتها وأطوارها التاريخية ، وما يتعلق بأسلوبها من الناحيتين اللغوية والأدبية ، وما يتعلق بدلالتها على حياة العرب في الجاهلية ، ومظاهرها المختلفة ، وبذلك تكون أول دراسة تستوعب هذه الأمثال ، تأريخاً وتحليلاً .

وقد مهدت لها بفقرة مُسْهَبَة ، حَدَّدت فيها معنى كل من المثل ، وضربه ، ومضربه ، ومورده ، ومعنى كل من الحكمة ، وأقوال العرب وكلماتهم السائرة ، وميّزت بين هذه المصطلحات ، وذكرت الفروق بينها ، وأزلتُ ما قد داخلها من لبس وغموض وخلط . ثم ختمت التمهيد بذكر أنواع المثل العربي ، وسياقة أمثلة كافية لكل منها .

ثم كانت الدراسة التاريخية للأمثال موضوع الباب الأول ، إذ تعقّبت في الفصل الأول منه حركة تدوين الأمثال حتى وصلت إلى البذور الأولى لهذا التدوين ، ثم سايرته بعد ذلك تاريخياً إلى أوائل القرن السادس الهجري ، حيث انتهى التدوين الحقيقي للأمثال العربية بكتاب « مستقصى الأمثال» للزمخشري .

وبلغت عدة الكتب التي درستها في هذا الفصل واحداً وأربعين ،

ما بين مطبوع ومخطوط ، وما بين باق ومفقود . أما الباقي من مطبوع ومخطوط فقد كنت قرأته في أثناء تحقيقي لكتابَيْ «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري ، و« الدرة الفاخرة» لحمزة الأصبهاني ، ثم عدت بالقراءة المتأنية عليه في أثناء إعداد هذه الدراسة ، وأقمت أحكامي عليه على هدى ما تبيّن لي من هذه القراءات . وأما المفقود فقد بنيت آرائي فيه على ما أمكنني العثور عليه من نصوص وأقوال ، احتفظت بها بعض كتب الأمثال واللغة والتراجم .

وصادفت ، وأنا أرجع إلى الدراسات المعاصرة للأمثال ، بعض الأوهام والأخطاء التي تتصل بهذه الكتب ، فناقشتها حتى صححتها ، وأثبت ما رأيت أنه الصواب .

وفي الفصل الثاني تناولت الأمثال نفسها ، فقسمتها من حيث أطوارها التاريخية قسمين هما : الأمثال القديمة ، والأمثال المولّدة ، وحررت المعنى المراد من هذين المصطلحين . وقسمت الأمثال القديمة قسمين : جاهلية وإسلامية ، واقترحت عدة معايير للفصل بينهما ، وسقت على كل معيار منها الأمثلة والشواهد التي تدعمه وتؤيده .

وكان الفصل بين هذين النوعين من الأمثال من الأمور التي يتحاشاها الباحثون المعاصرون ، لما يكتنفه من صعوبات ، وما يتخلله من مزالق ، ولكن طول معايشتي للأمثال وكتبها جعلني أجرأ على وضع هذه المعايير .

وعند حديثي عن الأمثال الإسلامية قسمتها ثلاثة أقسام هي : أمثال القرآن الكريم ، وأمثال النبي ﷺ ، وأمثال الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم .

وقد أوليتُ أمثالَ القرآن الكريم وأمثالَ الرسول العناية التي تستحقان ، فذكرت نماذج كثيرة منهما ، وتحدثت عن بلاغتهما وتفوقهما على أمثال أهل الجاهلية ، وقارنت بينهما ، كما أحصيت الكتب التي أفردتهما بالتأليف ، أو عقدت لهما فصولاً خاصة .

أما أمثال الصحابة والتابعين فقد تتبعتها في كتب الأمثال واللغة وغريب الحديث ، حتى جمعت طائفة كبيرة منها ، نسبتها إلى أصحابها ، ودللت على مواطنها من الكتب .

وفي دراستي للأمثال المولّدة سقت نماذج منها ، اتخذتها أساساً لبيان الخصائص التي تتميز بها عن الأمثال القديمة من ناحية الأسلوب ، ثم ذكرت المصنفات التي اهتمت بجمعها وتدوينها .

وكان بعض الدارسين المعاصرين قد رأى في الأمثال التي على وزن (أفعل من) رأياً لم أوافقه عليه ، إذ عَدَّها جميعاً من قبيل الأمثال المولّدة ، ومن ثم كان عَلَيَّ أن أثبت عراقة هذه الأمثال في العربية ، وأصالتها فيها . وقد نهضت بهذا ، وسقت على رأيي ما أمكن لي من أدلة وشواهد .

ثم تحدثت عن « أمثال العامة » فحررت المعنى المراد بكلمة (العامة) وذكرت نماذج من هذه الأمثال . ودللت على بعض الكتب التي دونتها . ثم ميزت بينها وبين الأمثال المولدة ، وفصلت بينهما فصلاً دقيقاً ، دعاني إليه أن بعض الدارسين المعاصرين خلط بينهما ، وعدَّهما نوعاً واحداً ، وهذا أمر يتجافى مع الحقيقة .

ثم كانت الدراستان اللغوية والأدبية لأسلوب المثل موضوع الباب الثاني ، إذ أفردت الفصل الأول منه للدراسة اللغوية ، وتناولت فيه

الحديث عن جمود القالب المثلي ، وعدم قبوله للتغير مهما اختلفت الحالات التي يضرب فيها ، ثم الحديث عن خروج الأمثال على القياس اللغوي ، وتحملها للضرورات كالشعر ، ثم تطرقت إلى تعدد الروايات في ألفاظ الأمثال ، وأسباب هذا التعدد .

وانتقلت إلى قضية الاستشهاد بالأمثال في اللغة والنحو ، وأثبت ، بالنسبة إلى الاستشهاد اللغوي ، أن المعاجم اللغوية كانت حريصة على أن تسوق الأمثال إلى جانب القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر القديم ، وأن الأمثال بذلك كانت سجلاً من سجلات اللغة ،ومصدراً من مصادرها الغنية بالمفردات والغريب ، ورأيت أنه ينبغي أن لا تُغفل هذه المعاجم لدى أية دراسة للأمثال ، لاشتمالها على أمثال لم ترد في مصنفات الأمثال الخاصة .

وأما بالنسبة إلى الاستشهاد النحوي فقد قرأت كتاب سيبويه ، والخصائص لابن جني ، ومغني اللبيب لابن هشام ، وشرح المفصل لابن يعيش ، واستخرجت منها كل الأمثال التي استشهد بها النحاة ، وبيَّنت موضع الشاهد في كل منها بعد أن فرقتها على أبواب النحو كما يذكرها النحاة .

وأخيراً درست ظاهرتَيْ الوضوح والغموض في معاني الأمثال ، وأسباب كل منهما ومثلت لكل سبب تمثيلاً كافياً شافياً .

وأفردت الفصل الثاني للدراسة الأدبية البلاغية ، إذ تناولت فيه مكانة المثل بين فنون الأدب ، والخصائص التي يمتاز بها عما سواه ، وبلاغة المثل وأسبابها ، وفصلت الكلام في كل من هذه الأسباب ، ودعمته بالشواهد وأقوال العلماء .

ثم تطرقت إلى وَفرة الأمثال العربية ، وتناسلها وتوالدها بمرور الأزمان ، وأثبت بالأدلة والشواهد أيضاً أن الشعر العربي أسهم بنصيب موفور في هذا التناسل والتوالد، إذ كان يتقارض الأمثال مع النثر ، فيأخذ الناس أمثالاً من الشعر ، ويقتبس الشعراء أمثالاً من النثر .

ثم درست قصص الأمثال والأخبار التي تتصل بها ، واتخذت منها دليلاً على أن اللغة العربية عرفت القصة منذ أقدم عصورها ، وبذلك ينهار الرأي القائل بأن هذه اللغة كانت خالية في عصورها الأولى من هذا الفن الأدبي . ومن ناحية أخرى أثبت أن هذه القصص والحكايات كانت لها أصولٌ قديمة واقعية ، من الأحداث والأشخاص ، قامت عليها ، وأنها ليست من تِلفيق الرواة والعلماء في عصور التدوين ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين المعاصرين ، وفي مقدمتهم المستشرقون .

وعُنيت كل العناية باستنباط حياة العرب في الجاهلية من أمثالهم ، وجهدت أشد الجهد في جمع الأمثال التي تدل عليها وتصنيفها ، واستخلاص مظاهر تلك الحياة منها ، وكان هذا موضوع الباب الثالث ، وهو « الدراسة الاجتماعية للأمثال» وأعتقد أن هذه الدراسة لم أسبق إليها .

ففي الفصل الأول ، من هذا الباب ، تكلمت عن أخلاق العرب في ذلك العصر ، وأنماط سلوكهم الفردي والاجتماعي ، وعلاقات بعضهم ببعض ، كما تصورها الأمثال . وعقدت فقرة طويلة لكل من الأخلاق الفردية والاجتماعية ، فتناولت عند دراستي للأخلاق الفردية : حفظ اللسان ، والصبر ، والقناعة ، والشجاعة والفروسية والفتك ، والعزة والمنعة . أما الأخلاق الاجتماعية فجعلتها ثلاثة أنواع :

العلاقات بين الناس بعامة ، والعلاقات بين الأقارب وذوي الرحم ، والعلاقات بين الإخوان والأصدقاء . ودرست كل هذه العلاقات ، وتناولت في هذه الدراسة : الجود والبخل ،والوفاء ، والغدر ، والحلم ، والصعلكة والصعاليك ، والظلم وصوره ، والدفاع عن الحريم ، وغيرها .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن العادات والمعتقدات الجاهلية التي أشارت إليها الأمثال ، سواء في ذلك ما كان صحيحاً وما كان خرافياً ، وما كان دينياً وغير ديني . وفصلت فيه القول عن كثير من هذه العادات والمعتقدات ، كوأد البنات ، والميسر ، والزجر والعيافة والطيرة ، والحج ، وتحريم أنواع من الحيوان ، والتداوي بدماء الملوك والأشراف .

أما الفصل الثالث فكان عن تمثل العرب بمظاهر بيئتهم الطبيعية ومحتوياتها، من حيوان ونبات وبقاع ، إذ عقدت لكل من هذه الأشياء فقرة مُسهبة ، حشدت فيها من الأمثال ما يؤكد براعة العرب في استخدام هذه المحتويات في منطقهم ، وتفوقهم في التقاط مناظر منها ، وخيوط نسجوا بها روائع التشبيهات والاستعارات والكنايات ، وأنشأوا شوارد الأمثال .

وعند حديثي عن تمثل العرب بالحيوان أثبت أن معظم أمثالهم كانت تضرب بالبهائم ، وأقمت على ذلك الأدلة من الأمثال وأقوال العلماء ، كما أثبت أن الإبل قد استأثرت بالنصيب الأوفى من أمثالهم ، لأنها كانت أعز أموالهم ، وكانت تملأ عليهم حياتهم ، وفصلت القول في تمثلهم بها في جميع أحوالها وصفاتها ، كما فصلت القول في تمثلهم بالذئب والضب ، حتى يتأكد صدق ما ذهبنا إليه ، من أن

العرب برعوا في التمثل بالحيوان ، وتفوقوا فيه على كل الأمم .

وبعد ، فإن في هذه الدراسة كثيراً من الجديد الذي أضيف إلى الدراسات الأدبية ، وإلى التراث العالمي ، والذي لا يخفى على من يقرؤها ، غير أني أريد أن أنوه هنا ببعض هذا الجديد .

أولاً : دأب الدارسون للأدب العربي القديم ، إذا أرادوا التعرف على حياة العرب في العصر الجاهلي ، على أن يفزعوا إلى الشعر وحده ، يلتمسون فيه مظاهر هذه الحياة ، غير مبالين بما عداه من النصوص والآثار الأدبية واللغوية . ولا ينكر أحد قيمة الشعر وفضله في هذا الأمر ، لأنه « ديوان العرب» كما سماه القدماء ، ولكن هذا ينبغي ألا يصرفنا عن التماس هذه الحياة أيضاً في النصوص والآثار الأخرى ، وفي مقدمتها القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والأمثال العربية القديمة .

وقد استطاعت هذه الدراسة أن تبرز الدور الكبير الذي قامت به الأمثال في تصوير هذه الحياة ، ورسم معالمها، ولا سيما الحياة الخلقية ، والحياة المعاشية .

ثانياً : لقد كان الفصل بين الأمثال الجاهلية والإسلامية من الأمور التي يتجنبها دائماً من يتعرض للأمثال العربية بالدراسة ، ولكني استطعت، نتيجة المعايشة الطويلة للأمثال ، أن أضع عدة معايير للتمييز بين هذين النوعين من الأمثال ، إلى حد كبير .

ثالثاً : في الأمثال العربية مجالات فسيحة للدراسات اللغوية والبلاغية ، بما يتوافر لها من خصائص أسلوبية ، لا توجد إلا فيها وفي الشعر القديم ، كالشذوذ عن القياس اللغوي ، وتحمل الضرورات ،

وتعدد الروايات والإيجاز الشديد ، والصور البيانية .

ولم يُولِ الباحثون المعاصرون هذه الخصائص ما تستحق من دراسة وعناية ، وجاءت هذه الدراسة لتفتح فيها أبواباً ، وتشق إليها سبلاً ، يمكن أن يسلكها من يريد أن يتعرف ، بصورة واسعة ، على خصائص العربية ، ومناهجها في التعبير والأداء البياني .

رابعاً : إن الأمة العربية أمة حكيمة ، أنجبت من الحكماء ، وأنشأت من الحكم والأمثال ما بَزَّت به سائر الأمم كثرة وجودة . وفي ثنايا هذه الرسالة ما يدعم هذه القضية ، وما يجعل هذا الأمر حقيقة ثابتة ، لا مبالغة فيها ولا مغالاة .

خامساً : لم يكن يخطر ببال كثير من الناس أن للشعر العربي علاقة بالأمثال ، ولكني أثبت أن هذا الشعر لعب دوراً كبيراً في وفرة الأمثال وتكاثرها ، وتوالدها على مر الأزمان والعصور ، وأنه كان يتفاعل دائماً مع النثر ، تفاعلاً نتجت عنه هذه الكثرة المفرطة من الأمثال العربية .

والحمد لله مفتتح كل نعمة ، وعاقبة كل خير ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه .

فهرس الموضوعات

الباب الثاني

الباب الثالث